

ف. تشويكوف
مَارشال الاتحاد السوفياتي

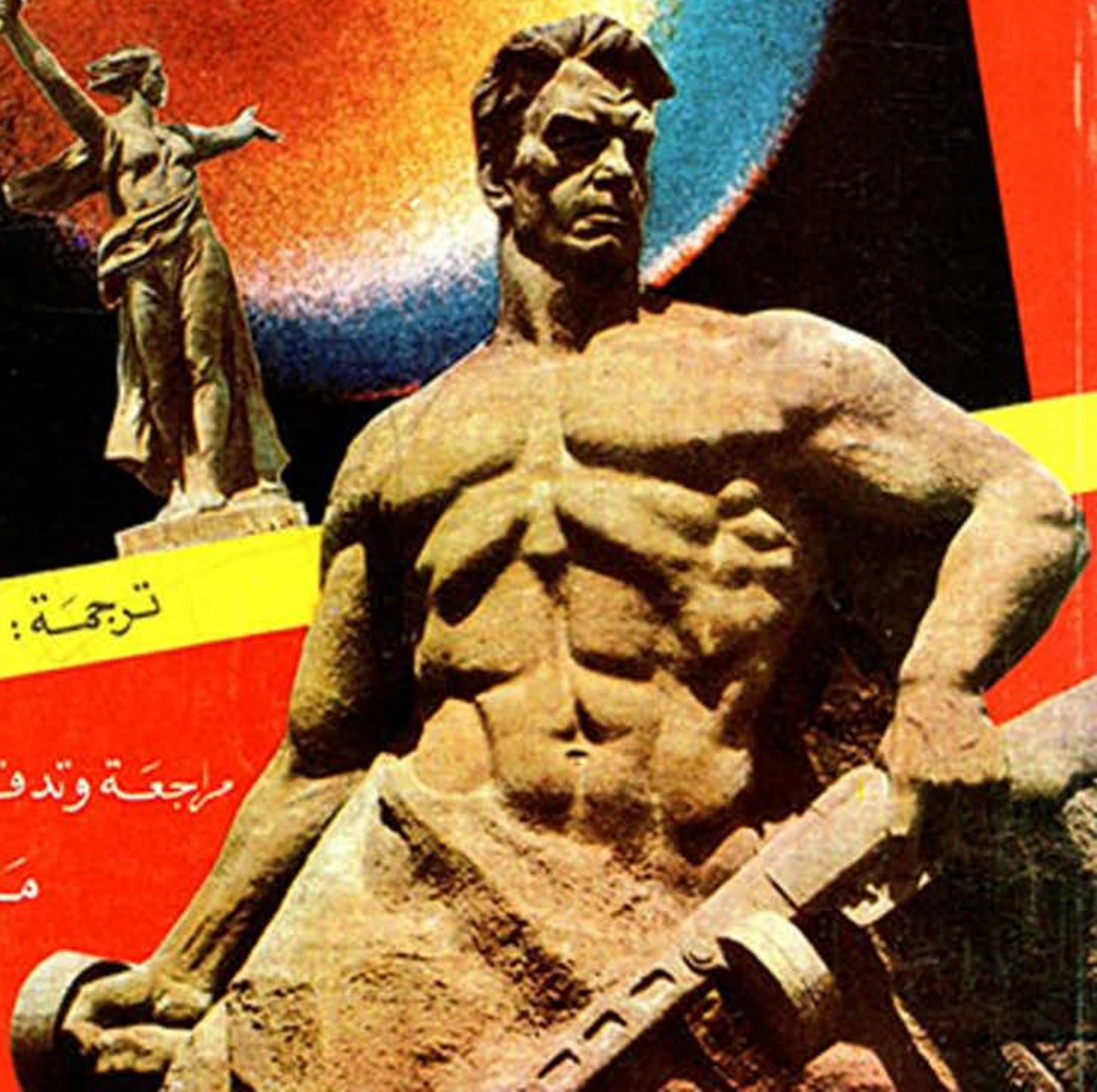
ستالينغراد

مَلْحَمَةُ الْعَصْرِ



ترجمة: محمد عدنان مراد

مراجعة وتدقيق الدكتور
مَاجِدُ علاء الدين



ستالينغراد

STALINGRAD

ملحمة العصر

LABATAILLE DU SIÈCLE

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٩٨٦ / ٤ / ٥٠٠٠

الناشر : الدكتور ماجد علام الدين

الاخراج : عبد الرحمن الناهلي

صمم الغلاف : جون العيا

طبع في مطابع الصباح - دمشق

ف. تشويكوف
مارشال الاتحاد السوفياتي

ستالينغراد مَلْحَمَةُ الْعَصْرِ

مراجعة وتدقيق الدكتور
مَاجِدُ عَلَاءُ الدِّينِ

ترجمة
مُحَمَّدُ عَزْهَانُ مَراد

ف . تشويكوف V . Tchouikov

مؤلف هذا الكتاب فاسلى إيفانوفيش تشوبكوف . ماريشال الاتحاد السوفييتي ، اشرك في الحرب الأهلية (١٩١٨-١٩٢٠) . والحرب الوطنية الكبرى ١٩٤١-١٩٤٥ . ولد في عائلة فلاحية في قرية *Serebrianyé* *proudy* (منطقة موسكو) . قاد الجيش ٦٢ الذي لعب دوراً مشرفاً في الدفاع البطولي عن ستالينغراد . وفي معركة الدنيبر . وعمليات تحرير أوكرانيا ، وبولونيا الغربية . وفي المعارك داخل المانيا واحتلال برلين . أصبح بعد الحرب القائد الأعلى للقوات السوفيتية في المانيا . ثم قائداً لقوات منطقة كييف العسكرية . ثم قائداً للقوات البرية ، ففائد الدفاع المدني في الاتحاد السوفييتي . وفي الأيام الأخيرة ، أصبح مفتشاً عاما لوزارة الدفاع في الاتحاد السوفييتي . فاز مرتين بلقب بطل الاتحاد السوفييتي نظرا لجدارته القتالية ولكونه قائداً عسكرياً فذاً .



مقدمة

لا أعلم إذا كان في عالمنا المعاصر إنسان ، لم يسمع باسم تلك المدينة الخالدة «ستالينغراد» التي قدم أهلوها ، والمدافعون عنها من الجيوش السوفييتية أسمى التضحيات دفاعاً عن الحق والعدالة وحرمة وقديسية الأرض الأم . وسجلوا بذلك صفحة خالدة في تاريخ حركة التحرر الوطني العالمية .

كانت ستالينغراد وستبقى رمزاً للصمود الإنساني ، وتعبيراً عن الإرادة الحرة لكل مواطن شريف يدافع عن حقه أمام قوى البغي والعدوان . من خلال هذا الكتاب «ستالينغراد ملحمة العصر» لمؤلفه ف. تشويكوف يتعرف القارئ على الكثير من المعلومات القيمة عن أحداث الحرب العالمية الثانية ، وعلى وجه الخصوص ، يتعرف على أهم الأحداث التي دارت حول مدينة ستالينغراد ، التي كتبت عنها الصحيفة الأمريكية نيويورك هيرالد تريبيون ، واصفة وضع المدينة كما يلي : «في هذه الأتفاض ، التي لا يمكن تخيلها بسبب الحرائق المتتالية ، وغيوم الدخان الكثيف ، بسبب الانفجارات ، وتدمير المباني ، والجثث المبكرة . كان المدافعون يقاتلون من أجل مدينتهم بصلابة مذهلة ليس عن طريق الموت ، إذا كان ضرورياً ، وليس بالدفاع الذي كان عليهم القيام به ، ولكن عن طريق الهجوم ، كلما كان ممكناً ، دون النظر للتضحيات من أجلهم ، ومن أجل أصدقائهم ، ومن أجل مدينتهم ، مثل هذه المعارك لا تتشبه بحسابات استراتيجية ، ولكنها كانت تدور بحقد عارم ، وتفانٍ لم تعرفه لندن ، حتى في أصعب أيامها ، وخلال أعنف الغارات الجوية الألمانية ، وبمثل هذه المعارك تكسب الحرب » .

وكتبت صحيفة رينولز نيوز البريطانية في ٢٩ أيلول ١٩٤٢ ، ما يلي :
«مرتين في جيل واحد ، تصبح ستالينغراد رمزاً لإرادة الحياة للشعب
الروسي ، فقبل أربع وعشرين عاماً ، كان المناهضون يريدون تدمير
الجمهورية السوفييتية الفتية ، ولكنهم هم الذين أبيدوا على ضفاف الفولغا ،
واليوم تشهد أسوأ طغيان فاشي . التضحيات الدموية في شوارع تلك المدينة
التي تتحمل أكبر معركة عملاقة في تاريخ الحروب ، وستظل ملحمة
ستالينغراد خالدة على مر الزمن ...

إن بسالة الشعب الروسي العظيم ، وأهلية القادة الروس ، جذبت إعجاب
كل العالم الحر ، ولنا الحق أن نفتخر ببطولات ستالينغراد .

ومهما كتب المؤرخون عن أحداث تلك المعارك العنيفة ، فإن الأقلام
عاجزة عن وصف البطولات والتضحيات التي قام بها المدافعون عن
ستالينغراد ، ومن هذه التضحيات يسرد تشويكوف ما يلي :

«اندفعت دبابات العدو في مواضع قتال الفوج السوفييتي ، واتجهت
بعض المدرعات نحو الخندق ، الذي كان فيه البحار ميخائيل بانيكافا ، وهي
تطلق النار من مدافعها ورشاشاتها .

كان صوت صرير السلاسل مميزاً دائماً من بين أصوات الرمايات وانفجار
القذائف ، وحتى من داخل الخندق . وفي اللحظة التي اقتربت فيها الدبابات
استنفذ الجندي ميخائيل كل قنابله ، ولم يبق لديه سوى زجاجتين حارقتين ،
وفي نفس اللحظة ، التي كانت فيها الزجاجة فوق رأسه ليقذفها ، انفجرت
بفعل إحدى الطلقات عليه ، وإثر ذلك تحول الجندي إلى شعلة حقيقية
تحترق ، ولكن الألم المريع لم يفقده وعيه ، فتناول الزجاجة الثانية وهو
يشتعل ، واندفع نحو إحدى الدبابات العدو التي أصبحت قريبة منه جداً .
كان الجميع يشاهدون الجندي الذي أصبح كحاجز ناري متحرك ، يخرج من
الخندق مندفعاً نحو تلك الدبابة ، وركض حتى وصلها ، ورمى الزجاجة في
شبكة ثقوب التمويه للمحرك ، وبعد لحظة خرجت حزمة من اللهب
والدخان ، وغاب البطل والدبابة المحترقة عن النظر .

ويقص أحد القادة العسكريين بطولة شاب يدعى فانيا ، وقع في حصار
الأعداء ، وعمره لم يتجاوز ستة عشر عاماً ، فتصرف كالتالي : «كانت اليد
اليمنى للفتى فانيا تتدلى إلى جانبه دون حركة ، كما استأصلت شظية قنبلة

يده الأخرى من الذراع . ودبابتان أخريان كانتا تقتربان من المدفع ، عندها خرج الشاب من خندقه ، وهو مخرج بالدماء ، ويداه الاثنان لا نفع منهما ، ولم يعد لديه إلا أسنانه التي كانت تمسك بقنبلة مضادة للدبابات ، ولم يلبث أن قذف بنفسه تحت سلاسل إحدى الدبابات ، فدوى الانفجار . ولم يكن دور المرأة في الحرب بأقل أهمية من دور الرجل ، إذ كانت إلى جانبه في أعنف المعارك ، وها هو المؤلف يتوقف عند دور إحداهن واصفا بطولتها : « وصلت في ظلام الليل الدامس إلى مواقعنا امرأة ، دون خوف على حياتها من القطاع المحتل ، وأعطينا معلومات قيمة عن مواضع الوحدات المعادية ، واني أتذكرها ، اسمها ماريا فيدينيفا ... »

ويشير المؤلف إلى خدمات المرأة في مجال تضفيد جروح المصابين من الجنود ، إذ يقول عن إحداهن : « أذكر الممرضة ليوبا نستيرنيكو التي كانت تحتضر ، والدم يسيل بغزارة من جرح في صدرها ، وفي يدها ضمادة ، ورغم قربها من الموت حاولت مساعدة أحد الرفاق ، وتضفيد جراحه ، ولكن لم يسمح لها الوقت للقيام بذلك ، ولقيت مصرعها » .

استمرت المعارك التي يصفها المؤلف في هذا الكتاب خير وصف بين أعظم قوتين ، وتمكنت القوات السوفييتية فك الحصار عن مدينة ستالينغراد ، ودحرت القوات الفاشية الألمانية ، ولاحقتها حتى عقر دارها برلين ، التي أعلنت عن استسلامها في أيار ١٩٤٥ .

وتجدر الإشارة إلى أن مترجم هذا الكتاب العميد المتقاعد عدنان مراد قد اعتمد على الدقة والأمانة في الترجمة عن اللغة الفرنسية ، تبين لي ذلك من خلال المقارنة مع النص الروسي الأصلي .

نتمنى ، ونحن نقدم هذا العمل الهام إلى القراء العرب أن ينال إعجابهم ، ويساهم مساهمة فعالة في تربية روح الإقدام والتضحية في الدفاع عن الوطن وقضايا المصيرية . ويتسم هذا العمل بأهمية خاصة في وقت أصبحت فيه الشهادة والتضحية رمزا حقيقيا للكفاح العربي ضد المؤامرات الامبريالية والصهيونية .

• د. ماجد علاء الدين

نبذة عن حياتي

ولدت في روسيا في قرية «سيربرياني برود» . وهي حالياً مركز ناحية في منطقة موسكو . خدمت قرابة ستين عاماً في الجيش السوفيتي ، وحاربت من أجل الوطن في الأرض السيبيرية ، وفي أوكرانيا وروسيا البيضاء في وسط البلاد . ولكن في هذه الأرض الروسية الواسعة ، مدينة وهبتها قلبي ، وارتبطت حياتي بها برباط أبدي ، لا تنفصم عراه ، هي المدينة القائمة على نهر الفولغا ، والتي دخلت في التاريخ باسم ستالينغراد .

في ستالينغراد ولدت مرة ثانية . إذا صح التعبير . فقد خرجت حياً من هذه المعركة النارية ، بمصادفة سعيدة . وفي ستالينغراد أدركت لماذا يستحق الإنسان أن يعيش هذه الحياة . ولماذا كان علينا أن نتثقف ، وماذا أعدت الحياة والقدر لي .

لقد شدتني الذاكرة بقوة لأيام المريعة من القتال الضاري الذي عانىناه من أجل الدفاع عن هذه المدينة ، وأناي أرى كل شيء من جديد ماثلاً أمامي ، لذلك لا يسعني الصمت ، ولا يمكنني إلا أن أتكلم قبل أن أفارق هذه الحياة . كيف دافع جيلنا عن ستالينغراد ، وكيف تحملت تلك الأماكن الضربات القاتلة التي وجهها لها الفاشيون .

أصبحت المدينة في هذه الأيام محج ملايين الأشخاص من كل القارات ، يأتون إليها ، ليحنا رؤوسهم أمام المآثر البطولية للمحاربين السوفيت . والذين لم يدافعوا عن المدينة فحسب، بل دافعوا عن الحضارة العالمية .

لقد أشاد الشعب على مرتفع « كورغان »^(١) مامايف نصب الأبطال ،

(١) الكورغان في اللغة الروسية هو المرتفع الذي يحتوي على مقبرة للشهداء ، ويقوم عليه الآن عدد من التماثيل التي تخلد هؤلاء الشهداء .

كثيراً ما تردت إلى تلك الأماكن ، وفي كل مرة كان قلبي يخفق بسرعة عندما كنت أقرب من المدينة ، فالماضي الذي يغلفني كان يعيدني إلى لهب البترول المتصاعد وإلى الانقاض والحرائق ..

أريد على قدر امكانياتي أن أروي أحداث ملحمة الفولغا الكبرى ، ولكن قبل ذلك يجب علي أن ألفت نظر القارئ إلى أن ما أرويه ليس تقريراً تاريخياً ، بل لكريات مرتبطة بتلك الأحداث الواقعة فحسب .

عندما بدأت معركة ستالينغراد كنت معاون قائد الجيش ٦٤ ، وفي بداية المعارك سميت قائداً للجيش ٦٢ . وإني الآن أنحني إجلالاً أمام بسالة جنود وضباط جيش الحرس الأول والجيش ٢٤ ، و ٦٦ الذين أشعلوا نار المعركة فوراً أمام ستالينغراد بعد سيرهم مسافة ٥٠ كيلومتراً ، ودون انتظار التجمع الكامل لفرق مشاتهم ومدفيعتهم ، كما أعبر عن احترامي للدور البطولي للجيش ٦٤ ، الذي تقاسم مع الجيش ٦٢ فخر المهمة الثقيلة ، التي أوكلت إليها بالدفاع عن ستالينغراد . وإني أكرر مرة ثانية أن كتابي ليس مؤلفاً تاريخياً ، ولكنه ذكريات لأحد المشاركين في ملحمة ستالينغراد والذي يروي بشكل رئيسي الأحداث ، التي كان فيها شاهد عيان ، أو مشتركاً فيها مباشرة ، والتي تركت في ذاكرته أثراً لا تمحي .

المؤلف

عودة الى الماضي القريب



في بداية الحرب كنت بعيداً عن وطني ، في الصين . إذ كنت في ذلك الوقت المستشار العسكري الأول للماريشال الصيني « تشان - كاي شك » . كما كنت أيضاً الملحق العسكري السوفيتي في تشونغ - كينغ ، وكان تشان - كاي - شك في ذلك الوقت ، القائد الأعلى للجيش الصينية .

كانت أوروبا عندما ذهبت إلى الصين غارقة في خضم الحرب . فقد استعبدت بولونيا ، وسقطت النرويج وهولندا وفرنسا ، وظهر واضحاً أن عقيدة الحرب المكشوفة كانت ، هي المنتصرة . وكنا نتربق الغزو الفاشي لبريطانيا ، وكان الطيارون الانكليز البواسل ، يصدون الغارات الجوية الكثيفة ، التي كان يقوم بها الأسطول الجوي الفاشي على المدن المسالمة ، فلندن تحترق ، وكوفنتري أصبحت أطلالاً .

تبين بعد الحرب . عندما أصبح بالامكان الاطلاع على الأرشيف الهتلري - أن هتلر منذ خريف عام ١٩٤٠ ، عدل عن فكرة اجتياز المانش . حيث اختلطت بشكل واضح - اعتبارات ذات صبغة سياسية في المخططات الاستراتيجية والتكتيكية ، ظهرت لنا ولغيرنا من العسكريين بسرعة ما يفيد ، أن تأجيل اجتياز المانش إلى ربيع ١٩٤١ كان بقرار وأمر القيادة الهتلرية .

أما الموقف الدقيق ، الذي وجدت عليه بريطانيا عشية « دنكرك » فقد أخذ بالتحسن ، بعد أن نجحت القوات البريطانية ، التي كانت في فرنسا بالنجاة رغم الصعوبات الكبيرة . ولم تستطع الغارات الكثيفة أن تجعل الشعب البريطاني يركع على ركبتيه ، فنسبة القوى الجوية بين الطرفين أصبحت متعادلة ، والصناعة الأمريكية ، التي كانت نوعاً ما بطيئة في بادئ الأمر ، أخذت تتحول لإنتاج مختلف أنواع الأسلحة ، وبذلك حصلت بريطانيا على فترة راحة لتتسلح

وتستعد للرد . وعلم هتلر منذ البداية أن معركة بريطانيا بالنسبة له ستكون خاسرة . لقد استكملت بريطانيا قواها ، وأصبحت علاقات ألمانيا واليابان مع الولايات المتحدة متوترة ، وكانت اليابان تنتظر الفرصة الملائمة للدخول في الحرب لاقتسام العالم وتوسيع ممتلكاتها في حوض المحيط الكبير ، والمناطق الأخرى .

فهل يمكننا في مثل هذه الظروف اعتبار ميثاق عدم الاعتداء الذي عقد مع ألمانيا في آب ١٩٣٩ ضماناً لأمننا .

كان من الممكن للأحداث أن تأخذ مجرى ليس في صالحنا . فباستطاعة هتلر أن يوقع اتفاقية مع اليابان ، تستهدف القيام بعمل مشترك ضد الاتحاد السوفيتي من الغرب والشرق .

وهكذا ، كان يدخل في نطاق مهمني في الصين ، الاستيضاح عن موقف اليابان ، وأين ستوجه عزمها ؟ نحو الشمال أو نحو الجنوب ؟ وهل ستوجه ضربتها إلى الشرق السوفيتي أو تشتبك مع الولايات المتحدة بصراع لاقتسام آسيا الجنوبية الشرقية ؟

هناك نقاط كثيرة غامضة في الموقف الياباني . فمواردها الخاصة من المواد الأولية قد أوشكت على النفاذ ، بسبب متابعتها دائماً لسياسة القوة العسكرية ، وبالتأكيد كان عليها توسيع حدود اعتداءاتها . ولكن إلى أين ؟ وكان هذا هو السؤال المطروح . وصحيح أنها كانت تحتل المراكز الحيوية في الصين ، إلا أنها لم تكن تسيطر عليها سيطرة كاملة .

كانت ترد إلى موسكو من مختلف الأقنية ، وعن طريق مختلف المصادر ، المعلومات التي تؤكد أن هتلر يعد نفسه لمعركة باتجاه الشرق ، في نهاية الربيع أو في الصيف ، وأن الاعتداء على الاتحاد السوفيتي لا بد أن يحصل ، وقد وصلتني وأنا في الصين معلومات بهذا الخصوص .

كان من المناسب في ربيع عام ١٩٤١ أن نستقبل بحذر شديد هذه المعلومات، وبخاصة المتعلقة بموضوع الاستعدادات الألمانية للاعتداء علينا ، وليس سراً أن تحويل الضربة باتجاه الشرق ، سيبعد هتلر عن تهديد بريطانيا بشكل جدي ، قد يمتد هذا لبضع سنين ، على الأقل . ولم يكن يخلو الماضي ، وبخاصة في ذلك الوقت من عام ١٩٤١ ، من أناس يرغبون في تحويل الاعتداء الهتلري نحو الاتحاد السوفيتي . في حين كانت الدبلوماسية السوفيتية تبذل

قصارى جهدها ، وتعمل لتتجنب الحرب . وأصبحت المهمة الرئيسية للسياسة الخارجية السوفيتية كسب سنة أو سنتين على الأقل للانتهاء من إعادة تسليح الجيش الأحمر .

كان لدى الصناعة الجوية السوفيتية في ذلك الوقت نماذج قيد الانتاج لطائرات تفوق بميزاتها العسكرية الطائرات الألمانية، وبوشر بانتاجها على نطاق واسع . وشكلت في الجيش الأحمر جيوش ميكانيكية، وأخذت الصناعة الحربية تنتج على نطاق واسع الدبابات السوفيتية المعروفة ت ٣٤ ودبابات (K . V) (كيم فورشيلوف) . والجدير بالذكر أن هذه النماذج من الدبابات كانت متفوقة في ذلك الوقت على كل الدبابات الألمانية الموجودة قيد العمل ، واشتهرت بخواصها وميزاتها القتالية كما بدىء في الوقت نفسه بانتاج نماذج جديدة من أسلحة المشاة وغيرها على نطاق واسع جداً .

نحن حالياً على يقين بأن معلومات كثيرة كانت متوفرة لدى القيادة السوفيتية تؤكد على وجود حشود كبرى للقوات الألمانية بالقرب من حدود الدولة السوفيتية قادمة من الغرب ، وأخبر عنها حراس الحدود السوفييت ، وحددوا حتى أماكن تركزها وتجمعها ، وستالين نفسه كان يعرف ذلك . ولكنه كان مع الحكومة السوفيتية ، يذلان قصارى جهدهما وامكاناتهما لتأخير بداية القتال ويعملان على تجنب كل ما هو ممكن لاثارة العدو بحركات غير مدروسة ، تجعله يقوم بهجومه قبل أوانه . كما أن الاتحاد السوفيتي اضطر لابقاء مجموعة قوية من قواته كستارة دفاعية على حدوده في الشرق الأقصى .

قام هتلر في ذلك الوقت بلعبة سياسية ماهرة . فعبر مختلف الأقنية وبواسطة أشخاص عاديين ، أخذ يتحرى موقف الحكومة البريطانية من السلام ، وفيما إذا كانت تفتش عنه فهذا يسهل له عدوانه على الاتحاد السوفيتي .

رغم خيبة أمله ، وفي غضون ذلك ، أخذ هتلر يستعد للشروع بغزو الاتحاد السوفيتي ، وانطلقت الحرب على جبهتين .

شعرت بالحزن والأسى . وأنا في الصين خلال تلك الأيام . كنت قلقاً على بيتي وعلى رفاقي الذين كانوا يدافعون عن الوطن ، ولكن مهمتي حتى ذلك الوقت كانت قد استكملت .

كان الموقف خطراً على الجبهة طيلة صيف ١٩٤١ ، فقد سقطت منك ، واحتل العدو سمولنسك . واجتاز الحواجز الدفاعية التي كنا قد أقمناها ، واتجه

نحو موسكو ، واقترب من لينينغراد . وسقطت كييف .
أما خطر التدخل الياباني فأخذ يتزايد ، وكان يبدو أن العسكرية اليابانية ، لن تترك اللحظة المناسبة تفوتها ، لتقوم بالهجوم على الشرق الأقصى السوفيتي .
ولكن الدلائل التي أخذت تظهر في الأفق منذ الخريف ، تشير إلى أن اليابان ستوجه ضربتها نحو الجنوب ، أي ضد الولايات المتحدة مستفيدة من الوضع المتعب الذي كانت عليه بريطانيا .

ساعدت المعلومات ، التي زودنا بها القيادة العليا ، أن تتوجه في الوقت المناسب وتسحب قسماً من فرقها في الشرق الأقصى خلال الأيام العvisية لمعركة موسكو .

وفي السابع من كانون الثاني ١٩٤١ قامت اليابان بهجومها على القاعدة البحرية الأمريكية في بيرل هاربر ، وفي الثامن من الشهر نفسه أعلنت الولايات المتحدة الحرب على اليابان .

وقد ساعدني هذا على العودة في بداية آذار ١٩٤٢ إلى موسكو ، طالباً إرسالتي للجبهة .



كان الموقف على الجبهة في ربيع ١٩٤٢ قد استكان بشكل ملحوظ ، فقد مضى خريف ١٩٤١ الصعب ، وأمام موسكو دفنت أسطورة الجيوش الهتلرية التي لا تقهر ، حيث حطم الجيش الأحمر آمال المجموعة العسكرية التي كانت تعلقها على الحرب المكشوفة وبانتصار سريع على الاتحاد السوفيتي . ولكن القادة الفاشيون الذين كانت تسيطر عليهم روح المغامرة المجنونة ، كانوا يستعدون لشن هجوم جديد على الجبهة الروسية - الألمانية .

كان من المفروض حسب خطة القيادة الألمانية أن يكون عام ١٩٤٢ عاماً حاسماً في الحرب ، فهتلر كان مقتنعاً بأن الأمريكيين والانكليز لن ينزلوا قواتهم في أوروبا في ذلك العام ، مما يجعله يحتفظ - كما كان الحال في السابق - بيديه حرة للعمل في الشرق .

ولكن كان لا بد للألمان من أن يشعروا بهزيمتهم أمام موسكو ، وكذلك بالخصائر التي كبدها لهم الجيش الأحمر خلال صيف ١٩٤١ .

سجل الجنرال «هالدر» رئيس هيئة الأركان الهتلرية للقوات البرية في مذكراته هذه الحاشية التي تستحق الذكر : « كانت خسائرنا في الأول من شهر مايس ١٩٤٢ هي ٣١٨ ألف جندي ، في الشرق ، وفي مايس اقترح ارسال ٢٤٠ ألف جندي للجيش في الشرق . وكان لدينا في تلك الفترة ما بين مايس وابلول (٩٦٠) ألف شاب مستدعى كاحتياط . وبعد تشرين أول لم يبق منهم أحد » .

كانت هناك وثيقة أكثر دقة ، حررت من قبل الأركان العامة لادارة عمليات القيادة العليا للقوات المسلحة ، وصنفت فيها الحالة العامة للجيش الهتلرية ، ظهرت فيما بعد وفي التقرير العسكري المرفوع الى هتلر في ذلك الوقت جاء ما يلي : « إن القيمة القتالية للقوات المسلحة هي في مجموعها العام أدنى حالياً مما كانت عليه في ربيع عام ١٩٤١ ، ويعود ذلك الى عدم امكانية التعويض عن النقص في الأشخاص والعتاد والوسائل » .

نجح هتلر رغم ذلك خلال صيف ١٩٤٢ بتجميع قوات قوية لا يستهان بها سيزج بها ضننا على الجبهة الشرقية .

فقدية على الجبهة السوفيتية - الألمانية جيش جرار تعداده ستة ملايين جندي ، لديهم حوالي (٤٣٠٠٠) مدفع وهاون ، وأكثر من ثلاثة آلاف دبابة ، وحتى ٣٥٠٠ طائرة ، علماً أن القوات الهتلرية كانت أقل من هذا العدد عندما بدأت الحرب .

صحيح أن جبهة الهجوم تقلصت هذه المرة ، إلا أن كل القوى التي جمعت استعداداً للضربة الجديدة وجهت إلى الجناح الجنوبي للجبهة الألمانية - السوفيتية .

لقد شرع هتلر بحملة القوقاز بهدف احتلال أحواض البترول ، والنفوذ على الحدود الايرانية من جهة والوصول الى الفولغا من جهة اخرى ، وكان يعتمد بالطبع على التقدير ، بأن القدرة القتالية للجيش السوفيتية لن تكون فعالة في تلك الأرجاء البعيدة عن مركز البلاد .

كما كان هتلر يأمل بوصوله إلى القوقاز جر تركيا للحرب معه ، وهذا يضيف إلى قوته من ٢٠ الى ٣٠ فرقة تركية في حين سيجر وصوله إلى الفولغا والحدود الايرانية اليابان لدخول الحرب ضد الاتحاد السوفيتي . فدخول تركيا واليابان الحرب كان آخر أمل لهتلر في نجاح حربه ضد الاتحاد السوفيتي .

مما تقدم نستطيع أن نفسر أهداف الضجة الاعلامية التي رافقت صدور الأمر التوجيهي رقم ٤١ الموجه للقوات الالمانية حول أهداف حملتي الربيع والصيف عام ١٩٤٢ . وجاء في أمر هتلر هذا ما يلي : « وصلت حملة الشتاء في روسيا إلى نهايتها المحتومة ، وتكلفت معركتنا الدفاعية التي خاضتها قواتنا ضد العدو بالنصر المؤزر ، بفضل البسالة الرائعة التي أظهرتها جميع قوات الجبهة الشرقية ، واستعدادها للتضحية . وتكبد العدو خسائر فادحة في الرجال والعتاد . حيث استنفذ في هذا الشتاء بسبب سعيه لاستثمار الانتصارات الأولية التي خدع بها ، قسماً كبيراً من احتياطاته ، والتي كان يعدّها للمعارك القادمة » . نستنتج - مما تقدم - كخلاصة عامة واضحة أن القيادة العليا الالمانية ، كانت تقدر بشكل غير واقعي تماماً قوات الجيش الأحمر ، وكانت تسعى لتصوير هزيمتها أمام موسكو كأنها نصر عسكري مؤزر . وبقدر ما كان هتلر يحاول الاقلال من قيمة قوات الاتحاد السوفيتي ، كان يمجّد بقواته، ويقدم لها أكاليل الغار .

ونتيجة لتلك الانتصارات المزعومة والتي لا أساس لها ، وضعت القيادة الالمانية أهدافاً جديدة غير واقعية يجب الوصول إليها في الحملات القادمة . ولنتابع ما جاء في الأمر التوجيهي رقم ٤١ المذكور آنفاً: « ويقتضي الهدف إبادة القوات التي لا تزال لدى السوفييت إبادة كاملة ، وحرمانهم بكل الوسائل الممكنة من مراكزهم السياسية والاقتصادية الرئيسية . وتجمع في المقام الأول كل القوى الضرورية والمتوفرة لتنفيذ العمليات الرئيسية في القطاع الجنوبي ، التي تستهدف تدمير العدو إلى الغرب من الدون . وبالتالي الاندفاع نحو الجنوب لاحتلال آبار البترول في القوقاز واجتياز سلاسل الجبال القوقازية » .

تبع التوجيه السابق مباشرة ، تحفظ فيما يخص القتال باتجاه لينينغراد ، حيث تم تأجيل إحكام الطوق عليها: « يؤجل إحكام الطوق على لينينغراد واحتلالها إلى فرصة أخرى ، وحتى الوقت الذي يحدث فيه تغيير حساس في قطاع جبهة التطويق . أو تحرير قوات جديدة من أماكن أخرى كافية ، تؤدي إلى خلق الامكانيات المناسبة لمعاودة القتال هناك » .

أظهر هذا التحفظ ، أن هتلر رغم كل ما كان لديه من قوى تفوق التي كانت لديه في بدء العمليات ضد الاتحاد السوفيتي ، لم يقرر القيام بعمليات على مجمل قطاعات الجبهة كما حدث في السابق ، بل إنه هنا ، وفي هذه المرحلة ، ركز

كل امكاناته واهتمامه ، ووجهها نحو الجنوب .

وجهت الضربة الجديدة الألمانية نحو قطاع كيرتش ، وحاصرت القوات الألمانية سيياستبول التي صمدت حتى نهاية حزيران ، بالرغم من كل الجهود التي بذلها الغزاة وهجماتهم المتواصلة . واستطاع الألمان تحقيق السيطرة على شبه جزيرة القرم، ولكنهم تكبدوا خسائر فادحة . وبسيطرتهم على شبه جزيرة القرم أمنوا جناح هجومهم على القوقاز والفولغا ، وأصبح الباب مفتوحاً أمامهم . وساعد على نجاح هذا الهجوم عدد من الظروف الملائمة لهم .

في ١٢ مايس ١٩٤٢ ، انتقلت القوات السوفيتية الموجودة في الجنوب الغربي من الجبهة إلى الهجوم ، ووجهت ضربتين على محورين متلاقين، فوجه محور الجهد الرئيسي اعتباراً من قلعة بارفנקوف، وتم تجاوز مدينة خاركوف من الجنوب الشرقي ، أما محور الجهد الثانوي للهجوم ، فقد وجه اعتباراً من قطاع فولتشانك .

وتطورت هذه العملية الهجومية الكبيرة . ونجحت في بادئ الأمر ، ولكنها انتهت بهزيمة مأساوية للجيش السوفيتية بسبب استعداد الألمان الضخم للهجوم على الفولغا . وفورونيج ، والقوقاز لذلك تجمعت على محاور الهجوم قوات المانية كبيرة . واستغلت القيادة الألمانية بنجاح وضعها المتفوق ، وحول هذا الهجوم كتب الجنرال الهتلري كورت تيلكريش : « لم تكن محاولة السوفييت لاقامة الحواجز أمامنا بالنسبة للهجوم ، الذي كانت القيادة الألمانية تعد له سوى بداية جيدة ، تستجيب لرغباتنا ، فلم يكن من السهل الحصول على امكانية إضعاف القوى الدفاعية الروسية بهذه السهولة . كما حدث . وإضعافها سيساعد كثيراً على نجاح عملياتنا الهجومية الأولى . ورغم هذا النجاح السهل ، كان علينا القيام باستعدادات جديدة شغلنا لمدة شهر، وقبل أن تتمكن الجيوش الألمانية من إعادة تجميعها واستكمال كل ما هو ضروري للقيام بالهجوم »

وقد أكملت القيادة الهتلرية في نهاية حزيران تحضيرات الهجوم المقرر ، إذ جزئت مجموعة جيوش الجنوب الألمانية العاملة على الجناح الجنوبي للجبهة السوفيتية الألمانية إلى قسمين : القسم الأول ، ويتشكل من مجموعة الجيوش (A) وكانت مهمتها القيام بعمليات هجومية باتجاه القوقاز، أما القسم الثاني فكان يتشكل من مجموعة الجيوش B والتي كان عليها توجيه ضرباتها نحو ستالينغراد ، لذلك فعلى عائق هاتين المجموعتين كان يقع عبء تدمير القوات

السوفيتية الموجودة غرب الدون .

كان على مجموعة الجيوش B تطويق القوات السوفيتية الموجودة غرب الدون ، والعمل على الاتصال مع مجموعة الجيوش (A) في قطاع ستالينغراد وعلى كل الأحوال كان عليها أن تجرب النفوذ في عمق الأراضي السوفيتية حتى ستالينغراد ، لكي تتمكن القوات المهاجمة ، على طول مجرى الدون أن تحقق اتصالها في قطاع ستالينغراد مع القوات التي تعمل اعتباراً من قطاع تاغاناروف ارتموفسك ، وهذا ما نص عليه التوجيه رقم ٤١ .

في البداية توزعت قوى المجموعة A و B على الشكل التالي :
مجموعة الجيوش A بقيادة الفيلد مارشال «ليست» وتتألف من الجيش المدرع الأول ، وجيشي الميدان الألمانيين السابع عشر والحادي عشر ثم الجيش الإيطالي الثامن .

مجموعة الجيوش B بقيادة الفيلد مارشال «فون بوك» ، وتتشكل من الجيش الرابع المدرع جيشي الميدان الثاني والسادس الألمانيين والجيش الهنغاري الثامن ، وكان من المتوقع أن ينضم للمجموعة B الجيشان الرومانيان الثالث والرابع القادمين من أقصى المؤخرات عند وصولهما إلى المنطقة .

حشد العدو في المنطقة الممتدة من مدينة كورسك حتى مدينة تاغاناروغ ما مجموعه (٩٠٠) ألف جندي وضابط مع ١٢٦٠ دبابة ، وأكثر من سبعة عشر ألف مدفع وقذاف و ١٦٤٠ طائرة قتال . وكانت هذه القوات تمثل حوالي ٥٠٪ من مجموع الوحدات المدرعة والآلية العدو ، التي كانت موجودة على الجبهة السوفيتية . الألمانية وتمثل ٣٥٪ من قطعات المشاة .

وأمام هذه القوات الألمانية والتي كانت تمثل القوة الصدمية لدى العدو ، تقف في الطرف المقابل قوات جبهة بريانسك السوفيتية ، وجبهتي جنوب - غرب ، وجبهة الجنوب وتضم قوى هذه الجبهات الثلاث (٦٥٥) ألف رجل مع ٧٤٠ دبابة و ١٤٢٠٠ مدفع وقذاف وأكثر من ألف طائرة قتال .

ومن هذه المقارنة في القوات نرى أن العدو كان يتمتع بالتفوق بشكل عام في الجنوب ، كما أنه نجح في تعزيز محاور الجهد الرئيسية ، التي ستعمل عليها قواته .

في صباح الثامن والعشرين من شهر حزيران ، بدأ كل من جيش الميدان الثاني والجيش المدرع الرابع الألمانيين هجومهما ، وكذلك الجيش الهنغاري

الثاني على الجناح الأيسر لجبهة بريانسك السوفيتية، أما الجيش السادس الألماني فقد بدأ هجومه في ٣٠ تموز .

كانت ستالينغراد في هذه المرحلة من القتال لا تزال بعيدة وكان الألمان يسرون نحو فورونيج . ويمكن القول بأن حملة عام ١٩٤٢ قد بدأت ، وأخذت في جذب الأعداد المتزايدة من القوى ومن الطرفين الى رحاها الدموية .



استلمت في شهر مايس قيادة جيش من الاحتياط ، كان . يتمركز في قطاع (تولا) . وخلال أشهر مايس وحزيران وبداية تموز خضع هذا الجيش إلى تدريبات قتالية مكثفة .

وأخيراً وصل في بداية شهر تموز الأمر من مقر القيادة العليا « الستافكا » . ويقتضي بتغيير اسم جيشنا من جيش الاحتياط إلى الجيش الرابع والستين، وحدد مكان انتشاره على نهر الدون .

كانت الجبهة في ذلك الوقت ، أي جبهة جنوب - غرب تتراجع نحو الشرق تحت ضربات الجيوش الغازية الألمانية ، والمعارك الضارية تدور في قطاع روستوف بالقرب من لوغانسك ، وتستهدف احتلال فورونيج ، وكان على جيشنا أن يكون على أهبة الاستعداد للقتال ضد المعتدين الفاشيين الألمان ، في مكان ما على الدون أو بين الدون وال فولغا .

وأخيراً جاء اليوم ، الذي ركبت فيه وحدات جيشنا القطارات بسرعة واتجهت نحو القطاع الذي حدد لها كمكان تجمع والواقع بين الدون وال فولغا .

ركبت أنا أيضاً القطار مع أركاني حتى بالاشيف ، ولكي أكون على اطلاع واسع وسريع على الموقف في الجبهة والتحدث مع المحاربين ، تركت القطار وركبت السيارة مع عضو المجلس العسكري للجبهة كونستانتين كريلوفيتش أبراموف .

مررنا ونحن في طريقنا على جميع المحطات الكبيرة لكي نتابع حركة قوافل جيشنا . وكانت القاذفات الفاشية في ذلك الوقت تقوم بغارات دورية على محطات السكة الحديدية وعلى القطارات السائرة . وقد التقيت في محطة فرولوف بأركان الجيش الواحد والعشرين . ولكن رئيس الأركان رغم رغبته

الصادقة لم يستطع أن يعطينا أية معلومات عن الموقف . أين يمر خط الجبهة ؟
وأين يوجد الجيران ؟ وأين مكان العدو ؟ لم يكن يعرف شيئاً والشئ الوحيد الذي
استخلصته من حديثه ، أن أركان قيادة الجبهة جنوب - غرب ، كانوا حتى ذلك
الوقت لا يزالون على الفولغا في ستالينغراد .

كان الموقف يتغير بقدر اقترابنا من نهر الفولغا . ولم يكن سكان القرى
والمزارع يتوقعون وصول العدو إلى بلادهم . وكانوا يأملون بصد الهجوم
وتوقفه . لذلك لم يفكر أحد منهم بتحضير إخلاء بيته أو مزرعته . وظلت حياتهم
طبيعية ومتابعة كأنها في زمن السلم . وكانوا يزالون أعمالهم كالمعتاد
يحصدون ويرعون قطعانهم ، والسينما تعمل في المحلات السكنية ، التي كانت
تحيط بمحطات السكة الحديدية . ولم يكن يعكر صفاء وهدوء الليل سوى طلقات
المدفعية المضادة للطائرات ، التي كانت تطلق نيرانها على طائرات العدو
المنفردة التي تحوم طوال الليل .

وصلنا في ١٦ تموز ١٩٤٢ إلى مقر أركان جبهة ستالينغراد . علمنا أن
عناصر الاستطلاع ، التي كانت ترسلها مقدمات العدو ، قد أشرفت على الخط
تشيرنيشيكايا - مورزوفسكي - تشيرنياكوفسكي . واضطرت للتوقف بعد أن
تعرضت إليها مفارز ومقدمات الجيش ٦٢ .

كان الجيش ٦٢ . في ذلك الوقت . يحضر دفاعه على الخط الممتد من
كليتمسكاي - كالميكوف - سورفيكينو - باستشيرسكاي - سوفوروفسكي . وكان مقره
في مزرعة كاميش التي كانت تقع على الطرف الشرقي من الدون على بعد ٦٠ -
٨٠ كم من جبهة القتال .

بدأت قوات الجيش ٦٤ تترجل من عربات السكة الحديدية في المحطات
القرية . فنزلت الفرقة ١١٤ في محطة دونسكاي ، موزكاريتشكوف . أما الفرقة
٢٩ فقد نزلت في محطة جوتوفر . كما ترجلت بقية عناصرها على شاطئ
الفولغا على بعد ١٢٠ - ١٥٠ كم من خط الدفاع الذي حدد لنا من قبل أركان
الجبهة .

وبعد أن انتقل مقر أركان الجبهة إلى ستالينغراد . أصبح الاتصال معها
مضطرباً ومتقطعاً في بعض الأحيان ، مما كان يعرقل بشكل كبير إدارة القوات ،
والسيطرة عليها ، لذلك لم أستطع أن أعلم أركاني أين أنا ؟ ومتى وصلت أنساق
الجيش ؟ وأين نزلت ؟ وأين تجمعت ؟ وكم عدد الوحدات التي وصلت إلى

الخطوط الامامية ؟ وماذا تعمل ؟

وصلنا في ١٧ تموز توجيه من قيادة جبهة ستالينغراد جاء فيه : « أمر إلى الجيش ٦٤ المؤلف من فرق المشاة ٢٢٩ - ٢١٤ - ٢٩ - ١١٢ . ومن فرقة مشاة البحرية ٦٦ - ١٥٤ والألوية المدرعة ٤٠ - ١٣٧ ، اتخاذ مواضعها الدفاعية في ليل ١٩ تموز على جبهة ، سوروفيكينو - نيجنه سولانوفسكي - بيشترسكي - سوفوروفسكي - بوتيمنيسكايا - فيرخنه - كورموسكايا . وتحصين هذا الخط بدفاع منيع يقف امام كل اختراق يفكر به العدو باتجاه ستالينغراد . ترسل كل فرقة كتنق مقدمة ، أمامها لواء مشاة مع مدفعيته وتتمركز على مجرى نهر تسيملا »

كانت المهمة المحددة في هذا التوجيه - كما تبدو لنا - غير قابلة للتنفيذ لأن الفرق التابعة للجيش وأقسامه ، كانت لا تزال حتى تلك الوقت في حالة ترحل من عربات السكة الحديدية والسير نحو الدون بأرتال المسير العادي ، وليس بأرتال القتال حسب التشكيلة التي كانت موجودة عليها خلال تنقلها بالقطارات ، ورغم أن بعض عناصر المقدمة التابعة لبعض الفرق كانت تقترب من الدون ، إلا أن عناصر المؤخرة ، كانت لا تزال موجودة على ضفة الفولغا أو في القطارات . أما تشكيلات مؤخرة الجيش واحتياطه ، فكان القسم الأكبر منها ، لا يزال موجوداً في قطاع نولا تنتظر نقلها بالسكة الحديدية .

ولم نكن أمامنا فقط مهمة تجميع قوات الجيش المترجلة من قطاراتها، ولكن كان علينا اجتياز نهر الدون أيضاً ، فالخط المحدد بموجب توجيه الجبهة كان موجوداً على بعد مسيرة يوم من معابر الدون ، في فيرخنه تشيرسكايا ونجنه تشيرسكايا على بعد ١٢٠ - ١٥٠ كم من محطات الانزال . كما أن الخط الذي يجب أن تصل إليه انساق المقدمات على نهر تسيملا كان هو الآخر يقع على بعد ٤٠ كم من خط الدفاع الرئيسي للجيش ، وبذلك كان على القطعات المترجلة من القطارات أن تسير على أقدامها مسافة مائة إلى مائتي كيلومتر .

لذلك قمت بزيارة رئيس مكتب عمليات أركان الجبهة العقيد « روخله » ، وبعد أن بينت له عدم امكانية تنفيذ ما جاء في توجيه الجبهة ، في الوقت المحدد من قبلها ، طلبت منه أن يبلغ المجلس العسكري للجبهة بأن الجيش ٦٤ لا يستطيع احتلال خطه الدفاعي المحدد قبل ٢٣ تموز . ولهذا السبب فقد مدت المهلة المحددة حتى ١٩ - ٢١ تموز ، ومع ذلك حتى ٢١ تموز، لم نستطع أية

وحدة من وحدات الجيش ٦٤ احتلال الخط الدفاعي المحدد من قبل قيادة الجبهة .

بعد ذلك قمت بزيارة لأركان الجيش ٦٢ فور تجمع قواتي التي كانت تحت السير بعد ترحلها في السهوب باتجاه الغرب نحو الدون . وقد أطلعني قائد الجيش ٦٢ ميجر جنرال ف . كولباكشي على الموقف ، وكان هذا الضابط طويل القامة معتزلاً بنفسه ، وكان حاضراً عضو المجلس العسكري ، وقوميسار الغرفة غوروف ذو الأهداب السوداء الطويلة والرأس الحليق .

كانت المواضع الدفاعية التي حددتها قيادة الجبهة لقوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ تتبع الخط كلينكايا ، سوروفينكو - فيرخنه سولونوفسكي - سوفوروفسكي - كورموبارسكايا . وحدد لمفارز المقدمات التي كانت بنعداد فوج معزز أو لواء الانتشار على خط نهر تسوتسكان ، ونهر تشير وكذلك على نهر تشيرنياكوفسكي - وإلى أبعد من ذلك على نهر نسيمالا .

وحسب كل ما جاء في الكتب العسكرية والتعليمات الصادرة فكل من يتخذ موقف الدفاع ، عليه قبل كل شيء تقدير قوة العدو ودراسة الأرض التي عليها قرار قبول القتال ضد العدو . كما عليه أن ينشر قواته في أفضل موقع مناسب وأن يجعل من الأرض حليفاً له ، تقدم له ميزات تكنيكية ملائمة للقيام بالهجمات المعاكسة وتحقق استخدام كل وسائل النيران وتؤمن التمويه الجيد . ويجب أن تكون هذه الأرض وبنفس الوقت ، تشكل حاجزاً أمام تحركات ومناورات العدو الهجومية . وبفضل أعمال النحسين التي تقوم بها وحدات المهندسين تصبح غير صالحة لمرور الدبابات . فلا يتمكن المهاجم حماية تقرب قواته ، ولا تستطيع قواته البقاء أطول مدة ممكنة تحت رحمة نيران الدفاع .

اختير خط دفاع الجيش ٦٢ دون النظر إلى كل هذه المتطلبات . ولم يكن لدينا الوقت الكافي لاستخدام العوارض الطبيعية من أنهار وسواقي ومنحدرات يمكن تحويلها بسهولة ، وبأعمال هندسية إلى عوائق صعبة الاجتياز على المهاجمين ، كانت المواقع الدفاعية موجودة في السهوب العشبية الواسعة والعارية . لذلك كانت مكشوفة أمام مراقبة واستطلاع العدو أرضاً وجواً . وكان هناك عدد من الثغرات المفتوحة بين الوحدات والأقسام الموجودة في الخط الدفاعي وبخاصة على الجناح الأيمن . مما يعطي العدو الفرصة وامكانية الالتفاف حول المواقع الدفاعية وضربها من الخلف .

كانت تحتل الجبهة الدفاعية غرب الدون أربع فرق من النسق الأول للجيش ٦٢ بعرض (٩٠) كيلومتراً وبفرقتين ولواء من الجيش ٦٤ بعرض ٥٠ كم . وعلى الجناح الأيمن ، كانت فرقة المشاة ١٩٢ تنتشر على مسافة واسعة كما أن ثلث أو ربع فرق مشاة النسق الأول ، قد الحقت بالمفارز المتقدمة على مسافة ٤٠ - ٥٠ كم من القوى الرئيسية ، دون دعم مدفعي أو حماية جوية . وكان هذا الوضع يضعف المنطقة الدفاعية الرئيسية ، كما يقلل إلى أقصى حد القوات الواجب توفرها في الأنساق الثانية الخلفية ويضعف احتياط فرق النسق الأول . في نفس الوقت كانت فرق النسق الأول تفرز إضافة لعناصر المقدمات أيضاً مخافر أمامية، لها تبعد عنها مسافة ٢٠ - ٢٥ كم من خط الدفاع الأول مما يجعل هذه المخافر بعيدة عن دعم المدفعية واسنادها ولو كانت لديها مواقع بعيدة المدى . لقد نسق الدفاع على أربع خطوط متتالية: فمفارز المقدمات كانت موجودة على بعد ٥٠ كم والمخافر الأمامية كانت موجودة على بعد ٢٠ - ٢٥ كم ثم تأتي في النسق الثالث المنطقة الدفاعية الرئيسية ووراءها النسق الرابع ، حيث تتجمع قوات الاحتياط التابعة لفرق الجيش وتتمركز على آخر موضع من هذا الترتيب القتالي .

تمركزت هيئة أركان جبهة ستالينغراد في مدينة ستالينغراد على بعد ١٥٠ - ٢٠٠ كم من الجبهة كخط مستقيم ، أما أركان الجيش ٦٢ فكانت تتمركز على بعد ٦٠ - ٨٠ كم من الخطوط الأولى وراء الدون وعلى ضفته الشرقية . وكذلك أركان الجيش ٦٤ فكانت هي الأخرى تتمركز على مسافة ٣٠ - ٤٠ كم من الخطوط الأولى . وعلى هذه الصورة كان يصعب إدارة هذه القوات المنتشرة على هذه المسافات البعيدة ، وبالوسائل غير المتطورة التي كانت لدينا في ذلك الوقت .

كانت معنويات أركان الجيش ٦٢ عالية ، وقد أبلغني الجنرال كولباكيتشي قائد الجيش أنه سيقوم في الأيام القادمة بسبر غور قوات العدو الموجودة أمامه . استطعت تحقيق الاتصال مع جاري الأيمن ، ولكن لم تكن لدي أية معلومات عن الجانب الأيسر، فلم أكن أعرف سوى الخط الفاصل بيني وبينه وهو الذي كان مرسوماً على خريطة عمليات أركان الجبهة .

كان عليّ بصفتي معاون قائد الجيش ٦٤ أن أتخذ بدلاً عنه عدة قرارات تتعلق بتنظيم الدفاع . لذلك وحال اطلاعي على الموقف ، وبعد مقابلتها مع

المعلومات التي حصلت عليها من وحدات الجيش ٦٢ ووفق توجيهات قيادة الجبهة اتخذت بتاريخ ٢/١٧ القرارات التالية : تحتل الضفة الغربية للدون الفرقة ٢٢٩ - ٢١٤ . لواء مشاة البحرية ١٥٤ - اللواء المدرع ١١٢ ، اعتباراً من سورديكينو - حتى ستانيتا - سوفورسكايا . وعلى الفرقة ٢٩ تأمين الدفاع عن القطاع الأيسر للجبهة على الخط « بوتيمليكايا - فيرخنه كومورسكايا » وتنتشر فرق المشاة ١١٢ واللواء المدرع ١٣٧ في النسق الثاني على نهر تشير في نقطة اتصال الجيشين ٦٤ - ٦٢ . وينمركز لواء طلاب المدارس العسكرية في النسق الثاني في قطاع القرى المأهولة على مجرى نهر ميشكوفكا . وقد وافقت قيادة الجبهة على هذه القرارات .

من المفروض ان تكون على يمين الجيش ٦٤ وعلى مجرى الدون جنوب فيرخنه - كوروموياسكايا وحدات من الجبهة المجاورة ، قد اتخذت مواقعها الدفاعية ولكن لم يكن للجيش ٦٤ أي اتصال معها .

في مساء التاسع عشر من نموز وصل إلى أركان الجيش ٦٤ الجنرال ف . غوردوف ، الذي عين قائداً للجيش ٦٤ ، وقد بقيت مساعداً له ، وكان برتبة ميجر جنرال ، وكان غوردوف ذا شعر جعدي امح عيونه رمادية ونظرته منعبة .

اطلع غوردوف ، حال وصوله على قراراتي ، ولم يجر فيما يتعلق بالترتيب القتالي للنسق الأول تغييرات هامة ، ووقع القرارات وأمر بتنفيذها فوراً بكاملها . اما ما يتعلق بالنسق الثاني فقد أجرى تغييرات هامة وجيدة . فقد أمر بنظر فرقة المشاة ١١٢ ليس على نقطة اتصال الجيشين ٦٢ و ٦٤ ولكن على الخطوط الدفاعية الخارجية لستالينغراد على نهر ميشكوفكا ، اعتباراً من مزرعة لوغوفسكايا حتى غروموسلافكا ، ونقل لواء مشاة البحرية ٦٦ واللواء المدرع ١٣٧ ، ولواء طلاب المدارس العسكرية إلى خط نهر أكسايا ، أي على جناح الجيش الأيسر .

وبموجب هذا القرار وضع غوردوف كل احتياط الجيش على الطرف الشرقي للدون وبذلك أصبح الترتيب القتالي الدفاعي للجيش ٦٤ الموجود غرب الدون ، دون نسق ثانٍ ولا احتياط .

قامت في صباح ٢١ بزيارة الخط الدفاعي الثاني غرب الدون، وعملت خلال يومين مع قادة الفرق لاستطلاع الأرض واختيار المواضع الدفاعية . وحتى ذلك

الوقت كانت الفرق والآلوبة لا تزال بحالة المسير من محطات الانزال، ولم يصل إلى مواضعها الدفاعية كاملة كما وصلت متأخرة .

مما لا شك فيه أن وصول عناصر ووحدات الجيش ٦٤ إلى خطها الدفاعي خلال تلك الأيام كان مراقبا من قبل العدو . وكانت طائرات اسنطلاحه المعروفة «الفوكه - ولف» تحلق طويلاً فوق مواقعنا ولم يكن بإمكاننا الاشتباك معها فجبشنا لم يكن لديه دفاع ضد الطائرات ، والطائرات المطاردة التابعة للجيش . كانت مشغولة بقطاع آخر من الجبهة .

لم يكن الرتل الإداري للجيش ٦٤ على مستوى الجيش وعناصر التمرين لا تزال في عرباتها منتشرة من تولا حتى ستالينغراد . ولهذا فالجيش ٦٤ لم يكن لديه عملياً عناصر مؤخرة خاصة به وحتى أحمال التمرين الفرقية قد أنزلت من العربات بشكل توزعت معه في عدة محطات بين الفولغا والدون وعلى أرصفة العبور على الفولغا .

أما الرتل الإداري للجيش ٦٢ فكان بمجموعه عابداً فالقطاع الذي تشكل فيه الجيش كان على الفولغا في ضواحي ستالينغراد . وإدارة أركان المؤخرة بقيادة الجنرال لوبوف . كانت موجودة في المحطة الزراعية «سوفينسكي» ، ونبعد فقط ٨٠ - ١٢٠ كم من منطقة الدفاع الرئيسية .

مما نقدم نرى أن جبهة ستالينغراد قد شكلت على عجل ، فلم يكن هناك الوقت الكافي لتأمين وتنظيم تموين للجيش ، بشكل جيد وبخاصة تموين النخيرة ومعدات الهندسة .

وكان من حظنا أن الجيشين المعادين الرابع والمدرع والجيش السادس أخذوا اعتباراً من منتصف تموز يتلقيان الضربات الشديدة على محاور تموينهما بالمحروقات ، مما أدى إلى إبطاء حركة بعض الفرق المدرعة ووسائل الدعم التابعة لهما .



عندما نتحدث عن معركة منحني الدون الكبير (مخطط رقم (١)) التي دارت على المشارف البعيدة لستالينغراد ، من الصعب فصل الأعمال الحربية لكل من الجيشين ٦٢ و ٦٤ ، فقد كان الجيشان يعملان بموجب مخطط الجبهة

نفسه . وكانا يقاتلان ضد مجموعة الجيوش (B) المعادية ، وبخاصة ضد الهجمات التي كان يشنها جيش الميدان السادس بقيادة « فون باولوس » والجيش المدرع الرابع بقيادة « هوت » .

بدأت مقدمات الجيش ٦٤ اعتباراً من ١٧ تموز تصمد في المعارك التي نشبت ضد العدو والتي كانت تتلاحق بشدة دون كلال أو انخفاض في حدتها حتى ٢٢ تموز ضمناً .

شن العدو في ٢٣ تموز هجوما بقواته الرئيسية ضد منطقة دفاع الجيش ٦٢ الرئيسية، كما شن هجومه اعتباراً من ٢٥ تموز ضد الجيش ٦٤ . في حوزتنا حالياً الوثيقة التي كانت تحدد آنذاك أهداف هجوم العدو الجديد . وهي تتعلق بالتوجيه رقم ٤٥ بعد أن أجرى هتلر بعض التصحيحات على التوجيه رقم (٤١) .

لقد أعطي الأمر في التوجيه رقم (٤٥) لمجموعة الجيوش (A) للانتقال بهجومها باتجاه الجنوب ، إلى ما وراء نهر الدون وذلك لاحتلال القوقاز ومنابع بتروليه . كما أعطي الأمر لمجموعة الجيوش (B) بالهجوم على ستالينغراد . وتدمير مجموعة الجيوش المعادية المتمركزة هناك ، واحتلال المدينة ، وبالتالي قطع شبه الجزيرة بين الدون والقوقاز .

وبينما كان هتلر يتكلم في بداية معركة الصيف عن العمليات العسكرية بألفاظ عامة ، ويتوقع هجوماً منسقاً باتجاهه تقوم به مجموعتا الجيوش A , B في قطاع ستالينغراد ، إلا أن الانتصارات التي كانت قد أحرزتها جيوشه في شهري مايس وحزيران ، شجعتة ودفعته لأن يفصل مجموعتي الجيوش A , B عن بعضهما معتمداً على أن الجيش الألماني لديه القوى الكافية للعمل في عدة اتجاهات مختلفة .

وباصراره على الوصول بأسرع ما يمكن إلى القوقاز لم يعد يعطي الأهمية الكافية لوصول قواتنا الجديدة إلى منحني الدون الكبير ، لذلك نقل الجيش الرابع المدرع بقيادة هوت عبر التشكيل القتالي للجيش السادس بقيادة فون باولوس ، إلى جناحه الأيمن باتجاه ستالينغراد ، وتسلياً فاكاياء والحق بمجموعة الجيوش (A) . كما تم تشكيل مجموعتي جيوش بهدف احتلال مدينة ستالينغراد ، من قوى الجيش السادس الألماني والجيوش الرومانية .

كانت مجموعة الشمال المؤلفة من أربع فرق مشاة وفرقتين مدرعتين وفرقتين

اليتين ، قد بدأت منذ ٢٣ تموز بشن هجومها اعتباراً من قطاع غولوفسكي - بيريلزوفسكي على طول الضفة اليمنى لنهر الدون باتجاه فيرخنه - بوزينوفكا ومالو - فاباتوفسكي ، وكان الهدف الذي أعطي لها هو احتلال كالاتش .
أما المجموعة الوسطى والتي كانت مشكلة من فرقتي مشاة وفرقة مدرعة من الفيلق الواحد والخمسين فقد بدأت هجومها في ٢٥ تموز اعتباراً من قطاع اوبفسكايا - فيرخنه اكينوفسكي مستهدفة خرق الجبهة جنوب سوروفيكينو ، والوصول إلى كالاتش من الجنوب عن طريق ستارومكسيموفسكي .
كانت هاتان المجموعتان تشكلان قسماً من الجيش السادس الذي كانت مهمته تطويق وتدمير القوات الرئيسية السوفيتية في منحنى الدون، ثم اجتياز النهر والسير نحو ستالينغراد .

كما شكلت مجموعة ثالثة وهي الجنوبية من فرقتي مشاة وفرقتين مدرعتين وفرقة آلية من الجيش المدرع الرابع ، وأربع فرق مشاة رومانية ، وكان على هذه المجموعة بعد عبورها نهر الدون في ٢١ تموز واحتلال رأس جسر ، أن تكون مستعدة إما لشن هجوم على المدينة من الجهة الجنوبية على طول الخط الحديدي بين كونلنمكوفو وستالينغراد ، أو نحو الجنوب باتجاه القوقاز .
ومن تحليل هذا الموقف يظهر لنا بكل وضوح أن كل الاعمال الهجومية للجيش الفاشية ، وبخاصة مجموعة جيوش الوسط كانت موجهة ضد الخط الدفاعي للجيشين ٦٢ و ٦٤ الذي هُييء على عجل . فلم يكن يخفى على استطلاع العدو الجوي الدائم اقتراب أرتانا ولا أعمال التحصين الدفاعية التي تقوم بها وحداتنا ، لذلك كان على علم بكل ما كان يحدث في قطاع الجيشين ٦٢ و ٦٤ .

ومن المناسب هنا اعتبار بداية معركة ستالينغراد ، في ١٧ تموز ١٩٤٢ وهو اليوم الذي دخلت فيه مفارز مقدمات الجيشين ٦٢ و ٦٤ بتماس مع عناصر العدو . وقد أظهرت هذه المقدمات من كلا الجيشين مقاومة حامية حتى ١٩ تموز ، ولكنها بعد ذلك التاريخ لم يعد بإمكانها احتواء اندفاع كتلة القوى الألمانية المتجهة نحوها .

وبهذا ابتدأت أكبر معركة في تاريخ الحرب العالمية الثانية .

● تقسم ملحمة ستالينغراد الكبرى إلى مرحلتين ، وفي كل مرحلة كانت تتعمق مختلف جوانب الخطة الاستراتيجية العامة التي وضعتها القيادة السوفيتية والتي

كانت تستهدف إلحاق الهزيمة بالعدو .

دامت المرحلة الأولى وهي الدفاعية من ١٧ تموز وحتى ١٩ تشرين الثاني حيث نشبت فيها المعارك على المشارف البعيدة والقريبة لمدينة سنالينغراد وبعد ذلك ضمن الدفاعات الداخلية في المدينة نفسها .

أما المرحلة الثانية من ملحمة ستالينغراد فقد بدأت في ١٩ و ٢٠ تشرين الثاني بهجوم معاكس قوي شنته الجبهات : جنوب - غرب وجبهة الدون وجبهة ستالينغراد ، كما تلقى كل من الجيشين ٦٢ و ٦٤ الأمر بشن الهجوم لتدمير العدو المحاصر في سنالينغراد وضمن المدينة .

لم نكن نعرف في ذلك الوقت ماذا ستكون عليه هذه الملحمة . وما هي نتائجها . وحتى لم نكن نستطيع أن نخمن جوانبها الاستراتيجية والتكتيكية . لقد أنهينا مهمتنا المباشرة في قطاع دفاعنا .

شعرت عندما كنا ننتظر أول لقاء لنا ضد الجيوش الفاشية بأنه لم تكن لدي الخبرة للقتال مع عدو قوي بهذا الشكل ، ومنمرس من خلال تجاربه . وكان عليّ قبل كل شيء دراسة تكتيكاته ونقاط ضعفه وقوته ، وقد تحدثت مع عدد من الضباط الذين قاتلوا قبلي حول هذا الموضوع .

ثمة أمر وضعته باعتباري ، هو أنه لا يمكن أن أجد لدى أركان الجيش ما أستطيع أن أتعلمه وأعرفه عن العدو ، ونتيجة لذلك سعيت قدر ما أستطيع أن أظل بين القوات لأتلم بجانب رؤساء مجربين . وأستفيد أيضاً من تجارب الجنود وملاحظاتهم .

بعد عودتي إلى أركان الجيش ٦٤ في ٢٢ تموز علمت أن غوردوف قد استدعي أثناء غيابي إلى موسكو . وقد عاد بعد أربع وعشرين ساعة قائداً لجبهة ستالينغراد .

وصل إلى أركان الجيش ٦٤ أمراً من قيادة الجبهة ينص على وضع اللواء ٦٦ لمشاة البحرية واللواء المدرع ١٣٧ على طول الضفة الغربية للدون نحو ستانتسيا تسيمليا نكايًا بمهمة ضرب العدة من الجانب والمؤخرة وتدمير مجموعة العدو ، التي كانت تقوم بالعبور في هذه النقطة على الدون . وبأمر من الجنرال غوردوف ، تمركزت قواتنا في ليل ٢٣ تموز في ستانيتسا سوفوردسكايا ، ولكن دبابات اللواء المدرع الثقيلة ، لم تتمكن من عبور الدون ، لأن جسر فيرخنه - تشيرسكايا ، لا يتحمل وزنها الثقيل ، لذلك ضعفت مساهمة هذا اللواء

المدرع في التشكيلة القتالية إلى مستوى فوج مشاة مدرع مع خمس عشرة دبابة
ت ٦٠ خفيفة .

علمنا فيما بعد حجم القوات العدو الرهيبة ، التي نفذت إلى قطاع
تسيليانسكايا ، ولكن عندما وقع أمر إرسال اللواء لم يكن لدى أركان الجبهة - مع
الأسف المعلومات الأكيدة عن ضخامتها وإمكاناتها لكي ترسل هذه المفزة التي
لا معنى لإرسالها ضد فيلق الدبابات الألماني ٤٨ التابع للجيش المدرع الرابع ،
وكذلك ضد الفيلق الرابع الألماني، والجيش السادس الروماني في قطاع جارنا
الجيش ٥١ التابع لجبهة الجنوب .

لم يستطع استطلاع الجيش ٦٤ الاستيضاح مطلقاً عن الموقف . وقد قدمت
اعتراضاتي على تجزئة قوائنا ، ولكن غوردوف لم يبلغ أمره وكان عليّ أن أذهب
بالطائرة 2 - OU إلى سوفوروفسكي لأسهر على تنفيذه .

بدأت المفزة سيرها في الساعة العاشرة من يوم ٢٣ تموز إلى أماكن تمركزها
بانجاه ستانتسيا تسيمليانسكايا . وبعد إنتهاء مهمتي قررت العودة عن طريق
الجو بالطائرة 2 - OU والطيران فوق جبهة الجيش لأشرف على مواقعنا من
الجو . وعندما وصلنا إلى الجهة الجنوبية الغربية من سوروفيكينو صادفتنا طائرة
فاشية من نوع 88 - JU ، ولم يلبث قائدها عندما شاهدنا أن عاد باتجاهنا، بعد أن
دار بورة وأخذ بمهاجمتنا . وكانت طائرتنا 2 - OU خالية من الأسلحة في حين
كان لدى «الجونكرز ٨٨» مدافع ورشاشات . وهنا بدأت لعبة القطعة والفأرة
بيننا ، فقام القرصان الفاشي بعشر هجمات علينا . وكان يبدو لنا أن طائرتنا
سنتمزق في الجو لا محالة بسبب طلقات المدافع والرشاشات التي أصيبت بها.
وكان من غير الممكن أن نهبط في السهوب المكشوفة لأننا بذلك سنوفر للطائرة
العدو هدفاً ثابتاً يمكن تدميره بواسطة مدفع الطائرة . وكان طيارنا يتجه نحو
الشرق، أي جهة الشمس مفتشاً على الأقل عن قرى أو بيوت أو مجموعة أشجار
يمكن أن يختفي بها مؤقتاً من هذا النازي الملعون، ولكن السهوب كانت عارية
تماماً وعلى امتداد النظر . لا أنذكر كيف جرى الحادث ولا متى . ففي المرور
الثامن أو التاسع لطائرة العدو بقربنا نحطمت طائرتنا وهوت على الأرض بعد أن
انشطرت إلى قسمين . وبسبب أننا كنا نحلق على مستوى منخفض جداً سقطنا
بظروف ملائمة نسبياً لكننا . وقد خرجنا من قمرة الطائرة أنا والطيار سالمين عدا
بعض الجروح العميقة في ركبنا .

عندما رأى الطيار المعادي القدر طائرنا شتعل قام بحركة دائرية وانجه رأساً نحو الغرب واخفى وراء الأفق ، معتقداً أنه قضى علينا .
وقد وصل إلينا حالاً ضابط من مكتب عمليات الجيش ٦٢ النقيب أ . سيمكوف ، الذي أصبح فيما بعد بطل الاتحاد السوفيتي . ونقلنا من السهل بالسيارة خارج المنطقة الخطرة .

كانت تدور خلال ذلك الوقت معارك طاحنة على الحناح الأيمن للجيش ٦٢ مع المجموعة الشمالية العدو والتي كانت أقوى المجموعات ، وقد استطاعت هذه المجموعة أن تنفذ في مساء ٢٢ تموز على المنطقة الرئيسية للجيش ٦٢ .
وبالرغم من البطولة الصلبة التي أظهرها رجال المفارز المتقدمة التابعة للجيش ٦٢ استطاع العدو رغم الخسائر التي تكبدها أن يواصل تقدمه . وكان رجالنا يقاتلون ببسالة وهم ينراجعون نحو قواعدهم . وكان نراجعهم صعباً بسبب السهوب المكشوفة التي كانوا يسرون فيها ونحت ضغط القوى المعادية ، وبخاصة أن العدو كان متفوقاً عليهم . مما أدى إلى وقوع خسائر فادحة في صفوفنا .

استطاع العدو تجاوز مفارز المقدمات التابعة للجيش ٦٤ ، التي لم تستطع النفوذ على نهر «نسيما توسين» حتى ٢٣ تموز وكان الفيلق ٥ الهتلري يضغط عليها بكل قوته .

وقبل أن أستعرض مجرى العمليات العسكرية في منحنى الدون الكبير سأذكر بعض الكلمات عن عمل الحزب في الجيشين ٦٢ و ٦٤ .
كانت المنظمات السياسية والحزب في الجيش ٦٤ حتى ذلك الوقت مشتتة في قوافل السكة الحديدية ونقاط المراحل للارتال المختلفة التي كانت تسير منفردة نحو خط الدفاع .

ولكن الموقف بالنسبة للجيش ٦٢ كان أفضل بشكل ملحوظ . فعندما نقلت قيادة الجيش أمر القيادة (الستافكا) لأخذ مواقع الدفاع في منحنى الدون الكبير أرسل المجلس العسكري للجيش ٦٢ بقيادة عضو اللجنة المركزية للحزب غوروف ، وقوميسار اللواء ١ . فاسيليف إلى مختلف النواحي ، العاملين في الحزب لنأمين وصول القوات بسرعة إلى مواقعها الدفاعية . وتنظيم المناطق الدفاعية وجعلها صعبة المنال على العدو .

كما أرسل ضباطاً من هيئة أركان القسم السياسي للجيش لأقسام ووحدات

الجيش لتأمين وتنظيم عمل الحزب مع الالتزام الدقيق بمهمة القتال .
لقد وجه المجلس العسكري انتباهاً خاصاً لدعم فعالية منظمات الحزب
والكومسمول (منظمة الشبيبة) في سرايا المشاة والمدفعية . ويمكن أن نحصي
في ٢٠ تموز ١٩٤٢ بين قوات الجيش ٣٢٥٥ عضواً و ١٧٤٤ مرشحاً للحزب
الشيوعي وكذلك ١٦٤٢٥ من الشبيبة ، أي بنسبة ٢٥٪ من تعداد الجيش .

كان عمل الحزب في الجيش ٦٤ يعظم بمقدار ، وحسب وصول عناصر
الجيش ووحداته للجبهة . وكان ضباط الأركان الشيوعيون والموجهون
السياسيون يمضون جل وقتهم في الخطوط الدفاعية الأولى على الطرف الغربي
للدون ، ويستقبلون الأقسام والوحدات التابعة للجيش منذ وصولها ، ويضعونها
في مكانها ، وفي القطاع المخصص لها ، وينسقون العمل التوجيهي والمعنوي
لتهيئة دفاع صلب .

هاجم العدو صباح يوم ٢٣ بقوات متفوقة القطاعات الضعيفة في التشكيل
القتالي للجيشين ٦٤ و ٦٢ . وكانت هذه منتشرة على جبهة واسعة مع ضعف في
تنظيمها . فتعقد موقف قواتنا في هذا القطاع بشكل أن الفرقة ١٩٢ وفرقة مشاة
الحرس ٣٣ كانتا تدافعان عن مواقعهما دون نسقٍ ثانٍ ، ودون دبابات المرافقة
التي تدخل عادة في تشكيل أفواج المقدمة . وكانت المنطقة الدفاعية زيادة على
تلك تحوي على ثغرات كبيرة بين مراكز مقاومة الأفواج .

استطاع العدو في ٢٤ تموز اختراق الجناح الدفاعي للجيش ٦٢ على جبهة
كليتسكايا ايفسترا كوفسكي - كالميكوف ، ثم زج بوحدات جديدة مطوراً هجومه
نحو مانولين - مايروفسكي - ومن بلاتونوف نحو فيرخنه - بوزينوفكا . وفي نهاية
يوم ٢٤ وصلت رؤوس وحدات الفرق الآلية العدو ٣ و ٦٠ إلى الدون في قطاع
غولوبينسكايا وقطاع سكفورين .

بعد التقدم الذي أحرزه العدو قرر قائد الجيش ٦٢ كولباكيتشي الشروع بهجوم
معاكس مع الأخذ بالاعتبار صعوبة الموقف . وتشترك في هذا الهجوم قوات
الفيلق المدرع الثالث عشر ، ووحدات من فرقة الحرس المدرعة ٣٣ وذلك
لتنشيط الموقف في المنطقة الدفاعية لفرقة مشاة الحرس ٣٣ ثم الهجوم على طول
الجناح الأيمن للجيش ، وقد حدد تاريخ البدء بالهجوم المعاكس الساعة العاشرة
من صباح اليوم التالي . لذلك لم يكن هناك سوى خمس ساعات للتحضير .

على كل الأحوال ، كانت تلك مبادرة شجاعة من قبل قائد الجيش ٦٢ لإيقاف

تقدم عدد متفوق بالقوى ، ونظراً للسرعة التى تقرر فيها الهجوم لم يكن لدى صحافة الجيش الوقت ، بعد أن علمت متأخرة بالهجوم لنشر وإظهار بعض الأمثلة - كما جرت العادة قبل أي هجوم - عن بطولات المحاربين وبثها بين الجنود لرفع معنوياتهم ، ودفعهم لمحاكاتها . وكانت التقارير السياسية والنشرات والبلاغات عن بطولات الأفراد والضباط تصل بواسطة أجهزة الاعلام إلى كل المحاربين . كما كانت تشرح لهم عن الخسائر الفادحة التى تكبدها القوات الفاشية . وأنه من الممكن التغلب على العدو وإيادته بالقتال الصلب وحسن التصرف في المعركة .

قام أربعة رماة ضد الدبابات بمأثرة بطولية كان لها نوي وصدى في كل الجبهة وهم بيوتر بولوتو- غريغوري سامويليف- الكسندر بيليكوف ثم إيفان الينيكوف ، فقد اتخذ هؤلاء الأبطال مواقع لهم على هضبة عالية ، بالقرب من كلبتسكايا وحفروا فيها مخابىء وخنادق هُيئت بشكل جيد واستعدوا للقتال ، وبب المرور بينهم عندما شاهدوا سحابة ترابية تتجه نحوهم، ثم ظهرت الآليات فأخذوا يعدون الدبابات المتجهة نحوهم فعد بيليكوف ثلاثين دبابة ، أي سبعة دبابات حصه كل رام ، مع زيادة دبابتين للجميع .

كانت الدبابات تنتشر بتشكيلة الهجوم ، وتتقدم الجميع دبابة نموذج (راني ميتلى) تحيط بها من كل جهة دبابتان طراز ت ٣ ، ثم دبابة خفيفة طراز ت ٢ تسد الطريق ويقف سدنة الدبابات بأرديتهم السوداء منتصبين في أبواب وفتحات الدبابات المفروحة نون مبالاة ، وكما اتضح أنهم حتى ذلك الوقت لم يكتشفوا وجود جنودنا على الهضبة .

لاحظ بيوتر بولوتو الصليب الحديدي ذا الحاشية البيضاء بشكل واضح على الدبابات ثم أحكم مقياس التسديد . وضغط على زناد بندقيته المضادة للدبابات فأصاب الدبابة راني ميتلي واشتعلت فيها النيران مما جعلها تبطىء في سيرها وأخيراً توقفت . ثم فتحت نوافذها ، وأخذ سدنها يغادرونها ، ثم أطلق الكسندر بيلكوف على دبابة خفيفة (ت ٢) فاشتعلت هي الأخرى بالنيران ، ويبدو أن الطلقة المضادة أصابت مسنود الوقود فيها وبعد بضع ثوان ، أخذ بولوتو وبيلكوف يصوبون بدقة على الأهداف فأصابوا دبابتين من طراز ت ٣ . ولم يحصوا عدد الطلقات التي أصابتها . ولكن الدبابتين توقفتا بعد أن اشتعلت فيهما النيران . وتتابعت المعركة حتى المساء ، أي حتى اللحظة التى توقف فيها

الفاشيون عن الهجوم وغيروا اتجاه دباباتهم . وكانت هناك عشر دبابات نشنعل حول الهضبة ، وعلى هذا الشكل أنهى الأبطال الأربعة معركتهم الأولى . وهذه المأثرة البطولية لم تكن الأولى ولا الأخيرة في الجبهة .

ومع أن وحدات الجيش ٦٤ قد أخذت في هذه الفترة مواقعها الدفاعية المحددة لها في الجبهة ، إلا أن هذه الوحدات لم تكن كاملة . عدا الفرقة ٢١٤ مشاة بقيادة الجنرال ن . بيركوف ولواء مشاة البحرية سميرنوف ، فكانتا في وضع أحسن ووصلتا بكاملهما ولديهما ثلاثة أيام لنحسين دفاعهما ، أما فرقة المشاة ٢٢٩ فلا تزال تنابع طريقها نحو خط الجبهة .

وبتنقل كل من اللواءين ٦٦ مشاة البحرية و ١٣٧ المدرع بأمر قيادة الجبهة اعتباراً من سوفوروسكوي باتجاه تسيمليانسكايا ، فقد أصبح بإمكان العدو - حسب تقديري - أن يأخذهما من الجانب .

لذلك ، وبعد أن علمت بأن العدو عاود الهجوم على جبهة الجيش ٦٢ وعلى المواقع القتالية للمفارز المتقدمة للجيش ٦٤ ، رجوت قيادة الجبهة باصرار إعادة الألوية المذكورة إلى مواقعها الأولية ، وقبل غوردوف اقتراحي ، ولهذا غيرت تلك الألوية طريقها واتجهت نحو فيرخنه - تشيرسكايا في الساعة السابعة عشرة من الرابع والعشرين من تموز .

كما أنني عازمت أيضاً على نقل فرقة المشاة رقم ١١٢ إلى الطرف الأيمن لنهر الدون ، وإقامة موقع دفاعي نهري على المجرى الأسفل لنهر تشير في نقطة اتصال الجيشين ٦٢ و ٦٤ ، وقد أقرت قيادة الجبهة مباشرة هذا الاقتراح . لم يؤد الهجوم المعاكس الذي شن في الرابع والعشرين من تموز حسب القرار الذي اتخذه قائد الجيش ٦٢ الجنرال كولباكشي بقوى الفيلق المدرع الثالث عشر (١٥ دبابة) ولواء مشاة مع فوج من الدبابات مع دعم ثلاثة ألوية مدفعية إلى أية نتيجة إيجابية . وكان السبب في هذا الاحباط هو أن الفيلق المدرع ١٣ المشكل حديثاً ، لم يكن مستعداً للمعركة ، فلم يكن لديه الوقت الكافي لتنظيم التعاون مع الوحدات الأخرى والطيران .

وفي الوقت الذي استثمر فيه العدو في الرابع والعشرين من تموز تفوقه بالطائرات والدبابات ، وتابع تطوير هجومه استطاعت الفرقة المدرعة السادسة عشرة ، وفرقة المشاة العدو أن تحققاً الخرق في قطاع كاتشا لينسكايا ونفذت إلى نهر لبسكا .

نجح العدو في نهاية النهار وبدعم الفرق الآلية ٣ و ٦٠ من تدمير أركان فرق المشاة ١٨٤ - ١٩٢ في قطاع فيرخنه بوزينوفكا ، وتحقيق الخرق في قطاع كلوبينسكوي ، ومالوناباتوفكا إلى تهديد وحدات الجناح الأيمن للجيش ٦٢ بالنطويق .

عزم قائد الجيش ٦٢ في صباح ٢٥ تموز على القيام بهجوم معاكس جديد على الغزاة الذين اخترقوا مؤخرات الجيش ، ولتنفيذ هذا المشروع تقرر أن يشترك في الهجوم الفيلق المدرع ١٣ ووحدات من فرقة المشاة ٣٣ للحرس . وفرقة المشاة ١٩ المعززة بفوج مدرع ٦٤٩ كما استدعيت الفرقة ١٩٦ ، والتي بحسب هذا القرار ، كان عليها أن نترك منطقة دفاعها ، خلال الليل ونقوم بمسير ليلي لمسافة ٧٥ كم وأن نقوم بالهجوم الساعة السادسة صباحاً من يوم ٢٦ تموز باتجاه سكيفورين - سوخانوفسكي - فيرخنه بوزينوفكا . وبدأت الفرقة سيرها يوم ٢٥ ولكن لم يصل منها في نهاية يوم ٢٦ سوى عناصرها المتقدمة . التي وصلت إلى قطاع سكفورين ، أما قوتها الرئيسية فلم نصل حتى يوم ٢٧ .

وهنا استطاعت الفرقة المدرعة العاشرة العدو من تحقيق إتصالها مع الفرقة المدرعة ٢٦ في نهاية ذلك اليوم في قطاع سوخانوفسكي ، ونتيجة لذلك وجدت فرق المشاة السوفيتية ١٨٤ - ١٩٢ وألوية المشاة ٨٤ - ٨٨ وفرقة مشاة الحرس ٣٣ واللواء المدرع ٤٠ والفوج المدرع ٦٤٤ وثلاثة ألوية مدفعية دعم ، وجدت نفسها محاصرة من قبل العدو .

اضطرت مجموعة من الضباط وعلى رأسهم العقيد (جوارفليف) رئيس مكتب عمليات الجبهة للهبوط بالمظلات في القطاع المحاصر لتأمين قيادة القطعات هناك . وقد تم تنظيم دفاع دائري على خط بلاكونوف - انيسترانوفسكي - كالميكوف - دماريوسفكي تحت قيادة هؤلاء الضباط .

أما وحدات الجيش ٦٢ فقد صمدت طوال يوم ٢٦ تموز في المعارك الحامية ضد العدو ، الذي استطاع فيما بعد اختراق الجناح الأيمن للجيش .

تجمعت خلال تلك الفترة قوات هامة تحت تصرف أركان الجبهة ، وقد تم وصول احتياط من القيادة العليا (الستافكا) وكان مؤلفاً من الجيشين المدرعين الأول والرابع ، وكل واحد منهما كان مؤلفاً من أربعة فيالق بتعداد ٦٠٠ دبابة ، كما وصلت فرق المشاة ١٢٦ - ٢٠٤ - ٣٢١ - ٣٩٩ ووحدات أخرى .

كانت (ستافكا) القيادة العليا وستالين شخصياً يلحان ليس على إيقاف العدو ،

بل على إيعاده إلى الضفة الأخرى لنهر تشير .

تلقت في يوم ٢٥ تموز ١٩٤٢ عمادة النار:

كان العدو يوجه جهده الرئيسي ضد فرقة المشاة ٢٢٩ ، بقوى فرقتي مشاة وفرقة مدرعة عدوة . وكانت الفرقة ٢٢٩ تشكل جناحنا الأيمن . وكانت تحتل خطا دفاعيا بطول ١٥ كيلومتر من الجبهة بخمسة أفواج فقط ، أما الأفواج الأربعة الباقية التابعة للفرقة فكانت لا تزال في الطريق وضمن تشكيل قتال الفرقة، وفي العمق كان اللواء المدرع ١٢١ موجوداً وكان لديه خمس دبابات ثقيلة وسبع دبابات ت ٣٤ وعشرون دبابة ت ٦٠ .

وعقب بزوغ الفجر نشبت المعركة المرنقبة :

قام العدو في البداية بالهجوم بفرقة مشاة مع الدبابات على وسط دفاع فرقة المشاة ٢٢٩ حيث كان اللواء ١٨٣، وبالرغم من التفوق المعادي ، صدت أفواجنا بعنف هجمات مشاة العدو ودباباته . وقد دمر له تسع دبابات وقتل أكثر من ٦٠٠ هلري في قطاع اللواء ٧٨٣ .

استطاع العدو بعد الظهر أن ينسرب إلى خطوط دفاعنا . وأخذ رماته بهاجمون مقر قيادة الفرقة مما أجبر قائدها على الانسحاب بسرعة . وأدى ذلك لانقطاع الاتصال مع لواء المشاة ٧٨٣ ، والفوج الثاني من لواء المشاة ٨٠٤ ، وقد أرسل ضابط داخل دبابة إلى تلك الوحدات ولكنه لم يعد ، فقد قتل بدون شك . وعلى هذه الصورة أنهيت أول يوم قتال لي . ولم يكن لدينا في يوم ٢٥ تموز شيء لدعم فرقة المشاة ٢٢٩ فقد كان جميع الاحتياط موجوداً إلى الشرق من الدون . دفع العدو في يوم ٢٦ تموز الساعة الخامسة صباحاً وبهجوم جديد بمشاركة دباباته وبعد تمهيد المدفعية وغارات الطائرات . ومن مرصدي الواقع على بعد عشرة كيلو مترات شمال غرب نيجنه تشيرسكايا ، شاهدت أكثر من ثمانين دبابة عدوة تقدم الهجمة وتحت نيران المدفعية والهاون ، وقد وجه الجهد الرئيسي للعدو ضد منطقة دفاع لواء المشاة ٧٨٣ .

كنت أشاهد دبابات العدو التي كانت تحميها الطائرات تتغلغل ضمن دفاعنا . وقد اصطدمت مجموعة منها بدباباتنا الثقيلة من نوع ك . ف (كيم فورشيلوف) ، وبدأت المعركة ، فصدت دبابتنا الثقيلة دبابات العدو ، ولكن دبابتنا الخفيفة ت ٦٠ تكبدت خسائر فادحة . وتشتتت في الوديان حالا ، وقد قتل قائد لواء المشاة ٧٨٣ كما جرح الموجه السياسي، وأخذت قوات اللواء تقاتل

ونترجع نحو الشرق .

زج قائد الفرقة بالمعركة حالاً بفوجين من لواء ٨٠٤ التي كانت قد وصلت لتوها ، وذلك في محاولة للحد من هجوم العدو . ولكن كانت الفرصة قد فاتت . لذلك وقعت هذه الأفواج تحت رحمة نيران الدبابات الألمانية ، فاضطرت للتشبث بالأرض . وبعد بضع ساعات من هجمات الدبابات والمشاة العدو . ودون أن يترك لها الفرصة لحفر خنادق لها ، لم تتمكن من الصمود طويلاً فاضطرت للترجع نحو قرية سافنيسكي على الضفة اليمنى لنهر تشير لتحمي جناح الجيش ٦٢ ، وقد كببت هاونات الحرس ومدفعية الفرقة ٢١٤ العدو خسائر فادحة ، حيث كانت تصب نيرانها على تجمعات الهتلريين في هذا القطاع ، ورغم الخسائر الفادحة تابعت الوحدات العدو السير قدماً الى الامام ، وقد زج العدو في هذه المعركة ظهراً مجموعتين من الدبابات : واحدة منها كانت تعد حوالي أربعين دبابة ، أخذت تلاحق الأفواج المتراجعة نحو نهر تشير ، بينما كانت المجموعة الأخرى تتجه صوب « نيجنة تشيرسكايا » .

ظهر بوضوح حوالي منتصف النهار أن دفاعنا في قطاع فرقة المشاة ٢٢٩ تم اختراقه على جناحه الايمن . واندفع العدو نحو نهر تشير لكي يسيطر على نقطة إتصال الجيشين ٦٤ و ٦٢ ، ولم يكن لدى جيشنا أي احتياط على الشاطئ الغربي لنهر الدون ، فلواء مشاة البحرية ٦٦ ، وقسم من قوى اللواء المدرع ١٣٧ الذي كنت قد أعدته إلى (تسيمليانسكايا) ، ترجها نحو نيجنة تشيرنكايا ، وكان سير البحارة بطيئاً بسبب الانهاك الذي أصابهم من جراء قيامهم بمسير طويل غير مجد . كما استنفذ هذا المسير محروقات الدبابات . وحتى أعيد الإتصال بين الجيشين ٦٢ و ٦٤ ، وأزيل تأثير اختراق العدو ، اتخذت القرار التالي : دفع فرقة المشاة ١١٢ لعبور الدون عن طريق جسر سكة الحديد . وكانت هذه الفرقة حتى ذلك الوقت في وضع جيد ، وكان عليها السير ليلاً مع عشر دبابات ك . ف التابعة للواء المدرع ١٣٧ ، بمهمة احتلال خط دفاعي اعتباراً من ستاروماكسيموفسكي . وعلى طول نهر تشير حتى مصبه ، والتحصن في مواقع ملائمة . كما كان عليها أيضاً تأمين إتصال مباشر وقوي بين الجيشين ٦٤ و ٦٢ . وعدم السماح للعدو بالهجوم من جانب ومؤخرة الجيش . ٦٢ .

نجحت هذه المناورة : في مساء ٢٦ تموز اجتازت فرقة المشاة ١١٢ النهر

وسارت على خط سكة الحديد ريتشكوفسكى - ستاروماكسيموفسكى ، حيث تم الانصال مع فرقة المشاة ٢٢٩، ونجحنا أيضا بنقل قسم من قوات لواء مشاة البحرية ٦٦ ، ومجموعة مدفعية الى الشمال الغربى من نيجنه تشيرسكايا إلى النسق الثانى ، خلف فرقة المشاة ٢٢٩ . وبالمقابل لم سنطع الدبابات الخفيفة التابعة للواء المدرع ١٣٧ من الوصول إلى نيجنه تشيرسكايا بسبب نفاذ وقودها ، وكان علينا نقله من الضفة الشرقية لنهر الدون . ومن أجل تحقيق الإنصال بين الفرق ٢١٤ - ٢٢٩ أجبرنا على تقسيم أفواج من اللواء ٦٦ من الرماة البحرية مع مدفعينهم عوضاً عن الدبابات . ولكن هذه الوحدات هوجمت حالاً من الجو . ثم من أمواج الدبابات الألمانية فاضطر البحارة للاحتماء بالأرض وحفر الخنادق وأخذوا في صد الهجمات المعادية .

كان القطاع المتجه نحو نيجنه تشيرنسكايا أكثر القطاعات خطورة . فاذا استطاعت دبابات العدو النفوذ من هذه الجهة فبإمكانه احتلال معاير الدون وممرات نهر تشير بنفس الوقت . ولم يكن لدى جيشنا أسلحة مضادة للدبابات . ودبابات اللواء المدرع ١٣٧ الخفيفة دون وقود . والأمل الوحيد الذي كان لدينا هو الاعتماد على مجموعة المدفعية التابعة للواء مشاة البحرية ٦٦ والتي كانت مدافعها تجرها الخيول . كانت هذه منهكة جداً وأصبحت بحالة ضعف شديد ورغم ذلك فبإمكان هذه المجموعة أن تنتقل قدر الامكان .

تلقى النقيب نوفيكوف قائد الفرقة في حوالي الساعة ١٤ من يوم السادس والعشرين من تموز مهمة تقضي الانتشار باتجاه الغرب في شمال غرب مدينة نيجنه تشيرسكايا ، ومنع دبابات العدو من استخدام ممرات نهري الدون والتشير .

نشرت الفرقة بسرعة سرايا المدفعية الثلاث التابعة لها ، واتخذت هذه تشكيلة القتال على جبهة بعرض حوالي ٢ كم، ونشر قادة السرايا وحداتهم « قائد السرية الأولى والثالثة هما الأخوان الملازمان الأولان د . ديفرييف و ب . ديفرييف، أما قائد السرية الثالثة فكان الملازم روجكوف » تحت سماء مكشوفة فلم يكن لديهم الوقت لحفر المخابض وحمايتها قبل ظهور دبابات العدو ، وبذلك قبل رجال مدفعية الرماة البحرية التحدي واستعدوا للمعركة .

فتحت حوالي خمس وعشرين دبابة عدوة نيران مدافعها عشوائياً ، وعلى بعد كيلومتر ونصف الى كيلومترين على مواقع سرايا المدفعية التى كانت بحالة

الانتشار ، ولكن رجال مدفعيتنا تركوا ببرود وهدوء دبابات العدو تصل إلى بعد ٤٠٠ - ٦٠٠ متر وفتحوا عليها نيران كثيفة ، وقد شوهدت دبابتان تشنعل فيهما النيران وهما في مكانهما وابتدأت المبارزة بين رجال الدبابات المعادية ومدفعيي البحرية السوفيتية . كانت الدبابات ننقم دون النظر للخسائر ، ورغم أنها كانت تحترق كالشعلة الواحدة تلو الأخرى . وقد غطى سنار من الدخان والغبار ساحة المعركة ، ولكن الصراع كان غير متكافئ ، فرجال الدبابات كانوا يحتمون بدروع دبابتهم وبحركة متواصلة ، بينما كانت سرايا مدفعيتنا ثابتة ومكشوفة . ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً ، فالكشافون ورجال الإتصال أخذوا يحلون محل رفاقهم القتلى ، حيث أعطيت الأوامر للكشافين بتحضير القنابل المضادة للدبابات والزجاجات الحارقة .

لم تدم المعركة سوى ساعة من الزمن ، وظهر أن أعصاب رجال مدفعيتنا أكثر صلابة من أعصاب رجال الدبابات العدو ، فبعد أن خسر هؤلاء ١٢ دبابة عكسوا اتجاه دبابتهم ، ولم تستطع دبابت العدو ومشانه حتى هبوط الليل الاقتراب من نيجنه . تشيرسكايا . وقد أدت صلابة رجال المدفعية والرماة من مشاة البحرية إلى أن يعتقد العدو بأنه اصطدم بدفاع محضر مسبقاً ، ولكي يتغلب على هذه المقاومة ، زج العدو بطائره ضد الرماة ومدفعية لواء المشاة البحرية ٦٦ ، وأخذت أمواج من الطائرات ، تشارك في كل تشكيله من ٢٠-٢٥ طائرة تقصف مواقعنا الأمامية ومؤخراتنا ، وكذلك الممرات على الدون والتشير .

أشرت هنا إلى بسالة رجال مدفعية اللواء ٦٦ الذين صدوا هجوم مجموعة قوية من دبابت العدو ، كانت متجهة نحو ستانيتسا . ونيجنه . تشيرسكايا ومعابر الدون في ذلك القطاع . فلو استطاع العدو في يوم ٢٦ احتلال نيجنه تشيرسكايا لكان بإمكانه اجتياز نهر تشير في نفس اليوم ، والنفوذ مباشرة إلى جناح ومؤخرات الجيش ٦٢ من الجنوب .

رغم كل شيء ، كان يبدو أنه باستطاعتنا إيقاف العدو ومنعه من الوصول إلى مجرى نهر الدون أو التشير وسد الخرق . ولكن الأخبار التي تناقلتها الأفواج وفي رحبات المدفعية . وقوافل السكة الحديدية ، الموجودة على الطرف الأيمن لنهري الدون والتشير ، والتي تفيدنا بأن الدبابات الألمانية هي على بعد كيلومترين أو ثلاثة كيلومترات ، لذلك توجه كثير من الأشخاص نحو المعبر

لاجتيازه . وقد أرسلت إلى المعبر ضباط الأركان الذين كانوا بجانبني مع الماجور جنرال المدفعي «ابرود» لإيقاف الأشخاص والطواقم ومنعهم من العبور . ولكن كان ذلك دون نتيجة ، حيث اكتشف العدو بقرب الممر تجمعا كبيرا للآليات وأخذ في قصفها . وكان الجنرال «ابرود» من جملة القتلى خلال الغارات ، وكذلك رئيس العمليات العقيد سيدورني (رئيس المهندسين في الجيش) ، والعقيد بوريوس وغيرهم من ضباط الأركان . وفي المساء قطع جسر نيجنه تشيرسكايا على الدون بعد غارات الطيران المعادية عليه ، وبقي في الضفة الشرقية من الدون كل من الوحدات : فرقة المشاة ٢١٤ ، ولوائي مشاة البحرية من الجيش ٦٤ دون معبر .

قام رئيس أركان الجيش العقيد ن . نوفيكوف ، وعضو المجلس العسكري قوميسار الفرقة ك . ابراموف اللذين كانا في المقر الرئيسي للجيش ، وبدون علمي . (كنت حتى ذلك الوقت في نيجنه تشيرسكايا) بمبادرة لا داعي لها . فقد وجهوا أمرا بالراديو إلى فرقة المشاة ٢١٤ ولوائي مشاة البحرية واللواء المدرع ١٣٧ بالانتقال للقتال التراجعي إلى ما وراء الدون ، ولم أعلم بذلك إلا بعد وصولي إلى أركان الجيش في ليل ٢٦ تموز . وكنت أرتجف من التفكير بما يمكن أن يحدث في الليل على النهر . لأنه في ذلك الوقت لم يكن هناك أي ممر صالح للعبور .

وكان من الواجب أن لا تنسحب للضفة الأخرى من الدون، بل من الضروري تنظيم الدفاع على الضفة الغربية ليستند عليه أحد الأجنحة . وقد وجهت كل وسائل الاتصال لا يصال هذا القرار إلى:الوحدات ، ولا أعلم كيف جرى ذلك ، والمهم أن الأمر وصل للقطعات والتراجع نحو الدون اتصف بالتنظيم نوعاً ما . وجرى العبور إلى الضفة الأخرى بدون خسائر .

لقد تم العبور بعد بنا ، جهد كبير . لأن وحدات فرقة المشاة ٧١ المعادية كانت تضغط علينا مباشرة ، ولم يكن لدينا تقريباً وسائل للعبور وكان أحد ألوية الفرقة ٢١٤ بقيادة الجنرال ن . بيركوف يغطي الممر . وقد قدم هو والموجه السيامي للفرقة «سوبول» البرهان على ما كانا يتمتعان به من قدرة كبرى في التنظيم والشجاعة الشخصية بقيادتهما لتراجع هذه الفرقة . ولم تكد الوحدات الأخرى بما فيها الفرقة ٢١٤ تعبر الدون، حتى احتلت مواضعها الدفاعية على الضفة الشرقية للدون .

وبفضل الاجراءات التي اتخذت مساء ٢٧ تموز أزيل تأثير الخرق ، الذي حصل على طول جبهة الجيش ٦٤ ، ولم يستطع العدو تطوير هجومه إلى أبعد من ذلك . وأوقف بين مجرى تشير والدون أزيل أيضاً خطر اختراق قطاع نيجنه تشيرسكايا الذي كان يهدد ستالينغراد ، ولم يعد بإمكان العدو القيام بخرق في الجنوب باتجاه المعابر في ضواحي كالاتش .

لم تكن ثلاثة أيام من القتال شيئاً ما ، ولكن بالنسبة لي ، وقد وصلت حديثاً إلى الجبهة كانت هذه الفسحة من الزمن بكل نقاطها ذات أهمية كبيرة .

اضطرت قطعات الجناح الأيمن للجيش ٦٤ أن تقاتل وهي متراجعة . ولكن هذه الصدمة الأولى التي تلقيناها لم تنل من بعضنا وتضعف شجاعتنا . وكنت متأكداً أن الزمن لا بد أن يحث سيشرب الضباط الهتلريون المزهوون بأنفسهم كأس المرارة من الهزيمة التي سيلحقها بهم الجيش الأحمر .

يعود النجاح الذي أحرزه العدو بقدر كبير إلى أنه شن هجومه في الوقت الذي كانت فيه وحدات جيشنا لم تكتمل بعد من فرق وألوية ، ولو كان لدينا من الوقت يومان أو ثلاثة لتنظيم الدفاع وتجميع الألوية والأفواج ومجموعات المدفعية وحفر الخنادق وإقامة التحصينات وتنسيق النيران والاتصال وإيصال الذخيرة ، وتنظيم التموين ، بشكل اعتيادي ، لما كان بمقدور العدو أن يخرق بسهولة دفاع جبهة الجيش ٦٤

ومن خلال مراقبتي للطريقة التي كان الهتلريون ينفذون بها هجومهم من تحضيرات المدفعية على قطاع فرقة المشاة ٢٢٩ ، لاحظت الجوانب الضعيفة في تكتيكاتهم . فنيران التمهيد بالمدفعية والهاون كانت تعمل منفردة وتوجه إلى الخط الأول فقط دون العمق . ولم تكن نلاحظ أبداً تبادل إطلاق النار على نطاق واسع خلال المعركة .

درست خلال سني الدراسة في الأكاديمية العسكرية « فرونزة » عدداً من عمليات الحرب العالمية الأولى على الجبهة الغربية . وقد أفادتني هذه الدراسات بالاطلاع على رأي القادة الألمان حول دور المدفعية في حرب مقبلة مثل (برنهار دي) ، كما لاحظت كذلك في الأيام الأولى من معركة الدون . وكنت أنتظر من المدفعية العدو تعاوناً تقليدياً وتنظيماً فعالاً لرمي الحاجز الناري ومناورة سريعة كالبرق بالنار وحركة الوسائط الآلية ، ولكن لم يكن هناك شيء من هذا ، لقد وجدت أمامي طريقة جديدة تماماً ، تقضم الخنادق بالتوالي الواحد

تلو الآخر .

لذلك لو كان لدينا دفاعاً أكثر عمقاً « ليس فقط خمس أفواج ، بل تسعة » واحتياطاً ضد الدبابات لكان بإمكاننا ليس فقط احتواء هجوم العدو ، بل تكبيده الخسائر الفاحشة .

كانت الدبابات الألمانية لا تتقدم بدون مشاة ودعم من الطيران . ولم نكن نلاحظ في ساحة القتال بسالة سدنة الدبابات الألمانية أو جرأتهم وسرعتهم في الأداء ، والتي كانت تصفهم بها الصحافة الأجنبية .

كانت قوة المشاة الألمان تكمن في فعالية أسلحتهم الأوتوماتيكية ، ولكن لم أشاهد مطلقاً السرعة في حركتهم ولا الضراوة في هجومهم . ولا يفتصد الألمان عادة بطولاتهم في الهجوم، بل كانوا يرمون غالباً دون هدف .

تجنب المشاة الألمان المعركة عندما قام لواء من الفرقة ١٢٢ في ٢٧ تموز بهجومه المعاكس على مزرعة نوفوماكسيموفسكي ، وأخذوا يقاتلون وهم يتراجعون ، ولكن في اليوم الثاني ، أي ٢٨ تموز عادوا للقتال بعد وصول الوحدات المدرعة ، وأخذوا يهاجمون المواقع التي كانوا قد تركوها دون قتال . كان الخط الدفاعي الألماني الأول مرئياً بوضوح وبخاصة في الليل ، وكان يستدل عليه من الرمايات الخطاطة والقذائف المختلفة الألوان، التي كانوا يطلقونها ، وربما يعود ذلك إلى الخوف من الظلمة ، أو أنهم كانوا يضجرون عندما لا يرمون ، وكانت تحركات القوات العدو واضحة جداً بسبب تحركات أرتال سياراتهم في السهوب المكشوفة ومصايبها مضاءة .

يعتبر الطيران المعادي أفضل أنواع الأسلحة التي كانت تعمل في ساحة القتال . وكان الاتصال بين الطيران والقوات الأرضية منظماً تنظيماً جيداً ، وكنت أشعر بأن الطيارين الألمان يعرفون تكتيكات جيوشهم البرية كما يعرفون تكتيكات عدوهم .

ومنذ أن يتمدد جنود المشاة الألمان تحت تأثير مدفيعتنا ورشاشاتنا على الأرض ، كانت الطائرات المنقضة تظهر بعد عشر دقائق وتشكل دائرة مغلقة وتأخذ في مهاجمة تشكيلاتنا القتالية ، ومواضع الرمي .

تلك كانت أول خلاصاتي حول التعرف على التكتيك المعادي : مراقبة العدو ، دراسة نقاط ضعفه ونقاط قوته ومعرفة عاداته ، وهذا يعني القتال والعيون مفتوحة ، والاستفادة من أخطاء العدو، دون تعريض نقاطنا الضعيفة

لضربة خطيرة .

كانت العمليات العسكرية الرئيسية اعتباراً من ٢٦ تموز حتى نهاية الشهر ، تدور على الجناح الأيمن للجيش في قطاع بولشايا اوسينوفكا ، ايرتسكي ، فيرخنه تشيرسكايا . وكان العدو يسعى في هذا القطاع لتحقيق الخرق عبر التشكيل القتالي للفرق ٢٢٩ - ١١٢ باتجاه الشمال الشرقي للنفوذ إلى مؤخرات الجيش ٦٢ وإلى معابر الدون في قطاع لوغوفسكي . وكالاتش .

كنت خلال ذلك الوقت موجوداً دائماً في مركز الرصد (المرصد الواقع على مرتفع شمال الخط الفرعي لسكة حديد رتشكوفسكي) ، وعلى إتصال مباشر مع قادة الفرق ٢٢٩ ، ١١٢ وبالوحدات الأخرى عن طريق أركان الجيش .

كانت المعركة تتابع بين كر وفر ، وخلال بضعة أيام من نشوبها كان العدو يدفع للهجوم بوحدات الفيلق ٥١ المعزز بالدبابات ، وكان العدو يرمي في بعض الأيام بمائة دبابة دفعة واحدة للهجوم . في الوقت الذي لم يكن لدينا سوى عشر دبابات في ذلك القطاع ، وعلى كل الأحوال كانت قواتنا وبخاصة الفرقة ١١٢ تتصدى لهجمات العدو، وتقوم هي أيضاً بهجمات معاكسة .

دام هذا الوضع بضعة أيام ، ولكن في ٣١ تموز شنت وحدات الفرقتين ٢٢٩ و ١١٢ صباحاً هجوماً معاكساً تدعمها الدبابات العشر نفسها والطيران . وقذفت بالعدو إلى الضفة الأخرى لنهر تشير . واستطعنا في مساء اليوم نفسه التقاط برقية لا سلكية معادية حول هجومنا، جاء فيها « هزمت وحدات الفيلق ٥١ التي اجتازت نهر تشير سورفيكفو »، وقد أرسل الضابط الذي وقع البرقية باسم (x) البرقية على الشكل المذكور آنفاً إلى أركان مجموعة الجيوش B .

عندما أعيد تشكيل الجيش ٦٤ ووضع في الاحتياط ، كان القسم الأكبر من جنوده وضباطه يشتركون لأول مرة في القتال ، ولكنهم عمدوا بالنار في سهوب الدون ، فلم تهن معنوياتهم ، ولم تهز الخسائر الأولية التي تكبدوها إيمانهم بقوتهم . وكانوا يقاتلون وهم يتراجعون وكثيراً ما كانوا يحتنون هجوم العدو ، ولا يخافون قوته الحقيقية ، ومع ذلك لا يمكن طلب المستحيل منهم .

كان التفوق المعادي كبيراً ، ولم يكن بإمكاننا إيقاف هجومه بالقوى التي كانت لدى الجيش ٦٤ في ذلك الوقت ، ولكن جنود وضباط الجيش ٦٤ استطاعوا احتواء الهجوم ، وأحبطوا مخططات الهتلريين التي كانت تستهدف تطويق وتدمير قواتنا الموجودة على الضفة الغربية لنهر الدون .

إنني أتذكر بسالة محاربي فرقة المشاة ١١٢ وقادنها أ. سلوغوب ومن بعده أ. ايمولكين ، الذين صمدوا على نهر تفير حتى نهاية تموز ١٩٤٢ ضد الفيلق ٥١ والفرقة المدرعة الألمانية ٢٤ ، دون أن يسمحوا لهذه القوات المتفوقة من النفوذ إلى جناح ومخبرات القوات الرئيسية للجيش ٦٢ من الجنوب . وهم الذين قاتلوا فيما بعد بين الفولغا والدون ببسالة ، وحتى في نفس مدينة ستالينغراد ، وقاتلوا منذ بداية المعركة الدفاعية حتى نهايتها .

كانت فرقة المشاة (٢٢٩) التي يقودها العقيد ف. ساجين ، هي الفرقة الثانية المنوادة بجانب الفرقة ١١٢ وتنفذ نفس المهمة وتقاتل نفس العدو ، وكان على هذه الفرقة التي لم نسنكمل حتى ذلك الوقت تجمعها ، أن تتلقى الصدمة التي وجهها الفيلق ٥١ والفرقة المدرعة ٢٤ من القوات الفاشية . وعلى خط الدفاع ، استطاعت أقسام ووحدات هذه الفرقة حفر الخنادق وتصنت لهجمات العدو المنكررة والتي كان يقوم بها العدو بدءاً من الجنوب باتجاه الشمال الشرقي نحو الدون . ومدينة كالاتش لكي يحقق إتصاله بمجموعات القوات الرئيسية التي كانت قد نفذت إلى الدون في قطاع غولوبينسكوبا .

لا يقع الخطأ على قائد هذه الفرقة التي طوقت فيما بعد مع بعض أقسام نعود إلى فرق مشاة أخرى غرب الدون ، ولكن قسم من هذه الوحدات النابعة للفرقة فتح طريقه نحو الضفة اليسرى لنهر الدون .

كنت أغتنم كل فرصة خلال معارك الدون ، لكي أحقق مع أكبر عدد ممكن من الأسرى الأعداء وسبر معنوياتهم . ويجب أن أعترف بالحقيقة هو أن الأسرى كانوا يلوذون بالصمت . ويمسكون لسانهم ، ويحافظون على قسمهم ولكن لم يكن جميعهم كذلك .

ففي أحد الأيام اقتادوا لي طياراً ، كان قائد طائرة مطاردة اضطر للهبوط الاجباري بعد إصابة طائرته ، وكان محدثاً مدهشاً ، ولم ينزعج مطلقاً بأن يدلنا على مواقع مطاراتهم ، وعبر عن رأيه بصراحة بالنسبة لعتادنا وعتاد بلاده ، كما حاول توضيح نظريته حول مجرى الحرب ، وأعلن صراحة أن القيادة العليا الألمانية تزدرى قوة الاتحاد السوفيتي ولا تقدرها حق قدرها ، وحسب قولها إنها « جبار بأقدام من صلصال » كما كانت في الحرب العالمية الأولى ، وأوضح أنه لا يستطيع أن يعبر عن رأيه صراحة أمام الجنود ، ولكن الطيارين غالباً ما يتبادلون هذه الآراء فيما بينهم .

أشار الطيار أيضاً إلى أن القوات البرية أخذت نطلب سينا فشينا دعم الطيران لنجبتها ، فهي لم تعد قادرة على أن تكون قوية في كل الأمكنة ، وبخاصة في الوقت الحاضر ، حيث اتسعت جبهة الهجوم كما أن الطيران هو بخاصة الطيران المطارد غالباً ما يستخدم خارج مهمته الخاصة وهي التعرض للمطاردات العدو ويستخدم حالياً ضد الأهداف الأرضية ، وذكر الطيار المذكور ، أن الطيارين الألمان لا يخشون المطاردات السوفينية ، وبخاصة الطائرات السوفينية من النماذج القديمة . فالنفوق الفني لطائرات «المسر شمبيت» لا غبار عليه حسب قوله . ففيما يخص السرعة تزيد سرعة المسر شمبيت ٧٥ كم عن غيرها وبنفوق مرة ونصف بالسلاح ، وكان يبالغ بشكل ظاهر بنفوق المطاردات من طراز مسر شمبيت على طائراتنا . ورغم أن طائراتنا المطاردة من نماذج - YAK 9 LA . 5 التي دخلت الخدمة عام ١٩٤٢ لا تجاري المسر شمبيت لا من ناحية السرعة ولا النسلح ، ولكن أملنا كبيراً بفعالية وشجاعة طيارينا .

من رأي الطيار أيضاً « أن سلاح الحسم في المعركة هو الطيران » وعليه وعلى الطيارين اعتماد القوات الأرضية ، ولم يكن بمقدورنا دون الطيران أن نحرز الانتصارات لا في الشرق ولا في الغرب .

عندما طلبت منه عما يفكر بنهاية الحرب هز كنفه قائلاً « فيما يخص الروس أخطأ القوهزر مثل كثير من الألمان ، فلم يكونوا ينظرون من الروع هذه الصلابة ، لهذا السبب من الصعب الحكم على نهاية الحرب » .

في ذروة معركة الدون أخبرني هاتفياً الجنرال كولباكشي وأنا في المرصد بقرار المجلس العسكري للجبهة بإعفائه من منصبه كقائد للجيش ٦٢ وأن الجنرال أ . لوباتين عين مكانه قائداً لهذا الجيش .

وفي الصباح وصل أيضاً الميجر جنرال م . شوميلوف إلى الأركان ، بعد أن أصبح الجيش ٦٤ تحت قيادته ، وقد تلقينا في نفس الوقت توجيهاً من قيادة الجبهة بتوقيع رئيس أركانها الرائد جنرال د . فيكشيف ، كلف فيه كل من الجيشين ٦٢ و ٦٤ القيام بأن واحد بعمل مشترك لتدمير مجموعتي العدو في قطاع فيرخنه ، بوزينوفكا وعلى نهر التشير ، بعد تعزيز الجيش ٦٤ بفرقة المشاة ٢٠٤ والفيلق المدرع ٢٣ .

وصل التوجيه (الأمر) بتاريخ ٢٨ تموز الساعة ١٤ ، وحدد فيه بداية الهجوم في الساعة الثانية صباحاً من تاريخ ٢٩ تموز ، أي خلال مهلة قدرها

اثنا عشرة ساعة .

وقد ألقى على عاتقنا أنا وشوميلوف مهمة إيجاد الفرقة ٢٠٤ والفيلق المدرع ٢٣ مباشرة ، ولم يكن لدينا أي فكرة عن مكانهما ، فأين نجدهما ؟ عندما سألنا عنهما ، كان جواب الأركان: « فنشوا عليهما بين نهري الدون وليسكا »
مرنا طوال الليل وحنى الصباح في السهوب للتفتيش عن الوحدات التي أعطيت لنا كتعزيز للجيش ٦٤ ولكننا لم نسنطع إيجادهما ، إلا في منتصف نهار ٢٩ تموز . حيث وجدنا لواء من الفيلق ٢٣ في قطاع جيركوف . ولم يكن قائد اللواء يعرف شيئا عن مهمته الجديدة ، كما أنه لم يكن مهيباً للهجوم .
وخلال تفريشنا عن أركان الفيلق ٢٣ مررنا بالقرية التي كانت قيادة الجيش ٦٢ متمركز فيها .

كان الجنرال لوباتين رجلاً بديناً ، أشقر الوجه ، ذا مظهر هادئ . وجدناه يستعد للغذاء ، وقد قال لنا بأن الجيش ٦٢ لا يستطيع تنفيذ توجيه أركان الجبهة لأن وحداته غير مسنعة ، ولم تصلها الذخيرة ، كما أن الأمر غير موقع من قبل المجلس العسكري للجبهة .

شرح لنا الجنرال لوباتين ما يفترض من الأسباب التي جعلت المجلس العسكري ، لا يوقع قرار أركان الجبهة ، وهي أن الجيشين الأول والرابع كان عليهما القيام بالهجوم المعاكس على الغزاة ، وكان على الجيشين ٦٢ و ٦٤ القيام بهجوم لاستثمار جهد الجيوش المدرعة ، ولكن أياً من الجيشين الأول والرابع لم يستطع إيقاف العدو أو هزيمته .

وقد أخبرنا لوباتين أيضاً أن الجيش الأول المدرع لم ينسق ساعة هجومه المعاكس مع الهجوم المعاكس الذي قام به الجيش الرابع . فهذا الجيش نفسه كان في موقف حرج جداً ، لأن الطيران المعادي كان يمتلك ناصية الجو دون منازع ، كما فشل تجمع قطعات وعناصر الجيش المدرع الرابع وعبروها الدون ، لذلك فالهجوم المعاكس الذي كان الجيشان سيقومان به لم ينجح .

أدركت فيما بعد أنه لم يكن الهجوم المعاكس قد توصل إلى تدمير مجموعة جيوش العدو ، التي خرقت الجبهة حتى الدون ، إلا أن الأحداث القائمة أظهرت بأن هذا الهجوم أحبط مشروع العدو بتطويق وإبادة الجيش ٦٢ الذي لعب هو والجيش ٦٤ الدور الرئيسي في الدفاع عن ستالينغراد .

أوقفت التفتيش عن الفرقة ٢٠٤ والفيلق ٢٣ المدرع ، وكان علي العودة لمقر

الأركان .

استدعيت في الثلاثين من تموز إلى مقر أركان جبهة ستالينغراد من قبل قائد الجبهة غورديوف ، حيث أصبحت ستالينغراد في تلك الأيام مدينة جبهة، ولكن المدينة لم تكن تشعر بأي قلق واضح ، أو بحاجة للاستعداد للخطر القادم ، والذي أخذ يقترب ويفسر ذلك بجزء كبير منه بتصرف السكان وصعوبة تصورهم، بأن مدينتهم ستصبح بين عشية وضحاها ساحة معركة شرسة ، وتغيير اعتقادهم بأن الجيش الأحمر لن يستطيع إيقاف الألمان على نهر الدون .

استقبلني قائد الجبهة غورديوف في الأول من آب ، ثم قدم إليّ بحضوره تقرير، أفاد قائد الجيش الأول غريوكين، بمعرفة تغلغل العدو في مواقعنا الدفاعية ، وعلق غورديوف على ذلك بأنه من الممكن الآن تدمير العدو بضربة واحدة .

حاولت استبعاد هذه القناعة من تفكير غورديوف، ولكنه قاطعني قائلاً: « لا أعرف أسوأ مما تعرف عن المواقع في الجبهة التي نشغلها وأنتي استدعيتك لأجل أن تفسر لي الأسباب التي أدت بجناح الجيش ٦٤ الأيمن للانسحاب وراء نهر التشير .

وقد أجبتّه بأن التراجع كان اضطرارياً، ولم يكن لدينا الوقت لنشر الجيش كلياً، فلم يكن لدى الفرقة ٢٢٩ سوى نصف قوتها في الموضع الدفاعي الذي تحتله .

ولكن غورديوف قاطعني: « أرسل لي تقريراً مكتوباً »، وأعاد كلمة « مكتوباً » ، وكررها، لذلك لم يبق لي شيء لأقوله سوى الطلب منه بالسماح لي بالذهاب لمقر الجيش لكتابة تقرير مسهب يستند على الخرائط والوثائق .

علمت حال عودتي من ستالينغراد بأن قوة كبيرة من العدو ، عادت الهجوم في ٣١ تموز اعتباراً من القطاع تسيمليا نساكيا على طول الخط الحديدي تينمورسك - ستالينغراد باتجاه كوتلنكوفو، مخترقة مؤخرات الجيش ٦٤ وكل جبهة ستالينغراد .

اضطر هتلر بعد اصطدام جيوشه بالمقاومة الضارية للقوات السوفيتية في نقطة الدون الكبرى أن يعيد كتابة توجيهه رقم ٤٥ ، ويعيد تجمع قواته ويسحب من مجموعة الجيوش (A) التي كنت متجهة نحو القوقاز الجيش الرابع المدرع بقيادة الجنرال هوت . ووضع تحت تصرف مجموعة الجيوش B وقد كلفت هذه

المجموعة باحتلال المدينة بضربة واحدة من الجنوب ، وتطويق جبهة ستالينغراد على شكل كماشة .

في هذه الظروف ظهر في ٢٨ تموز ١٩٤٢ أمر قوميسار الشعب للدفاع رقم ٢٢٧ يصف بوضوح وصراحة تامة تعقد وخطر الموقف إذ قال : «إن العدو يرسل دائما بقوى جديدة ، دون النظر إلى الخسائر الفادحة التي يتكبدها ، ويتجه إلى الأمام ، إلى قلب الاتحاد السوفيتي ، محتلاً قطاعات جديدة . يجتاح ويدمر مدننا وقرانا ، يغتصب ويسلب ويذبح الشعب السوفيتي» .

«... تدور المعارك في قطاع فورونيج وعلى الدون ، وفي الجنوب . وعلى أبواب القوقاز في الشمال ، ويندفع المحتلون الألمان نحو الفولغا ، نحو ستالينغراد ، ويريدون بكل ثمن احتلال الكوبان وشمال القوقاز ، الغني بموارده من البترول والحبوب ...»

« لقد احتل العدو سابقاً ، فورشيلوفغراد ، سكاروبيليسك ، وسوتشي ، كوبيانك ، فالويكي ، نوفو تشيركاسك ، روستوف على الدون ، نصف فورونيج . وبعد خسارة أوكرانيا وروسيا البيضاء ، بلاد البaltيك والدونباس ومناطق أخرى ، لم يبق لنا الا القليل من الأرض ، وهذا يعني أقل من الرجال . من الحبوب ، من المعادن ، ومن المصانع والمعامل ، لقد خسرنا أكثر من ٢٠ مليون شخص وأكثر من ٨٠٠ مليون « بود » من الحبوب و ١٠ مليون طن من المعادن .

« لم يعد بيدنا في الوقت الحاضر التفوق في احتياط الرجال ولا في موارد الحبوب . والتراجع إلى أبعد معناه زيادة في خسارتنا وفي نفس الوقت خسارة وطننا» .

« كل قطعة جديدة نتركها من وطننا ، ندعم قوى العدو . وتضعف في كل ناحية دفاعنا . ووطننا ، ونتيجة لذلك يجب قطع دابر كل كلام يتحدث عن إمكانية تراجع غير محدود ، بحجة أن لدينا أرضاً غنية واسعة وشعباً كثير العدد ، وسيتوفر لدينا دائماً القمح بغزارة .

مثل هذه الأقوال مضرّة وكاذبة فهي تضعفنا وتقوي العدو لأنه إذا لم نتوقف عن القتال التراجعي ، سنبقى دون حبوب ، ودون محروقات ، ودون مواد أولية ، ودون مصانع ومعامل ودون سكك حديدية ، ونستنتج من ذلك أنه آن الأوان لإيقاف التراجع نهائياً» .

«شعارنا - في الوقت الحاضر - يجب الدفاع عن كل موقع بصلابة ، وحتى آخر نقطة من مائتنا ، وعن كل متر من الأرض السوفيتية . تشبثوا بالأرض وفي كل قطعة من أرضنا ودافعوا حتى النهاية » .

« يعيش وطننا أياما عصيبة . يجب أن نوقف ونصد ونهزم العدو مهما كان الثمن ، ليس الألمان أقوىاء ، كما يظهر ويتراءى للمتخائلين . فهم يجمعون آخر ما لديهم من قوة ، احتلوا هجومهم الحالي ، خلال الشهور القليلة القادمة ، وبذلك تحققوا النصر » .

« هل يمكننا أن نتحمل صدمة العدو ثم نقذفه للغرب ؟ نعم نستطيع ذلك لأن مصانعنا ومعاملنا تعمل حاليا بطاقات جيدة في الداخل ، وجبهتنا تتلقى المزيد من الطائرات والذبابات والمدافع والهاونات » .

« إذن ما ينقصنا ؟ النظام والانضباط في السرايا والأفواج والألوية والفرق ، وفي الوحدات المدرعة وأجنحة الطيران ليس كما يجب ، وهذا ما كان وحتى الآن عيبنا الرئيسي . يجب أن نقيم النظام في جيشنا ونثبته بأكثر ما يمكن من الدقة مع انضباط حديدي ، فيما إذا أردنا أن ننقذ الموقف ، ودافع عن وطننا .. » .

« يجب أن يسأصل الجبناء والخائفون من الساحة ، ومنذ الآن فصاعداً مطلوب من كل رئيس ، وكل جندي في الجيش الأحمر وكل موجه سياسي اتباع سياسة الانضباط والقبضة الحديدية . وإياكم خطوة واحدة إلى الوراء دون أمر القيادة العليا » .

وقد عمم هذا الأمر بسرعة من قبل المنظمات السياسية ، وأطلع عليه كل جندي وكل قائد وكان بنويع ج . ستالين .

تم اعلان النداء : « إياكم خطوة واحدة إلى الوراء » ، والواقع انه لم تنشر مطلقاً وحتى الآن ، أمام كل الجبهة ولا بين أعضاء القيادة ، ولا حتى بين أفراد القوات ، وثيقة واحدة تكشف بصراحة كلية عن الوضع الراهن لبلادنا . كان هذا (النداء - الأمر) موجهاً إلى كل الشعب السوفيتي ، لأن الجيش الأحمر هو جيش شعبي وهو لحم ودم كل الشعب السوفيتي ، ذي القوميات المتعددة . لقد تكلم الحزب الشيوعي والحكومة السوفيتية بكل صراحة وصدق لشعبنا عن الصعوبات التي نواجهها ، ولا يمكن إلا أن يجد هذا الأمر صدقاً قوياً ، ولن يمر دون نتيجة ، لقد نفذ إلى قلب كل جندي شعور المسؤولية نحو الحزب والشعب ولم يعد هناك مجال للتراجع .

كان العمل السياسي في الجيش ٦٤ وتشكيلاته منظماً تنظيماً جيداً ، فقد كانت الأخبار السياسية تعمم حتى في أصغر الوحدات ، وكنا نسهر على تطوير منظمات الحرب والكومسمول .

وفي الوقت الذي تلقى فيه الجيش الأمر بالانتقال إلى الدفاع كان الضباط والموجهون السياسيون بجانب الجنود ، مع الذين كانوا في الخط الأول ، ومع الذين كانوا يعبرون السهوب الواسعة ، بسيرهم الحثيث . لقد تلقى الموجهون السياسيون الذين كانوا يشرحون المهمات التي تقع على عاتق الجيش ، ويعرفون الجنود بأساليب محاربة العدو الفاشستي .

لقد سجلت هذه الوثيقة بمجموعها ، مرحلة من مراحل العمل السياسي . فقد أخذ الموجهون السياسيون يشرحون ، حتى لأبسط الجنود حقيقة الموقف الراهن والخطر الداهم ، بكل صراحة ودون مواربة وكانوا يطلبون تنفيذ الأوامر بدقة متناهية ، وقد استوعب الضباط على مختلف الدرجات وفهموا أن التراجع لم يعد الدواء الشافي لكل المصائب التي نتعرض لها .

ولكن سنكون بسطاء للغاية ، إذا اعتبرنا أن التغيير الجذري للحالة النفسية يعود للأمر وحده، ويمكن القول بأنه كان التعبير عن الواقع الفكري الذي تشكل لدى الجميع منذ بداية معركة الصيف . فدون أن يستيقظ ضمير مئات الآلاف من الرجال ، أمام الخطر الذي يتعرض له الموقف الذي نحن فيه ، لكان هذا الأمر ليس بذي بال . لقد تولد الألم والغضب والسخط في قلوب جنودنا خلال أيام التراجع الرهيبة ، إذ قال لي جنود بسطاء ورتباء :

كنا نعرف الأسباب التي أدت إلى تراجعنا في السنة الماضية ، والتي تعود إلى الهجوم المباغت الذي شن علينا ، فقد خسرنا كثيراً من الطائرات والدبابات ، حتى قبل أن ندخل القتال ، ولكن لدينا الآن الدبابات والطائرات والسلاح الكثير ونستطيع الآن إيقاف العدو ، فلماذا إذن ولأي سبب نحن نتراجع ؟

تلقينا في تلك الأيام وفي مقر الأركان المعلومات حول ردود فعل العدو على الأمر اليومي هذا ، ويبدو أنه لا يمكن لأي شيء ، أن يهز العدو الوثائق من قوته وشعوره بالنفوق ، فقد بادر قائد أحد الفيالق الألمانية ببث أمر يومي أكد فيه لجنوده أن أمر ستالين ليس له أهمية أو تأثير على مجرى الأحداث العسكرية . ولكن بعد بضعة أيام عاد نفس الجنرال وأندر جنوده بأن عليهم أن يتوقعوا مقاومة

متزايدة من قبل الروس .

وكتب الجنرال الهتلري السابق هـ . نوير « يلاحظ ، اعتباراً من ١ آب
ضراوة مقاومة العدو » .

وهكذا فشلت محاولات العدو التي كانت تستهدف تطويق كل القوات الموجودة
في منحى الدون الكبير بضربة واحدة واحتلال ستالينغراد . ولقد عبر القادة
الألمان في تقاريرهم الموجهة إلى هتلر عن قلقهم من التغيير الذي طرأ على
تكتيك القيادة السوفيتية حيث لا تراجع ولا سقوط في الأسر . ولكن القتال حتى
آخر طلقة ، ولم يعد احتلال ستالينغراد في الأيام الأولى من شهر آب يبدو
للعُدو أمراً سهلاً وبسيطاً .

في ذلك الوقت حصلت لدينا تغييرات في قيادة القوات :

جزئت جبهة ستالينغراد الى جبهتين : جبهة ستالينغراد وكذلك جبهة جنوب
- شرق ، كما وصل احتياط جديد موجهاً من قبل « الستافكا » . ومع ذلك كان
من الصعب إيقاف آلة الحرب الهنلرية التي كانت تعمل بسرعة مندفعة إلى
الأمام ، معتقدة بأن الجيش الأحمر والشعب السوفيني سيشرّب خلال بضعة
أشهر أخرى كأساً مترعة من المرارة والهزائم على الجبهة .
وكان حلفاؤنا في الوقت ذاته لا يسعجلون لفتح الجبهة الثانية في الغرب .



مجموعة الجنوب

(١)



ابتدأت فور وصولي في أول آب لقيادة الجيش ٦٤ بالعمل لوضع تقرير مكتوب حسب أوامر الجنرال غوردوف عن المعارك التي جرت بين ٢٥ - ٣٠ تموز . ولكن في صباح ٢ آب اتصلت بالجنرال شوميلوف وقد وجدت لديه اجتماعاً للمجلس العسكري للجيش ، وكانوا يناقشون رئيس الأركان عن الموقف في الجنوب على الجناح الأيسر .

كانت المعلومات مقلقة « فبعد أن اجتاز الجيش المدرع الألماني الرابع بقيادة فون هوت نهر الدون بالقرب من سكانيتسا . تسيمالينسكايا . وبعد أن تجمعت لديه ثعاني فرق واحدة منها مدرعة والثانية آلية واصل هجومه ، واخترق دفاع الجيش ٥١ وقطع خط السكة الحديدية بين ستالينغراد وسالك . ويمكن أن نستخلص من ذلك مؤكدين ، بأن العدو سيوجه جهده الرئيسي نحو ستالينغراد اعتباراً من قطاع تسيمليانسكايا ، وذلك لنجدة جيش فون بولوس السادس ، وبهذا يصبح الجناح الأيسر للجيش ٦٤ وكل جبهة ستالينغراد معرضة للاحاطة بها من الجنوب .

اقترح الجنرال شوميلوف عليّ بالذهاب إلى الجنوب لاستطلاع الموقف ، واتخاذ التدابير الضرورية في ساحة القتال ، فسألتهم :
- هل كان المجلس العسكري للجبهة موافقاً على هذا العمل ؟
وكان الرد إيجابياً على سؤالي .

اصطحبت معي في هذه المهمة مرافقاً ووصيفاً ، وفريق إشارة (إنصال) وركبنا ثلاث سيارات واتجهنا نحو الجنوب .

مررت في طريقي على أركان الفرقة ٢١٤ حيث وجدت قائد الفرقة الجنرال ن . بيركوف ، الذي أعطاني صورة واضحة عن الموقف في القطاع الذي كانت

تحتله فرقته ، حيث يسود هناك هدوء حذر ، فالعدو لم يجرب عبور الدون ولم
يقم باستطلاعات نشطة .

كانت فرقة المشاة ٢١٤ واحدة من أفضل فرق الجيش ٦٤ ، صمدت ببسالة ،
وصدت هجوم قوات العدو المتفوقة العائدة للفيلق ٥١ . وقد اضطرت الفرقة
للانسحاب إلى ما وراء الدون بعد أن تجاوزها العدو من الشمال .

نجح قائد الفرقة ن . بيركوف ومعاونوه في تنظيم الانسحاب في ظروف
صعبة وتحت ضغط العدو بشكل أحبط معه كل محاولات العدو لرمي الفرقة في
الدون ، وهي الآن تتحصن بقوة على الطرف الشرقي للنهر .

كانت الفرقة خلال المعارك التي تتابعت تحتل أخطر قطاع وأكثرها أهمية في
الجبهة . ودافعت عنه بنجاح . وفي مرحلة الهجوم المعاكس ، وجهت الفرقة
٢١٤ ضربات قوية للعدو المهاجم على محور جهده الرئيسي .

وصلنا في ٢ آب إلى مقر أركان فرقة المشاة ٢٩ التي كانت تحتل موضعا
دفاعياً على ضفة نهر لاكسايا . وتوجه جهته نحو الجنوب من بلدة غوريسكوي
حتى نوفو اكساياسكوي ، وإلى الشمال من موقعها على الدون كانت ندافع الفرقة
٢١٤ أما من الجنوب اعنباراً من مصب لاكسايا حتى فيرخنه كورمويارسكايا ،
فكانت تتمركز كتيبة الفرسان المستقلة ٢٥٩ التي كانت تعزز الجيش ٦٤ وعلى
الجناح الأيسر للفرقة ٢٢٩ في قطاع نوفوسكايا ، كان يقترب لواء المشاة البحرية
٥٤ باتجاه الجبهة .

وقد علمت أيضاً أن الفرقة ١١٨ تنتشر على خط نهر مبشكوفو وكانت تتمركز
وتحضر للدفاع قطاعاً محصناً . ولكن هذا كان إلى الشمال من لاكسايا وإلى
الخلف .

بعد أن أمضينا ليلة في أركان الفرقة ٢٩ واصلنا الاسنتلاع في صباح ٣ آب
في اتجاه تونيلنيكوفو ، وقد اصطحبت معي فصيلي مشاة في سيارتين . ومركز
راديو لا سلكي من الفرقة ٢٩ . وكانت الرؤية في السهوب ممنازة وبصل من ٨
١٠ كيلومترات .

التقينا حال وصولنا إلى الجنوب برتلين من المشاة يعودان لفرقتي المشاة
١٣٨ بقيادة العقيد ا . لودنكوف والفرقة ١٥٧ بقيادة العقيد كوروبانكو . وكانت
هاتان الفرقتان نقانلان وهما بحالة النراجع نحو الشمال .

كان تعداد الفرقين غير كامل وهما تشكلان جزءاً من الجيش ٥١ بقيادة

الجنرال بروفانوف ، وكاننا قد هوجمنا من قبل العدو في قطاع تسيمالينسكايا ، ريمونسنايا . وقد تكبدنا خسائر فادحة وقطع اتصالهما مع جيشهما . لذلك قررا الانسحاب باتجاه ستالينغراد ، وكان يرافقهما لوائين من قاذفات الصواريخ العائدة للحرس بقيادة الميجر جنرال ف . ديمترييف ، مساعد قائد مدفعية الجيش .

قررت بعد اسلامي لقادة هاتين الفرقتين توجيههما إلى ما وراء لاكسايا واحتلال وتنظيم مواقع دفاعية ، اعتباراً من ستانينسا نوفوكسايا إلى المناطق الدفاعية في جونوفو ، ثم مد جناحهما حتى الخط الحديدي نيكورينسك . ستالينغراد . ووضعت وراءهما كنسق ثان لواء مشاة البحرية ١٥٤ الذي كان يغوده العفد سميرنوف ، وكان هذا اللواء يشكل في نفس الوقت احتياطاً مضموناً للمجموعة التي اسلمت قبالتها ثم أنشأت هيئة أركان مختصرة إلى الجنوب من ستانينسا . فيرخنه كومسكايا . وقد عينت لوفوتسكي ، وهو أحد ضباط أركان الجيش ٥١ رئيساً لأركان المجموعة .

أقيمت اتصالاً مع أركان جبهة ستالينغراد ، وعن طريق الضابط المناوب في مكتب العمليات قدمت بفرراً عن الموقف ، وعن القطاع في جنوب الجبهة ، كما أقيمت اتصالاً مع أركان الجيش ٦٤ .

انصل بي أركان الجبهة بعد تلك وأعلموني أن فرقة مشاة جديدة ، وهي الفرقة ٢٠٨ السيبيرية في حالة نرجل من القطارات في قطاع ستانينسا . زيليكوف وكونلنكوف واقترحوا علي إلحاق هذه الفرقة بمجموعتي .

سألت عن مكان وجود أركان الفرقة ، ولكن لم أتلّق أي جواب مفيد . عندها انجهدت في صباح ٤ آب للاستطلاع باتجاه الجنوب - الغربي وبعد أن أكنت على ليونكوف وكورباننكو ، وسميرنوف للاسراع بتحضير خط دفاعي على مجرى لاكسايا في القطاعات المحتلة .

صادفت على طرق السهوب مقاتلين فرادى ، وعربات عائدة لفرقتي لبودنكوف . وتورباننكو وقد أدخل وجودهم هناك بعض الهدوء على نفسي من بعض النواحي . فالعدو إن لم يكن قريباً منا ولكن في فيرخنه لا بلونشي . أبلغني السكان أنه في قطاع فيرخنه - لا بلونشي كورمويارسكايا توجد جيوش رومانية بعد أن عبرت لبلأ الدون إلى صفته اليسرى ومن فيرخنه - لا بلونشي انصرفنا فحاة باتجاه الجنوب - الشرقي باتجاه الخط الحديدي تينموربتسكايا .

سنالينغراد .

صادفت مجددا في قطاع غربماشبا ، رجالا وعربات . كانت قونهم ينسحب نحو الجنوب على طول الخط الحديدي . وبعد جهد وجنت ضابطا بين هذا الحشد ، حيث قص علي أخبارا محزنة ، ففي محطة كونلنكوفو ، وعندما كانت أعداد من أنساق فرقة المشاة ٢٠٨ تهبط من القطارات في ٣ آب هوجمت فجأة من قبل الطائرات والدبابات العدو ، فاضطر ما تبقى من الأحياء للانسحاب على طول الخط الحديدي إلى الخلف . وقد سألت عن مكان وجود قائد الفرقة وقاده الألوية والأركان فلم أتمكن من معرفة مكان وجودهم .

شاهدت بالقرب من الخط الحديدي الفرعي المتجه نحو نيبياكوفسكي ، فوجا من جنود فرقة المشاة ٢٠٨ ينتشر جبهيا نحو الجنوب ويحفر الخنادق ، وقد أعلمني قائد الفوج أنه تلقى معلومات من المنسحبين من الجنوب عن ظهور الدبابات الألمانية في كونلنكوفو ، لذلك قرر ببديهنه الخاصة أن تنتقل للدفاع ، ولكن أين قائد اللواء ، وقائد الفرقة ؟ كان لا يعرف شيئا عنهم بل ذكر بأنه نرجل لوحده . وقد أبدت قراره ، وطلبت منه أن يضم كافة الأشخاص المنسحبين إليه ، ووعده بتحقيق الإتصال بينه وبين أقرب أركان والتي من الممكن أن نجدها في محطة تشيليكوف . وقد شاهدت أثناء الاقتراب من المحطة بضعة قوافل من القوات تقوم بإنزال حمولاتها من القطار، وكانت تعود للفرقة ٢٠٨ وحتى ذلك الوقت لم تصل الأخبار عن تدمير أربع قوافل للعدو في كونلنكوفو. وكان الأفراد يتجمعون حول الخط الحديدي ، وعربات السكة الحديدية والمطابخ ندخن ، وكانت تشكيلات المؤخرة تقوم بالانتشار .

عندما التقيت بأحد قادة القوافل ، شرحت له باختصار الموقف في الجنوب وأمره بإقامة السدود القوية والحواجز ، والابتعاد عن المحطة هو والوحدات الأخرى ، وأن ينتظر توجيهات قيادة الفرقة أو اللواء .

● أنزلت جهاز الراديو لأجراء إتصال مع أركان الجبهة . وإني أنذكر كلمة النداء « أكوستيك » . كان الوقت ظهراً والسماء خالية من الغيوم . وفي المحطة كان يوجد غيرنا من وحدات الفرقة ٢٠ ، وبعد خمس عشرة دقيقة تقريباً أخبرني معاوني بأن « أكوستيك » أجاب ، وعندما اتجهت نحو مركز الراديو ، شاهدت في السماء ثلاث مجموعات من الطائرات ، تعد كل منهم ثعاني طائرات وكانت قائمة من الشمال بخط مستقيم نحونا ، ثم رأيت بشكل واضح أنها طائرتنا من

طرار « ال (II) »

فجأة سمعت أصوات الانفجارات . والنفث لأجد أن هذه الطائرات كانت تقصف محطة سنيكوف والقوات التي كانت بحالة الإنزال . وقد ركضت إلى مركز الراديو وأعطيت الأوامر للعامل بأن ينقل بالشيفرة ما يلي : « طائرانا يقصف في محطة سنيكوف انساقنا » وفيما كنا نتابع نقل إشارة الإنذار « أكوسنيك » لم ألاحظ أن مجموعة من ثمانى طائرات أخرى أخذت تقصف المحلة ثم قامت بعمل دائرة وانقضت علينا وأغرقنا بالقنابل .

يمكن أن نحدث في الحرب مثل هذه الأخطاء ، ولكن نادراً . ولا يمكن أن يكشف دائما الفاعل . لم يكن لدى أركان الجبهة الوقت الكافي لإعادة توجيه قيادة الفرقة ، ولإصلاح السكة الحديدية ، فنركت نقطة الإنزال التي كانت مقررة مسبقاً للفرقة ٢٠٨ هكذا دون تغيير .

لقد قام الطيارون بغاراتهم على هدف ثابت شاهدوه أمامهم ، دون التفكير بأن العدو في ذلك الوقت ، لا يستطيع مطلقاً استخدام السكك الحديدية ، وأن قواقل العدو لا يمكن أن تكون في هذا المكان ، لم يكن هناك مسؤول ، ولكن هذا الخطأ كلفنا غالياً . وضحايا لا لزوم لها .

بعد جهاز الراديو أثناء الغارة . وبقيت دون اتصال مع أركان مجموعتي ، وأصبح من المستحيل الدخول بنماس مع الفرق . ولكن لا يمكنني أن أنرك المكان دون أن أجد قائد الفرقة . العقيد ك . فوسكوبويناكوف . ولم نتمكن من إيجاده إلا في المساء بالقرب من خط السكة الحديدية الفرعي لبيركوفسكي ، وكان خارجاً عن طوره . وكنا نستطيع فهمه ، فقال :

- أيها الرقيب الجنرال « ماذا أقول لقواتي بعد هذه الخسائر التي كانت دون قائدة ؟ ماذا أتكلم معهم ؟ لقد أصبح صعباً علي جميع قواتي » .

وقد طلبت منه بأن يستقدم قوميسار الفرقة ، ورئيس الأركان ، وقائد الفصيل السياسي ، ونظمتنا جميعاً ، وعلى الطبيعة ، خطة عمليات . وعلى خريطة العمليات المنشورة على الطاولة ، أصبح المخطط يأخذ شكله التنظيمي القتالي ، وكان من الواجب حل مشكلة تجميع القوات ليلاً ، وإعادة نشرها في نفس الليلة وراء نهر لاكسايا ، واحتلال منطقة دفاعية اعتباراً من بلدة انطونوف حتى مزرعة جونوف ، ثم القيام باستطلاع كثيف مباشرة أمام الفرقة ، ومراقبة الموقف وبخاصة على جناحه الأيسر .

والذي أقلقني ما لا حظته بأن الهنريين لم يحاولوا نوحه ضربات أخرى إلى نقاط الإنزال ، فهل هناك حيلة ما ؟ فهل يعملون على تجاوزنا من شرق خط سكة الحديد ستالينغراد - ساليك بتخوبسكايا ، والسير بخط مسيفيم نحو ستالينغراد ؟

كانت المعلومات التي بحوزتي تسمح لي بالافتراض أن الهنريين ، كانوا يتجنبون الدخول في معركة مع وحدتنا على طول السكة الحديدية التي تؤدي إلى كونيبنكو وإلى الغرب ، وأنهم قرروا القيام بعملية إحاطة بعدد المدى للنموذ إلى الفولغا عن طريق قرى بيمارنشبرني بلودوفسوبا نينكولا ، وقد باكد لي فيما بعد أن أرنال دبابات الفيلق ٤٨ المدرع المعادي ، كانت في الواقع تسير في نفس الاتجاه المذكور من قطاع كونيبنكوفو



رحعنا مساء إلى مقر أركاني المصغرة التي شكلتها لمجموعة الجنوب ، وكنا نسبر بدون أنوار على ضوء القمر ووضوح السهوب ، وبذلك كنا محظوظين ، وعندما وصلنا إلى مفترق للطرق ، على بعد عشرة كيلومترات جنوب خبرلوفسكي ، شاهدنا دورية خيالة ، فأرسلت زمرة المشاة التي كانت نحمينا في سبارة أماننا للإنصال بدورية الخيالة .

- فف من ينحرك ؟

كانت الدورية تابعة للواء الخيالة المسفل ٢٥٥ بعد تراجعهم من سنانينسا . فبرخنه - كور مورسكايا ، وقد علمنا من رئيس الدورية أن قوات كبيرة من العدو أخذت نجازار الدون ، ولم يكن لواء الخيالة المنتشر على مساحة واسعة بحالة بسطيع معها العرض لعبور العدو .

- أمرت قائد الدورية بأن ينقل لقيادة اللواء الأمر بالقيام بالاستطلاع على جبهة بوتمكنسكايا - فيرخنه - لابلوتشي ، ومراقبة تحركات العدو ، وأن يخبر عن أية قوة تعترض وحدانه اعتباراً من قطاع كوتلنكوفو . وأن يبقى بالإنصال معي عن طريق أركان الفرقة ٢٩ الموجودة في بلدة جنرالوفسكي .

علمت عند وصولي لتلك المحلة بأن الفرقة ٢٩ سحببت بموجب أمر أركان الجبهة على حفاف السرعة من منطقة الدفاع ، وانجهدت نحو الجنوب في قطاع

سنانيسا ايفانبروفو . وقد اتخذت أركان الجبهة بدابيرها الخاصة بالنظر للخطر القادم من الجنوب . الغربي .

كما تم نقل أركان الجيش ٦٤ من جانب زينا إلى الجنوب الغربي من ستالينغراد . وضمت عناصر هذا الجيش التي كانت تقابل على الدون إلى الجيش ٦٢ .

أمسينا ليلتنا في جنرالوفسكي بعد أن أنهك التنقل خلال يومين رفاقي . أبقتنا في ٥ آب انفجارات القتابل التي كانت نسمع قادمة من السهوب ، التي يقذفها طائرات العدو وهي تنقض على أرتال فرقة المشاة ٢٩ خلال تحركها إلى الشمال الشرقي بانجاه فيرخنه كيومسكي ، دون تغطية جوية أو مطاردات ولا دفاع جوي .

وقد تلقى قائد لواء الخيالة ٢٢٥ في نفس الصباح الأمر بالدفاع عن القطاع الذي انسحبت منه الفرقة ٢٩ ومن الطبيعي أن لا يستطيع لواء الخيالة الدفاع عن أي منطقة ، ولكن لم يكن لدينا وسائل أخرى ، وقد أنقذ جمود العدو وقلة نشاطه الموقف . وهو الذي أعطانا الحق بالافتراض بأنه اختار لهجومه محورا آخر فأمام ستار الخيالة لم تنتشر إلا بعض المفارز القليلة العدو من القوات الرومانية. علمنا عن طريق كشافينا أن وحدات العدو التي احتازت الدون في فيرخنه كوروبارسكايا ، أخذت بتحريك بانجاه الشمال الشرقي ، ووجهت نحو لاكسايا بعض وحدات التغطية وبذلك أصبحت مناورة العدو مكشوفة . وهي تأمين الجناح الأيسر للقوات الرئيسية (كبد) للجيش الرابع المدرع بقيادة هوت التي انطلقت من كوينلنكوفو باتجاه ستالينغراد بعد أن تجاوزتها من الجنوب الشرقي .

كما أكد استطلاع الجيش بأن الألمان بعد احتلال كوينلنكوفو لم يسلكوا الطريق القصير على طول خط السكة الحديدية ولكن وجهوا قواهم الرئيسية نحو ايفانبروفو .

أبلغت أركان الجبهة عن الموقف ، وتلقيت الأمر نظرياً بالتمسك في المواضع على لاكسايا بالقوى المنبقية تحت تصرفي

لم أنلق أي مهمات ولا توجيهات أخرى ولكن علمت من بعض أركان الحبهة ، الذين كانوا ينفلون في المؤخرات ومن عمال الهاتف ومصادر أخرى والتي نطلق عليها (أقنية النوادي) ، أن خطة مكثفة بدىء بالشروع بها لتجميع القوى في مؤخراتنا .

كنت أنتظر هجوماً من القوات الجرمانية - الرومانية ، التي لا يمكن أن تكون جاهلة بتجمعنا ، فضربة واحدة من قبلها باتجاه الشمال اعتباراً من كروجلياكوفو ، ومحطة جوتوف يمكن أن تحبط تحركات الجيش ٦٤ والقوات الأخرى .

بعد أن وصلت القوات التي وضعت تحت إمرتي . شرعت بتحضير دفاع مضاد على خط نهر لاكساي ، وقد وجهت اهتمامي للتأكد من أهلية هذه القوات من الناحية الدفاعية وإمكاناتها كالمدفعية . ثم أرسلت للاستطلاع في كل الجهات .

في هذه الأثناء بقي لدي في الاحتياط لواء مشاة البحرية ١٥٤ مع لوائين من الكاثيوشا ، موهت في المنخفضات بكل عناية .

ابتدأ هجوم القوات الألمانية - الرومانية في ٥ آب مساءً على نقطة إتصال فرقتي ليودنكوف وكوروباتنكو . ووجه العدو جهده الرئيسي على جبهة ٨ كم . وقد استطاعت مشاة العدو من عبور نهر لاكساي بعد أن اخترقت مواضعنا القتالية . ولكن دبابات العدو ظلت حتى ذلك الوقت على الضفة الجنوبية من النهر ومن الواضح أنها كانت تستعد للعبور .

من الجلي كون القوات الألمانية - الرومانية استطاعت إقامة رأس جسر على الضفة الشمالية من نهر لاكساي ، ولا بد أنها كانت طيلة الليل تعمل على تسهيل المعابر لعبور الدبابات وأنها ستبدأ هجومها فجر ٨ آب ، وستزج في المعركة قواتها الرئيسية . لقد قلت من الجلي أن العدو سيعمل هكذا ، وذلك نتيجة لتجربتي الشخصية التي اكتسبتها في معارك الضفة اليمنى للدون . صحيح أنها كانت تجربة صغيرة إلا أنها كانت صحيحة ، فالهتلريون بثقتهم بقوتهم وفعالية طرقهم التكتيكية والتعبوية سيعملون هنا أيضاً بموجب نفس المخطط الذي عملوا به في الجهة الأخرى من الدون : طيران ، نار ، مشاة وأخيراً تأتي الدبابات . وهم لا يعرفون أسلوباً للهجوم غيره وهو اجتياز ممر مائي ، وحتى لو كان قليل الأهمية وقد اكتشف كشافونا والمراقبون مساء ٥ آب أمام جبهة دفاعنا تجمعات للمشاة والمدفعية والآليات وبخاصة في منخفض بوبوف . وبدون تفكير طويل أدركنا أن العدو سيعمل حتماً هكذا ، لذلك قررت فوراً إحباط هذا الهجوم .

كانت خطتي بسيطة ، وتقتضي القيام بقصف مدفعي في وضوح النهار على تجمعات العدو ومواقع انطلاقه ، ثم القيام بهجوم معاكس مكثف لقذف العدو إلى

الضفة الأخرى لنهر لأكساي وعلى هذا لم نقم بأية حركات معقدة ، عدا تقديم لوائي الكاتيوشا إلى مواقع الرمي ، أما المدفع والهاونات فتضرب الأهداف المعلمة سابقاً وبذلك تكون رماياتها سديدة ، وبعد تمهيد المدفعية لا يبقى للمشاة إلا أن تنطلق للهجوم . لم يكن لدينا دبابات ولم أكن لاعتمد على دعم طيراننا لأنني لم أستطع إقامة إتصال معه .

وأقول بصراحة لم يكن قيامي بمناورة ولو كانت بسيطة دون خوف وذلك بقطعات جمعها خلال تراجعها ، دون معرفة أنها مسعدة للهجوم . لقد فكرت بأنه حتى ولو أن مناورتنا لم تكلل بالنجاح لسبب ما ، فالجبهة الدفاعية ستظل محتلة من قبلنا على كل الأحوال .

كانت الدبابات - وهي الخطر الرئيسي الذي يهددنا - لا تزال موجودة على الطرف الآخر للنهر ولكنها لم استطاعت اجتياز النهر خلال الليل فهاجمنا سيئو بالفشل ، بسبب أنه لا يوجد لدينا طيران فقط بل حتى ولا دفاع ضد الدبابات ، وحتى القنابل اليدوية لم تكن متوفرة ، فالعمل كله في الواقع معرض للخطر . ولكن عدم القيام بأي عمل يمكن أن يعرضنا لخطر أكبر .

أخذ العدو بحلول الظلام يقوم بأعمال ليلية في ترتيبه القتالي ، فآلياته كانت تسير وأنوارها مضاءة . ودباباته كانت تنتظر فتح الممرات ، فالعدو إذن ، كما نصورت يعمل لإدخال دبابات الصدمة قيد العمل ، في الوقت الذي سيكون فيها طيرانه يحلق فوق رؤوسنا ، وعندما تكون مدفعيته تقصف مواضع رمينا ونفهم مشانه للأمام . وخلاصة القول أنه يعتمد حسب أسلوبه المعتاد تسوية خنادقنا تحت سلاسل دباباته .

« لن ينجح مطلقاً » .

قمت في الليل بزيارة قائد الفرق ليونكوف وكوروبانكو واطلعتهم على خطة العمليات لصباح ٦ آب ، وقد استوعبوا كافة التفاصيل ، وقرروا الاستعداد للهجوم . كان حسابنا الذي يعتمد على تأثير المباغثة صحيحاً جداً . ففي الفجر فتحت نيران مدفعينا نيرانها على تجمعات العدو . وكنا نشاهد مشاته يلنجؤون إلى المنخفضات والأماكن الأخرى المغطاة، وأخذ رجال مدفعيته وكل قواته تهرب بفوضى نحو الجنوب .

أخذت كتل الرجال والآليات نتراجع مذعورة نحو الجنوب إلى ما وراء نهر لا كسابا ، وتعيق مرور الدبابات .

نجحنا تقريبا دون خسارة في إحباط هجوم العدو الذي كان سيثبته في ٦ آب ، ولكن هجومنا على قواته وأخراج مساته من مواقعها التي كانت قد تحصنت بها منذ اليوم السابق حتى المساء ، كان صعباً للغاية .

لقد تكبد العدو في معركة ٦ آب خسائر فادحة في القتلى والجرحى والأسرى، وقد استولينا على ثمانية مدافع وعدداً كبيراً من الرشاشات .

وقد اقتنعت بأن قواتنا لم نفقد قدرتها القتالية وقألت بشكل جيد وقامت بهجومها بحماس عام، كما صمدت بشدة ضد العدو دون خوف أو وجل . وهذا هو الجوهرى . وهكذا لم نصمد أمام العدو فقط بل لقناه ضربة جيدة .

علمت عندما كنت أقدم تقريرى عن المعارك في نهاية النهار لأركان الجبهة ، أن حشداً كبيراً لقواتنا قد تم خلال هذه الفترة في قطاع ايفانيروفو وتينفوتا ، حيث انتقل أركان الجيش ٦٤ وأخذت تستعد للمقاومة الشديدة ضد العدو .

حدثت تغيرات في قيادة الجبهة أيضاً ، فقد أبعد كل من الجنرال غوربوف ونيكشوف عن قيادتهما وحل محلهما الكولونيل جنرال أ . إيرمنكو ، وكنت أعرفه شخصياً منذ عام ١٩٣٨ ، عندما كنت أعمل في المنطقة العسكرية لروسيا البيضاء ، والآن عين قائداً للجبهة . قرأنا جميعاً تعليمات القيادة وفي نفس الليلة ، أرسلت برقية قصيرة للقيادة مع بعض المقترحات والتي أطلب فيها عدم وقوفنا عند الدفاع ، بل علينا القيام بالهجوم المعاكس وحتى بمناورات هجومية معاكسة ، وقد اقترحت أيضاً القيام بالقوات المتوفرة لدى بضربة جانبية على جناح العدو .

لم أتلق جواباً على كتابي ، وكنت متأكداً بأنه لم يصل إلى إيرمنكو . علمت بعد قليل أن مخازن الذخيرة الموجودة على شاطئ الفولغا قد فجرت ، لذلك فالحط في الخرطوش أخذ يهددنا . وهذا هو الذي حدث ، ففي السابق كنا نتلقى الذخيرة دون حدود بقدر ما كنا نستطيع حملها . أما الآن فبعض سيارات النقل التي ذهبت لجلب القنابل عادت فارغة .

عاد العدو في ٧ آب للهجوم في نفس الاتجاه . وفي منتصف النهار استطاع تحقيق اختراق ستة كيلومترات في دفاعنا .

ولكي نعيد تثبيت الموقف قررنا القيام بهجوم معاكس جديد والغاية من ذلك باختصار : قتال العدو وإعادة قذفه إلى ما وراء لأكساي . ولكن قررنا أن نقوم

بالهجوم المعاكس قبل غياب الشمس بساعتين ، عندما يسبب ضوء الشمس تشويشاً لطيران العدو ، وعندما تكون مدرعاته أيضاً منفصلة عن مشاته في الطرف الآخر من النهر . وقد فضلنا ذلك على القيام بالهجوم المعاكس نهائياً عندما يكون طيران العدو نشطاً أو في الصباح كما هو الحال في ٦ آب . كما أننا لم نقم هذه المرة بالهجوم المعاكس جبهياً ولكن من الجانب ، فليونكوف يقوم بالهجوم من الشمال - الغربي باتجاه الجنوب - الشرقي ، وكورباتنكو من الشمال - الشرقي إلى الجنوب - الغربي . حدثت الخطة ولقنت شفهياً مع قادة الفرق ليونكوف ، كورباتنكو . وكان نصيبها النجاح ، ومرة أخرى هزمنا العدو بقوة وصعدنا ، وأخذنا بضع عشرات من الأسرى .

قائلنا حوالي أسبوع في مواقعنا على نهر لأكسايا ، وكانت القوات الألمانية - الرومانية تعاود يومياً الهجوم تقريباً وكانوا ينجحون في بعض الأحيان بتحقيق الخرق في مواقعنا الدفاعية ، ولكننا كنا نقوم مباشرة بهجوم معاكس ونعيد العدو إلى الوراء .

لقد طبقنا خلال هذه المعارك طرقاً وأساليب تكتيكية خاصة : يقوم العدو عادة بهجومه بين الساعة العاشرة صباحاً حتى الظهر ، وعليه صرف ساعة أو ساعتين لاجتياز لأكسايا والاقتراب من خطنا الأول المعزز بمخافر أمامية قتالية . ويسند هجوم المشاة على العموم بنيران المدفعية وبقليل من الطيران مجموعتين أو ثلاث ، وكل مجموعة تتشكل من تسع طائرات . كانت مخافرنا الأمامية تصمد للمعركة بنيرانها . وتحت تغطية من نيران المدفعية واسنادها تنسحب هذه المخافر ببطء نحو الخط الرئيسي للدفاع ، لذلك فضمن هذه الظروف لا يستطيع العدو مطلقاً اختيار لحظة الهجوم . وعليه أيضاً أن يبقى ساعتين أو ثلاث ساعات للاقتراب من مواضعنا الرئيسية . وكان يضطر للوقوف في محاولة لتحضير اختراق في صفوفنا . ويقدم قواته إلى الأمام وكذلك وسائط إنصالة لتأمين قيادة المعركة ، وكذلك وسائط نيرانه ، بشكل يجعل المهاجمين لا يستطيعون الشروع بمحاولة الخرق في دفاعنا قبل هبوط الليل . ولم يكن العدو معتاداً على القتال الليلي . وكنا نحضر مباشرة هجوماً معاكساً نقوم به في المساء أو الفجر، عندما يكون طيران العدو لا يزال في مطاراته . وكانت مدفعيتنا وهاوناتنا تصب نيراناً كثيفة وقصيرة على العدو، وبعد

ذلك كنا نقوم بالهجوم المعاكس على أضعف نقطة في ترتيب العدو ونعيده إلى مواضع انطلاقه .

لقد نكرر هذا العمل مرات كثيرة .

انضمت إلى مجموعة الجنوب بأمر من أركان الجبهة في ١٢ آب منطقة التحصينات في ستالينغراد ولواء مشاة البحرية ٦٦ .

كثفت هذه القوى التي وضعت تحت نصرفي نوعاً ما ، مواقعها الدفاعية الهشة وبخاصة في الجناح الأيمن لمجموعة الجنوب ، وباستخدام الموانع الطبيعية من أنهار ومنخفضات وقيعان ، وبهذا نظمنا دفاعاً متيناً .

في نفس الوقت كانت وحدات الجيش ٦٦ تعززها قوات الفيلق المدرع بقيادة ناستاشيشين تخوض معارك دفاعية ضارية ضد الجيش المدرع الرابع المعادي الذي كان يهاجم من الجنوب في قطاع بلووفيتويا ، ايفانيروفو .

ولو كان الوضع يسمح بتكتيل فرقتين أو ثلاث فرق مشاة ولوائى مدرعات في قطاع فيرخنه كومسكايا - جوتوف ، كان بالامكان الشروع بهجوم بهذه القوى على طول لأكسايا نحو الشرق للنفوذ إلى جناح ومؤخرات الجيش الرابع المدرع بقيادة هوت مما يجعل وضعه حرجاً جداً .

في السابع عشر من آب تلقينا أمراً من أركان الجبهة بالتراجع إلى نهر ميشكوفاً وفوراً بدأ أركان مجموعة الجنوب بتنظيم خطة التراجع .

كنت مقتنعاً بأن مجموعة الجنوب استطاعت ، أن تصمد للعدو ، وأن تتراجع دون خسائر حتى مواضعها الجديدة . وبعد اعطائي تأخر التعليمات ذهبت للنوم لكي التحق في الصباح الباكر بالقوات التي ستتحرك في منتصف الليل .

وصل إلي في منتصف الليل ليوتنان جنرال فيليب غوليوف مساعد قائد الجبهة ، وبعد أن اطلع على خطة تنظيم التراجع لقوات مجموعة الجنوب ، حدد لي على الخريطة الخط الدفاعي الجديد ، وبعد تأكده من أننا اتخذنا كافة التدابير الضرورية لمواجهة الحالة فيما إذا جرب العدو اللحاق بقواتنا المتراجعة ، نام هو الآخر ليأخذ قسطاً من الراحة .

لقد تأخر العدو طويلاً ليكتشف خطتنا ، فطائرات استطلاعها لم تظهر الا ليل ٨ آب فوق ميشكوفاً ، ولكنه لم يجرب مهاجمة قواتنا في مواقعها الجديدة . ومن المحتمل انه لم يجد المناسبة لذلك ، وفي نفس الوقت كانت أحداث حاسمة تدور في الاتجاهات الأخرى فبريتياشي - ستالينغراد ، وعلى الجناح الأيمن للجيش ٦٢

والجيش الرابع المدرع اللذين كانا يدافعان عن رأس الجسر في منحني الدون الصغير ، وكذلك على الجناح الأيسر للجيش ٦٤ في قطاع بلودوفيتويا - نوندوتوفر - ستالينغراد . لقد اشتركت في هذه الاتجاهات بشكل عام قوات ووسائط أكثر مما اشترك في اتجاه مجموعة الجنوب على لأكساي . فالجيش ٦٤ بقيادة شوميلوف ، كان يسند على دفاع قوي ونشط في قطاع بلودوفيتويا إيفانيروف وفشن على العدو سلسلة من الهجمات المعاكسة الشديدة ، وأجبره في كثير من الأحيان على إيقاف هجومه .

سحبت قوات مجموعة الجنوب حسب توجيهات قيادة الجبهة من الجناح الأيمن . ولتكثيف ترنيبانا القتالية وجهت قوات المجموعة على المحور الرئيسي لجهد الجيش المدرع الرابع المعادي . وقد احتلت فرقة ليونكوف مواضعها الدفاعية على الخط الفرعي في الكيلومتر ٧٤ وأما فرقة كورباننكو فقد احتلت القطاع فاسيليفكا - إيفانيروف .



بعد أن أرغم الجيش السادس الألماني (فون باولوس) بانجاه ستالينغراد قوات الجيش ٦٢ على التراجع بين ٨ - ١٠ أب ، وصد الهجمات المعاكسة التي قام بها الجيش المدرع الأول ضمن منحني الدون الكبير ، لم يحاول الجيش السادس اجتياز نهر الدون منتظراً وصول الجيش المدرع الألماني الرابع فون هوت ، الذي كان يجه صعداً نحو جنوب ستالينغراد ، وبعد أن احتل إيفانيروخو وصل إلى مشارف محطة تينفوا .

وبذلك لم بعد فون باولوس يخشى شيئاً وعبر الدون مباشرة واتجه بقوانه نحو ستالينغراد من الغرب ، باركا وراءه في منحني الدون الكبير ست فرق مشاة من الجيش ٦٢ مع وسائط دعمها في قطاع سورفوكينو - فولودفسكي - بولاشايا - وأسبنوفكا ، وكذلك وحدات الجيش المدرع الرابع بقيادة الجنرال كريوتشكين الموجودة في دائرة المنحني الصغير .

لقد وجدت فرق المشاة الستة التابعة للجيش ٦٢ نفسها مطوقة بين ٨ - ١٠ أب من قبل الفيلق ١١ و ٥١ وكذلك من قبل الفبالق المدرعة ١٤ و ٢٤ العدو . وكان قائد الجيش ٦٢ يتوقع مثل هذا الموقف ، لذلك طلب الآن لسحب فرقه

المت إلى الضفة اليسرى لنهر الدون ، ولكن ومع الأسف لم تنفذ أركان الجبهة ولا الستافكا قرارهما في الوقت المناسب بالنسبة لهذا الاقتراح ، مما أدى إلى وقوع هذه الفرق الست في التطويق وتكبّدت خسائر فاحشة . وثمة قوات قليلة منها لا أهمية لها استطاعت الخروج من التطويق ليلاً . وأرسلت إلى المؤخرات البعيدة لإعادة تشكيلها .

وفي الخامس عشر من آب قام الجيش السادس فون باولوس بعد جميع قواته الرئيسية ، بالهجوم على الجيش المدرع الرابع كريبوتشكين واحتل في ١٦ آب منحني الدون الصغير ، عدا رأس جسر تمسكت به وحدات جيش الحرس الأول ، ولم يشرع فون باولوس بعبور نهر الدون في نيجه أكاتوف وفي فيرنياتشي إلا بعد أن أصبح سيد منحني الدون الصغير .

قرر قائد الجبهة أ . إيرمنكو بسبب هذا الموقف أن يزج في المعركة قوات جديدة ودفعها في ١٧ آب بهجوم معاكس بهدف تدمير العدو ، الذي كان متجهاً إلى الأمام ، وتثبيت الوضع إلى ما كان عليه قبل ١٣ آب في منحني الدون الصغير ، وقد خصصت أربع فرق للاشتراك بهذه العملية ، على الجناح الأيمن للجيش المدرع الرابع . وعلى الجناح الأيسر خصصت ثلاث فرق من المشاة للقيام بالهجوم المعاكس ، كانت تابعة لجيش الحرس الأول الذي وصل قبل قليل والفيلق المدرع ٢٢ .

كما وضعت الفرقة ٩٨ المشاة من احتياط الجبهة تحت تصرف الجيش ٦٢ وعززت باللواء المدرع ١٩٣ ، ولواء الهاونات الخامس التابع للحرس ، وكان عليها عبور الدون على ارتفاع فيرنياتشي في ليل ١٦ آب . وكان على هذه القوات بعد العبور توجيه ضربة على رودينوفو بالتنسيق مع الجيش المدرع الرابع ، وهزيمة وحدات الجيش الأيمن للعدو التي كانت تسير على الضفة اليسرى للدون نحو تريخوسنروفسكايا .

نلقى قائد الجيش ٢١ مهمة عبور الدون في مالوكلبنسكايا مع الفرقة ٦٣ مشاة والسير صباحاً نحو أورخوفسكي .

كانت خطة الهجوم المعاكس من أربع جهات تبدو جذابة ، ولكن لا يمكن ظاهرياً لا في المكان ولا الزمان أن تكون منسقة ، لأن تكتيل مثل هذه القوى خلال أربع وعشرين ساعة يبدو مستحيلاً ، حيث تجتاز نهر الدون وتنظم التعاون للهجوم المعاكس .

كرس فون باولوس جهد قواته الرئيسية اعتباراً من ١٧ آب صباحاً لعبور الدون وتوسيع رأس الجسر الذي أقامه في قطاع نيجنه اوكانوف ، وقد نجح فون باولوس بين ١٧ - ٢٠ آب بعد تكبد خسائر فادحة إحداث خرق في المواضع الدفاعية لقوات الجيش المدرع الرابع ، وقذف إلى الشرق فرقة الحرس ٣٩ وفرقتي المشاة ١٨ و ١٨٤ ولواء المشاة الآلية ٢٢ ، وأحدث ثغرة في المنطقة التي تفصل الجيش المدرع الرابع والجيش ٦٢ وقد باءت بالفشل كل المحاولات التي قامت بها قوات هذين الجيشين لطرد العدو .

لم ننجح في إيقاف العدو الذي كان ينساب على الطرقات المؤدية للفلوفا وعلى كل الأحوال استطعنا بث الاضطراب في توقيت هجومه ، وإبطاء تقدمه . كما أخذت الروح القتالية لقواتنا تزداد يوماً بعد يوم .

لقد كنا نتراجع ، ولكن على كل موضع دفاعي كان العدو يصطدم بمقاومة ضارية ، حيث غطت جثث قتلاه الأرض الروسية . وتعلمنا خلال تراجعنا كيف نقاتل العدو .

● لي الحق أن أتكلم عن الجيشين ٦٢ و ٦٤ ، ففي هذين الجيشين شهدت مولد بطولات جماهير ستالينغراد ، وأصبح الجيشان بطلي هذه الجماهير .

وفي تلك الأيام خلد ستة عشر من جنود لواء مشاة الحرس مع قائدهم الملازم الأول الشيوعي كوتشنيكوف عملاً عسكرياً مجيداً ، فقد تلقى هؤلاء الأمر بالتمركز على أحد المرتفعات في قطاع كليتسكايا ، وكانوا يعلمون بأنهم قبل وصول التعزيزات سيخوضون معركة صعبة لذلك وعد كل منهم الآخر بعدم التراجع ولو خطوة واحدة .

هوجمت هذه الحفنة من المقاتلين في البداية أربع مرات من مفرزة صغيرة تابعة لمشاة العدو دون جدوى ، ثم دفع الهتلريون بسرية من حملة المسدسات الرشاشة ، وقد أحبطوا هذا الهجوم أيضاً .

في صباح اليوم الثاني تقدمت ضد هؤلاء الرجال اثنتا عشرة دبابة فاشية . ولم يكن لدى أي منهم بندقية ضد الدبابات وعدد منهم كان جريحاً ، حتى رئيسهم أصيب بجروح خطيرة .

نشبت معركة دامية حنى الموت ، وقذف أحد جنود الحرس بنفسه بعد أن ربط نفسه بنطاق من القنابل تحت سلاسل إحدى الدبابات التي لم تلبث أن اشتعلت فيها النيران . كما قام بنفس العمل بطل آخر ثم ثالث ورابع وبهذا

احتُرقت أربع دبابات في ساحة المعركة ، وأنت هذه المقاومة البطولية لانتهيار أعصاب سدة الدبابات « الرجال الذين يعملون في الدبابات » الهتلريين وعكس بعضهم طريقه وعاد الى قاعدة انطلاقه ، ولكن مسخين (يقصد دبابتين) من الصلب واصلا طريقهما إلى الأمام بعناد .

بقي على قيد الحياة من أصل ستة عشر من أبطال الحرس أربعة فقط : تشيركوف - ستيفانتكو - شوكماتوف والملازم كاتشيكوف . وكان بإمكانهم الاختفاء في أحد الخنادق، أو النجاة بأنفسهم من خلال أحد المنخفضات ، ولكن هذا يعني بالنسبة إليهم ترك موقعهم للعدو ، وبذلك يُفتح الطريق نحو الفولغا ، وبعد أن وضع الأحياء قائدهم القتل في مكان خفي، حمل كل من ستيفانتكو ، وشكماتوف سلسلة من القنابل واندفعوا نحو الدبابات الألمانية ، وهم يصرخون لن تأسرونا ورموا أنفسهم نحتها ودمروها .

عندما وصلت التعزيزات للموقع الذي كان يدافع عنه هؤلاء الأبطال من الحرس ، شاهدوا على سفح المرتفع حطام ست دبابات وهي تشتعل . لقد قبل هؤلاء القتال ضد عدو يفوقهم عدداً وعدة ، وقضوا نحبهم دون أن يتراجعوا خطوة واحدة إلى الوراء .

وقد علمت بعد الحرب أن واحداً من هؤلاء الستة عشر بقي على قيد الحياة وهو ب - بوردين وكانت جراحه خطيرة حيث نُقل للمستشفى ، ثم عاد إلى القتال ووصل إلى برلين مع القوات السوفييتية المنتصرة .



المعركة بين الدون والفولغا



انتقلت المعركة من أجل سنالينغراد اعتباراً من ٢٠ آب إلى الشرق ، في شبه الجزيرة بين نهري الفولغا والدون ، بعد أن توجهت نحو سنالينغراد القوات الرئيسية للجيشين الألمانيين ، الجيش السادس فون باولوس والجيش المدرع الرابع فون هوت ، وأخذت عمليات هذين الجيشين مع وسائل دعمهما ، تتناسق في الزمان ، والمكان ، نحو هدف واحد ، وقد انتشرت أمامهما قوات جبهتي سنالينغراد وجنوب - شرق ، حيث توزعتا في ٢٣ آب حتى الفولغا .

ذهبت في ٢٤ آب بطلب من شوميلوف إلى قطاع فاسيليفكا ، حيث دارت رحى معركة طاحنة مع المهاجمين حسب تقرير قائد الوحدة التي كانت هناك . وجدت في شمال القرية المذكورة « مرصد » قائد لواء المدفعية التابع لفرقة كوروباننكو، وكانت بوابات ومشاة العدو نحاول الاختراق من هذه الجبهة ولكن لواء المدفعية ظل ساكناً دون سبب .

- لماذا لا نرمي بمدافعك على المهاجمين ؟ سألت قائد لواء المدفعية .

أجابني القائد المذكور وهو بحالة مضطربة :

- قاربت خيرتنا على النضوب .

عادة يكون هذا جواب ، من يحضر نفسه للقتال التراجعي .

- إنني أمرك بأن ندخر مدفعيتك ونطلق النيران مباشرة .

- على أية مجموعة ؟

- على احنياط العدو .

من المرصد كنا نرى تشكيلة قوية من مشاة العدو نتقدم نحو قطاع قرية برروفوي .

رشقة من النيران دوت ، ثم تبعها رشقة أخرى ، فإذا باحتياط العدو

المتقدم ينبعثر في المنخفضات التي النجا إليها آخرون غيرهم من أشخاص وعربات وسبارات ، ولم يكن هذا الرمي المحكم بكثير على الفاشيين .. ولم يلبث أن ظهر في المرصد قائد الفرقة . و نظمتنا مباشرة ضربة كثيفة أخرى بنار المدفعية الفرعية، ثم اندفعت فرقة من المشاة بهجوم معاكس . حيث نشبت معركة دامت ساعتين . عانت بعدها القرينان فاسبليفا ، وكابينسكايا الى أيدينا ، وأخذ العدو يتراجع نحو الجنوب بفوضى .

وفي اليوم الثاني زرت ما كنا ندعوه مركز قيادة فرقة ليونكوف ، التي كانت موجودة على خط السكة الفرعي للكبلومنر ٧٤ ، وكان المركز عبارة عن خندق وملجأ بعرض متر ونصف وبطول ستة أمتار ، وقد وجدته ضيقا ، ورغم دعوني للنزول من قبل ليونكوف، لم أسرع لتلبية دعونه .

كانت قذائف مدفعية العدو الثقيلة تنفجر في كل مكان حولنا ، ولكنني لم أكن أستطيع أن أبعد عيني عن ساحة المعركة ، فقد ابتدأ هجوم قواتنا المعاكس . كانت النواة الرئيسية لهذا الهجوم المعاكس ، فوج مدرع ، ووحدات من المشاة تابعة إلى ليونكوف . التي بدأت بالاشتبك مع العدو . وقد رأيت الدبابات والمشاة الألمانية تتراجع تحت ضربات قواتنا . ولكن لم تمض سوى ٣٠ - ٤٠ دقيقة إلا وظهرت طائرات العدو محلقة في الجو، وأخذت تنقض على قواتنا . لذلك توقف سدة الدبابات والمشاة عن التقدم وأخذت بفنح نيرانها من مكانها ، ثم بدأ تراشق مدفعي بين دباباتنا ، ودبابات العدو ، ولم يجرب أي منهما الاقتراب من الآخر . وظل الوضع على حاله وامتد لبضع ساعات .

وبعد أن بدا الموقف لي في ذلك القطاع مستقرا ، أبلغت شوميلوف ، ثم ذهبت إلى القطاع الذي تحتله الفرقة ٢٩ في السوفخوز الواقع على بعد ١٢ كم إلى الشمال من ايفانيروفو . وفي مقر الفرقة ٢٩ صادفت مرة ثانية معاون قائد الجبهة الجنرال غوليكونوف . ورأينا هناك كيف أخذ طيران العدو يقصف مشاته ، وقد حصل هذا بعد رميات قريبة متبادلة قصيرة، أدت إلى تراجع قواتنا بسرعة وبانتظام إلى مواقع جديدة . تاركة للعدو امكانية التقدم السريع ، وهنا أيضا ظهرت طائرات العدو . تحلق بمجموعات كل منها ٢٠ - ٣٠ طائرة وبدأت تقصف قواتها لمدة نصف ساعة تقريبا ، فأخذ رجال الدبابات الألمان يهربون من دباباتهم لانقاذ أنفسهم من قنابل طائراتهم وهم يطلقون الصواريخ البيضاء وهذا يعني « صديق - صديق » ، ولكن الطائرات الألمانية ظلت تقصفهم حتى

٧٣

أنهت حملتها من الذخيرة والقنابل .

كانت مناورة سهلة ، ولكن يجب أن تتم بنشاط وسرعة ، فتراجع مفاجيء عن مواقع كانت هدفاً لقصف الطائرات العدو، معناه دعوة سريعة لمشاة العدو لاحتلال الموقع ، ووقوعه تحت نيران طائراتها الخاصة .

فررت في المساء العودة إلى مقر قيادة الجيش التي كانت تتمركز في إحدى المنخفضات على بعد ١٢ كم من قرية زينا .

عندما مررنا بالقرب من خط سكة الحديد الفرعي للكيلومتر ٧٤ ، وجدت مجموعة كبيرة من جنود الجيش الأحمر تجتاز خط السكة الحديدية وتراجع شمالاً . ولم نكن نسمع في ذلك الوقت أي طلقات نارية ، ولم نر أحداً من جنود العدو يقوم بالهجوم ، إذن لأي سبب كان هؤلاء الجنود يتراجعون ومن يحاول اقضاء أثرهم ؟ نزلنا من السيارات الثلاث ، وأوقفنا الجنود وأعدناهم إلى وراء حافة السكة الحديدية ، وهناك أخذوا في حفر الخنادق ، ثم وجدنا مباشرة بعد ذلك قائد الفصيلة ثم قائد السرية العائدة إلى فرقة ليونيكوف ، وأمرت هذا الأخير بالبقاء في مكانه والتمسك في المواضع الدفاعية التي يحتلها . ولم يعد بإمكاننا بعد ذلك متابعة السير حتى فرقة ليونيكوف لهبوط الظلام خوفاً من أن نسقط ليلاً بيد الألمان .

التقيت بالقرب من ممر على مستوى الخط الحديدي بمسؤول كبير من الفصيل السياسي (لم أعد أنكر اسمه) وأخبرني أن شوميلوف وأركان الجيش يتحرون بالهاتف بحثاً عني ، فتذكرت في تلك اللحظة فقط أنني لم أتصل بالهاتف بأركان الجيش منذ حوالي عشر ساعات .

كان الجنرال شوميلوف ومساعديه المباشرين وأعضاء المجلس العسكري للجيش ز . زربوك ، ك . ابراموف ، ورئيس الأركان لاسكين يقدرونني عالياً ، فقد وجدنا بسرعة لغة عمل مشتركة بيننا ، وعملنا بتناسق واتفاق تامين ، إذ كانت تحركنا دائماً امتعاضات متبادلة ، وظل هذا الجو من الصداقة بيننا حتى آخر يوم لي في الجيش ٦٤ « ولكن .. فجأة فقت كل شيء .

لم يكن قلقهم في ذلك الوقت دون سبب ، فحالات كثيرة حدثت لقادة تاهوا عن الطريق ولم يعودوا كلياً فهم إما قتلوا أو أسروا .

عندما راني شوميلوف نزل إلى المخبأ الأرضي ، وصرخ بأعلى صوته ها هو وجدناه ، واتصل هاتفياً برئيس أركان الجبهة وأعلمه عن وصولي ، ثم وصل

أعضاء المجلس العسكري مباشرة للمخبأ وعاتبوني ولاموني على تأخري في الإتصال . وكنت أرى على وجوههم فرحاً لا يمكن إخفاؤه . فبعد إنقطاع أخباري طويلاً عنهم ، أعطوا الأمر لليودنكوف ، ولقادة الوحدات الأخرى للنفثيش عني في ساحة المعركة ، وعلى الأقل إيجاد سيارتي المحطمة ، ولكنهم بعد ذلك وجدوني وسيارتي صحيحاً ومعافى .



قامت فيالق ثلاثة من أصل خمسة (يتألف منها جيش فون باولوس) بهجوم في ٢٣ آب بدءاً من رأس الجسر الذي أقيم على الضفة الشرقية للدون . وحسب مخطط فون باولوس : يقوم الفيلق الثامن بالهجوم على كوتكوبان ، وكوزمنشي وايرزوفكا ، وعلى عانقه نفع كل العمليات التي تنفذ من الجهة الشمالية . يهاجم الفيلق المدرع الرابع عشر من بوركنين الخط الفرعي لسكة الحديد المتجهة من كوني ، بانجاه ربنوك ، سبارنانوفكا . أما الفيلق ٥١ فكان عليه السير بخط مستقيم نحو المدينة عن طريق روسوشكي ، غومراك وكذلك يهاجم الفيلق ٢٤ المدرع اعتباراً من قطاع كالانش عن طريق كاربوفكا ، ويبقى على الطرف الآخر للدون الفيلق ١٧ .

أما الجيش المدرع الرابع لفون هوت ، فكان يواصل هجومه موجهاً جهده الرئيسي نحو الجنوب عن طريق توندوتوفو .

ثم دخل الجيشان السادس فون باولوس والجيش المدرع الرابع فون هوت منذ ٢٠ آب بنعاون وثيق على نطاق العمليات الكبرى وعلى مستوى العمليات التكتيكية .

قام في ٢١ آب الفيلق المدرع ٤٨ والفيلق الرابع بتنسيق وثيق بالهجوم على نقطة إتصال الجيشين ٦٤ و ٥٧ السوفيين ، واستطاع الفيلقان العدوان من إحداث ثغرة بعرض ١٥ كم بانجاه نوندونوفو . ومن هنا نشأ تهديد فون هوت بالاختراق متجهاً إلى الجنوب نحو ستالينغراد والفولغا .

وهنا قام قائد جبهتي سنالينغراد وجنوب - شرق أ . إيرمنكو ، ولكي يدعم الدفاع ضد جيش فون هوت الرابع المدرع ، بنقل أربعة ألوية مدفعية ضد الدبابات ، وأربعة ألوية هاون تابعة للحرس واللواء المدرع ٥٦ إلى القطاع

المهدد العائد للجيش ٥٧ جنوب ستالينغراد ، ورغم أن هذه الوحدات ستساعد في إيقاف هجوم جيش فون هوت ، إلا أن نقلها من الدون باتجاه الجنوب كان سيضعف دفاع الجيش ٦٢ والجيش المدرع الرابع بشكل ملحوظ . ففي طريق نقطة إتصال الجيشين السوفيتيين كان الجيش السادس الألماني يسند للسبر من الغرب باتجاه ستالينغراد .

كان الغزاة يفكرون خلال استعداداتهم للنفوذ الى الفولغا في شمال مدينة ستالينغراد في نفس الوقت بالقيام بعملية تجاوز بعيدة المدى للجناح الأيمن للجيش ٦٢ . ومن الواضح أنهم كانوا يسعون بدقة وإنقان تنفيذ مخطط تطويق ، للجيشين ٦٢ و ٦٤ وإغلاق ذراعي الكماشة عليهما من الغرب والجنوب على طول ضفة الفولغا نفسه .

اندفع في ٢٥ آب المجرمون الفاشيست ، حال تلقى أوامر هتلر لاحتلال ستالينغراد ، نحو الفولغا بدون النظر للخسائر ، وكان الثالث والعشرون من آب ١٩٤٢ يوما مأساويا بالنسبة للمدينة ، حيث نجحت بعض فرق المشاة ، وفرقة مدرعة عدوة ، من اختراق دفاع الجيش ٦٢ بعد خسائر فاحشة في قطاع فبريانشي - بيسكوفانكا . ثم دفعت القيادة الألمانية من هذه الفتحة بعدة فرق من المشاة ، وفرقتين ألتيبن ، وفرقة مدرعة ، والفيلق المدرع ١٤ ، والفيلق الثاني . ونفذت العناصر المتقدمة ، لهذه القوات ، بدعمها مائة دبابة على الفولغا شمال ضاحية ربنوك .

نتج عن ذلك موقف خطير جداً . وكان أقل نشوش أو مظهر من مظاهر الخوف من جهتنا يمكن أن يؤدي إلى كارثة . وكان الهتلريون يعتمدون على ذلك . فإذا ما أخذوا هذا الرعب ، فإنهم سيستغلونه فوراً ، لدب الفوضى في المدينة ، لذلك وجهوا في ٢٣ آب جيشاً من قاذفات القنابل على ستالينغراد ، فامت بحوالي ألفي مهمة قتال . ولم تصل غاراتهم الجوية ولا مرة واحدة من قبل ، بمثل هذه الكثافة والحدة والعنف . وغرقت المدينة الكبيرة التي تمتد على نهر الفولغا حوالي خمسين كيلومترا بلجة من اللهب دخل معها الحزن والموت لآلاف العائلات . وأسقط دفاعنا الجوي في ذلك اليوم ٩٠ طائرة عدوة ، ولم يتوقف القصف حتى الليل .

ولكن لم يحدث هذا القصف المرعب ، أي نشوش ، ولم يستطع بذر الفوضى في صفوف المدافعين عن ستالينغراد . ولبي نداء المجلس العسكري للجبهة

ومنظمة الحزب في المدينة جنود ومواطنون بروح عالية وأصبحت المصانع المشهورة « تراكتورني » و « باريكادي » كراسني أكتيابر ، والمركز الكهربائي مراجل للدفاع ، كان العمال يصنعون السلاح ويدافعون عن المصانع بجانب القوات المحاربة ، وتوحد الجميع للدفاع عن مدينتهم الغالية : المحاربون القدماء نور الشعر الأشيب ممن دافعوا عن المدينة ١٩١٨ - ١٩١٩ ، عمال صهر الفولاذ ، بناء الجرارات ، بحارة الفولغا ، عمال الموانئ والمداحن ، عمال بناء السفن ، المستخدمون ، الكناسون ، والشيوخ والأطفال... كما وصلت لنجدتهم قوات الجنرال سراييف وقوات العقداء غوروخوف ، اندريوسنكو والمقدم بولفينو .

وبدأت المعركة تأخذ شيئاً فشيئاً طابع الضراوة الشديدة ، وكان على الهتلريين أن يدفعوا ثمناً باهظاً من خسائرهم لكل خطوة يخطونها ، وبقدر ما كان البرابرة الفاشيون . يقتربون من المدينة ، كانت المعارك تزداد عنفاً وضراوة ، والجنود السوفييت يزدادون بسالة . ويُسمح لي بالمقارنة فدفعنا في ذلك الوقت يشبه النابض الذي كلما ضغطت عليه ازدادت ردود فعله قوة .

ولنر ما كتب المرافق الأول لجيش فون باولوس عن هذه المعارك : « كانت القوات السوفيتية تقاتل من أجل كل بوصة من الأرض » . وأما تقرير جنرال الجيش المدرع فلترشيم قائد الفيلق المدرع الرابع عشر - فقد كان يبدو لنا وكأنه شيء لا يصدق يقول الجنرال المنكور : « إن وحدات الجيش الأحمر كانت تقوم بالهجمات المعاكسة القوية بدعم من كل سكان ستالينغراد ، الذين كانوا يظهرون شجاعة نادرة . لقد حمل الشعب جميعه السلاح ، عمال بلباس العمل وجدوا قتلى معندين في ساحة المعركة ، وغالباً ما كانت أياديهم الصلبة تقبض على بندقية أو مسدس ، قتلى بلباس العمل ظلوا معلقين على جهاز قيادة دبابة محطمة ، ولم نر من قبل شيئاً يماثل هذا مطلقاً » .

تميز في تلك الأيام في قطاع ماليه روسوشكي على بعد أربعين كيلومتراً إلى الغرب من ستالينغراد ٣٣ جندياً من لواء المشاة ١٣٧٩ من الجيش ٦٢ ، وعلي رأسهم الموجه السياسي الكومسمولي ليونيد كافالييف : لقد حوَّصر هؤلاء تماماً ولكنهم لم يتراجعوا ، وحاولت سبعون دبابة أنقضاض احتلال موقعهم الدفاعي ، وكان احتياطهم من الغذاء قد نفذ ولم يعد لديهم قطرة ماء في جو حار جداً ، ولكنهم لم يهنوا مطلقاً ، وأحرقوا في المعركة ٢٥ دبابة ، وقتلوا حوالي ١٥٠ جندياً

فأشياً .

لذلك عندما صادفت القيادة الهتلرية هذه المقاومة الحية على مشارف ستالينغراد ، أخذت في تعزيز قواتها ، وبدأت المعركة تأخذ أبعاداً متزايدة . لقد وصل الهتلريون في ٢٣ آب إلى الفولغا ، ولكنهم لم يستطيعوا تعريض الثغرة التي أحدثوها ، واحتلال القسم الشمالي من ستالينغراد ، رينوك ، سبارتانوفكا ، اورلوفكا . فقد نظم الدفاع عن هذه المناطق في الوقت المناسب ، وارتفع أمام الهتلريين حاجز لا يمكن اجتيازه . وفي المعارك التي دارت في الضواحي الشمالية للمدينة كان هناك مئات من العمال ومحاربو الدفاع المضاد للطائرات يقاتلون جنباً إلى جنب مع جنود الجيش ٦٢ وهنا أيضاً لم يستطع الفاشسيون اختراق المدينة .

لم يستطع الهتلريون أيضاً في الجنوب في قطاع الجيش ٦٤ إحداث أي خرق باتجاه الفولغا ، ويعود ذلك للهجمات المعاكسة التي كانت تقوم بها قواتنا . أكثر النقاط ضعفاً في دفاعنا كانت موجودة في قطاع محطة كوتلوبان . وخط سكة الحديد ، في كونوي ، على الجناح الأيمن للجيش ٦٢ ، ولو توجه الغزاة من خط السكة الحديدية الفرعي في كونوي لن يجدوا أمامهم سوى فرقتين ، على طول الخط الحديدي ، وكان بإمكانهم الوصول بسهولة إلى الفولغا في محطة نورديونوف ، في مؤخرات الجيشين ٦٢ و ٦٤ وقطعتهما عن المدينة . كان الجنرالات الهتلريين على ما يبدو يريدون قتل عنزتين بضربة واحدة أي كانوا يريدون احتلال المدينة وتطويق كل قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ ، ومما لا شك فيه أن مثل هذه الخطة تبدو جذابة تماماً ، فيما إذا لم يلاحظوا العناد المتزايد للقوات السوفينية المدافعة . واتساع جبهة الهجوم . وطول خطوط المواصلات ، وقد أحبطت تماماً خططهم التي كانت مبنية على دب الذعر، وإضعاف الحالة النفسية ، التي كانوا يأملون بأن تسري بعد غاراتهم الوحشية ، لقد صمد سكان المدينة بشدة لهذه الضربة المخيفة .

امتدت في نهاية تموز الجبهة الدفاعية للجيشين ٦٢ و ٦٤ اعتباراً من رينوك ، اورلوفكا مزرعة سوفيتسكي . ليباتشيف وإلى الورا باتجاه الجنوب . الشرقي على طول مجاري الأنهار إيريك ، ميشكوفكا حتى فاسيليفكا ، ثم من سوفخوز لوركين على طول الخط الحديدي حتى محطة نوندوتوفو .

كانت قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ موجودة في الواقع ضمن كيس قعره موجوداً

على ضفة الدون بالقرب من قرية ليابتشليف . وجوانبه في الشمال بالقرب من ريفوك على الفولغا وإلى الجنوب من محطة توندوتوفو ، وكان على الجيش المدرع الرابع فون هوت أن يجتاز ١٥ كيلومتر طيران الطائر لكي يستطيع أن يحقق أيضاً الاختراق من الجنوب باتجاه الفولغا من كراسنو أراميسك .

لقد أصبح الموقف ملائماً بالنسبة لاعتقاد أركان هتلر ، فستالينغراد وضواحيها أصبحتا قاب قوسين أو أدنى . لذلك ألح هتلر على قائده فون بولوس وطلب منه احتلال ستالينغراد في ٢٥ آب في حين كانت قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ في موقف حرج جداً .

إن القتال الحازم والضاري من قبل الجميع من أصغر جندي إلى قائد الجبهة هما فقط يمكنهما إنقاذ قواتنا . نحن نعرف قرار الستافكا من ستالين شخصياً وقد ألزمتنا بالنضال بكل قوانا من أجل المدينة . وكنا نعلم أن مصير ونتائج كل معركة ١٩٤٢ قد تقرر هنا على الفولغا .

أصبحت ستالينغراد عام ١٩٤٢ مثل موسكو ١٩٤١ النقطة التي تلتقي عندها كل الأهداف والمقاصد الاستراتيجية ، والسياسية ، والاقتصادية . ولقد جذبت المعارك على الفولغا في ١٩٤٢ انتباه العالم قاطبة ، والاحترام والمحبة من قبل سكان العالم .

وبالرغم من حراسة الموقف كانت قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ لا تركز إلى الدفاع فقط بل كانت تشن هجمات معاكسة عنيفة على القوات الرئيسية العدو . كان من المهم في نهاية العشر الأخير من آب إيقاف نفوذ العدو بخاصة . فمن الجنوب أخذ بالسير من كوتلنكوفو باتجاه الفولغا عن طريق محطة توندوتوفو . وكان تقدمه يهدد بالتطويق لكل قواتنا في قطاع ستالينغراد .

كانت (ستافكا) القيادة العليا تعزز باستمرار قوات جبهتي ستالينغراد وجنوب - شرق ، فمن الأول إلى ٢٠ آب وجهت إلى هناك ١٥ فرقة مشاة وثلاثة فيالق مدرعة ولكن وصولها كان يتأخر بسبب إمكانيات خطوط السكة الحديدية المحدودة فمن مجموع هذه الفرق وصلت خمس فرق مشاة في ٢٠ آب إلى قطاع كيتشالينسكا ولم يكن بإمكان الفيالق المدرعة الوصول قبل ٢٣ - ٢٤ آب إلى أمام ستالينغراد . ولكن بسبب تدهور الموقف بين الدون والفولغا اضطرت قيادة الجبهة لزوج هذه الفرق الجديدة ، والتي ما تكاد تترجل حتى ترسل إلى الجبهة بسرعة ، دون توجيه وبدون تحضير واستعداد للقتال .

فالفرة ٣١٥ مشاة كانت قد رفعت من احنياط القيادة (ستافكا) وأخذت طريقها في ٢٣ آب بمسير مديد في قطاع غوروديشنشة لكي تحتل مواقعها على النطاق الداخلي للدفاع ، وبعد ظهر اليوم نفسه هوجمت هذه الفرقة التي كانت بحالة المسير من قبل الطيران، ثم من قبل دبابات العدو التي أحدثت خرقاً في قطاع فيربيانشي .

أما الفرقة ٣٥ من مشاة الحرس بقيادة ماجور جنرال كلاسكوف فكان عليها احتلال مواضعها في النطاق الأوسط للدفاع ، ولكن مفارزها المتقدمة لم تصل إلى خط الدفاع إلا في ليل ٢٣ . وصمدت عناصر متقدمة من الفرقة (بقيادة النقيب ا. ستولياريوف) في جنوب محطة كوتلوبان ضد قوى عدوة كبيرة من المدرعات والمشاة الآلية ، وقد قام الفاشيون خمس مرات بهجوم على مواقع المجموعة ولكنهم في كل مرة كانوا يرتدون على أعقابهم مع الخسائر وفي ذروة العمل أخرج النقيب ا. ستولياريوف من المعركة وحل محله النقيب روبن رويز ايبارودي. وهذا الأخير جرح هو الآخر جرحاً مميتاً وخرج من المعركة .

منح النقيب روبن رويز ايبارودي لقباً فريداً كبطل للاتحاد السوفيتي . ولا تزال رفاته في المدينة البطلة ستالينغراد ، وكل عام في ذكرى موت روبن ايبارودي يمكن رؤية امرأة طويلة القامة شعر أبيض نضع الزهور على قبر البطل . إنها والدته دولوريس ايبارودي ، زعيمة الحزب الشيوعي الإسباني . وقد هوجمت الفرقة ٣٥ لمشاة الحرس من قبل قوة عدوة متفوقة بالعدد فلم تتمكن من احتلال خط دفاعها المحدد لها ، فاضطرت للتراجع في قطاع ساموخالوفكا .

لذلك شكلت قواتنا مجموعتي صدمة لسد الاختراق الذي أحدثه العدو على الفولغا ، وكانت المجموعة الأولى بقيادة معاون قائد جبهة ستالينغراد الراحل جنرال كوفالنكو ، وتتألف من فيلقين مدرعين وثلاث فرق مشاة ، مهمتها الهجوم في صباح ٢٥ آب ، باتجاه سوخايا - ميتشليتكا . أما المجموعة الثانية فكانت بقيادة الملازم جنرال أ . شتيفلييف قائد القوات المدرعة والآلية لجبهة ستالينغراد وتتألف من فيلقين مدرعين ومهمتها الهجوم من اورلوفكا باتجاه عام نحو لايرزوفكا . وكانت مهمة هاتين المجموعتين ، وبجهد مشترك ، تطويق وتدمير مجموعة العدو التي كانت قد أحدثت الاختراق باتجاه الفولغا في القطاع الواقع شمال ستالينغراد . ولتثبيت الجبهة الدفاعية على الضفة اليسرى للدون أعطي

الأمر للجناح الأيسر للجيش المدرع توجيه ضرباته من الشمال باتجاه فيرنياشي مع فرقتي مشاة ، وبعد التغلب على مقاومة العدو . النفوذ على الضفة اليسرى للقولغا في قطاع نيجنه - جينلوفسكي - فيرنياشي ، كما كلف الجناح الأيمن للجيش ٦٢ ، بالتعاون مع فرقة الحرس ٣٥ والفرقة المدرعة ١٦٩ التي ألحقت بالجيش ٦٢ بالقيام بهجوم على بيسكوفانكا . وعندما يصبح هذا سيد الموقف في نهاية النهار - ويصل إلى الخط فيرنياشي - بوسكوف ، يتوجب العمل على تحقيق الاتصال مع الجيش المدرع الرابع في الضفة اليسرى للدون .

ظل مقر أركان جبهة ستالينغراد دائماً في المدينة . لتسهيل إدارة العمليات وأقيم مركز مساعد للجبهة في ٢٦ آب في قطاع مالايا ايفانوف ، يستقر فيه قائد الجبهة الرائد جنرال كوفالينكو ورئيس أركان الجبهة الرائد جنرال نيكيشوف . أدت الضربات التي وجهتها مجموعتنا الجنرال كوفالينكو وشنيفيليف إلى وضع الفيلق المدرع ١٤ المعادي في وضع لا يحسد عليه . وقلصت الثغرة في ٢٦ آب ، وأصبح عرضها أربعة كيلومترات عوضاً عن ١٥ واضطر فون بولوس لتموين هذا الفيلق جواً .

نجح العدو خلال ذلك في تنظيم جهاز قوي للرمي ضد المشاة والدبابات ، كما أظهرت طائراته في تلك الأيام نشاطاً مكثفاً ، وكانت هذه الطائرات ، نقصف دورياً قواتنا وترميها برشاشاتها وبخاصة قواتنا التي كانت تسير باتجاه الجبهة مما جعل سيرها هذا مستحيلاً خلال النهار ناهيك عن زجها في القتال بعد تحضيرها بشكل منظم .

أما الهجمات المعاكسة التي قام بها الجناح الأيسر للجيش الرابع المدرع ، وكذلك الجناح الأيمن للجيش ٦٢ بقصد السيطرة على الضفة اليسرى للدون في قطاع نيجنه - جينلوفسكي ، فيرنياشي ، بيسكوفانكا ، فقد ظلت دون نجاح مؤثر .

لم يصل احتياط (السنافكا) الموجه للجبهة إلا في يوم ٢٢ آب إلى محطات الإنزال في فرولوفو لوغ على بعد ١٠٠ كم من مسرح العمليات ولم يكن هناك الوقت ليشارك في ألق وأخرج مرحلة من مراحل المعركة .

ومن المناسب هنا أن نورد بعض كلمات ، وبخاصة حول عمل الإشارة (الاتصال) .

في تلك الأيام كانت الاتصالات عندنا ضعيفة حتى في السنة الثانية للحرب ،

في الوقت الذي كان فيه الهنريون يستخدمون أجهزة الراديو في الإتصال على مختلف الأنساق . وكانت الإتصالات الهاتفية عن طريق الأسلاك هي السائدة لدينا . ولكنها غالباً ما تكون معطلة ومقطوعة . لذلك كان من الضروري إرسال ضباط الإشارة للإتصال المباشر في مختلف الاتجاهات ، مما يجعل قيادة القوات صعبة للغاية ، خاصة انتشارها في هذه المساحات الشاسعة من السهوب ، لذلك ولكي يتم إيصال تعليمات قيادة الجبهة بالسرعة الممكنة إلى المنفذين، كانت تنقصنا الامكانيات والوقت ، وينطبق ذلك على المعلومات التي كنا نحصل عليها من الخطوط الأولى التي كانت تصل متأخرة ويعود ذلك للإتصالات السيئة . وتتطلب الحركة الآلية أكثر ما يمكن من حركية وسرعة في قيادة القوات على مختلف الأنساق أكثر من التي في حوزتنا في ذلك الوقت .

كنا ننسحب تحت ضغط عدو أقوى منا ، فالأوامر التي كانت نحمل هذه الكلمة الصغيرة (فوراً) غالباً ما كانت تصل لوحدة ما بعد أن تكون المحلات المأهولة الواردة في تلك الأوامر ، قد أخليت بأحيانا تصل عندما تكون مفارز وأقسام الجنود التي يقع عليها عبء تنفيذ الأمر لم يعد لها وجود كوحدة محاربة .

كانت منظمة الحزب في تلك الأيام العصبية تعمل بكثافة خاصة . وقد تحولت لجنة الدفاع عن المدينة (متالينغراد) ، تحت قيادة السكرتير الأول للجنة القطرية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ا . تشويانوف، إلى منظمة مقاتلة بيد المجلس العسكري للجبهة . وتشكلت في أحياء المصانع أفواج عمالية للدفاع عن المصانع مؤلفة من عمال مصانع « نراكتورني » ، « كراسني أوكنيار » ، باريكادي والمؤسسات الأخرى التي ارتفعت كسور للدفاع عن المدينة .

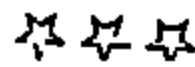
قامت منظمات الحزب في المدينة والأطراف وفي الجيش تحت قيادة المجلس العسكري للجبهة بعمل جبار ، دون كلل أو ملل بين الجماهير لإلحاق الهزيمة بالعدو بأسرع ما يمكن ، فمئات من الشيوعيين ذهبوا إلى الجبهة ، إلى الخطوط الأولى . وفي نفس الوقت شنت هذه المنظمات حملة لا مثيل لها ضد كل مظاهر الرعب والجبن . كان الشيوعيون دائماً في المقدمة . وفي أكثر القطاعات خطورة والتي تتطلب تحمل المسؤولية الكاملة .

وسأعرض فيما يلي الوثيقة التي كانت ذات أهمية كبرى بالنسبة للمدينة .

✱ نداء لجنة الدفاع عن المدينة ✱

أيها الرفاق الأعزاء ! أعزاءنا الستالينغرايين ، من جديد كما هو الحال قبل أربعة وعشرين عاماً نعيش مدينتنا أياماً عصيبة ، فالهتلريون الملتخعة أيديهم بالدماء يتجهون نحو سنالينغراد ويحلمون بشمس الفولغا ، النهر الروسي العظيم . أيها الستالينغرايون ! إن نترك الألمان يدنسون مدينتنا العزيزة ، لنقف كلنا كرجل واحد ، لندافع عن بلدنا الحبيبة مسقط رأسنا ولنندافع عن عائلتنا ، غطوا كل الشوارع بالحواجز التي لا يمكن المرور منها ، اجعلوا كل بيت وكل حي وكل شارع قلعة حصينة انهضوا جميعاً لبناء الحواجز ، ضعوها في كل شارع . لقد دافع أبائكم عام ١٩١٨ عن مدينة تسارسين ، وسندافع نحن عام ١٩٤٢ عن سنالينغراد الحمراء .

هبوا جميعاً لإقامة السجود، وعلى كل الذين باسنتاعتهم حمل السلاح أن يتقدموا للدفاع عن المدينة .



أخذت مفارز الدفاع الجوي في الأحياء الملتهبة تكشف عن بطولاتها هي والوحدات الصحية وفرق الإنذار. ونم نقل النساء اللواتي كن لا يعملن في الإنتاج وكذلك الأطفال والتسيوخ إلى الضفة الأخرى من الفولغا ، وظلت مراكب الموانئ النهرية تعمل مع مراكب أسطول الفولغا الحربي (بالرغم من الخسائر الفاحشة التي تكبدتها بسبب الغارات الجوية) ، تقوم بعملية الإخلاء تحت بيران العدو ، ونعود من الضفة اليسرى إلى الضفة اليمنى حاملة معها الامدادات بالقوى والعناد ، كما كانت مراكب الأسطول الحربي النهرية تطلق نيرانها الكثيفة على العدو الذي اسنطاع إحداث ثغرة في النطاق الشمالي للمدينة .

أنجزت منظمات الحزب في المدينة والأطراف عملاً سياسياً رائعاً فأنشأت التنظيمات بين القوات التي وصلت حديثاً حيث استغلت كل دقيقة وساعة للنوجبه السياسي ، وكانت ننظم وتنسق بشكل عام وضع منظمات الحزب والنعاون النام بين مفارز العمال وسرايا وأفواج ووحدات الجيش الأخرى، بحيث تحولت ستالينغراد المحاصرة الى مدينة « قلعة » مقاتلة ، غبىء تحت قيادة أجهزة ومنظمات الحزب كل شيء لصد العدو ، وكانت الوحدات التي نصل من أقصى البلاد إلى المدينة نجد أمامها نلاحماً وثيقاً بين الجنود والسكان مما أدى إلى دعم

وعزبز ارادة القتال حتى الموت بن الجميع .

لم نستطع هجمائنا المعاكسة ايقاف آلة الحرب الهلرية النى اندفعت فى العمق داخل منحنى الدون الكبير وكذلك بين الدون والفولغا ، ولكن المهلة النى حددبها خطط الهجوم الهلرية لاحتلال المدينة لم ننفذ وتخلخلت ، وعبر بخان وحرانق المعارك أخذت نخيم على الجيوش الهلرية ظلال الهزيمة السوداء . وبينما كانت قوات الجيشين ٦٢ والجيش المدرع الرابع نقعان بحزم منذ ٢١ آب حتى نهايه أمام هجوم الجيش السادس فون باولوس فى غرب سنالينغراد وشمالها فى قطاع أكانوفكا اورلوفكا ، كانت قوات الجيشين ٦٤ و ٥٧ تصمد وشنبك بمعارك ضاربة مع القوات الرئيسية لجيش فون هوت المدرع الرابع . كان يغطى جناح فون هوت من اليسار الفرق الرومانية التابعة للفيلق الرومانى السادس والفيلق المدرع ٤٨ والفيلق الرابع موجهة جهدها الرئيسى على طول الخط الحديدى بانجاه كراسفورامبسك لذلك ركزت هجمات الجيشين ٦٤ و ٥٧ المعاكسة إلى هذا المحور كما نوضح ميدان القتال : من الغرب بمحطات السكة الحديدية كوندونوف ، افانبروف . ومن الشرق ببحيرات تاسا وساربا ، وكانت تعمل مع العدو حوالى ٢٥٠ دبابة .

نجحت فى الرابع والعشرين من اب الفرقتان المدرعتان ١٤ و ٢١ والفرقة الآلية ٢٩ فى تحقيق اخراق من الجنوب وحنى بلدة سوليانكا . ولكن هذه القوات لم تستطع التقدم أكثر من ذلك فبسالة دفاعنا . والهجمات المعاكسة التى كنا نقوم بها بفرق المشاة ٤٢٢ و ٢٤٤ وفرقة الحرس ١٥ أوقفت إندفاع جيش فون هوت ، وقد لعبت وحدات الصواريخ التابعة للحرس والتى استدعيت من الدون دورا حساسا وفعالا حيث أحرقت ودمرت ككل مدفعيننا حوالى ٦٠ دبابة عدوة ، ونميزت بفعاليتها فى هذه المعارك .

هوجمت مواضع أحد فصائل الرمي التابعة للواء مدفعية الحرس ٤٣ ، بعد تمهيد جوي قوي من قبل عشرين دبابة المانية تتبعها عناصر من المشاة من حملة المسدسات الرشاشة ، وقد ترك أمر الفصل المساعد م . خفاستانسيف دبابات العدو تقترب منه وعندما أصبحت على مسافة الرمي الفعال فتح عليها النار ودمر دبابتين بطلقانه الأولى ، أما الدبابة الثالثة فقد عكست اتجاهها وهى تطلق النيران ، وفى الحال قامت الطائرات الألمانية بغارة جوية على تلك الفصيلة تبعها هجوم بالدبابات ، وأخذت هذه نطلق نيرانها وهى سائرة مما أدى

إلى حرج عدد كبير من المدافعين ، ثم إخلأوهم بامر من خفاستاسيف ، وبقي هو نفسه مع خمسة جنود ومدفع واحد يطلعون النار ، وبعد عدة طلقات دُمرت دبابة أخرى ، ولكن نخبرنهم فد نفدت بسرعه ، واحاطت دبابات العدو بمواقعهم من جهتين، وبعد ذلك أخذ المدفعيون بنساقطون الواحد بلو الآخر ، عندئذ أخذ خفاستاسيف بندقية ضد الدبابات ، ودمر دبابة بالقرب منه ، وكانت الدبابات الأخرى الباقيات تنقذ على جوانب الدبابة المعطوبة ، وهنا قفز خفاستاسيف إلى الأعلى ورمى قنبلة على دبابة الرأس ولكن دون نتيجة ، إلا أنه نجح بالخروج من الخندق عندما كادت أن نسحقه إحدى الدبابات تحت سلاسلها ، وعندما نراجعت الدبابة رمت عليها قنبلة دون أن يرى مكان سقوطها ، وهنا حصده نيران الرشاشات الألمانية .

لقد وصلت أخبار م . خفاستاسيف وما قُمه للقيادة العليا وللحكومة السوفيتية التي اعترفت بشجاعته وتضحينه فأعطته لقب بطل الاتحاد السوفيتي بعد وفاته . لم تكن هذه الظاهرة سوى ماثرة من المآثر البطولية التي قام بها رجال مدفعية الحرس والتي يمكن أن نعد مثلها العشرات وحتى المنات .

ظل جيش فون هوت المدرع الرابع يخوض معارك ضارية خلال أسبوع من الزمن دون نتيجة . وقد اضطر بعد نكبه خسائر فادحة في الرجال والعناد لالغاء متابعة هجومه على كراسنو أرميسك، ومنها إلى الفولغا .

كانت خطة الهجوم التي وصعتها القيادة الألمانية على شكل كماشة ، وبموجبها يقتضي الهدف الوصول إلى الفولغا ثم إغلاق الكماشة على الضفة اليمنى للنهر ، من الشمال إلى الجنوب على ربفوك - سارنا نوفكا ، مصنع تراكنوري . ومن الجنوب إلى الشمال على كراسنو أرميسك وبيكينوفكا . ولكن دفاع الجيشين ٦٤ و ٦٢ الموحد والبطولي مع دفاع عمال سنالينغراد كان له أثر كبير في إحباط هذه الخطة .

قامت القيادة الهتلرية في ٢٧-٢٨ آب بإعادة تجميع قواتها سرأ ، فمن الجناح الأيمن نحو الوسط في قطاع ابفانيروفو - كابلفسكي ، كانت تعمل الفرقتان المدرعتان ١٤ - ٢٤ والفرقة الآلية ٢٩ وكذلك الفرق الرومانية ٦ و ٢٠ التي وجهت أيضاً إلى نفس القطاع ، وكانت مهمة هذه القوات تحقيق الاتصال مع جيش فون بولوس السادس، وقد ظهر بذلك تهديد حقيقي بنطويق الوحدات التابعة للجيش ٦٢ وفرقتين من الجيش ٦٤ .

ولكن مخابراتنا كشفت في الوقت المناسب هذه المناورة ، لذلك أعطت قيادة الجبهة الأمر للجيشين ٦٢ و ٦٤ بالتراجع إلى خط دفاعي جديد هو : ريفوك - اورولوفكا - سوفخوز « دنوفايا - نايجدا » بولشابا - مالايا - روسوشكا - الضفة الشرقية لنهر تشيرفلينايا - نوفي روغانشي - ايفانوفكا .

ذهبت في ليل ٢٠ آب مع المهندس الأول في الجيش ٦٤ أ . بورديزيلوفسكي للقيام باستطلاع خط نهر تشيرفلينايا ، وقد شاهدنا في الصباح وحدات من الجيش ٦٢ في قطاع نوفي روغانشي وهي تتراجع ، بينما كان القتال لا زال دائرا في قطاع كاربوفكا ، ووحدات الجيش ٦٤ كانت لا تزال موجودة على بعد ٣٠ - ٥٠ كم من هذا الموضع ، وكنت قلقا على هذه الوحدات ، لمعرفة فيما اذا كانت تستطيع تنفيذ تراجعها في الوقت المحدد إلى الخط الجديد وتتمكن من فض اشباكها مع العدو، دون إثارة انتباهه كما عملت مجموعة الجنوب في ١٧ آب .

النقينا في منتصف النهار ، بالجنرال ف . جوليكوف الذي كان هو الآخر يستطلع هذا الخط بأمر من قيادة الجبهة ، وقد سر بأنه وجد الذي سيكلفه بهذا القطاع ، كما هنأت نفسي بسبب أنه وضع تحت تصرفي في ساحة القتال لواء مدفعية مضادة للمدرعات نقله من احتياطه ، وبفضل هذا اللواء نمكنت من حماية مخاضات تشيرفلينايا على خير وجه .

واكتشف العدو في ٣٠ آب عن طريق طبرانه هذا الموضع، ورمى بعض القنابل على سرايا اللواء م/د .

أخبرت شوميلوف عن الاستطلاع الذي قمت به وعن الموقف على الخط الجديد ، وكذلك بالنسبة لموضوع الجيش ٦٢ المجاور . ولم نغمض أعيننا طوال الليل حتى منتصف نهار ٣١ آب بانتظار قدوم الوحدات المتراجعة إلى الخط الجديد ، وكان من الواضح في صباح ٣١ آب أن وحداتنا لم نستطع أن نخلص من العدو دون أن يكتشفها .

صادف تراجع وحدات الجيش ٦٤ بداية هجوم جديد من الجيش المدرع الرابع المعادي بدعمه الطيران لذلك بدأت ألوية الجيش ٦٤ انتشارها واحتلال مواضعها الدفاعية حالا بعد أن اجنارت مجرى تشيرفلينايا ، ثم حقق جناحا الجيشين ٦٢ و ٦٤ إنصالهما بالقرب من نوفي - روكانشي كما حقق الجيش ٦٤ إنصاله مع جيش بولوفني ٥٧ على جناحه الأيسر ، وبذلك لم نعد نخشى العدو من أن يهاجم مواضعنا الجديدة دفعة واحدة .

وقد حقق الجناح الأيمن للجيش السادس فون باولوس في الأول من أيلول
إتصاله مع الجناح الأيسر للجيش الرابع المعادي فون هوت في تشيرفلينابا في
قطاع ستاري روغانشي . وتم في ذلك الوقت تراجع قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤
الرئيسية نحو الشرق واحتلت مراكزها الدفاعية الجديدة على محرى روسانكا
تشيرفلينايا . لقد نجح العدو في إغلاق فكي كماشنه ، ليحاصر كا سنالبنغراد ،
ولكن ليس على الفولغا ، وإنما إلى غرب المدينة ، وفي هذه الكماشة المغلقة لم
يكن هناك وجود لقواتنا .

ومنذ تلك اللحظة وجه الجيشان السادس فون باولوس والجيش المدرع الرابع
هوت قواتهما الرئيسية وجهدهما الرئيسي نحو الجزء المركزي من المدينة على
طول الخطوط الحديدية كلانش - سالبنغراد وسنالبنغراد - كويلينكوفو .
قصفت الطائرات الألمانية في ٢ أيلول بشدة مخزانا ، ومواقع رمي
المدفعية ، وعقد المواصلات ومركز إصالتها الاحتياطي الموحود في منخفض
لا غونتايا وأصبح غير صالح للاستعمال ، وبالطبع كان الألمان يعرفون أهمية
مراكز الإتصالات الناعية لنا وحتى مقرات القيادة .

شن الهنلوبون هجومهم على طول الجبهة في صباح ٣ أيلول . بعد فصف
كثيف وتمهيد مدفعي شديد . وعندما نجح العدو ظهرا على الجناح الأيسر
للجيش ٦٤ من اجنيزا تشيرفلينيا طلبت القيادة تعديل ونشيت الموقف فورا ،
وأعطى الأمر للجنرال شوميلوف للذهاب إلى الأماكن التي يمكن أن يفود فيها
شخصيا الهجوم المعاكس .

في حين بقيت أنا وعضو المجلس العسكري ابراموف مع وسائل الإتصال
والقيادة في مقر القيادة الموجود في وادي كرافنكا بالقرب من مزرعة بوبوف .
وصل لمقرنا الجنرال جوليكوف في منتصف النهار وبعد أن وضع في حقيقة
الموقف ، ونقل إلينا شفوبا بعض التعليمات من المجلس العسكري للجبهة ، تابع
طريقه على طول الجبهة ، وبعد نصف ساعة تقريبا ابتداء العدو بقصف
مواقعنا ، ومن الواضح أن استطلاعه الجوي . قد اكتشف مقر القيادة ، ولم يكن
بإمكاننا الانتقال إلى مكان آخر فهنا يوجد الإتصال ومن هنا تجري إدارة القوات
والسيطرة عليها ، كما أنه من غير الممكن النقل في هذه السهوب المكشوفة تحت
القصف .

لهذا كنا مضطرين للعمل والبقاء في الملاجئ التي لم تكن محمية إلا بطبقة

من التراب سمكها خمسة وعشرون سنتيمتراً تحملها شبكة من العوارض الخشبية .

كانت طاولتي الصغيرة التي كنت أعمل خلفها تحمل الهواتف ، وتواجه طاولة عضو المجلس العسكري ابراموف ، وكانت مساحة الملجأ ستة أمتار مربعة ، تحيط بها جنبات ترابية وسطح منخفض مع جو حار خائق ، و تراب السقف ينخل علينا الغبار عبر العوارض الخشبية ، التي كانت غير مرصوفة بشكل جيد .

نعودنا على الحياة في مثل هذا المكان بعد أن أمضينا بضع ساعات نحت سقفه ، ولم نعد نغير اهتماما لضجيج المحركات وانفجار القنابل .

وفجأة بداهو كأن مخابنا قد قصف من الجو ، وبوى صوت انفجار يصم الأذان ، ولم نشعر أنا و ابراموف إلا ونحن ممددان على الأرض ، ولا أعرف كيف قلبت الطاولات والكراسي ، وفوقنا ، كانت السماء مغطاة بالغبار وكتل التراب والحجارة تطير في كل اتجاه . وكنا نسمع حولنا صراخاً وأنيباً .

بعد أن خف الغبار قليلاً وجدنا على بعد ستة - ثمانية أمتار حفر كبيرة بقطر من ١٢-١٥ م تفتح فوهاتنا . وحولها كانت بعض الجثث المشوهة ممددة على الأرض . كما لاحظنا وجود سيارات نقل كبيرة مقلوبة رأساً على عقب . وقد تعطل جهاز الراديو، كما انقطع الإتصال عبر خط الهاتف .

كان المركز الوسيط للإتصال التابع للجيش موجوداً بالقرب من بلدة (لاغونني) ، على بعد ٢ كم جنوب المقر الرئيسي للقيادة الذي أعيد إلى وضعه ، لذلك قررت إجراء الإتصال عن طريقه مع القطعات .

اتجهت إلى هناك بالسيارة ، وبجانبني مرافقي كليموف : والسائق كاليمولين ، ولكن لم نكد نخرج من المنخفض الصغير حتى أخذت طائرات العدو تقصف مركز القيادة بقنابل ذات أوزان صغيرة . وكنا نرى طائرات الجونكرز ٨٨ (الشوكا) تمر فوقنا وعلى مستوى منخفض ، وترمي قنابلها من عشرة إلى اثنتي عشرة قبلة . ثم بدأت تتابع الطائرات المنفردة. وهنا أخذت إحدى طائرات الجونكرز تطاردنا وأنا أقول بصراحة ، برودة الدم والحساب الدقيق هما اللذان أنقذانا .

دون أن ألقت نظري عن الطائرة التي كانت تلاحقنا ، صرخت بالسائق - سر بخط مستقيم إلى الأمام دون أن تدور .

وعندما رأيت أول قنبلة تسقط من الطائرة ، طلبت من السائق الدوران الحاد نحو اليمين . حرف السائق السيارة بكل سرعتها بما يعادل تسعين درجة ، وقبل أن تصل القنبلة إلى الأرض كنا أصبحنا على بعد مائة متر .

أقلت طائرة « الجونكرز ٨٨ » أكثر من اثنتي عشرة قنبلة ، ولكن لم يجرح أحد منا ، ولم تكن هناك سوى شظية قنبلة أصابت السيارة وسببت خروج الزيت من محركها الذي لم يعد يعمل ، وقد حدث هذا جميعه ونحن على بعد ٣٠٠ . ٥٠٠ م من مقر القيادة .

صعدت على كومة من الحجارة ، في الوقت الذي كان فيه السائق يحاول إصلاح المحرك ، فرأيت الدبابات الألمانية ننغلغل في قرية نسيينكو بمعدل اثنتي عشرة دبابة تنبعا أرناك أخرى بتعداد مائة دبابة ووصلت إلى وادي تشيرفلينيانا ، وكانت تشكل رنلا على طول الطريق رأسه في الشمال باتجاه خط السكة الحديدية الفرعي لباسارغينو .

نبين بعد ذلك أن الدبابات استطاعت التغلب على دفاعنا في قطاع فارفاروفكا . تسييانكو خلال قصف الطيران لقواتنا ولمركز القيادة . وكانت المواضع المذكورة لا تبعد عن مركز قيادتنا سوى ٢ كم في ذلك الوقت ، لم نتأخر مدفعيتنا بفتح نيرانها على العدو ودباباته . لذلك قررت عدم الذهاب إلى مركز الإنصال الوسيط والعودة إلى مقر القيادة المدمر ، حيث وجدت هناك الجنرال جوليكوف الذي أتى بالطبع ليعرف من بقي على قيد الحياة في مركز القيادة .

أعيدت الاتصالات مع أركان الجيش . وعلمنا أن القوات الفاشية ، خرفت جبهة دفاع الجيش ٦٤ ، ليس فقط في تسييانكو ، ولكن أيضاً في ناريمان . بقيت في مقر القيادة حتى هبوط الليل ، ثم استدعانا شوميلوف كلنا إلى مركز جديد للقيادة على بعد خمسة كيلومترات للغرب من (بيكيتوفكا) في وسط الغابة .

لقد تحملت قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ خسائر فاحشة ، ونراجعت إلى آخر مواقعها نحو ستالينغراد .

كانت هناك امواج بشرية لا تنقطع ، تنساب على كل الطرقات ، كولخوزيون ، سوفخوزيون ، كانوا يسرون مع عوائلهم كاملة . في محاولة للوصول إلى معابر الفولغا ، وكانوا يدفعون أمامهم قطعان ماشيتهم ، ويحملون معهم أدواتهم الزراعية ، وكل ما هو ثمين لئلا يبقى شيء للعدو .

وسأورد هنا بعض المقطعات من مذكرات مدير « سوفخوز » لتربية
الماشية ديمتري ايفانوفيتش سولوفيف ، (كان رتل سوفخوزه قد أجلى من
ضواحي خاركوف) وتوقف لبعض الوقت من محطة برودبوي في حقول
كولخوز مارينوفسكى على بعد ٧٥ كم غرب الفولغا :

« .. ولكي أكون على اطلاع على مجرى الأحداث في الجبهة - كتب سولوفيف -
حاولنا الاتصال بالوحدات العسكرية لسؤالها فيما إذا كنا لسنا مهددين بخطر
الوقوع في أيدي العدو الفاشي مع سوفخوزنا ، ولكننا لم نعرف إلى أين ذهبت
أركان الفرقة المدرعة التي كنا على صلة بها . وكانت الطائرات الفاشية تحصدنا
بالقنابل والمناشير ، كما كانت تطلق نيران رشاشاتها على الأشخاص وعلى
مستوى منخفض » .

« ترك رتل سوفخوز برودبوي في ليل ٢٨ آب ، ولم يكن على الطرقات
أي شخص . ولم يكن من الممكن معرفة حقيقة الموقف » .

« بعد محطة برودبوي صادفنا قائد إحدى سرايا الهندسة « كاربينكو » ،
وكان عليه لغم الطريق والجسور بعد مرور وحداتنا ، وقد علمت منه أنه لا
يوجد طريق حر إلا الذي يقود إلى سوفخوز روغاتشينسكي . ولكن ليالي
الصيف قصيرة ، لذلك لم يتقدم رتل سوفخوز حتى الفجر سوى خمسة عشر
كيلو متراً ، وكنا نختبئ طيلة النهار بالقرب من أكوام القمح غير المدروس ،
وأكوام الشوفان وفي المنخفضات . ولكن طائرات العدو لم تتركنا للعودة للمسير ،
بل كانت تقصف قافلتنا وأول الضحايا سائق الحيوانات التي كانت معنا (أوسيب
سيريكوف) ، الذي كان يرمي للأعلى ببندقية حربية ، وجدها في إحدى
الحقول » .

« ذهبت في المساء بدراجتي النارية سالكاً الطرقات الترابية الفرعية
لاستطلاع الطريق ، حتى باسارغينو وخط السكة الحديدية الفرعي . فأفادني
الفلاحون الذين كنت أصادفهم بأنه لا يوجد ألمان حتى الآن ، وهذا يعني أن
المزرعة لم تكن محتلة من قبل العدو » .

« توقفنا صباح ٣٠ آب وراء مزرعة باسارغينو في أحد المنخفضات ، وفقدنا
في النهار امرأة وطفلين أصيبا بطلقات الطيران الفاشي » .

« في المساء أخذت القافلة طريقها باتجاه محطة فورونوبوف ، وفي الليل
التقيت بسيارة فيها ضباط ، نصحبونا بالسرعة إذا أردنا الوصول إلى المدينة » .

٩٠

« توقف الرتل في فجر الأول من أيلول في غابة في ضواحي المدينة . وفمنا بأعمالنا دون خسائر ، وسررنا لأننا ابتعدنا عن الخطر الكبير » .

« ذهبت إلى المدينة للاستطلاع مشياً على الأقدام ، فكانت تحترق ، وطرقاتها مملأى بالأعمدة المنهارة ، والأسلاك الحديدية ، وجدران الشقق السكنية والحديقة العامة التي كان الشيوعيون فيها يعتقدون اجتماعاتهم قبل الذهاب للجبهة ، كانت مفلوحة بفوهات حفر القنابل ، ولا توجد فيها شجرة واحدة إلا وكانت متفحمة » .

« صادفت في أحد الملاجيء التي كانت بقرب مصب نهر تساريتسا أحد سكان مدينة (خاركوف) ، واسمه دمنشكو الذي وعد بمساعدتنا على عبور الفولغا و أخذنا نرفع الحواجز من الطريق الذي سنسلكه سيارات النقل التابعة لنا وكذلك الجرارات والعربات ، وأخذ منا ذلك أربع وعشرين ساعة » .

« توقف رتلنا حوالي ثلاثة أيام أمام المعبر الرئيسي . قبل أن يتمكن من عبور الفولغا بسبب الغارات الجوية التي تتابعت دون انقطاع ، لذلك ظل الجميع مختبئين في الأقبية دون الخروج أبداً » .

« توقف الرتل في ٦ أيلول بالقرب من جسر «سرونار أختوبسكا» . وهناك وجدنا بعض العمال الذين أرسلوا لحراسة قطعان ماشيتنا عائدين يحملون جراحاتهم البليغة ، وقد قصفت القافلة التي كانت مكلفة بنقل المواشي من قبل إحدى الغارات الجوية على الطريق الفرعي لمزرعة سريدفا اختوبا ، وقد قتل أربعة عشر من عمالنا ، وهم يحاولون إنقاذ الماشية كما جرح ثمانية غيرهم » .

نظهر هذه المقنطفات التي أوردها الموقف الذي كنا عليه كما نصف الحالة المعنوية للسوفيتيين ، الذين كانوا يقدمون كل ما لديهم من قوة لمساعدة دولتهم في نضالها ضد العدو دون أن يشعروا بتغيير أو صعوبات في حياتهم العادية .



احتل العدو في الثالث من أيلول محطة فوريبونوفو ، ثم زج احتياطه في المعركة ، محاولاً تطوير هجوم مستمر ، بدءاً من محطة سادوفايا ، وازداد خطر هجوم العدو من ذلك الاتجاه لأن هذا المكان يقع على الخط الفاصل بين الجيشين ٦٢ و ٦٤ . ومع مجموعة من ضباط الأركان في الجيش توجهنا إلى قرية بستشكا البعيدة كيلومترين عن محطة فوروبونوفو ، بمهمة تعزيز

القطاع ، ومن الحدود الشمالية الغربية من بستشكا ، كنا نرى بشكل جيد محطة فوربونوفو ، حيث كانت تتمركز فيها ، قطع المدفعية المضادة للطائرات والمشاة والدبابات العدو ، ثم ظهر في الجو رف من ست طائرات إيلوشن السوفيتية ، وهي تنقض على قطع المدفعية المضادة للطائرات العدو ، ونقصها بقنابلها وكذلك كانت تنقض على تجمعات دبابات العدو .

وبينما كنا مشغولين بمراقبة المعركة ، لم نلاحظ وصول بعض طائرات «الجونكرز ٨٨» من الجهة الجنوبية التي اكتشفت سياراتنا وأخذت بالهجوم عليها ، وأعترف أننا كنا محظوظين لوجود مخبأ جيد بالقرب منا، حيث النجأنا إليه وكان من الصعب القول كم عدد الطائرات التي قصفت الحدود الغربية لهذه البلدة . وكان يبدو لنا أن كل شيء ينفجر بقربنا ، ودام القصف حوالي عشر دقائق .

وجدنا بعد أن انزاح الغبار أن نصف مخبئنا هدم ، ومن المدهش حقاً أن أحداً من مجموعتنا لم يصب بضرر أو أذى من جراء القنابل ولا حتى من جراء سقوط سقف المخبأ الخشبي .

رأينا بخروجنا من المخبأ حوالي خمس وعشرين دبابة تهاجم وتنقض على مواقعنا تتبعها المشاة . فاستقبلتها دباباتنا بنيرانها الحامية من أماكنها المحضرة والمموهة مسبقاً الواقعة في ضواحي فيرخايا إيشكا ، وكذلك نيران وحدات المشاة التي تحمي الدبابات .

اشتعلت النار بسبع من هذه الدبابات بعد أول رشقة من نيران دباباتنا . فاضطرت الدبابات الباقية للنجاة بتغيير اتجاهها فجأة، وعادت بسرعة إلى قواعد انطلاقها ، وسأترك هنا الحديث لأحد الذين اشتركوا في هذه المعركة وهو م . كريتشكو وهو حالياً قائد احتياط في ستالينغراد ، وكان يقود فصيلة من لواء الحرس ١٠١ العائد لفرقة مشاة الحرس ٣٥ .

« بعد معركة ضارية بالقرب من محطة كونكوبان وقرية روسوشكي ، تلقى لواءنا (١٠١ مشاة) الأمر بالتراجع نحو ستالينغراد ، وظلت وحداته تتراجع طيلة الوقت وهي تفتح طريقها عبر ترتيب العدو القتالي الذي تغلغل قبل فترة في مؤخراتنا بمجموعات صغيرة » .

« وصلنا صباح ٥ تموز إلى مقربة من ستالينغراد، حيث تلقى اللواء الأمر بالاتجاه سريعاً إلى قطاع محطة فوربونوفو ، وإيقاف تقدم مشاة العدو التي

اختُرقت الجبهة في ذلك القطاع ووصلت السرية الأولى التي كانت تشكل المخافر الأمامية في البداية للمواقع وأخذت تحفر خنادقها الدفاعية» .

« قبل وصولنا للموقع كان يتمركز فيه لواء مدفعية مجهز بمدافع عيار ٧٦ مم ، وفور وصولنا أخلى اللواء الموقع، وانسحب إلى الأعماق . تلقت سربتنا كغيرها الأمر بالتراجع إلى خلف سكة الحديد التي يتمركز عليها عناصر أخرى من اللواء في مواقعها الدفاعية ، وبموجب أمر قائد السرية ، وضعت فصيلتي في الخنادق التي كانت إحدى سرايا المدفعية قد اخلتها ، وكان المحيط الخارجي الغربي لفيرخنايا ايلشسكا وراءنا . وكانت دبابتنا في الجنوب مموهة عن أنظار العدو في الخنادق» .

ظهرت في تلك اللحظة أمام جبهة دفاع السرية ٥ - ٣٠ دبابة معادية، وكانت تتجمع في منخفض على بعد ٧٠٠ - ٨٠٠ م وتستعد للهجوم .

ولم نكد خلال هذا الوقت القصير الذي لدينا نحتل مراكزنا الدفاعية حتى بدأت الدبابات الألمانية هجومها علينا نحت تغطية كثيفة من المدفعية . وقد نركناها تقترب ٢٠٠ - ٣٠٠ م وأعطى الأمر بالنار وبفس الوقت فنحت دبابتنا النار أيضاً من مخابنها . فأصيبت خمس دبابات عدوة من الضربة الأولى واشتعلت النار في اثنتين منها، وببت الفوضى في صفوف العدو بسبب رمينا المدمر والمفاجيء غير المنتظر .

أجبر العدو على الانسحاب بعد خسارة دباباته الخمس وعشرات من رماته إلى المواقع التي انطلق منها ونبع ذلك هدوء مؤقت ، ولكن لم تمض فترة من الزمن حتى شرع العدو بهجوم جديد بالدبابات مع تغطية جوية كثيفة ودعم مدفعي مركز هذه المرة . وظهرت في البداية كالعادة « فرقة الموسيقيين » وهي طائرات نطلق أصواتاً تشبه نغير السيارات ، وتنقض بمجموعات من ثمانية طائرات قاذفة على مواقعنا الواقعة على حدود بلدة فيرخنة ايلشسكا .

« أصبنا بخسائر فاحشة ، ولكننا اسنطعنا صد هذا الهجوم أيضاً . ولم يبق في سربتنا سوى بعض الرجال . كما دمرنا بالتعاون مع سدة الدبابات أربع دبابات عدوة أخرى اشتعلت فيها النار أمام خنادقنا . ولم يبق في فصيلتي أيضاً سوى سبعة رجال بما فيهم أنا . استنفذنا كل وسائل دفاعنا المضاد للمدركات ، ولم تعد لدينا الوسائل التي نستطيع بها إيقاف تقدم مدرعات العدو . لذلك قررت التراجع إلى الحدود الغربية لفيرخنة ايلشسكا . ولم أعرف بعد ذلك من خرج حياً

من المعركة لأن العدو كثف نيرانه علينا . وفقدت رشدي وطمرت بالنراب ولم اسعد ذاكرتي إلا في الفوح الصحي . «

« صلت جميع هجمات العدو المعاكسة بثمن باهظ من خسائرننا وبخاصة من المشاة ونميز في هذه المعركة سدة دبابتنا بخاصة ، ولم نخطيء نيرانهم مطلقا ودمروا للعدو خمس عشرة دبابة » .

رأبنا خلال مرورنا بسفخور « غورنابا بولينا » ونحن في طريق العودة إلى الأركان عددا من طائرات «الجونكرز ٨٨» (الشوكا) المنقضة بشكل دائرة وينقض على الغابات . ولا شك أنها شاهدت تجمعنا لقواننا وعرباننا هناك . وكانت بعض الرشاشات م/ط ذات العيار الكبير نطلق على الطائرات العدو . وعلى إحدى سيارات النقل اسنقر أحد الرشاشات الثقيلة، وعندما شاهدته إحدى طائرات «الشوكا» انفصلت عن مجموعتها وأخذت تهاجم السيارة والسلاح الرشاش ولكن الرماة السوفييت فنحوا على الطائرة النار ولم يجبنوا أمامها ورغم الاصابات التي تلقتها الآلية والثقوب التي فنحت في أطرافها ظل الرشاش يعمل وذهب جهد الطائرة سدى في القضاء عليه ، وبالاتقضاض عليه ، وعلى بعد أقل من مئة متر من الرشاش سقطت الطائرة العدو ونحطمت على الأرض .



اضطررنا للتراجع للبيوت السكنية ، بعد أن اخنرق العدو دفاع قواننا حول النطاق القريب مباشرة منا ، ثم رمى العدو بقوته الرئيسية في نقطة إنصال الجيشين ٦٢ و ٦٤ على طول الخط الحديدي اعتبارا من محطة كاربوفكاوحنى سادوفايا ساعيا لاحتلال المدينة بضربة واحدة .

كانت القوات المعابية التي نقوم بعملياتها أمام جبهة الجيش ٦٢ والجناح الأيمن للجيش ٦٤ تقدر بعشرة إلى اثنتي عشرة فرقة مشاة وثلاث فرق مدرعة وثلاث فرق آلية . وكان لدى هذه المجموعة ٦٠٠ دبابة تدعمها ألف طائرة من الجيش الجوي الرابع .

ووصل مجموع عدد طلعات الطائرات في هذا القطاع من المعركة إلى ألف طلعة في اليوم الواحد عدا الغارات الجوية على المدينة .

وتفوقت قوات العدو علينا بعدة مرات على جبهة جنوب - شرق التي تدافع

عن مدينة ستالينغراد ، وتتألف الجبهة في ذلك الوقت من وحدات أنهكها القتال وأضعفها فلم يبق في بعض الفرق من الجيشين ٦٢ و ٦٤ سوى ٥٠٠ - ١٠٠٠ رجل ، ولم يبق من عشرة ألوية كانت تعمل في منطقة الجيشين ٦٢ و ٦٤ سوى ١٦٤ رجلاً ، كما كان يلاحظ الزيادة في التفوق العددي أمام منطقة الجيش ٦٢ أيضاً كما هو مبين في اللائحة أدناه .
نسبة القوى بين الجيش ٦٢ والعدو :

الجيش ٦٢ العدو نسبة القوى			
الأشخاص	٤٥,٠٠٠	٨,٠٠٠	١.١,٨
مدافع عيار ٧٦ مم وما فوق	٨٥	٦٣٠	١.٧,٥
سلاح م/د	٢٦٠	٤٩٠	١.١,٩
مدافع هاون ٨٢ مم وما فوق	١٥٠	٧٦٠	١.٥,٠
دبابات	١٠٨	٣٦٠	١.٣,٦

طلبت الستافكاينظراً لجدية الموقف وخطورته حول ستالينغراد من معيثلها الماريشال ج.جوكوف بموجب توجيهها الصادر في ٣ أيلول القيام بأعمال ذات فعالية،أوضحت فيه ما يلي « تدهور الموقف أمام ستالينغراد ، وأصبح العدو على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة ، ومن المحتمل أن تسقط المدينة بين يوم وآخر، فيما لم تقدم مجموعة جيوش الشمال المساعدة الفورية للمدافعين عنها. أطلبوا من قادة القوات المتمركزة في الشمال والشمال الغربي من ستالينغراد بمهاجمة العدو فوراً والتأخير يعتبر جريمة » .

كانت تتمركز في ذلك الوقت ثلاثة جيوش في شمال المدينة وهي الجيش ٢٤ تحت قيادة ماجور جنرال د . كوزلوف ، ويتألف من خمس فرق مشاة ولواء دبابات بالإضافة إلى جيش الحرس الأول بعد أن استكمل تعدادة وتجمعه بقيادة

الجنرال موسكالينكو ، ويتألف من ثمانى فرق مشاة وثلاثة فيالق مدرعة (٤ ، ٧ ، ١٦) ثم الجيش ٦٦ بقيادة ليوتنان جنرال مالىنوفسكي ، ويتألف من ست فرق مشاة وأربعة ألوية مدرعة وكلها كانت قريبة .

وبموجب توجيه الجبهة ، الحق الجيش الجوي ١٦ بطائراته المئة بجبهة ستالينغراد لدعم القوات التي ستقوم بالهجوم المعاكس من الشمال والشمال الغربي .

قرر قائد جبهة ستالينغراد أن يستخدم للهجوم المعاكس قوات الجناح الأيسر للجيش الرابع المدرع بالإضافة إلى الجيوش المذكورة سابقاً لتنفيذ المهمة التي حددتها الستافكا ، كما تلقى الجيشان الجويان ٨ و ١٦ الأمر لتغطية قوات الجبهة خلال مدة تجمعها ، وتأمين هجومها وذلك بتوجيه الضربات إلى أشخاص وعناد العدو .

كان الهدف من الهجوم المعاكس ، تدمير القوات المعادية بين الدون والبولغا ، وتحقيق نفوذ قواتنا على الضفة الشرقية للدون ونهر دونكايا تاريمستاء . كما كان لدينا معلومات عن قوات قوية تتجمع في شمال ستالينغراد بين البولغا والدون للقيام بهجوم معاكس يستهدف قطع الممر الذي شكله العدو بين فيرتاتشي والبولغا وإخراج الألمان من المدينة، وتحقيق الاتصال مع قوات الجيش ٦٢ .

ومما يجدر نكره أنه في نفس الوقت، ورغم نفوذ القوات الألمانية على الأنهار روسوشكا ، وتشيرفاليينا على النطاق الداخلي ، إلا أن تقدمها أخذ يفقد وتيرته ويفتر تدريجياً .

كان العدو يعد عدته للانقضاض على المدينة . وكنا نفترض ، نحن المدافعين عن المدينة أن ستافكا القيادة العليا ، وقادة الجبهة ستغتنمان الفرصة المناسبة لمهاجمة جناح المجموعة الألمانية ، عندما يتورط جيش فون باولوس في قتال الشوارع .

كلنا يعرف حالياً ماذا جرى شمال ستالينغراد : حدد هجوم جيش الحرس الأول موسكالينكو مبدئياً في (٢) أيلول . ولكن كان من المستحيل وصول قوات الحرس في ذلك التاريخ إلى مواقع الانطلاق . كان يمثل الستافكا على جبهة ستالينغراد ج . جوكوف الذي كان بصفته معاون القائد الأعلى يتمتع بكافة الصلاحيات، ويضطلع بكافة المسؤوليات ،

وكانت الستافكا تتطلب منه إدخال الجيوش الثلاثة في العمل باستمرار .
وقد دون جوكوف في مذكراته المناقشة التلفونية التي جرت بينه وبين القائد الأعلى رداً على طلبه بتأجيل الهجوم المعاكس إلى مهلة ضرورية ، لانتهاء كافة تحضيرات وتجميع القوى ووسائل الدعم ، وقد أجابه ستالين :
هل تظن أن العدو سينتظر حتى تضربه ، وقد أكد إيرمنكو أن العدو يمكن أن يأخذ ستالينغراد من أول ضربة ، إذا لم نهاجم من الشمال .

وقد كتب جوكوف فيما بعد حول هذا الموضوع :
« أجبته بأنني لا أشاطر إيرمنكو وجهة نظره هذه ، وطلبت السماح بتنفيذ الهجوم في ٥ أيلول كما حدد لاحقاً ، وفيما يخص الطيران سأعطي الأوامر منذ الآن بمهاجمة العدو بكل قواه »

كنت في ذلك الوقت بعيداً عن معرفة ماذا جرى خلال مثل هذه المحادثات مع القيادة العليا ونشاط هيئة الأركان العليا ، ولكنني أوافق كلياً على صحة وجهة نظر ج . جوكوف ، فقد أوقف العدو على النطاق الداخلي ، وأصبحت وتيرة هجومه بطيئة وغير دقيقة ، فإحداث خرق في المدينة ، يختلف عن احتلال المدينة وكانت قواتنا في ضواحيها تقاتل بضراوة ، ولا يمكن أن يواصل العدو تورطه في حرب الشوارع .

ولكن الستافكا كانت تصر على موقفها وتضغط لتنفيذ الهجوم .
انتقل جيش الحرس الأول للهجوم في ٣ أيلول ، ولكنه زج في المعركة دون تمهيد ودعم كافيين من المدفعية أو الطيران ، وحتى قبل أن يستجمع كافة قواه على مواضع وقواعد الانطلاق . لذلك فشل الهجوم منذ الدقائق الأولى تحت ضربات نيران مدفعية العدو وغاراته الجوية .

وخلال هذه الفترة بدأ العدو يستجمع قواه على النطاق الداخلي ، ولم يعد يهاجم المدينة ، وظل الوضع على حاله الراهنة بالنسبة إلينا حتى ٥ أيلول .
كما قام جيش الحرس الأول بأمر الستافكا بالهجوم أيضاً مع الجيوش ٢٤ و ٦٦ ، وفي هذه المرة أيضاً لم يكن التحضير كافياً . وقد كتب عن ذلك ج . جوكوف ، وذكر بأن كثافة نيران المدفعية لم تكن كافية لأبطال وسائل نار العدو ، ولم تعط النتائج المنتظرة ، لذلك أوقفت الجيوش المذكورة هجومها .
وفي شمال المدينة كانت المعارك الطاحنة تتتابع حتى ١٥ أيلول ، وقد زجت القوات جميعها دفعة واحدة بعد مسير خمسين كيلومتراً ، ولكنها لم تستطع إزاحة

العدو عن مواقعه أو تحقيق خرق في الجنوب باتجاه المدينة .
وقد أرسل في الثاني عشر من أيلول كل من معاون القائد الأعلى ج .
جوكوف ، وممثل لجنة الدولة للدفاع ج . مالينكوف الوثيقة التالية للمتافكا :
موسكو إلى الرفيق ستالين :

نحن نتابع دون توقف هجوم جيش الدفاع الأول والجيش ٢٤ و ٦٤ ونفوزه
دون كلل، وقد أشركنا كما ذكرنا لكم كل القوى والوسائل المتوفرة .
لم يكن بالإمكان تحقيق الاتصال مع المدافعين عن ستالينغراد ، فقد وجدنا
أنفسنا أضعف من العدو في المدفعية والطيران ، حيث زج جيش الحرس الأول
بالهجوم ، دون أن يكون لديه حتى لواء مدفعية لدعمه ولا لواء ضد الدبابات أو
الطائرات .

أجبرنا الموقف أمام ستالينغراد لزج الجيشين ٢٤ و ٦٦ في ٩/٥ دون إبطاء
ودون انتظار وصول مدفعية الدعم، وقد دخلت فرق المشاة في القتال فوراً بعد
مسيرة خمسين كيلومتراً ، وزُجت جيوشي في المعركة بمجموعات صغيرة دون
وسائل الدعم مما جعل (على الرغم من ذلك) من المستحيل اختراق دفاع العدو
ونحقيق الاتصال مع قوات ستالينغراد ، وبالمقابل فقد أجبر هجومنا المباغت
العدو لأن يحول عن ستالينغراد ضغط قواته الرئيسية إلى مجموعتنا . وخف
ضغطه عن مواقع المدافعين عن ستالينغراد ، وبدون هذا العمل كانت
ستالينغراد ستستقط بيد العدو لا محالة »

وأنني أعتقد أنه في تلك الأيام لا يستطيع جوكوف ولا مالينكوف، بسبب غياب
المعطيات الكاملة تقدير الموقف تقديراً صحيحاً، وبخاصة عن أهمية القوات التي
حولها فون باولوس لمواجهة هجومنا ، ولهذا فكلما (كبت) التي ظهرت في
الوثيقة والتي نقلت عن معارك ستالينغراد ليست دقيقة . ونحن نعلم الآن بشكل
مؤكد بواسطة مصادرننا والمصادر الألمانية أن فون باولوس لم يسحب من
مجموع القوات سوى فرقتين من المشارف الشمالية الشرقية للمدينة ، ولكن أمام
ستالينغراد كانت تتمركز عشر فرق عدوة تعد نفسها للهجوم علينا .



بعد أن صد العدو الهجمات المعاكسة التي قامت بها جبهة ستالينغراد اعتباراً

من الشمال ، وجه بآن واحد جهده الرئيسي مباشرة من الغرب على المدينة . وكان يقصف في ثلاثة اتجاهات . الضربة الأولى كانت بقوى الفيلق ٥١ على غومارك ، غرويشتشة أما الضربة الثانية وهي الأقوى فكانت بقوى الفيلق المدرع ٤٨ باتجاه كاريوفكا ، فوروبونوف ، توبروستوي . أي على نقطة إتصال الجيشين ٦٢ و ٣٤ ، أما الضربة الثالثة فبقوات الفيلق الرابع ووجهت على بيكينوفكا للنفوذ إلى الفولغا . اضطرت قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ للتراجع ببطء نحو النطاق الداخلي للدفاع بعد صمودها خلال عشرة أيام أمام هجمات العدو ، قاتلت جسماً لجسم . حيث أبيدت بعض الوحدات عن آخرها ، دون أن نسمح للعدو باحتلال مواقعها الدفاعية .

وللوقاية من خطر اختراق العدو إلى الفولغا وعبوره النهر ، اتخذ قائد الجبهة كل الاحتياطات للدفاع عن الضفة النهر اليسرى في قطاع مريدنه ، بوغرومويه ، شفيتلي ، وانتشر في هذا القطاع خمسة ألوية من الفيلق المدرع الثاني ، ولكن لم يكن لدى هذه الألوية دبابات

شكل قائد الجبهة - بالإضافة إلى ذلك - على الضفة اليسرى مجموعة مدفعية قسمت إلى أربعة مجموعات صغرى ، المجموعة المدفعية الشمالية كانت تضم ٨٦ مدفعاً وهاوناً لدعم الجيش ٦٢ ، أما المجموعة الجنوبية ، فكان لديها ٦٤ مدفعاً وهاوناً لدعم الجيش ٦٤ . كما تضم المجموعة الثالثة أسطول «الفولغا» الحربي مع ١٦ مدفعاً تشكل مجموعة مناوره على الفولغا . أما المجموعة الرابعة فتضم مجموعة المدفعية المضادة للطائرات .

اضطرت قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ للتراجع في ١٢ أيلول إلى نطاق دفاعات المدينة رغم البسالة التي كانت تبديها ، تحت ضغط قوات العدو المتفوقة بالعدد ، وقد استطاع العدو في هذه الفترة الوصول إلى الفولغا في قطاع كوبروستوي ، وعزل الجيش ٦٢ عن القوات الأخرى التابعة للجبهة . وقد تلقى الجيش ٦٢ مهمة الدفاع عن مركز المدينة ومناطق المصانع ، وبذلك أصبحت جبهته الدفاعية تمتد من الضفة اليمنى للفولغا بالقرب من ريفوك . وتمر من اورلوفكا وإلى الشرق من غرويشتشة ، ورازغوليفكايا ، ثم محطة التجارب - محطة السكة الحديدية «سادوفيا كوبروستويا» . أما أقصى مسافة بين الضفة الفولغا حتى اورلوفكا فكانت حوالي ١٠ كم ، وهكذا بدأت المعارك من أجل المدينة اعتباراً من (٣) أيلول .



لقد علمت من حياتي كمحارب خلال شهر ونصف من القتال الشيء الكثير وأصبح لدي الامكانية لدراسة العدو في المعركة ، وخططه التكتيكية والعملانية .

كانت القاعدة الأساسية لكل المناهج التكتيكية والعملانية التي يعمل بموجبها القادة الألمان نسنند على تحقيق اختراقات متلاقية في العمق على هدف موحد ، لذلك كانوا يفضل نفوقهم بالطائرات والدبابات يستطيعون التغلب بسهولة نسبية على دفاعنا وينفذون على نقطة واحدة ، ثم يقومون بمظاهر تدل على أنهم يحاولون تطويق قواتنا مما يضطرها للانسحاب ، ولكن كان يكفي إيقاف أو تدمير أحد أذرع الكماشة بمقاومة صلبة أو القيام بهجوم معاكس عليها ، مما يجعل نراع الاختراق الثاني (للكماشة) يرتبك ويفتش عن دعم له .

وهذا ما حدث وراء نهر الدون فعندما أوقفت رأس الحربة التي رمى بها الفيلق ٥١ الألماني على نهر التشير اضطرت مجموعة الصدمة الثانية للمراوحة في قطاع فيرخنة بوزينوفكا . وحدث مثل ذلك أيضاً في الجنوب ، وذلك عندما صدت قوات الجيشين ٦٤ - ٥٧ في أب الهجمات العدو القادمة من الجنوب والجنوب الغربي ، فتوقفت المجموعة الثانية العدو التي استطاعت الاختراق باتجاه الفولغا . وظلت أكثر من أسبوع تقف دون حركة .

يظل تكتيك العدو في كثير من الحالات منهجياً ، فالمشاة لم تكن تسير بقناعة للهجوم إلا بعد أن تصبح الدبابات فوق هدف الهجوم . والدبابات لم تكن تقوم بالهجوم عادة إلا عندما تحلق الطائرات على رؤوس قواتنا . ويكفي أن يخل بهذا النظام حتى يتوقف هجوم العدو وتراجع قواته إلى الخلف .

وهذا ما حدث أيضاً في الدون عندما صدت الفرقة ١١٢ بنجاح ، وبحرت لمدة أربعة أيام هجمات العدو في قطاع « فيرخنه » - تشيرسكايا ، ونوفوماكسيموفسكي ، فقد امتنع طيران العدو من التحليق فوق قواتنا لوجود مجموعة قوية من الدفاع ضد الطائرات ، كانت متمركزة قريباً لحماية جسر سكة حديد الدون . وهذا ما حدث أيضاً على نهر لاكسايا عندما لم يتسن للدبابات أن تدعم المشاة وأدى إلى صد هجوم المشاة .

تكرر نفس الموقف في بلودفيني ، ايفانيروفو ، وقطاعات أخرى .

كان الغزاة لا يصمدون لهجماتنا المفاجئة، وبخاصة التي كنا نقوم بها بالمدفعية ، وقاذفات الألغام . وكان يكفيننا ننظم ضربات متلاحقة من المدفعية على تجمعات العدو حتى نرى الهنلريين ينشنون ويهربون برعب .

كانوا لا ينحملون القتال القريب ، فيطلقون نيران أسلحتهم الآلية على بعد كيلومتر وأكثر في حين أن طلقاتهم لا تصل إلى نصف هذه المسافة . وكانوا يطلقون النار لرفع معنوياتهم ويجربون نخوف قواتنا ، ولا يصمدون تقريبا للهجوم المعاكس ، فيخنثون مباشرة ، بل وكانوا ينسحبون . كان لديهم إتصال منظم بين مشاتهم ودياباتهم وطيرانهم ، وبخاصة بمساعدة الشهب والطيران ، وكانوا يستقبلون طيرانهم الخاص بعشرات ومئات الشهب ، بينما كانوا يخفون أنوفهم وجباههم ، وقد نعلم جنودنا وضباطنا مدلول هذه الاشارات ، وأخذوا يستعملونها مما سبب للعدو الوقوع في الأخطاء مرات عديدة .

بعد تحليل هذه المناهج التكتيكية والعملانية التي كان يستخدمها العدو ، أخذت أجرب استنتاج طرق معاكسة ، وكنت أفكر كثيراً في الوسائط التي تساعدنا على إزالة أو تخفيف تأثير التفوق الجوي في ساحة المعركة على معنويات جنودنا ، وكنت أعود بالذاكرة لقتالنا ضد الحرس الأبيض في أعوام ١٩١٨ - ١٩٢٠ ، كذلك مع البولونيين البيض خلال الحرب الأهلية . عندما كنا نقوم بالهجوم تحت نيران الرشاشات والمدافع دون دعم المدفعية ، كنا نقرب من العدو بسرعة كبيرة وكأننا في سباق دون أن نترك للعدو الفرصة لاستخدام المدفعية ، وتغيير نظام رميها من الرمي الثابت إلى الرمي على أهداف متحركة وسريعة ، وبصرخة « هورا » التي كانت نطلقها أية مجموعة قررت الهجوم ، كان من المستحيل إيقاف هجومنا .

لقد توصلت إلى خلاصة عامة هي أن أفضل طريقة للنضال ضد الغزاة هي القتال القريب في الليل أو النهار بمختلف جوانبه ، لذلك من الواجب أن نكون أقرب ما يمكن من العدو لكي لا يستطيع طيرانه مهاجمة خطوطنا الأولى ، أو خنادقنا المتقدمة ، ومن الواجب أن تجعل كل جندي ألماني يشعر بأنه هدف لسلاح روسي مستعد دائماً أن يلقيه بسرعة رصاصاً قاتلاً .

عرضت لي هذه الخواطر في الساعات التي كنت أفكر فيها بمصير المدينة ، والتي من أجلها تجري معارك عنيفة . وكان يبدو لي أنه من الممكن في المعارك التي ندافع فيها عن المدينة ، أن نفرض على العدو أسلوب القتال القريب وأن

نسقط من يده ورقته الرابعة الرئيسية وهي الطيران .
استدعيت في ١١ أيلول من قبل المجلس العسكري للجبهة ، وكان مشتركاً
بين جبهتي ستالينغراد وجنوب شرق وبعد أن استأننت شوميلوف وأبراموف
والرفاق الآخرين ، ذهبت إلى أركان الجبهة في «لامى» ، على الضفة اليسرى
لنهر الفولغا .

كان الطريق في مؤخرة الجبهة مليئاً بالعربات ، فالطرق العرضانية
والطولانية كانت مزحمة بالقوات المنراجعة وباللاجئين . وكان طيران العدو
يقوم بغارات القراصنة على المدنيين الذين كانوا منجهين نحو الشرق ، وقد
تكدست على المعابر والممرات المائية مجموعات بشرية وشكلت سدادات تفتظر
العبور ، وكانت مراكب الفولغا بجنار فروعها على دفعات. وعندما كانت تترك
ضفة النهر اليمنى، تكون مملوءة بحمولة نفوق طاقتها .

كانت ننجمع على شاطئ الفولغا العربات وسبارات النقل الخاصة بالجرحى
وكان المشهد يحز في القلب ، ولم يكن بإمكانى أن أقدم أية مساعدة . ولكن
عندما كانوا يرون إشارتي كجنرال يطرحون على الأسئلة: « كيف حال الوضع
في المدينة؟ هل منعود إلى ستالينغراد؟ متى يتوقف التراجع؟

لم يكن مخطط السناפקاء والجبهة معروفاً في ذلك الوقت ، ولكننى كنت أترك
لديهم انطباعاتاً بأننا سندافع عن ستالينغراد بكل قوانا . وكنت أؤكد للجرحى، بأننا
لن نترك ستالينغراد مطلقاً، ولا يوجد مكان ننراجع إليه .

ولكن عندما كانوا يسألوننى متى تأتي سيارات النقل لحملهم؟ ومتى
سبعالجون؟ لم أكن أستطيع الإجابة .

كان الجرحى معددين في العراء ، وضمااداتهم مملوءة بالدم والغبار ،
يشبهون جرادة الریز فوق المبقعة ، وكان لا يصلهم من الغذاء إلا القليل . أما
الأطباء والمرضون فيكانون يسقطون إعياء .

كان مستشفى الميدان مفتوحاً بالقرب من أحد المعابر . وقد دخلت إلى غرفة
العمليات . حيث كانوا يعالجون جندياً مصاباً في ليته بشظايا أحد الألغام .
وكانت وجوه الجراحين والمرضين صفراء أكثر من سترانهم البيضاء ، جميع
الرجال كانوا منهكين من كثرة العمل والأرق ، والجرحى كانوا يئنون . وأمام أحد
الطاولات كان هناك وعاء مملوء بخليط من قطع لحمية ، وبعد أن ألقى الطبيب
الجراح على نظرة قصيرة ، تابع عمله . أنهى الآن عملية، وعليه الانتقال إلى

عملية أخرى ، كم رقمها يا ترى اليوم ؟

على طاولة أخرى ، كان هناك جندي آخر جريح في رأسه ، يهذي بكلمات متقطعة ، وقد قصوا له ضماده ، ولا شك أن الماء لا يحتمل كان يتعرض له ، ولكنه كان يئن فقط دون صراخ ونفس الشيء على طاولات أخرى ، وكنت أشعر بأنني أكاد أختنق بأخر نقطة لعاب في فمي، فهنا صورة ثانية لجبهة القتال . استطعت في الليل عبور نهر الفولغا :

كنت أرى النار تلتهم الضفة الغربية ، ولهب الحرائق يضيء صفحة النهر ووضفته الشرقية ولم تكن بحاجة لاشعال الأنوار ، والطريق المائي المتعرج كاد يرميني مراراً في الماء . كانت هناك قذائف ألمانية تمر أحياناً فوق المدينة وتعبّر النهر وتنفجر فوق الضفة اليسرى . وكان الفاشيون يطلقون مدافعهم بشكل دوري على الطرقات المتجهة نحو الشرق إلى المدينة ، ويمكن أن يبدو لرجل غيري ، لبس له معرفة بما يجري من قتال في تلك المدينة الملتهبة ، أنه لا يوجد أثر للحياة فيها ، فقد دمر كل شيء واحترق ، ولكني كنت على علم بأنه في الطرف الآخر تدور المعارك الضارية بين قواتنا المدافعة، وقوات الفاشية الغازية .

وصلنا ليلاً إلى قرية لامي ، أو بالأحرى وجدنا المكان الذي كانت فيه منذ فترة قصيرة مدينة ، لقد دمرها العدو كلياً بمدفعيته بعيدة المدى ، وبغاراته الجوية الكثيفة ، وأكملت قواننا وأجهزت على ما تبقى منها لاستخدامها في بناء الملاجئ والمخابئ ، ومع ذلك لم أجد أركان الجبهة ، ولم أجد أحداً يدلني، أين هي موجودة حالياً ؟

بعد دوران دام حوالي ساعتين عثرت أخيراً وقبل الصباح على مخبأ قائد مؤخرات الجيش ٦٤ الجنرال الكسندروف ، وهو الذي دلني على أركان الجبهة .

كان مقر أركان الجبهة موجوداً في أحد المخابئ المخفية تحت الأرض ، وهو مغطى من الأعلى ببعض الأعشاب وقد علمت من الضابط المناوب أن أعضاء المجلس العسكري ، قد ذهبوا جميعهم قبل برهة لأخذ قسط من الراحة ، ولم يكن معروفاً سبب استدعائي للأركان . وقد اقترحوا علي الذهاب للنوم أنا الآخر حتى الصباح ، ولم يعد هناك ما يجعلني انتظر ، لذلك عدت إلى مقر الجنرال الكسندروف لقضاء الليل عنده ، ولأول مرة منذ بداية المعارك نمت نوماً

هائداً ، فالمعركة كانت تدور بعيداً عنى ٨ - ١٠ كم والعدو على الضفة الأخرى للفرلغا لذلك لم يكن هناك أي خوف من المفاجآت .

وصلت إلى مقر أركان الجبهة في الوقت المحدد وهو الساعة العاشرة من يوم ١٢ أيلول . وقد استقبلت مباشرة من قبل قائد الجبهة الجنرال إيرمنكو وعضو المجلس العسكري ن . خروتشوف .

أعلموني بأنني عيّنت قائداً للجيش ٦٢ ووضعوني في صورة مهمني . كان تسلسل التعليمات كما يلي : لقد قرر الألمان أخذ المدينة مهما كان الثمن ، ولا يمكن إعطاؤهم ستالينغراد ، ولم يعد بالامكان التراجع أبداً ، وقائد الجيش ٦٢ الجنرال لوباتين قال ، بأن جيشه لا يستطيع الحفاظ على المدينة . وأخيراً سألني قائد الجبهة :

- كيف ترى مهمتك يا رفيق تشويكوف ؟

لم أكن أنتظر مثل هذا السؤال ، فكل شيء واضح ، لذلك أجبته حالاً :
- لا يمكن ترك المدينة للعدو فهي لنا ، ولكل الشعب السوفيتي ، وهي غالية جداً علينا . وفقدانها يحطم معنويات الشعب . لن أطلب شيئاً في الوقت الحاضر ، ولكن بعد دراسة الموقف في المدينة ، سأرسل للمجلس العسكري طلبات المساعدة ، وسأأخذ كافة التدابير الضرورية للتمسك بالمدينة ، وأقسم أن لا أتركها وسندافع عنها ، أو نموت دون ذلك .

وهنا قال قائد الجبهة ، وواقفه جميع المجلس العسكري ، بانني فهمت أبعاد مهمتي علي خير وجه .

طلبت الآن للتصرف . وكنت أريد أن أبقى وحدي ، أفكر فيما إذا كنت مبالغاً في تقدير نفسي وقوتي . وشعرت بأكثر مألدي من وفاء بالواجب وشعور بالمسؤولية ، التي ألقيت على عاتقي منذ الآن فصاعداً ، فالمهمة صعبة وشاقة والعدو فعلاً على حدود المدينة .

لقد أمرت مرافقي (رينولد) بالبقاء في الضفة اليسرى ، وأن يفتش لي عن إدارة مؤخرة الجيش ٦٢ وأن يضعني بتماس معها ، فنظر إلي رينولد بعينين ذابلتين ، ورأيت في نظراته أنه لم يفهم شيئاً مما قلته .
- ماذا جرى هناك ؟- طلبت منه بحزم .

لم يجاوبني رينولد أبداً وبدا كل شيء واضحاً ، وعاد إلى ذهني كيف أصبح رينولد مرافقاً لي .

● رينولد شاب صغير عمره ست عشرة سنة وهو ابن المقدم بمومبيه سيدورين ، الذي كنت قد تعرفت عليه قبل الحرب كضابط عمليات أركان المنطقة العسكرية لبيلوروسيا . ثم وجدت سيدورين على جبهة سالبنغراد أثناء الحرب ، كرئيس لعمليات الجيش ٦٤ ، وفي ٢٦ نموز ١٩٤٢ قتل المقدم سيدورين بالقرب من معبر للدون ، وكنت أرى دائماً سيدورين الأب والابن معاً وكانا لا يفارقان بعضهما ، كما أنهما متشابهان جداً ، وفي مساء ٢٩ نموز اقرب مني سيدورين الابن في مقر القيادة وقدم لي تقريره :

- الرفيق القائد ! لقد عنت بجثمان المقدم سيدورين الذي قتل قبل قليل . ومع علمي بأن رينولد هو ابن القليل ، لم أعثر في ذهني على إجابة له ، ولكن عضو المجلس العسكري ، الموجه السياسي فوميسار الفرقة كونسنانتين كيريكوفتش ابراموف أجابه مريئاً فوق كتفه :

- قدم الجثمان لقائد مقر الأركان لكي يهيء له قبرا ويسدعي فرقة الموسيقي ويعمل ما هو ضروري لدفن الجثمان . كان جواب ابراموف جافاً أيضاً ، فلم يكن يعرف رينولد ، ولم يكن يقدر مدى تحمل هذا الشاب ، ولكن بعد أن تركنا رينولد النفث إلى ابراموف ، وقلت له :

- هذا الشاب هو ابن المقدم سيدورين .

فنظر ابراموف إليّ بعينين جاحظتين وأخذ بنمنم :

- آه ! نعم ، لا ، وركض فوراً وراء رينولد .

كان رينولد هذا الشاب ، قد التمس من والده أن يصحبه معه للجبهة ، وقد أدخله والده كجندي في سرية حرس أركان الحيش ، وامناز رينولد بجرأته وبرمايته الجيدة على الرشاش . وكان ينفذ مهمته دائماً بدقة .

دفن المقدم سيدورين بغيابي . وفي اليوم التالي ، عندما كنت أهتم بالذهاب لمركز القيادة وفي اللحظة التي كنت أصعد فيها إلى سيارتي . رأيت رينولد نائماً على الأرض ، وقد انحنى كتفه من كثرة النحيب ، وبدون تفكير صرخت :
- الجندي سيدورين إلى السيارة مباشرة ! تعال معي . أحمل بندقيتك الرشاشة ، واحمل أكثر ما تستطيع من الطلقات .

انتصب رينولد واقفاً ، وأصلح من هدامه ، وجرى كالسهم لتنفيذ الأمر بسرعة ، وصعد إلى السيارة بهدوء ، وقد علمت منه أثناء الطريق أن والدته قد انتقلت إلى مكان ما في سيبيريا ، فسألته بحذر فيما إذا كان يريد الذهاب

للالتحاق بها . وكانت عيناه مغرورقتين بالدموع ، وفهمت منه بأنني كنت مخطئاً
في إيقاظ جروحه ، وأصر على البقاء قائلاً :
. لا، إلا إذا كنت تريد طردي ، ومع ذلك لن أترك الجبهة سائراً منهم لوالدي
والآخرين .

منذ ذلك الوقت لم يتركني سيدورين ولا دقيقة واحدة وعدت به للمدينة ، وكان
هائلاً في المعركة وحتى مرحة ، ولم يكن يخشى شيئاً ، ولكنه كان يبدو في
بعض الأحيان حزينا وبخاصة في المساء ، ويبيكي والده في سره .
وبقي رينولد سيدورين فترة طويلة في صفوف القوات السوفيتية حتى أصبح
مقدماً ، وأبلى بلاءً حسناً طيلة خدمته العسكرية، خلال الحرب الوطنية الكبرى
في مقارعة الأعداء .



كورغان مامايف

(١)



وصلنا إلى معبر الفولغا في كراسنايا سلوبودا مساء ١٢ أيلول في الوقت الذي كان فيه محرك المعديّة التي ستنقلنا يدور استعداداً للعبور ، وتحمل على متنها دبابة ت ٣٤ وقد رفض المشرف عليها تحميل سيارتي ، مما اضطرني لأن أظهر له طبيعة خدمتي كقائد للجيش ٦٢ .

حضر إلى المكان مساعد قائد الفيلق المدرع المختص بالنواحي الفنية ، وطلبت منه أن يعطيني فكرة عن الموقف في وحدته .

مساء البارحة كان لدينا في الفيلق أربعين دبابة نصفها يصلح للمسير ، أما الباقي فكانت معطوبة . ولكن يمكن استخدامها كمراكز رمي ثابتة .

استدارت معديتنا شمالاً حول الرأس الرملي لجزيرة غولودني ، وانجهدت نحو رصيف النزول ، وكانت القذائف تنفجر من وقت لآخر في الماء ، ورغم رمايتها المحكمة إلا أنها لم تكن خطيرة . وبينما كنا نقرب من الضفة رأينا الرصيف عند وصولنا مزحماً بالناس ، كما كنا نرى آثار القنابل التي كان يتعرض لها الرصيف من قوهات الحفر المتناثرة هنا وهناك ، كما كانت هناك ممرات ومخابئ مطمورة في هذا الوقت أيضاً ، كانت تجري عملية إخلاء الجرحى . ومن حين إلى آخر كنا نرى أناساً يظهرون أمامنا يحملون معهم بقايا البسة وحقائب وغيرها يحتمون من القذائف بانتظار الرحيل .

وعلى الوجوه نظهر آثار السواد من بخان الحرائق و آثار الطين اليابس . دموع ممزوجة بالغبار . أطفال يكادون أن يموتوا من العطش والجوع . يمدون أيديهم الصغيرة نحو الماء ، مما يقبض القلب ويبعث على الحزن والمرارة .

أنزلت سيارتي من المعديّة . وكنت أعلم من أركان الجبهة أن أركان الجيش ٦٢ موجودة في منخفض نهر تساريسنا ليس بعيداً عن مصبه .

كانت شوارع المدينة خالية كالصحراء . ولم يكن على الأشجار أي غصن أخضر ، فكلها كانت منفحمة بسبب الحرائق . ولم يبق من البيوت سوى قواعدها أو ممراتها ، أنابيب مياه ، مدافئ ، وحطام كثير من المنازل الحجرية ، التي أصبحت دون نوافذ وأبواب ، وأنائها أصبح أسعلا بالية . كنا نصادف في بعض الأحيان ، أبنية تعج بالسكان ، الذين كانوا يخرجون منها حاملين كل ما يمكن حمله من ألبسة وسماوارات . وأجهزة طبخ . كانوا يحملون كل ذلك إلى رصيف العبور على النهر .

كانت سيارتنا تسير بمحاذاة حافة الفولغا على طول الخط الحديدي ، حتى مصب نهر تساريتسا ثم إلى المنخفض حتى حسر استراخان . ولكننا لم نجد مقر القيادة . ولم يلبث أن حل الظلام .

صادفت أحد الضباط ليس بعيداً عن المحطة ، وكان هذا الضابط هو الموجه السياسي لأحد وحدات الهندسة ، وكان حظي جيداً ، إذ كان يعرف مقر قيادة الجيش . وقد حملته معي . وقادني حتى أسفل كورغان مامايف . وبعد أن تركنا السيارة أخذنا نصعد مشياً على الأقدام حتى سفح الكورغان (التل) في الظلام الدامس . وكنا ندوس بأقدامنا على الحشائش والأسلاك الشائكة ، وأخيراً سمعنا صرخة طويلة ، إنه صوت الخفير :

- قف من يتحرك ؟

كان مقر القيادة عبارة عن منخفض حفرت فيه حديثاً خنادق وملاجئ . وتحصينات ميدانية ، هذا هو كورغان مامايف هل كان علي أن أنوق بأنه سيصبح مسرحاً لأكثر معارك ستالينغراد ضراوة . في هذا المكان . وعلى هذا المرتفع من الأرض لا يوجد أي شبر من الأرض لم يفلح بقذائف المدفعية وقنابل الطائرات .

تلك كانت النهاية المنظرة لسفري في تلك اليوم .

ها أنذا في مخبأ تحت الأرض . خاص برئيس أركان الجيش نيقولاي ايفانوفتش كريلوف .

لم نلتق من قبل مطلقاً . ولم تكن نعرف بعضنا . وفي الواقع كنت أعرف أنه كان أحد الذين قادوا الدفاع عن أوديسا ، وسياستوبول . كان لقاء على طريق الحرب . وهذا ما كنا نريده أنا وهو ، نلتقي ونفترق . ولكن هذه المرة لم نفترق مطلقاً حتى الموت . وكان علي أن أرافقه وهو أكثر من أعتز به من الأصدقاء

وأنه كان أكثرهم إنصافاً بي طيلة عمري الطويل . ورافقت نيكولاي ايفانوفتش ، مارشال الاتحاد السوفيتي ، القائد الاعلى لقوات الآلات السنرانية في آخر رحلة له إلى الساحة الحمراء ، إلى مثواه الأخير .

لم نعد صداقتنا فقط في معارك ستالينغراد ، ولا في الليالي التي كنا نقضيها جنباً إلى جنب تحت نيران العدو ، ولكنها المرارة المشتركة على فقد أصدقائنا زملاء السلاح .

وماذا بعد ؟ نعم لم تكن نعرف بعضنا ، ولم أكن أعرف فيما إذا كانت طمانعتنا تتلاءم في هذا المكان خلال الأحداث .

لم يكن مخبأ كريلوف مخبأ بالمعنى الصحيح ، فهو خندق عريض مغطى بالأغصان والقش ، وفوق هذه كانت هناك نغطية ترابية بسماكة خمسة وعشرين سنتمتراً من التراب . ومن الجانب كان هناك مقعد من التراب أيضاً ، وفي الواجهة سرير وطاولة من تراب ، كان السقف يهتز مع انفجار القنابل ، وكان الألمان يقصفون في تلك الوقت المدينة بمدفيعينهم بما فيها كورغان مامايف رمياً دورياً دون هدف محدد ، وكان التراب يتناثر على الخرائط المنشورة على الطاولة .

لم يكن في المخبأ سوى اثنين . الجنرال كريلوف ، وسماعة التلفون بيده وعاملة التلفون التي كانت تعمل نهاراً إيلينا باكريفيتش ، وهي شابة في الثامنة عشر من عمرها ، زرقاء العينين . كان كريلوف يتكلم مع أحدهم بنبرة حادة ، وبصوت حازم ينم عن الغضب . وكانت الفتاة باكريفيتش تجلس عند المدخل وهي تضع سماعة الهاتف على إحدى أذنيها لتجاوب بعضهم :
- إنه مشغول على السماعة الثانية .

أخرجت كتاب مهمنى ووضعته أمام كريلوف ، وبدون أن يقطع توبيخه لمن يتكلم معه ، رمى نظرة سريعة على الورقة . ثم أنهى محادثته . وحينئذ بعضنا ، وعلى ضوء مصباح الكيروسين النحيل ، رأيت وجهاً حيواً وقاسياً ، ولكنه في نفس الوقت قريب من القلب .

- أنظر أيها الرقيق قائد الجيش . قال كريلوف . لقد نقل قائد الفيلق المدرع مركز قيادته من المرتفع ١٠٧،٥ إلى شاطئ النهر نفسه ، دون أنني ، ويمكن القول بأن مقر قيادة هذه الوحدة أصبح خلفنا ، إنها فضيحة .

وافقته على قوله ، بأن ذلك يعتبر فضيحة ، وأخذت طريقتي للجلوس أمام

الطاولة ، وكان جرس التلفون يرن في كل لحظة ، حيث ننقل له باكرفينش
المكالمة فيعطي تعليماته لليوم الثاني .

أخذت أصغي له ساعياً للنفوذ ومعرفة معنى المحادثة دون ازعاج كريلوف ،
ولكني كنت أصغي وأدرس في نفس الوقت خريطة العمل الخاصة بكريلوف ،
وكانت الأرقام والأسهم تسجلان الانجاهات ، وكنت أريد منه أن يطلعني على
مجرى الأحداث ، ولكني كنت أشعر أن الوقت ينقصه لكي يستعرض معي
الموقف كاملاً ، وكان عليّ أن أثق بكريلوف بدلاً من أن أعيق عملياته ، ولا
أغير في خطته لليوم الثاني ، وعلى كل حال لم يكن باستطاعتي تغيير أي شيء
ولو كان ضرورياً .

كان يقال في الزمن القديم « الزمن من فضة » ولكن في مثل هذه الأوقات
الحرجة « الزمن هو الدم » ، لأنه من الواجب دفع ثمن الزمن الضائع من دم
رجالنا ، ومن الواضح أن كريلوف كان يدرك نواياي ، لذلك فقد أخذ أثناء
مناقشاته التلفونية يضع رأس قلمه على القطاع الذي كان يتكلم عنه ، ويشرح
بالتفصيل ، ويعيد المهمات لقادة الوحدات وفي نفس الوقت كان يضعني في
صورة الموقف ، شعرت بأننا وجدنا لغة مشتركة فيما بيننا .

لم نفترق بعد ذلك أبداً طيلة المعارك التي وقعت في المدينة، وكنا نعيش في
نفس الدشمة (البلوكوس) ، أو في نفس الخندق أو الملجأ ، وكنا ننام ونأكل
سوية ، وتجرعنا سوية كأس المرارة وكأس السرور .

كان بالنسبة لي رئيس أركان الجيش ، ومساعدني الأول ، تعرفنا جيداً على
بعضنا ، وكانت تقديراتنا للأحداث ومهما كان الموقف، لا تختلف إلا قليلاً عن
بعضها ، ولكنها كانت متقاربة جداً في أكثر الأحيان .

كنت أقدر بخاصة الخبرة العسكرية التي كانت لدى نيقولاي ايفانوفتش والتي
اكتسبها أثناء الدفاع عن أوديسا ، و سيباستوبول . كما كنت أقدر أهليته كمنظم
وقدرته على العمل مع الأشخاص ، وكانت أهم الميزات الرئيسية التي يتصف
بها الشيوعي نيقولاي ايفانوفتش كريلوف ، هي الاخلاص والشعور بالموودة
والصداقة الصميمة والأمانة في تأدية الواجب .

أرسلت برقية للمجلس العسكري للجبهة، أعلمهم فيها عن وصولي إلى مقر
عملي واستلامي قيادة الجيش ٦٢ ثم بدأت في العمل ، وأول ما قررته هو
الاستيضاح عن الأسباب ، التي جعلت قائد الفيلق المدرع ينقل مقره الخاص إلى

صفة الفولغا مع أن الأوامر كانت ننص على أن لا خطوة إلى الوراء ، وقد طلبت اسدعاءه على الهاف للنكلم معي .

- قائد الفيلق المدرع على الهاف - أعلنت باكريفنش وأعطتني السماعه . بعد أن أعطيه اسمي ، طلبت منه تفسيراً ، عن أسباب تحريك مركز قيادته دون أوامر . فأخذ يشرح لي بأنه أجبر على ذلك بسبب نيران الهاون التي كانت تنصب عليه ، والخسارة في الأشخاص وعدم الانضباط في الوحدات وأسباب مختلفة أخرى ، وكنت مهتماً في معرفة ، فيما إذا كان علي إتصال مع مقر أركان الجيش عندما فكر بهذا القرار فأجاب :
- لا أعرف ، ولكنني أوضح ذلك الآن .

وهنا أعطيت أمري للجنرال بالمجيء فوراً مع قوميساره لمقابلني في كورغان مامايف .

في هذه الأثناء دخل إلى الملجأ عضو المجلس العسكري للجيش قوميسار الفرقة كوزما البموفنش غوروف ، وتبادلنا التحية بالمصافحة بالأيدي وكنا نعرف بعضنا مسبقاً ، فمع الرفيق غوروف عملنا سوياً ، كما هو الحال مع كريلوف . أصبح أننا لم نكن في نفس المخبأ ، إلا أن مخبأه كان بعيداً ثلاثة أمتار عنا فقط ، وكنا نلنقي في المرصد ، وخلال تحليلنا للموقف واتخاذ القرارات .

كان موجهاً سياسياً ، ولكنه كان يفهم الموقف العسكري جيداً ، ويعرف وبطلب ويظهر بنفسه كيف يمكن تنفيذ القرارات العسكرية وإدارة العمليات من الوجهة السياسية . وكان يعرف جيداً كل أشخاص الأركان وقيادات الوحدات ، ويعرف ويقترح غالباً الذين من الممكن الثقة بهم أو تكليفهم بالمهمات .

ثم دخل إلى المخبأ رؤساء مكاتب الأركان ومساعدتهم وقدموا أنفسهم ، وبعد قليل أخبرت بوصول قائد وقوميسار الفيلق المدرع ، وقد دعوتهم مباشرة للدخول فجلسوا بجانب من كانوا من الأركان في تلك الفترة ، وبعد جلوسهم سألت قائد الفيلق :

- كيف وأنت جنرال سوفيتي ، وقائد قطاع في معركة مصيرية ، تواجه الأمور إذا كان أعوانك ضباطاً ، وأركان حرب ، يتراجعون إلى الخلف ، وبدون أوامرك ، كيف تقدر تصرفك من وجهة نظر تنفيذ الأمر اليومي رقم ٢٢٧ الذي صدر عن قوميسار الشعب للدفاع ، وهو نقل مركز قيادة وحدة دون أمر ، وإلى خلف مقر

قيادة الجيش ؟

لم أنلق جواباً عن سؤالي ، ولكن قائد الفيلق والقوميسار ذابا من الخجل ، وكان يرى ذلك في عينيهما .

ثم بادرتهما بعد ذلك بالكلام بقسوة ، لأنني أعتبر عملهما هذا ، ما هو إلا نوع من الهروب من المعركة ، وطلبت منهما العودة ، وأني سأجدهما بتاريخ ١٣ أيلول الساعة الرابعة في مركز قيادتهما على المرتفع ١٠٧،٥ أكد غوروف على قراري بقوله (صح) ، وأمر القوميسار أن يلحق به إلى ملجئه ولا أعرف ماذا حدثا . ولكن عندما التقيت بغوروف قال لي :
- هكذا ستعمل من الآن فصاعداً .

في هذا الوقت وصل إلى مقر القيادة مساعد قائد الجبهة الجنرال ف . جوليكونوف ، وكنت سعيداً بلاقائه في كورغان مامايف في الوقت الذي أستلم فيه قيادة الجيش ٦٢ .

كنا نرى بعضنا كثيراً في ساحة القتال ، فقد كان دائم التحرك ، ويعرف بشكل جيد الموقف لدى كل الجيوش ، وكان يأمل دائماً بتحسين الموقف ، وقد شرح لي بصراحة رأيه حول مجرى القتال . وكل المعارك ، وفي هذه المرة نقل إليّ معلومات قيمة .

تركنا فيليب ايفانوفتش بعد قليل ، وبعد أن وعدني بأن ينقل للمجلس العسكري للجبهة ، ضرورة دعم الجيش ٦٢ ببعض الفرق الجديدة ، وقد وفي بوعدته بسرعة ، وفي الوقت المناسب بعد أن ضعفت القدرة القتالية لوحدات وأقسام الجيش ٦٢ بشكل كبير خلال المعارك السابقة ، فبعض الفرق لم يبق في صفوفها سوى مائة أو مائتين من الأفراد ، وكان جوليكونوف يعرف أنه بمثل هذه القوى ، من الصعب الدفاع عن المدينة فقد نزف دم الجيش بلا حدود . وتحملت الفرق التي ألحقت بالجيش ٦٢ في نموز وبداية آب خسائر فاحشة في المعارك التي دارت في منحني الدون الكبير ، ولم يبق من فرق المشاة القديمة إلا واحدة هي الفرقة ١١٢ وقسم من فرقة المشاة ١٩٦ وبمراقبني للطريقة التي يعمل بها كريلوف ، تعرفت إلى كل المساعدين ، وحتى الساعة الثانية صباحاً اطلعت تقريباً على مجرى الأحداث بعمق ، ولكن كانت لا تزال هناك بعض التفاصيل الرئيسية غائبة عني .

كان الموقف حتى نهاية ذلك اليوم كما يلي (انظر الخريطة رقم (٢))

تتألف قوات العدو التي نهاجم وحدات الجيش ٦٢ . من جيش الميدان السادس بقيادة فون باولوس ، وبعض فرق الجيش المدرع الرابع بقيادة فون هوت . وقد استطاع قسم من هذه القوات النفوذ إلى الفولغا في الشمال من بلدة (رينوك) و جنوب بلدة كوبوروسنوي . وكان جيشنا محصورا جبهيا بين الفولغا والعدو ، ومن الجانبين كان محصورا بين زراعي كماشة قوية من القوات الألمانية .

كانت قوات الجيش السادس الهنلري تحتل في الشمال القطاع الممتد من لانشونكي حتى المرتفع ١٣٤،٤ في جبهة نصف دائرية من الجنوب إلى الشمال : فإلى اليسار كانت الفرقة ٦٠ الآلية العدو تشكل جبهة باتجاه الجنوب من المرتفع ١٣٥،٤ حتى المرتفع ١٤٧،٦ ، وإلى الأبعد من ذلك باتجاه الشرق ، واعتبارا من المرتفع ١٤٧،٦ مروراً بالمرتفع ١٠٨،٨ حتى المرتفع ١٢٩،١ كانت فرقة مشاة العدو ٣٨٩ تتمسك بالجبهة ، أما فرقة المشاة الخفيفة ١٠٠ فكانت تحتل القطاع اعتباراً من المرتفع ١٢٩،١ بما فيها غورديشتشه .

كانت الفرق الأربعة المعادية تحتل مع وسائط دعمها ، جبهة ممتدة حوالي ٢٥ كيلومتراً . ولكنها لم تكن تظهر أي نشاط خاص ، ومن الواضح أنها تكبدت خسائر فادحة في المعارك السابقة ، وهي بحالة إعادة تنظيمها واستكمال تعدادها ، لذلك وضعها العدو مؤقتاً بحالة الدفاع .

أما في الجنوب ، بما في ذلك غوروديتششة - اليكسندروف - المستشفى فنعمل مجموعة صدام عدوة على جبهة تمتد حوالي ١٠ كم ، وكانت مؤلفة من ثلاث فرق مشاة هي ٢٩٥ ، ٩٤ مع وسائط دعم قوية ثم الفرقة المدرعة ٢٤ ، وكانت تركز جهودها على القطاع من كورغان مامايف إلى المحطة المركزية باتجاه المبنى النهري الرئيسي

وفي قطاع المرتفع ١٤٧،٠ - ضواحي مينين ، كوبوروسنوي تعمل مجموعة الصدام الجنوبية على جبهة ١٠ كم وهي مؤلفة من ثلاث فرق : الفرقة الآلية ٢٩ الفرقة ١٤ الألمانية المدرعة ، والفرقة الرومانية ٢٠ مشاة وتوجه بخط مستقيم شرقاً مع مهمة النفوذ على الفولغا .

كان احتياط العدو الأمامي حسب معطيات مخابراتنا موجوداً : في قطاع غومارك ، فرقة واحدة أو فرقان أو ثلاثة موجودة في فوروبوفوف ، كاربوفكا ، مالايا ، روسوشكا .

كان هذا التجمع مؤلفاً من تسع فرق عدوة مع وسائط دعمها ومجموعة

« ستاهل » وبدعم هذه القوى في هجومها ضد الجيش ٦٢ ، الجيش الجوي الرابع المؤلف من أكثر من ألف طائرة من مختلف الأنواع . والهدف المباشر لهذه القوات الألمانية القوية كان «بسيطاً» وهو الانقضاض على مدينة ستالينغراد واحتلالها والنفوذ على نهر الفولغا . يعني هذا التقدم بقوة وسرعة واجتياز هذه المسافة التي تتراوح ما بين ٥ - ١٠ كم ثم قذفنا بالنهر .

لا يعطي عدد الفرق والألوية ، التي كان يتألف منها الجيش ٦٢ فكرة صحيحة ودقيقة عن العدد الحقيقي ولا عن امكانات قواته المذكورة فمثلاً : لواء مدرع كان لديه في صباح ١٤ أيلول دبابة واحدة ودبابتان أخريتان محطمتان تماماً ، نقلتا إلى الضفة اليسرى للفولغا لإصلاحهما بسرعة ، ومفرزة المصير المشكلة من مختلف الألوية والفرق ، كان في صفوفها مساء ١٤ أيلول ٢٠٠ حربة (مقاتل) يعني أقل من فوج قتال نظامي . أما جارتها الفرقة ٢٤٤ مشاة فلا يتجاوز تعدادها ١٥٠٠ شخص ولكن عدد المحاربين فيها لا يتجاوز أيضاً فوج قتال نظامي ، ويعد لواء المشاة ٤٢ بكامله ٦٦٦ شخص ، منهم فقط مائتا مسلح ، وفرقة مشاة الحرس التي تحتل الجناح الأيسر بقيادة ف . دوبيانسكي ، لم يبق فيها سوى ٢٥٠ محارب . وهكذا نعداد بقية الوحدات والأقسام الأخرى في الجيش . أما المدرعات فلم يكن لدى كل ألوية الفيلق المدرع بقيادة الجنرال بويوف سوى ٤٠ - ٥٠ دبابة ثلثها معطوب وتستخدم كمواقع نارية ثابتة . والفرقة الوحيدة بتعدادها الطبيعي ، كانت فرقة العقيد ا . سارايف وكذلك ثلاثة ألوية مشاة مستقلة .

لم يكن لدى الجيش ٦٢ إنصال مباشر مع جيرانه من اليمين أو اليسار ، بينما كانت أجنحته تستند على ضفاف الفولغا .

كان للعدو التفوق الجوي الواضح ، وإذا كان الطيران الألماني يستطيع تنفيذ ١٠٠٠ - ٢٠٠٠ طلعة يومياً فطيراننا لم يكن يستطيع الرد ولا حتى بعشر طلعات أو يقدم لنا الحماية الضرورية ، كما دمر القسم الأكبر من دفاعنا الجوي بفعل العدو ، وتراجع القسم الثاني إلى ما وراء الفولغا ليتمكن من حماية الشريط الأرضي على طول الضفة اليمنى . ولم يبق في هذه الضفة سوى عدد لا أهمية له من سرايا المدفعية . صحيح أنه اعتباراً من ١٣ أيلول أخذت ألوية م/ط ١٠٧٩ - ٧٤٨ تشترك في الدفاع الجوي ، وتم تشكيل مجموعة المدفعية بقيادة العقيد ز . ابرشوف ، ولكن لم يكن ذلك كافياً فمئذ هبوط الظلام يبدأ الطيران

الفاشي بالتحليق فوق المدينة وعلى مواقعنا حول الفولغا .
بمراقبتنا لعمل القاذفات العدو ، كنا نلاحظ أنهم لا يمتازون بدقتهم وكانوا يرفضون الغارة على الخطوط الأولى، إلا في الأماكن التي توجد فيها أرض محايدة عريضة ، تؤمن مسافة كافية بين مواقعنا المتقدمة ومواقعهم . وقد أوحى لنا تصرفهم إلى تقليل عرض الأرض المحايدة إلى أقصى حد ممكن .
من الواجب قبل كل شيء رفع الروح المعنوية وتقوية القدرة القتالية للجيش ٦٢ ، وحل هذه المشكلة جذرية فالخسائر التي تكبدها القوات والانسحاب المتواصل يضاف إلى ذلك النقص في الذخيرة والغذاء وصعوبة التعويض بالأشخاص والعتاد تأثيرات مثبطة لمختلف أقسام الجيش والقوات التابعة له .
حتى أنه تولد لدى بعضهم الرغبة بالهروب إلى الضفة اليسرى للابتعاد عن هذا السعير الناري .

بنلت منظمات الحزب والفصائل السياسية قصارى جهدها لدعم الروح القتالية للجنود كما عمل رفاق السلاح والمعاونين والأصدقاء الكثير في هذا الاتجاه ، وعلى رأسهم قوميسار الفرقة غوروف وكل من الجنرالين كريلوف وبوجارسكي وكذلك قوميسار اللواء فاسيلييف ، وآخرون مثلهم ، وقد أدرك جميع القادة والموجهون السياسيون للوحدات أن نضالنا من أجل حماية المدينة سيكون حتى آخر شخص فيهم و آخر طلقة .



جمعنا المجلس العسكري قبل كل شيء وتجاوزنا واتخذنا تدابير، كان بدونها من المستحيل الاستمرار في القتال وهي :
١ - كان من الضروري بالنسبة إلينا تقوية القناعات لدى القوات بأنه أصبح من المستحيل التراجع إلى الوراء أكثر من ذلك ، ولم يعد أمامنا سوى هزيمة العدو . ويجب أن يجري القتال من أجل المدينة والدفاع عن آخر مواضعنا بحقد وكرامية ضد العدو المهاجم . علينا نحن الجنود السوفييت تلبية نداء الحزب ، وأمر الشعب الخاص بالدفاع أو الموت ، ولا بديل لنا غيره .
نقل نص الامر اليومي إلى كل المقاتلين ومنظمات الحزب والكومسمول (الشبيبة) عن طريق الضباط والموجهين السياسيين .

٢ - قرر المجلس العسكري للجيش تشكيل مفارز مسلحة في كل المؤسسات الكبرى من العمال والموظفين الذين بإمكانهم الدفاع عن مصانعهم ومعاملهم بجانب أو بدون وحدات الجيش ، وقد وزعت عليهم الأسلحة والتجهيزات مثل بقية القوات .

وتحت القنابل ، وانفجار القذائف كان العمال والموظفون يعيدون إصلاح العتاد المعطوب أو المدمر الذي يمكن إصلاحه .

كما حولت بعض المفارز المسلحة بموافقة وتحت إشراف تنظيمات الدولة والحزب إلى سرايا وأفواج قتال وبخلت في المعركة .

٣ - منع المجلس العسكري كل انسحاب أو تراجع من المواضع المحتلة حالياً دون موافقة قائد الجيش وأركانها .

٤ - اتخذ المجلس العسكري القرار التالي : يبقى قائد الجيش والأركان في الضفة اليمنى لستالينغراد ولا يتركونها بحال من الأحوال إلى الضفة اليسرى أو لاجدى الجزر .

نقل قرار المجلس العسكري إلى علم كل المحاربين ونوقش في اجتماعات تنظيمات الحزب والكومسومول .

كان علينا أيضاً في نفس الوقت إعادة تشكيل بعض وحدات الجيش فلم تكن هناك أية وحدة أو قسم تام التعداد وبعضها لم يكن فيه سوى نصف التعداد من الأشخاص والعتاد ، ولهذا السبب وخلال معارك أيلول نقلت إدارة بعض الفرق والألوية إلى الضفة الشرقية من الفولغا لإعادة تشكيلها . جمعت بعض العناصر المنعزلة وشكلت منها وحدات جديدة ، ولم يكن هذا تراجعاً إلى الضفة اليسرى للفولغا ، ولكنها كانت تدابير أملت بها ضرورات عسكرية .

أنهى المجلس العسكري - في ١٣ أيلول الساعة الثانية صباحاً - خطة عملياته لليومين أو الثلاث أيام التالية .

- ربما نأكل لديك بعض الأحيان أم لا ؟ سألت كريلوف

- نعم هذا ما يحدث معنا من وقت إلى آخر - أجاب عنه غوروف .

قدم لنا معاونونا قطعاً من الخبز والمأكولات المحفوظة وشاياً بارداً ، وبعد هذه الوجبة الصغيرة - انفصلنا عن بعضنا ، وذهب كل منا إلى نومه ولديه نفس التفكير : (معرفة ماذا يخبئ لنا اليوم التالي) .

قررنا قبل كل شيء حماية معابر الفولغا ضد مدفعية العدو ومن الضروري

الانتقال إلى الدفاع الصلب على الجناحين الأيمن والأيسر . أما في الوسط فالقيام بهجمات جزئية لاحتلال خط السكة الحديدية الفرعي رازغوليفكا والخط الحديدي الذي يتجه نحو الجنوب - الغربي ، حتى التفافه نحو غومارك . وسيسمح لنا هذا تقديم خط الجبهة في الوسط والاستناد إلى حافة الخط الحديدي كحاجز ضد الدبابات . وبالتالي احتلال غوروديشتشة والكسندروفا . وعهد للفيلق المدرع تعزيزه وحدات المشاة ، وباسناد كتلة مدفعية الجيش بتنفيذ هذه المهمة ، وكان من الضروري أن ينهي الفيلق المدرع تجمعه في ١٣ أيلول والقيام بالهجوم في ١٤ ، ولكن العدو سبقنا .

استيقظنا في الصباح الباكر على نيران المدفعية وغارات كثيفة من طيران العدو والقنابل ننساقط علينا .

ابتدأ الألمان هجومهم في الساعة السادسة والنصف صباحاً اعتباراً من قطاع رازكوليفكا بفرقة مشاة مع أربعين إلى خمسين دبابة وكان هدفهم كورغان مامايف من اتجاه افياغورودوك والمحطة المركزية .

اقتصرت العدو هجومه على أجنحة جيشنا الاثنيتين على عمليات تثبيت وقد هاجم من الشمال باتجاه اوزلوفكا بفوج مشاة يعزز على الجناح الأيسر ، كما رمى ببعض الأفواج المنفردة على دفاع ألوية المسير .

دامت المعارك طيلة اليوم في الوسط وعلى الجناح الأيسر . حيث زج العدو بأفواج جديدة من احتياط جديد مطوراً هجومه ، وكان يقصف جانبياً مواقعنا بقذائفه وألغامه الغزيرة بينما شكل طيرانه مظلة دائمة فوق ساحة المعركة .

كنا نرى جيداً من كورغان مامايف ساحة المعركة والمعارك الجوية ، وتحت نظرنا تحطمت على الأرض عشر طائرات من طيران الفريقين، وأخذت تشتعل فيها النيران ، وبالرغم من المقاومة الصلبة التي أظهرتها قواتنا البرية والطيران السوفييتي تغلب علينا العدو بفضل تفوقه في العدد والعدة .

لم تكن هذه العملية باعتبارنا سوى عملية استطلاعية للجيش ، ومن الواجب انتظار هجوم قوي لقوات العدو الرئيسية خلال يوم أو يومين على أكثر تقدير وهذا ما حدث .

انهال على مقر قيادتنا وعلى قمة كورغان مامايف وابل من القنابل والألغام وكنت أعمل في نفس المخبأ الموجود فيه كريلوف ، وكنت أخرج من حين إلى آخر لمراقبة سير المعركة بمنظار الميدان العاكس، ودمرت لنا بعض

التحصينات والمراكز ، كما حدثت خسائر بين أفراد الأركان أيضا .
غالباً ما كانت الخطوط الهانفية تتقطع ، وكذلك الحال مع مركز الراديو الذي
لم يكن يعمل باستمرار لذلك اضطررنا لإرسال كافة عمال الإشارة لإعادة تأمين
الاتصال بما فيهم عاملات مقسم الهاتف اللواتي كن يعملن في المخبأ . وغالباً ما
كن يتركن أماكنهن وسماعاتهن ويذهبن لاصلاح الخطوط .
استطعت طيلة كل يوم ١٣ أيلول أن أتكلم مرة واحدة مع قائد الجبهة وأقدم له
تقريرى باختصار عن الموقف ، ورجوته أن يرسل لي خلال الأربع والعشرين
ساعة القادمة فرقتين أو ثلاث فرق جديدة ، وبدون هذه القوى لا يمكن صد
العدو .

رغم كل الجهود التي بذلها عمال الإشارة ، قطع الاتصال تقريباً مع كل القوات
في الساعة السادسة عشرة .

كان الموقف حتى تلك اللحظة مطمئناً قليلاً ، فالفوج المعادي الذي كان يهاجم
من الشمال قادماً من اورولوفكا ، تم تدميره من قبل لواء المشاة ١١٥، وتكبدت
وحداتنا في وسط الجيش خسائر، مما اضطرها للانسحاب نحو الشرق إلى
الحدود الغربية للغابة الواقعة غرب المدن الصغيرة باريكادي ، كراسني أكتيابر
واحتل الفاشيون المرتفع ١٢٦,٢ افياغورودوك والمستشفى وأُخليت في الجناح
الأيسر للواء الميدان محطة الآليات والجرارات الواقعة غرب محطة السكة
الحديدية لسادوفا ، وعلى القطاعات الأخرى استطعنا صد الهجمات الجزئية
العدوة ودمرنا ست عشرة دبابة .

كان علي قبل هبوط الظلام اتخاذ القرار . إما تنفيذ مخطط الدفاع النشط
المحضر والمقرر لهذه الغاية أو الأخذ بعين الاعتبار هجوم العدو الذي يجري
والشروع بأعمال أكثر نشاطاً، فمن غير الممكن التمهّل لأننا لا نستطيع القيام
بتجميع للقوات ، إلا تحت جناح الظلام ، وكذلك من غير الممكن القيام بذلك في
وضوح النهار بسبب غارات العدو .

لذلك قررنا القيام بالهجوم المعاكس لارجاع العدو . وحددت بداية الهجوم
صباح يوم ٤ أيلول ، فقد أخذنا بعين الاعتبار عدم استطاعتنا تجميع قوات هامة
للقيام بالهجوم ، ولكن كنا مقتنعين بأن العدو كان يعرف ذلك جيداً ، ولكنه لم
يكن ينتظر مطلقاً إمكانية قيامنا بعمليات نشيطة ، وقد تذكرت في ذلك الموقف
مبدأ سوفوروف « المباغتة هي النصر » . كنا لا ننتظر نجاحاً فائقاً ولكننا كنا

سنطبع مفاجأة العدو وتشويش خططه. والذي كان يهمننا هو أخذ المبادرة من العدو ، حتى ولو كانت جزئية ومؤمنة وبعمل مباغت .
أرسل أمر الهجوم المعاكس إلى القوات في الساعة ٢٢,٣٠ ، وحددت الأهداف لكل وحدة بدفة .

بقوم بالهجوم بانجاه البلدة الواقعة في الجنوب الشرقي رازغوليفكا ، لواء المشاة الآلية ٣٨ مع سرية مشاة آلية معززة ومجموعة مدفعية ، وأما فرقة سارابيف فنقوم بالهجوم المعاكس بقوة لواء بانجاه المرتفع ١٢٦,٣. ثم إلى المرتفع ١٤٤,٣ .

وبقوم بالهجوم المعاكس لواء المسير المشكل من مختلف أقسام الجيش يعززه لواء مدرع بانجاه افياغورودوك والمرتفع ١٥٣,٧ . ويكون لواء المشاة المشتغل ٢٤ مسعدا للاشتراك بالهجوم المعاكس ضارباً بانجاه المستشفى والمرتفع ١٥٣,٧ .

كان على كافة الوحدات التي ستشارك بالهجوم المعاكس أن تنظم التعاون ونؤمن إنبالها .

أما وحدات الجيش الأخرى فعليها التمسك بشدة بالمواقع المكتسبة .
وقد كلفت بأسناد الهجوم المعاكس إلى ثلاثة ألوية مزودة بالدبابات وثلاثة ألوية مدفعية من الاحنياط العام وثلاثة ألوية (كاتيوشا) تابعة للحرس .
أظهر اليوم السابق الذي أمضيته في كورغان مامايف أنه من المستحيل تأمين قيادة القوات من هذه النقطة بسبب الانقطاع المستمر للإتصالات الليفونية ، لذلك قررت نقل مركز القيادة إلى منخفض نهر تساريسنا ، على أن يبقى مرصد الجيش هناك في كورغان مامايف ، كما حصلنا قبل يومين على موافقة قيادة الجبهة على هذا التنقل .

ومنذ ذلك الوقت بدأت الأيام العصيبة نمر على قوات الجيش ٦٢ وعلى كل القوات التي كانت تدافع عن سنالينغراد ، فالهجوم المعاكس الموجه من الشمال ، والذي كان مقرراً منذ البداية من ٥ إلى ١٥ أيلول بثلاثة جيوش جبهة سنالينغراد لم يعد ممكناً ، وكان يستهدف إقامة الإنصال مع القوات الموجودة في سنالينغراد والهجوم المعاكس الجديد اعتباراً من قطاع كوتكوبان ، والذي كان له نفس الهدف لم يحضر إلا في ١٨ أيلول أما قوات الجيش ٦٢ فقد كانت منهكة من المعارك السابقة ، ولكي يتم إيقاف العدو وعدم تمكينه من احتلال المدينة ،

فقد أخلي عدد لا بأس به من الأركان ، والأقسام ، والوحدات التي فقدت كل إمكانية قتالية . وكان من الضروري إرسال التعزيزات من فرق حديدة على جناح السرعة .

سجل ناربخ يوم ١٣ أيلول ١٩٤٢ بداية أشد المراحل ضراوة وأكثرها دموية في هذه المعركة التي دخلت في التاريخ تحت اسم « الدفاع عن سنالينغراد » والتي دامت حتى ١٩ تشرين الثاني، أي حتى بداية الهجوم المعاكس للقوات السوفيتية ، كانت هذه المعركة بالنسبة للمحاربين ، الذين كانوا يدافعون عن سنالينغراد وبخاصة قوات الجيش ٦٢ نضالاً حتى الموت . لم ينقطع ، ولم يكن هناك توقف بين العمليات ولا هدوء ليلي . ولم يكن في دفاع الجيش ٦٢ ولا دقيقة سلبية، بل كان دائماً هجومياً ، ولم يترك أية مهلة للعدو للراحة أو الاستعداد . كانت المسافة القصوى في ١٣ أيلول بين خطوط العدو والفولغا لا تتجاوز عشرة كيلومترات . مدينة سنالينغراد نفسها ممتدة على طول الفولغا من ٣٥ - ٤٠ كم . وأقصى عرض لها خمس كيلو مترات ، والقسم الجنوبي منها كان كبيراً للغاية وهو حي المصانع ، ولم يكن أمام العدو لاحتلال هذا الجزء من المدينة سوى عشرة كيلومترات . ولكن ما مره لم يكن العدو ينتظره مطلقاً ، ولم تسنطع القوات الفاشية احتلال هذه العشرة كيلومترات ولا اجتيازها مطلقاً ، واضطر هتلر الزج بخيرة قواته المتفوقة عدة مرات في العدد والعدة على القوات ، التي كانت تدافع عن سنالينغراد .

كان العالم يتابع هذه المعركة وهو ممسك أنفاسه ، ويناصر بصلاية المدافعين عن سنالينغراد .

وأورد هنا بعض المقطعات القصيرة من الصحافة البريطانية والأمريكية . كتبت الصحيفة الأمريكية نيويورك هيرالد تريبيون « في هذه الأوقات التي لا يمكن تخيلها بسبب الحرائق المتتالية ، وغيوم الدخان الكثيف بسبب الانفجارات والمباني التي هدمت والجثث المبعثرة ، كان المدافعون يقاتلون من أجل مدينتهم بصلاية مذهلة ليس عن طريق الموت ، إذا كان ضرورياً وليس بالدفاع الذي كان عليهم القيام به ، ولكن عن طريق الهجوم كلما كان ممكناً دون النظر للتضحيات ، من أجلهم ، ومن أجل أصدقائهم ، ومن أجل مدينتهم . مثل هذه المعارك لا تنشب لحسابات استراتيجية . ولكنها كانت تدور بحقد عارم ، وتفان لم تعرفه لندن ، حتى في أصعب أيامها ، وخلال

أعنف الغارات الجوية الألمانية ، فيمثل هذه المعارك تكسب الحرب » .

اما الصحيفة الانكليزية رينولدز نبوز فقد كتبت في ٢٩ أيلول ١٩٤٢ ، في موضوع سنالينغراد « مربين في جيل واحد ، يصبح سنالينغراد رمزا لإرادة الحياة للشعب الروسي ، فقبل أربع وعشرين عاماً ، كان المناهضون يريدون تدمير الجمهورية السوفيتية الفنية ، ولكنهم هم الذين أبيدوا على ضفاف الفولغا ، واليوم يفرض أسوأ طغيان . النضجبات الدموية في شوارع تلك المدينة التي تتحمل أكبر معركة عملاقة في تاريخ الحروب . وسنظل ملحمة سنالينغراد خالدة على مر الزمن ...

إن بسالة الشعب الروسي المسلح وأهلية القادة الروس جذبت إعجاب كل العالم الحر ، ولنا الحق أن نفتخر ببطولات سنالينغراد » .



لا مكان لنا وراء الفولغا

(١)



انقل في فجر ١٤ أيلول مركز قيادة الجيش إلى ما ندعوه قبرو نسايسنين . وهو عبارة عن أخدود طويل مغطى ومقسم إلى عشرة أقسام بسقوف وجدران مغطاة بالأواح الخشب .

كانت جبهة سنالينغراد تتمركز في هذا القبر في شهر آب الماضي وهو مكسو بغطية نرابية سمكها يصل إلى عشرة أمتار ، وقنبلة وزنها طن يمكنها فقط اختراقه وليس في كل الأمكنة وللمخبا مخرجان الأول الأسفل ويقود إلى ضفة نهر تساريفام والثاني إلى الأعلى وينفذ إلى شارع بوشكين .

نركت كورغان مامايف مع كريلوف في ١٤ أيلول قبل الفجر أما غوروف فقد ترك الكورغان أبكر من ذلك . وقادنا خلال شوارع البلدة المقدم م . قنيروب مساعد قائد القوى المدرعة والآلية . وكانت الطائرات الألمانية الليلية تحوم في السماء ، ونعلم بواسطة ضوء الحرائق عن الأهداف الواجب قصفها من قبل المدفعية وتباشر على الفور برميها .

كنا نأخذ طريقنا بين الانقاض وفي الشوارع المدمرة .

على بعد خمسمائة متر من مركز قيادتنا الجديد نعثرت سيارتنا بالخطوط الهاتفية ، والتلغرافية مما جعلنا نقف حوالي ثلاث دقائق في المكان الذي كانت فيه سيارة كريلوف نتعثر بالخطوط أيضاً . وخلال هذه الدقائق الثلاث انفجرت أكثر من عشر قنابل بالقرب منا ومن حسن الحظ لم يصب أحد منا بأذى فقد وصلنا سالمين ومعافين إلى مكاننا .

لم يكن لدي الوقت للنوم . وكان عليّ أن أتأكد بنفسني من سلامة الاتصال في مقرنا الجديد، ثم تحضيرات القوات للهجوم المعاكس ، وكان كل شيء عادياً حسب كل المظاهر ، فالقوات العدو حتى الطائرات الليلية كانت بحالة الراحة ،

وتتحضر للعمليات النهارية .

في الساعة الثالثة صباحاً ابتدأت مدفعيتنا التمهيد للهجوم المعاكس وفي الساعة الثالثة والنصف كان الهجوم المعاكس ، اتصلت هاتفياً بقائد الجبهة وأعلمته عن بداية الهجوم وطلبت منه تأمين غطاء جوي في الساعات الأولى لطلوع الشمس . وعدنى بذلك وسررت بالمعلومات التي أعطاني إياها ، فقد أمرت السافكا بتزويدي بفرقة مشاة الحرس ١٣ من احتياطها العام وستبدأ هذه الفرقة بالمركز على معابر الفولغا مساء ١٤ في قطاع كراسنايا سلوبودا . فرحنا كثيراً ، رغم أن ما أعطوه لنا لم يكن سوى فرقة . قمنا في ١٤ أيلول بشن الهجوم المعاكس العام للجيش ، إلا أن هذا الجهد المبذول لم يعطينا الكثير من الآمال فقد كانت وحدات الجيش مبعثرة ومنهكة .

بعد أن أرسلت فوراً إلى كراسنايا سلوبودا العقيد كوبتشيف قائد قوات الهندسة ، ومجموعة من ضباط الأركان لاستقبال فرقة الحرس . عدت وكري洛夫 للإتصال بالوحدات لتكون على بينة من الموقف .

لقي هجومنا المعاكس في وسط الجيش ، بالبداية بعض النجاح ، ولكن بعد ارتفاع النهار ، زج العدو بطيرانه في المعركة ، وأخذت مجموعات من الطائرات العدو بين ٥٠ - ٦٠ طائرة تقصف بهجمات المتقطعة وبدون انقطاع تشكّلنا القتالية التي اندفعت للهجوم المعاكس مما اضطرها للاحتماء بالأرض والتسمر فيها . وبذلك توقف الهجوم المعاكس في الساعة ١٢ ظهراً . وفي الساعة الثانية عشر زج العدو في المعركة بمجموعات كبيرة من المشاة والدبابات . وبدأ يدفع بقواتنا إلى الوراء ، وقد اتجه ثقل الهجوم نحو المحطة المركزية ونحو كورغان مامايف .

كانت قوة العدو غير طبيعية ، فبالرغم من الخسائر الفادحة التي كان يتكبدها ، كان جنوده ينقدمون برؤوسهم المنحنية دائماً إلى الأمام . تتبعهم أرتال من المشاة وعلى سيارات النقل والدبابات تتغلغل في شوارع المدينة ، ويبدو أن الهتلريين اعتمدوا على أن سقوط ستالينغراد قد تحتم ، وبدأوا يسعون للوصول إلى الفولغا بأسرع ما يمكن . فوسط المدينة وقع في شبكتهم حسب رأيهم . وكان مقاتلونا من مهرة الرماة وقناصة الدبابات والمدفعيين المختبئين في زوايا الشوارع في الكهوف والتحصينات ، وفي البيوت كانوا يرون النازيين السكارى ، يقفزون من سيارات النقل ، ويلعبون الهارمونيكا ، ويرقصون على الأرصفة ،

ويصرخون صرخات هستيرية، وكانهم حققوا النصر .

كان الغزاة يتساقطون بالمئات . ولكن احتياطهم كان ينهال عليهم بأمواج جديدة ، مغرقاً الشوارع بفائض من القوات ، وقد تسرب رماة العدو من حملة المسدسات الرشاشة إلى المدينة نحو الشرق من الخط الحديدي . باتجاه المحطة وبيوت الاختصاصيين .

أصبح الخطر داهماً ، فالمعركة كانت تدور على بعد ٨٠٠ م من مقر قيادة الجيش والأركان. وإذا لم يستطع العدو احتلال المحطة ، فلن يتمكن من قطع الجيش إلى قسمين والوصول إلى المعبر الأوسط للفلوفا قبل وصول فرقة مشاة الحرس ١٣ .

وعلى الجناح الأيسر من قطاع ضاحية مينين. كانت تدور معارك شديدة أيضاً ، فقد كان العدو يعمل على عدم إعطاء أي فرصة لجناحنا الأيمن ، وكان الموقف يتدهور ساعة بعد ساعة .

لم يبق لدي سوى احتياط ضعيف ، لواء وحيد فقط بقي هو لواء مدرع من ست عشرة دبابة كان موجوداً على الجناح الأيسر للجيش بالقرب من الرافعة وعلى الحد الجنوبي للمدينة . وقد طلبت إرسال فوج من الدبابات من هذا اللواء على جناح السرعة إلى مقر قيادة أركان الجيش ، وكان لدى هذا الفوج تسع دبابات لم تصل إلا بعد ساعتين . وفي هذه الفترة شكل الجنرال كريلوف مجموعتين من عناصر الأركان ومن سرية الحرس . عززت الأولى بست دبابات بقيادة مدير مكتب العمليات أ . زاليزوك ، وكلفت بمهمة إقامة الحواجز على الشوارع المؤدية إلى المحطة والميناء ، والمجموعة الثانية مع ثلاث دبابات بقيادة المقدم م . فينروب ، وأرسلت نحو بيوت الاختصاصيين ، حيث كان العدو يكنس الفولفا والميناء بنيران رشاشاته الثقيلة .

شكلت هاتان المجموعتان من ضباط أركان الجيش والموجهين السياسيين الشيوعيين ، الذين كان مهم أن لا يتركوا الهتلريين يصلون إلى الميناء . ويؤمنون التغطية لأول معنية تصل محملة بجنود فرقة الحرس بقيادة روديمتسيف

في الساعة الرابعة عشرة ، قدم لي قائد الفرقة ١٣ بطل الاتحاد السوفيتي العميد اليكسندر ايلتش روديمتسيف ، وكان مغطىً بالغبار والطين ، ولكي يصل إلى مقر قيادتنا ، اضطر للاختفاء مرات عديدة والتسمر في حفر القنابل ،

والاختباء بالانقاض ، وكان يختفي عندما كانت طائرات العدو تنقض عليه .
وقد أعلمني روديمتسيف أن الفرقة تامة بما فيه الكفاية من ناحية الرجال، إذ
تعد عشرة آلاف جندي . ولكنهم كانوا بحالة سيئة من ناحية السلاح والذخيرة
وهناك ألف جندي دون بنادق . وقد أمر المجلس العسكري للجبهة معاون قائد
الجبهة الجنرال جوليكونف بنزويد الفرقة بالسلاح والذخيرة ، حتى ساعة متأخرة
من ليل ١٤ أيلول وإرسال هذه الفرقة إلى قطاع كراسناياسلوبودا . ولكن ما من
أحد يضمن وصولها في الوقت المناسب . وقد أمرت معاون قائد المؤخرات
الذي كان موجوداً على الضفة اليسرى للقولغا أن يعبئ كل الأشخاص ، الذين
لديه لجمع السلاح من وحدات المؤخرة ووضعها تحت تصرف جنود الحرس .
كان الجنرال روديمتسيف ، قد اطلع على الموقف على جبهة الجيش .
ف رئيس الأركان كريلوف كان يعرف كيف يخبر الأشخاص بشكل عفوي وقد
وضع الجنرال روديمتسيف على مجرى الموقف .

كانت مهمة روديمتسيف الأولى نقل فرقته إلى الطرف الأيمن للقولغا ليل ١٥
أيلول ، على أن تحتل مدفعية فرقته - عدا المدفعية المضادة للدبابات - مواضع
الرمي على الضفة اليسرى لندعم من هناك عمل وحدات المشاة التابعة للفرقة أما
المدفعية م/د وقاذفات الألغام فتعبر النهر إلى المدينة .

اشتبكت الفرقة فوراً في القتال بعد نزولها على اليابسة ، وقد كلف لواءان من
المشاة بتنظيف وسط المدينة من الفاشيين ثم تنظيف بيوت الاخصاصيين
أيضاً ، أما اللواء الثالث فقد أوكلت إليه مهمة الدفاع عن مرتفع مامايفه وبقي
فوج مشاة كاحتياط بيد قيادة الجيش .

احتلت قوات الفرقة القطاع الموجود بين عقدة كورغان مامايف الحديدية من
اليمين ، وممر نهر نسايسا ، من اليسار .

اقترحنا على روديمتسيف وضع مركز قيادته على الضفة القولغا بالقرب من
الميناء النهري، حيث توجد مخابئ تحت الأرض محضرة ومجهزة بوسائل
الاتصال مسبقاً . وبعد الاجتماع سألته :

- والمعنويات ؟

أجابني

- إنني شيعي وليس لدي أي فكرة للخروج من هنا ، ولن أحترق .

وقد أضفت حالاً :

- سأضع تحت إمرتك كل العناصر التي نعمل منفردة أو منعزلة في ذلك القطاع . وذلك حين وصول وحدات الفرقة للخطوط الأمامية .

بعد فترة من التفكير ورد الفعل ، قال رويمنسيف ، إنه من العار أن يبقى مركز قيادته وراء مركز قيادة الجيش ، وقد هدأته مؤكداً إنه في حال تنفيذ الفرقة لمهمتها المكلفة بها سنسمح له بتقديم مركز قيادته إلى الأمام .

لقد أشرت آنفاً بأنه ليس من الحكمة الاعتماد على سلبية العدو ، لقد قرر تدمير وأخذ المدينة بأي ثمن ، ولهذا لا نستطيع أن نقف عند حدود الدفاع فقط . ويمكننا الاستفادة من كل فرصة للقيام بهجوم معاكس لفرض إرابتنا على العدو . وإحباط مخططاته بعمليات مباغته ونشطة .

كنت بحالة من القلق الشديد ، فقد أصبحت الساعة حوالي السادسة عشرة ، ولم يبق سوى خمس ساعات على بزوغ الفجر، فهل يمكننا بهذه الوحدات والعناصر المشتتة والمهزومة التمسك بالخطوط الدفاعية عشر أو اثني عشرة ساعة في الاتجاه الرئيسي ، وهل الجنود والضباط يستطيعون تنفيذ هذه الهجمات التي تبدو أنها فوق طاقاتهم الإنسانية ، فإذا لم نستطع تحقيق ذلك ، فهل ستكون فرقة الحرس ١٣ الموجودة على الطرف الأيسر للقولغا ، (وحتى الآن لم نتمكن من العبور لتعزيز طاقاتنا) ، شاهداً على ما ينتظرنا من مأساة مرعبة يحضرها لنا العدو، دون أن نتمكن من نجاتنا وتوقف موقف العاجز ؟

في هذه الفترة وصلتنا الأخبار عن الهجوم المعاكس الذي قام به لواء المسير فقد توقف بعد أن تكبد خسائر فاحشة وبخاصة من الضباط وظل دون قيادة . ولم يكن لدينا احتياط ، فالاحتياط الأخير كان حرس المقر العام للجيش وأشخاص الأركان ومع ذلك فكلهم كانوا في المعركة . ومن داخل المخبأ كنا نسمع ضجيج محركات الطائرات الألمانية وانفجارات القنابل .

وسعيّاً وراء الحصول على بعض الاحتياط ، طلبت من العقيد ا . سارايف الذي كان يتولى مركز قائد حامية ستالينغراد . وكانت فرقته تحتل مراكز دفاعية ، ونقاط استناد محضرة مسبقاً ، وحسب قول الجنرال كريلوف أنه (أي سارايف) يعتبر نفسه مستقلاً . ولا يظهر رغبة جادة لتنفيذ أوامر الجيش فيما إذا كان بإمكانه تزويدنا ببعض العناصر .

وقد قدم لي سارايف تقريراً مفصلاً عن الموقف في فرقته ، والقطاعات الدفاعية التي كانت تحتلها والوضع في المدينة ومدن العمال .

وقد فهمت منه أن مراكزه الدفاعية تتألف بشكل رئيسي من بلوكوسات (دشم ميدانية) مجهزة بنسبة ٢٠ - ٣٠٪ من ملاكها فقط ، فهي إذن ذات قدرات ضعيفة على المقاومة الفعالة . وقد رأيت بنفسى بعض هذه التحصينات،وهي لا تستطيع أن تقدم دعماً كافياً في الدفاع أو القتال ضد العدو .

سألت العقيد ساراييف فيما إذا كان قد علم بأن وحدته قد ألحقت بالجيش ٦٢ وعليه إطاعة أوامر المجلس العسكري للجيش ، وقد طلبت منه فيما إذا كان يريد أن يخبر المجلس العسكري للجبهة للاستيضاح نعماً عن هذا الأمر . ولكنه أجاب بأنه جندي في الجيش ٦٢ .

وعلى كل حال لا يمكن الاعتماد على أية وحدة من وحداته لتكون كاحتياط لتجنب ضربات العدو ، لعدم امكانية سحبها من نقاط الاستناد ، ولكن بعض المفارز من الحرس المسلح في المصانع والأحياء ، كانت موجودة تحت صرف ساراييف ، وعندها الكامل ، بما فيها المفارز المؤلفة من ميليشيا المدينة ورجال الاطفاء والعمال يصل إلى ١٥٠٠ رجل ، ولكن كان ينقصها السلاح . وقد طلبت من العقيد اختيار البنايات القوية في مركز المدينة لاستخدامها في الدفاع في حدود ٥٠ - ١٠٠ رجل ، ووضعها تحت قيادة شيوعيين ، وحفر الخنادق والنمساك بنقاط الاستناد هذه حتى آخر رمق . وقد ذكرته بأن فرقته والمفارز المسلحة تستطيع حالياً تلقي السلاح والذخيرة . وقد رجوت ساراييف أن يبقى بانصال دائم مع مركز قيادة الجيش .

وفعلاً ، وضع على مخطط المدينة وبحضوري الأهداف ذات الأهمية الكبرى ، وقد وافقت على اقتراحاته هذه .

كان ساراييف باعتباره قائد فرقة، لا بل بصفته قائد الحامية يعرف جيداً المدينة . والاتصال مع الشخصيات الصناعية في البلدة ، وقد ساعدني كثيراً في تنظيم المفارز المسلحة في كثير من المصانع ، وفي الأبنية القوية . وكان سكان المدينة يقاتلون ضد الغزاة جنباً إلى جنب مع جنود الجيش ٦٢ حتى آخر قواهم ، فالوطن وسالينغراد لن ننساها أبداً .

اصطحب كريلوف ساراييف معه لمقره بعد سماعه تلك المحادثة ، وذلك لتنظيم إنصال وتيق وتبادل المعلومات ، وقيادة المعركة .

كانت الاتصالات مع الوحدات غالباً ما تنقطع . ولهذا فغوروف وأنا كنا - ج مرات عديدة من المخبأ في شارع بوشكين لكي نبلغ الأوامر بأصواتنا لأن

القتال الدائر كان على بعد ٤٠٠ - ٥٠٠ م منا .

سجل المؤرخون أن قادة استرانيجين كبارا ، خسروا بعض المعارك الكبرى لعدم وجود قوات كافية لديهم لإدامة المعركة وتحقيق النصر، والى لا يمكن أن تتعدى فوجا أو لواء . وكنت أفكر أنه كان لدى فون باولوس فى ذلك الوقت أكثر من فوج يمكنه أن يقطع الجيش ٦٢ إلى قسمين وينفذ إلى الفولغا، ولكن بسالة قواتنا أبطلت كل مجهودات العدو .

وصل إلى المقر قائد اللواء المدرع خويكو قبل هبوط الظلام ، وأبلغنى أن آخر دباباته أصيبت وهي معطلة بالقرب من المحطة فى نقاط الخط الحديدي .
- ما العمل ؟- طلب مني .

درسنا الموقف ، فالدبابة رغم إصابها نستطيع الرمي إلى جانب وجود حوالي مائتي شخص فى اللواء مسلحين بالمسدسات الرشاشة، لذلك قلت له :
- عد واجمع رجالك واستلم التقاطع حتى وصول فرقة الحرس ١٣ على الأقل .
استوعب خويكو المهمة مباشرة ودار بعنف وأسرع لتنفيذ الأوامر . وقد نفذ مهمته بكل شرف - كما سنرى فيما بعد - .

أخذت المعركة نهذاً مع هبوط الليل ، وخففت الطائرات الألمانية من تحليقها الليلي ، وقد أمضيت كثيراً من وقني ، أستفسر بالهاتف عن وجود وعمل وحدات فرقة الحرس ١٣ وكيف تستعد لعبور النهر ثم مع الذين كانوا يعملون فى الأركان، وهذا إجراء إحصائي لنتائج يوم من القتال :

كانت اللائحة مظلمة ، فقد وصل العدو إلى أسفل كورغان مامايف ، وحتى الخط الحديد الذي يتجه إلى المحطة المركزية التي كنا لا نزال نمسك بها . واستطاع جنود العدو فى وسط المدينة من احتلال بعض الأبنية بعد تغلغلهم عبر ترتيبنا القتالي المبعثر ، لم يبق من وحداتنا التي كانت تعمل فى وسط جبهة الجيش أحد ، إذ قتلوا جميعهم ، كما دمر مرصد الجيش الموجود على قمة كورغان مامايف بقنابل الطائرات وقذائف المدفعية .

علمت أن وحداتنا التي كانت تقاتل على الجناح الأيسر للجيش قد صنت هجمات العدو ، ولكن وبما أن العدو كان يكتل قواته ويجمعها ويقوم بالاستطلاع فمعناه أنه يحضر لهجوم جديد .

وعندما ألقيت نظرة عامة على الموقف ووضع القوات ، شعرت بأنه ليس باستطاعتي طلب أية مساعدة من المجلس العسكري للجبهة ، علماً بأنه قدم كل

ما يستطیع لنخفیف الموقف. وفي لیل ١٥ أیلول ، كانت کل المعابر التي علی الفولغا مهیأة للعبور ، حبت أخذت فرقة مشاة الحرس نعبّر النهر مستخدمة هذه المعابر .

لم یغمض لی جفن، ولا للأشخاص الذین كانوا یعملون فی الأركان طيلة اللیل ، فبعضهم کان فی الخطوط الأولى یساعد فی إعادة الوحدات لحالة القتال ، و آخرون كانوا یدیرون المعارك بالقرب من بیوت الاختصاصیین وفي المحطة ، ویؤمنون بذلك عبور وحدات فرقة رودیمنسيف ، و آخرون غیرهم كانوا فی مرفأ النهر المركزي للقاء الأفواج التي كانت تعبر النهر، ونوجیها عبر الشوارع المزحمة بالانتقاض إلى الخطوط الأولى .

لم بنجح سوى لواءي ٢٤ و ٤٢ من عبور النهر خلال اللیل، وعند ظهور النهار منعت الطائرات العدو ما نبقي من القوات من عبور النهر .

احتلت الألوية التي عبرت قطاع مركز المدينة اعتباراً من منخفض كروتوي حتی المحطة ، وقد وجه الفوج الأول من اللواء ٤٢ نحو المحطة ، أما كورغان مامايف فكان یدافع عنه فوج من فرقة سارايف وعناصر من فرقة المشاة ١١٢ بقيادة: أ. ایرموکین، وعلى اليسار (فی الجنوب الغربي) من المحطة کان یدافع ما تبقى من اللواء المدرع ، ولواء المسير ولواء المشاة ٤٢. بقيادة: باتراکوف، أما فی القطاعات الأخرى فظلت علی حالها دون تغییر .

قام العدو صباح ١٥ أیلول بهجوم علی اتجاهین : الاتجاه الأول نحو وسط جبهة الجيش ، وعلى المحطة ، وكورغان مامايف . وكانت تعمل علی هذا الاتجاه وحدات العدو التابعة لفرق المشاة ٢٩٥ - ٧٦ - ٧١ تدعمها الدبابات أما الاتجاه الثاني فكان علی الجناح الأيسر للجيش باتجاه ضاحية «أمینین» ، وكانت تعمل علی هذا الاتجاه الفرق العدو ٢٤ - ١٤ - ٩٤ مشاة . وعلى الجناح الأيمن کان یسود الهدوء ، وسبقت الهجوم غارات جوية عنيفة. وعلى العموم کان الطیران الألماني یحلق بشكل مستقیم فوق مواقعنا .

أخذت المعركة فی الحال منحنى خطراً ، فالوحدات الجديدة التابعة لفرقة رودیمتسيف ، والتي نزلت لیلاً لم تجد لديها الوقت الكافي للنوجه أو تحصن نفسها ، وأخذت تتعرض لهجمات القوات المعادية المتفوقة فی العدد والعدة فی الوقت الذی كانت فی الطائرات الألمانية تدك الأرض بشدة ، وتضرب کل من نجده فی الشوارع .

تميزت المعارك التي دارت في المحطة بضراوبها ، وكذلك المعارك التي وقعت في ضاحية «أميين» ، وقد تبادل الطرفان احتلال المحطة مرارا خلال النهار ، ولكن عند هبوط الظلام كانت بين أيدينا . أما بيوت الاخصائين ، فبالرغم من هجوم اللواء ٣٤ من فرقة روديمينسيف ودعم دبابات اللواء الثقيل ، ظلت بيد الألمان ونكبد لواء المشاة بانراكوف مع عناصر من فرقة ساراييف خسائر فاحشة ، وارند الطرفان إلى الحدود الغربية للمدينة وإلى الجنوب من تساريسنا .

كان من الصعب في مساء ١٥ أيلول معرفة في أي يد كان كورغان مامايف موجوداً . فقد كانت الأخبار التي وصلنا متناقضة ، كما استطاعت عناصر عدوة من حملة المسدسات الرشاشة التسرب عن طريق مجرى تساريسنا حتى جسر السكة الحديدية ، وأخذت توجه رماياتها على مركز قيادة الجيش . وقد زج مجدداً حرس القيادة في المعركة . وبالإضافة إلى ذلك أخذت أعداد متزايدة من الناس تدخل الممرات الأرضية لمخابأ القيادة ، لكي تحتمي من قنابل الطائرات وقصف المدفعية التي لم تنقطع ، رغم وجود الحرس والمراقبة على المداخل ، كما كان رجال الإشارة التابعين للجيش وفوج القيادة وضباط إشارة الوحدات والسائفون ، و آخرون غيرهم يجتازون المداخل بحجة القيام بأعمال مسعجلة أو عاجلة . ويبقون في تلك الأماكن ، ربما أن المخابأ لم يكن مجهزاً بوسائل التهوية ، فقد أصبح جوه الداخلي خانقاً وهواؤه قاسداً ، مما كان يسبب ازعاجاً لنا وبخاصة اثناء الليل ، حتى كنا نكاد أن نفقد الوعي ، لذلك كنا نخرج دورياً إلى الخارج لنستنشق الهواء النقي ، وكانت أحياء المدينة جنوب تساريسنا تشتعل بالنيران .

كانت طلقات الرماة الألمان تصفر فوق رؤوسنا ونحت أقدامنا ، ولكن لا شيء يمكن أن يجبرنا على البقاء في هذا المخابأ الخانق . كان مصير كورغان مامايف يقلقنا في تلك الليلة ، فإذا استطاع العدو احتلاله فقد ضمن سيطرته على المدينة والقلوغا .

أمرت بأن يتم عبور وحدات اللواء ٢٩ بقيادة: آ . ايلين بأي ثمن من الضفة اليسرى لتوجيهها نحو كورغان مامايف . وأن تتمركز هناك عند طلوع الفجر ، والتمسك بالقمة مهما كان الثمن .

أصبح تأمين قيادة الجيش صعباً من مخابأ مغطى موجود في منخفض . لذلك

أعطيت الأمر للجنرال بوجارسكي لمساعدة قسم من عمال المقاسم ومن الأركان لتنظيم مركز قيادة مساعد على ضفة الفولغا بالقرب من الميناء بمواجهة شاطئ جزيرة رايتسيفسكي الجنوبي ، وكان هذا المركز واسطة إتصال بين أركان الجيش ووحدات الجناح الأيمن .

خسر العدو في المعارك التي وقعت في ١٥ أيلول أكثر من ألفي شخص من القتلى فقط ، وبلغ عدد الجرحى ثلاثة إلى أربعة أضعاف . وقد خسر العدو في يومي ١٤ - ١٥ أيلول أكثر من عشرة آلاف رجل وخمسمائة دبابة محترقة . ونكبت قواتنا هي الأخرى خسائر جسيمة بالرجال والعناد وتراجعت . وهذا لا يعني مطلقاً أنها تراجعت بنظام من موقع إلى آخر . وما أريد أن أقوله هو أن رجالنا (دون الوحدات والأقسام) كانوا ينجون بأنفسهم ، زاحفين تحت الدبابات « جرحى على الغالب » لكي يصلوا إلى المواضع التي تليهم ، حيث كانوا يستقبلون ويعاد تشكيلهم بفصائل ويقدم لهم التموين وبخاصة النخيرة ويعودون للقتال .

عرف العدو أنه لا يستطيع احتلال المدينة بضربة واحدة . لذلك بدأت عملياتهم تأخذ طابع الحذر ، وأخذوا يحضرون هجماتهم بعناية ، ويسيطرون منذ ذلك الوقت فصاعداً إلى القتال دون أكورديون أو أغاني هستيرية . أظهرت معارك ١٣ - ١٤ - ١٥ أيلول أنه بالإمكان القضاء على العدو في خرائب المدينة بنجاح أكثر مما كان في السهوب المفتوحة بين الفولغا والدون . وبالرغم من نفوق قواته الكبيرة ، كان العدو يتكبد خسائر لا تعد ولا تحصى . وأشد خسارة كان يصاب بها عندما كان يهاجم في الشوارع الضيقة وبقايا البيوت الخربة . وغالباً ما كان العدو لا يعرف من أين تصب عليه النيران أو أين ينتظره الموت .

وأصبحت الأرض على ضفاف الفولغا وشوارع المدينة والحدائق العامة والمنزلية ممزوجة كلياً بالدماء والتي كان الهتلريون يتزحلقون عليها وكأنهم على منحدر يقودهم إلى حنفهم - هكذا كان المدافعون يقولون .

كان جنودنا وضباطنا يعرفون تماماً أنه لا يوجد مكان يتراجعون إليه وبخاصة أنهم أدركوا أنه يمكن مقاتلة الغزاة . وقد تضاعفت شجاعتهم بعد تجارب القتال المريرة التي أعطت ثمارها . ولم يعد قناصو الدبابات يخشون من ترك الدبابات الألمانية تصل إلى ٥٠ - ١٠٠ م حتى يضربونها بضربة محكمة .

تتابعت المعارك في ١٦ و ١٧ بعنف متزايد . وزج العدو باحتياط جديد مهاجماً في الوسط ، ودون توقف ، وحدات الحرس من الفرقة ١٣ ولواء المشاة (باتراكوف) . وتميزت المعارك التي نشبت في قطاع كورغان مامايف والمحطة بضراوتها الشديدة .

استطاعت القوات التابعة للواء ايلين وأقسام من فرقة المشاة ١١٢ في صباح ١٦ أيلول استرجاع كورغان مامايف . ولكنهم لم يستطيعوا التقدم أكثر من ذلك . فقد بدأت الهجمات والهجمات المعاكسة المتبادلة ، وجرت المواجهة وجها لوجه ، وصراعاً حتى الموت امتد على كورغان مامايف حتى نهاية كانون الثاني ١٩٤٣ .

كان العدو يعلم بأنه عندما يصبح سيداً على كورغان مامايف سيمتلك المدينة ومدن العمال والفولغا . ولكي يصل إلى غايته لم يبخل لا بالقوات ولا بالوسائل . كما أننا بدورنا صممنا على التمسك بالكورغان مهما كان الثمن . وقد أبعد عدد من الألوية والفرق المدرعة وفرق المشاة عن آخرها ، وأكثر من فرقة من فرقنا صمدت في المعارك الشديدة التي كانت ندور حتى آخر رجل وبضراوة وعنف لا سابقة لهما في التاريخ .

وصل وزن قنابل الطائرات التي كانت تلقى إلى الطن ، وقذائف المدفعية ذات العيار ٢٠٣ مم كانت تقلب الأرض ، ولكن الالتحام وجهاً لوجه ، الذي تدخل فيه لعبة استخدام الحراب والقنابل اليدوية ، كان الطابع الرئيسي والأداة الفعالة والواسطة الحقيقية لهذا الصراع .

ظل كورغان مامايف أسوداً حتى في أوج موسم الثلج . فقد ذاب الثلج وامتزج بالأرض سريعاً بسبب رمايات المدفعية .

أما المعارك التي دارت حول بيوت الاختصاصيين فكانت تتراوح بين الهادئة والعنيفة وما أن تضعف رماياتنا أو هجماتنا ، حتى يبدأ العدو بضرب المعبر الرئيسي على الفولغا . وكنا مضطرين دائماً للقيام بهجوم لإزالة الرماة من بيوت الاختصاصيين عندما يتجمعون هناك .

وسيشاهد القراء فيما بعد صورة أحد هذه البيوت الذي حول إلى قلعة حصينة . وكان يعرف باسم بيت (بافلوف) . ومن الطبيعي أن لا يكون لأكوف فريدروفتش بافلوف هو صاحب البيت ، ولكن كان يعرف في ذلك الوقت بين الجنود بهذا الاسم ، لقد حول إلى قلعة لكي يضحي الغزاة الألمان ببضع مئات

لاحتلاله ولكنهم لم يتمكنوا مطلقاً ، لا بالهجوم المباشر ولا بالحصار الطويل دارت المعارك من أجل هذا البيت مدة خمسين يوماً .

إلى الشرق من هذا البيت كانت هناك بناية من ثلاث طوابق مع مدخنة معمل نصف محطمة بسبب القنابل . وهذا البيت هو عبارة عن طاحونة قديمة ، كانت ضمن النظام الدفاعي العام تشكل حاجزاً قوياً ، هي وبيت بافلوف أمام تقدم الألمان نحو الفولغا . وبطلب من قدامى المحاربين في معركة ستالينغراد تركت هذه الطاحونة على حالها، كما كانت عليها خلال أيام الدفاع ، بثقوبها وثغراتها المفتوحة كالغربال بسبب القنابل والقذائف والألغام . تركت لتظل شاهداً على المعارك البطولية لعام ١٩٤٢ .

وبالقرب من هذا البيت تم بناء متحف الدفاع عن تساريستين ومعركة ستالينغراد .

نتابع القتال في قطاع المحطة بنجاح متقلب و نبادلت الأيدي المحطة والبيوت حولها من أربع إلى خمس مرات في اليوم ، وفي كل هجوم كان يقع من الطرفين عشرات ومئات الضحايا ، وفي الجهنين كانت القوى نذوب والصفوف تتشتت فالقوة بالنسبة لنا كما هي بالنسبة للعدو إدخال وحدات جديدة وزجها في المعركة، يعني ذلك زج الاحتياط .

أحببت المقاومة الصلبة لمحاربينا في مركز المدينة وبخاصة التي أظهرها جنود فرقة الحرس ١٣ ، مخططات وحسابات فون باولوس ، وفي نهاية المطاف رمى في المعركة بكل قوات مجموعة الصدمة الثانية التي كانت متمركزة في قطاع غوروبونوفو - بسنشكا - سادوفا .

زج العدو على جناحنا الأيسر فرقتين مدرعتين وفرقة آلية وفرقة مشاة بعد إعادة تجهيزها بالسلاح والعتاد والرجال . ولم يكن ذلك الهجوم مفاجئاً لنا ، ولكن لم يكن لدينا القوى الكافية للتصدي لصدمة هذه الكتلة . وكان واضحاً أن العدو أقوى منا على الأقل بعشر مرات ، ولكنه دفع ثمننا باهظاً لكل خطوة خطاها إلى الأمام. يعتبر الالتحام في أعلى درجانه في التاريخ العسكري ، عندما يتبادل فيه الطرفان الهدف - مدينة أو قرية - عدة مرات ، فعلى الحد الجنوبي للمدينة ترتفع حتى الآن البناية الضخمة لصوامع الحبوب . ومن أجلها جرت أعنف المعارك من ١٧ - ٢٠ أيلول . وليس في البناء فقط ، بل في مختلف الطوابق والمخازن الموجودة حيث نبادلنها الأيدي عدة مرات . وقد إتصل بي قائد فرقة مشاة

الحرس العقيد دوبيانسكي بالهاتف وأبلغني أن الموقف متغير . فقبلًا كنا نحتل قمة الرافعة والألمان في الأسفل . وقد أخرجناهم حالياً من الأسفل ، ولكنهم وصلوا إلى أعلى والمعركة تدور في الأقسام العلوية للصوامع .

لم يكن هذا الموقع الوحيد الذي تم الدفاع عنه بضراوة خارقة بل كان في المدينة أهداف كثيرة مثله تعد بالعشرات و المئات أيضاً . وكان الصراع يتوالى بنجاح متغير طوال الأسابيع عن كل غرفة وكل ملحق ، وكل درجة في السلالم . أخطرت المجلس العسكري للجبهة في ١٦ أيلول ، بأنه لم يعد لدينا أي احتياط ، في الوقت الذي كان فيه العدو يرمي بأفواج ووحدات جديدة وفي بضعة أيام أخرى من معارك دموية مثل التي تجري ، لن يبقى لدى الجيش أية قوة ومستنزف بماؤنا حتى الأخير ، وطالبت بإرسال فرقتين أو ثلاث فرق جديدة . كان قائد الجبهة - طبعاً - يعرف تماماً الموقف في المدينة ويقدر مدى أهمية هذه المعارك التي تدور في الشوارع والتي أثبتت منذ ١٢ - ١٦ أيلول أن القوات التي تدافع عن المدينة يمكنها أن تكبد المهاجمين خسائر فاحشة ، أكثر من الهجمات المعاكسة التي تقوم بها جيوش كاملة في أرض مفتوحة مثل السهوب ، ولم تتمكن قوات جبهة ستالينغراد وقوات جبهة الدون من اختراق جبهة العدو التي كانت بعرض ثمانية إلى عشر كيلومترات من أجل إقامة إتصال مع قوات الجيش ٦٢ . في حين أن جيش الميدان السادس فون باولوس والجيش المدرع الرابع فون هوت ، لم يتمكنوا خلال عدة شهور اجتياز خمسة إلى ستة كيلومترات وهي التي تفصلهما عن نهر الفولغا ، وبالتالي رمي قطعات الجيش ٦٢ المنهكة في النهر .

ولكن أدى هذا الدفاع البطولي في المدينة إلى إنهاك الجيش . لذلك وضعت قيادة الجبهة تحت تصرفه لواء من مشاة البحرية ، ولواء مدرع ، كان لواء مشاة البحرية ٩٢ بتعداد كاف ، كما كان بحارة أسطول البحر الأسود على مستوى عالٍ جداً من الخبرة . وقد أوكلت إليهم مهمة احتلال القطاع الدفاعي الممتد على طول الخط الحديد الذي يحده من الشمال مجرى نهر تساريستا ومن الجنوب المثلث المشكل من الخطوط الحديدية .

أما اللواء المدرع فلم يكن لديه سوى دبابات خفيفة مسلحة بمدافع عيار ٤٥ ملم ، وكان عليه احتلال خطأ دفاعياً دائرياً في قطاع عقدة السمكة الحديدية على بعد نصف كيلومتر من كورغان مامايف ، وعدم ترك العدو يصل إلى الفولغا .

تستحق المعارك التي وقعت جنوب المدينة في قطاع صوامع الحبوب انتباهاً خاصاً فيما يتعلق بصلابة محاربينا ، وأنني أورد هنا بعض السطور من رسالة أحد الأشخاص الذين اشتركوا في القتال من أجل المخازن . وهو قائد فصيلة الرشاشات التابعة للواء مشاة البحرية ٩٢ أندريه خوزيانوف، ويعيش حالياً في اورل :

إنني أنذكر أنه في مساء ١٨ أيلول ، وبعد معركة حامية استدعيت إلى مقر القيادة وأعطيت هذا الأمر : الوصول مع فصيلة الرشاشات حتى المخازن ومع العناصر المكلفة بالدفاع عن المخازن والتمسك بالبناء مهما كان الثمن . في نفس الليلة وصلنا للنقطة المحددة . وقدمت نفسي لقائد الحامية وكان المدافعون عن المخازن لا يتجاوز عددهم ٣٠ - ٣٥ شخص ، بما فيهم الجرحى الذين كانت جراحهم خطيرة . ولم تفسح الظروف لإخلائهم إلى الخلف . وكانوا من جنود فوج مشاة الحرس .

سر جنود الحرس بوصولنا ودب فيهم الفرح والحماس . إذ كان فصيلنا مؤلفاً من ١٨ شخصاً مسلحين تسليحاً جيداً ، كان لدينا رشاشات ثقيلة ورشاش خفيف ، وبندقيتان مضادتان للدبابات ، وثلاثة مسدسات رشاشة ، وجهاز راديو .

في فجر ١٨ ظهرت من الطرف الجنوبي للمخازن دبابات فاشية مع علم أبيض ، وماذا حدث ؟ خرج شخصان عسكريان من الدبابة : ضابط ألماني ومترجم ، طلب منا الضابط بواسطة المترجم الاستسلام إلى الجيش الألماني المنقذ فكل دفاع ضده لا فائدة منه ، ولا يمكننا البقاء طويلاً ، وحثنا الضابط الهناري على إخلاء الصوامع بأسرع ما يمكن ، إذ قال : « لأمان لكم في حالة الرفض فبعد ساعة سنبدأ بقصف مراكزكم ونسحقكم » . هنا قال زميلي « أنظروا إلى هذا الوسخ ما يقول » . وبعد برهة من التفكير أجبتنا الملازم هذا الجواب القصير : « أنقل بواسطة الراديو إلى كل الفاشيين للخروج من هنا بسرعة ، أما الشياطين والوسطاء مثلكم فيمكنهم العودة إلى أماكنهم ، ولكن على الأقدام فقط » .

كانت الدبابة تستعد لإطلاق النار علينا ولكننا أوقفناها حالاً بطلقتين من بنادقنا م/د .

وصلت بعد قليل من الجنوب والغرب دبابات عدوة مع مشاتها وتتفوق علينا بعشر مرات وأخذت تهاجم المخازن . استطعنا صد أول هجوم وتبعه

هجوم ثان وثالث . وكانت تحلق في الجو طائرة استطلاع *bi - poutre* وفوق رؤوسنا لإخراص رمايات المدفعية ، وتعطي المعلومات عن الموقف في قطاعنا ، ومع ذلك تمكنا من صد ما مجموعه عشر هجمات في يوم ١٨ أيلول . كنا نقتصد كثيراً بالنخيرة لعلنا بصعوبة الحصول عليها بعد قليل .

أخذت الحبوب في المخازن تحترق بفعل نيران المدفعية ، ونبخر الماء الموجود في الصوامع ، وأخذ الجرحى يطلبون الماء للشرب ولكن لا مياه لدينا أو بقربنا . وبقينا على هذه الحالة ندافع ليلاً ونهاراً طيلة ثلاثة أيام . وجعل الدخان والحرارة والعطش أسناننا تصطك لوحدها . وكان كثير منا خلال النهار يصعد إلى قمة الصوامع لإطلاق النار والعودة ، ونجتمع جميعنا ليلاً لنؤمن لأنفسنا دفاعاً دائرياً عن الصوامع . وتعطل جهاز الراديو منذ اليوم الأول ولكننا استطعنا إقامة إتصال خاص مع وحدتنا .

حل يوم العاشر من أيلول ، والوقت ظهراً . شاهدنا دبابات تقترب منا من جهتي الجنوب والغرب عددها اثنتا عشرة دبابة . ولكن البندقيتين المضانين للدبابات أصبحنا دون نخيرة . ولم يبق معنا سوى قنبلة واحدة ، والدبابات تقترب من طرفي المخازن وتطلق نيرانها من مسافة قريبة علينا، ورغم ذلك لم يصب أحد منا ، كنا نرمي على مشاة العدو برشاشاتنا ورشيشاتنا دون أن نسمح لهم بالاقتراب أو التسرب ، إلى الصوامع . إحدى قذائف العدو عطبت أحد رشاشات مكسيم وقتلت أحد السدنة ، في فصل آخر انفجرت قنبلة وعطبت غطاء النبريد لرشاش مكسيم آخر فنعطل الرشاش ونعطل المدفع أيضاً، ولم يبق معنا سوى رشاش واحد .

سببت الانفجارات تطاير الاسمنت ، وأصبح كالشطايا كما سبب احترق الحبوب إنبعاث الدخان الكثيف ، لذلك لم نعد نرى شيئاً ، ولكننا كنا نشجع بعضنا : « هورا الملجأ هناك ، إلى الأعلى » .

بعد قليل ندفق جنود العدو من وراء الدبابات بأسلحتهم الآلية وعددهم بين مائة إلى مائة وخمسين أو حوالي مائتي جندي يسبزون بحذر وهم بوضع الانقضاض ، ويرمون القنابل اليدوية أمامهم، حيث توصلنا إلى التقاط بعضها وهي طائرة وأعدناها لهم وكل اقتراب من الفاشيين ، كنا نصرخ كما اتفقنا « هورا إلى الأمام من أجل الوطن » .

نجح الفاشيون في الجهة الغربية من الصوامع، واستطاعوا التسرب إلى البناء

ولكن سرعان ما غطينا برماينا الأقسام المحتلة .

أخذت المعركة نضطرم داخل البناء ، وكنا نشعر ونسمع أقدام العدو ولهث أنفاسه ولكن دون رؤيتهم بسبب الدخان ، لذلك كنا نعتمد على الظن والسمع بالآن .

أحصينا في المساء وبعد هدوء قصير مالدينا من ذخيرة فوجدنا أنه لم يبق منها إلا القليل ، وبخاصة ذخيرة الرشيش، ولم يبق سوى مخزن ونصف لكل رشيشة ٢٥ - ٣٠ طلقة ، ولكل بندقية من ٨ - ١٠ طلقات .

كنا مطوقين ، ولكن لا يمكن الدفاع بهذا العدد القليل من الذخيرة لذلك قررنا فتح طريق لنا نحو القطاع الجنوبي من جهة بيكيتوفكا على أساس أن رمايات أسلحة العدو وببابانه تتقاطع على الواجهة الشمالية للصوامع .

وفي ليل ٢١ أيلول أخذنا طريقنا تحت حماية الرشاش الوحيد الباقي معنا . وصارت الأمور بشكل جيد في البداية باعتبار عدم وجود عدو ينتظرنا من هذه الجهة . وبعد أن عبرنا المنخفض والسكة الحديدية وقعنا على سرية من هاونات العدو، تحاول التمرکز تحت جناح الظلام .

إنني أتذكر أننا بضربة واحدة قلبنا ثلاث هاونات وعربة ملأى بالقنابل وأذهلت المفاجأة جنود العدو، فتشتتوا وتركوا سبعا منهم في الأرض، ولم يتركوا لنا أسلحتهم فقط بل تركوا لنا خبزا وماء ، كنا نموت من العطش ، « الشرب . الشرب » هو ما كنا نفكر به وأروينا عطشنا في الظلمة حتى النهاية ، وأكلنا الخبز الذي كسبناه من الألمان ، ونابعنا السير . ولكن مع الأسف لم أعد أعرف ما حل برفاقي لأنني على ما يبدو فقدت الذاكرة ولم أستعد ذاكرتي حتى ٢٥ أو ٢٦ أيلول في أحد الكهوف المظلمة الرطبة والتي يبدو أنها نظفت بالمازوت، وبدون القميص البحري ، الذي كنت أرتديه، وبدون حذاء في الرجل اليمنى ويدي ورجلاي لا تطاوعان على الحركة ، ورأسي يدور » .

علمت في السابع عشر من أيلول أن جبهة ستالينغراد قد انتقلت للهجوم على المواقع بين الدون والقوقاز في قطاع اکتوفكا - كوزميتشي باتجاه الجنوب بمهمة تدمير العدو والعمل على إقامة الاتصال مع الجيشين ٦٢ و ٦٤ ، اللذين يدافعان عن ستالينغراد . غمرنا الفرح لهذه الأخبار فالجبهة كلها ستقوم بالهجوم ، لذلك بدأ المجلس العسكري فوراً في التفتيش عن أفضل الطرق التي يمكن أن تساعد فيها القوات المهاجمة وإنهاء حصار الجيش ٦٢ بعد أن حشره العدو على

القولغا . ومن الأهمية بمكان ، إقامة إتصال بينه وبين جيرانه الممركزين على جناحيه . قررنا في النتيجة رغم الصعوبات ، متابعة الدفاع النشط في وسط الجيش ومهاجمة جناح العدو الأيمن بلواني مشاة ولواء من فرقة سارايف ، والإسراع في إقامة الإتصال مع القوات العاملة شمال المدينة .

أوضح لي الجنرال ايرمنكو في مساء اليوم نفسه ، أن الهجوم سيبدأ دون توقف ، لذلك علينا دعم قوات جيراننا الموجودة على الطرف الأيمن . ومهاجمة العدو الموجود في الجنوب الغربي اعتباراً من قطاع بلدة كراسني اوكنبار وكورغان مامايف ، وتجزئة قواته وإبانتها في القسم الغربي من المدينة . ضمت إلينا فرقة المشاة ٩٥٥ بقيادة العقيد ف . غوريشني لتعزيز الجناح الأيمن للجيش بعد تجمعها في ١٨ أيلول على معبر القولغا .

كان مركز القيادة يتعرض دون انقطاع للقصف المدفعي ، لذلك سمحت لنا القيادة بنقله ضمن قطاع ، يصل إلى كيلومتر شمال ميناء كراسني أوكنبار النهري .

امنت خطوطنا الدفاعية الأولى مساء ١٧ أيلول على الجناح الأيمن من رينوك حتى كورغان مامايف دون تغيير ، وصدت كل الهجمات الجزئية في هذا القطاع خلال الأيام الخمسة الماضية . أما في الوسط فيمتد خط الجبهة من كورغان مامايف والمحطة المركزية التي كانت بأيدينا ثم منازل الاختصاصيين التي كانت بيد العدو ومنها يرمى على المعبر الأوسط للنهر وامتدت الجبهة على الجناح الأيسر من مجرى تساريسكا على طول الخط الحديدي ، وتمتد إلى القولغا بالقرب من خزان المياه .

ضم ما تبقى من لواء المسير مع وصول الوحدات الجديدة إلى لواء المشاة بقيادة م . باتراكوف، كما وزعت كل الوحدات الأخرى في الجناح الجنوبي لفرقة مشاة الحرس دوبيانسكي ، وأرسلت هيئات الأركان إلى الضفة اليسرى لتشكيل وحدات جديدة .

بقي في الجناح الأيسر للجيش لواء المشاة ٤٢ و ٩٢ وفرقه ، وبذلك أصبحت قيادة الوحدات أكثر سهولة من قبل .

انقل في ليل ١٨ أيلول مركز قيادة الجيش إلى مكانه الجديد فمنذ هبوط الليل بدأت وسائل الإشارة إنتقالها مع وحدات الخدمة وبعض ضباط الأركان . و آخر من إنتقل كان المجلس العسكري ، ورئيس الأركان وضباط العمليات . ولكن

من الخطر إنتقالهم مع وثائقهم عبر شوارع المدينة المملأى بجنود العدو من الرماة والقناصة وحتى الدبابات ، ومن الممكن أن نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع العدو . لذلك قررنا اجتياز المجموعة الرئيسية لضباط الأركان والمجلس العسكري النهر بالمراكب إلى الضفة اليسرى ، ومنها العودة إلى الضفة اليمنى بمناورة تحرك معقدة جداً اعتباراً من مصب نهر تساريستا نحو الضفة اليسرى للفلغا في كراسنايا سلوبودا . ومن هناك بالسيارات نحو الشمال إلى المعبر ٦٢ المواجه لجزيرة زاييسيتسكي لإعادة العبور من هناك بواسطة مركب مصفح لمركز القيادة الجديد رأساً في الضفة اليمنى .

خرجت قافلتنا من المخبأ في منتصف الليل محملة بالوثائق والأوراق والأمتعة الشخصية . وأخذت تتلمس طريقها في الظلام ، وتجمعت عند نقطة الانطلاق يون ازحام ، رغم القذائف والألغام ، التي تتطاير فوق الرؤوس من وقت إلى آخر .

أضعنا عند وصولنا إلى الضفة اليسرى للفلغا حوالي ساعة في بلدة بوكالدي ، ثم في كراسنايا سلوبودا للتفتيش عن سياراتنا ، التي امتطيناها حال عثورنا عليها . وفي هذه اللحظة التقيت بكوزما اكيموفتش غوروف ، الذي كان يفنش عليّ ، واقترح أن نذهب إلى مشتل للدولة يبعد خمس كيلومترات عن كراسنايا سلوبودا ، حيث يوجد فصيل خدمة المؤخرة ، وبإمكاننا هناك تناول شيء من الطعام والاستحمام ثم العودة والذهاب مباشرة إلى مركز القيادة الجديد . نقلنا كريلوف وقيادة رتل الأركان إلى المقر الجديد ، ووعدناه بأن نحمل له معنا شيئاً ما ليأكله .

ذهبت بصحبة غوروف والمرافقين إلى المشتل ، واستقبلنا هناك كالهارب من العالم الآخر ، وبعد حمام البخار قدموا لنا ثياباً نظيفة وغذاءً شهياً ، ولبسنا سراويل الجنود الصوفية الدافئة . مر الوقت سريعاً ونحن نشرب الشاي حول الطاولة كانت النوافذ ممهمة ، لذلك لم نر حلول الفجر . فصعقنا بظهوره لأن معبر النهر لا يعمل إلا ليلاً وخفنا أن نصل متأخرين ، وماذا سيكون تفكير كريلوف وباقي الأركان نحونا ، فيما إذا لم نتمكن من الحضور في ذلك اليوم إلى مركز القيادة الجديد .

قفزنا بسرعة إلى السيارات واتجهنا نحو المعبر ٦٢ ، ولم أكن أعرف الطريق إليه ، وكان دليلنا غوروف في سيارته أمامنا ولكنه أخطأ الطريق فبعد

فئة من الزمن وجدنا أنفسنا في كراسنايا سلوبودا ، أي عكس الاتجاه، وبعد أن أدركنا خطأنا عكسنا طريقنا .

وجدت عند وصولنا للمعبر مركباً مصفحاً واحداً راسياً هناك وكان يبدو أنه يسند للمسير . ولم ندر إلا وسيارتنا منغرزة في الرمل وكأنه عمل مقصود منعقد . فكرت بسرعة ، إنه إذا كان آخر قارب قد غادر فسنبقى على الضفة اليسرى طوال النهار وفكرت بما سيجري للجيش والمدينة خلال ذلك النهار . أسرعت نحو الرصيف ، في الوقت الذي أخذ فيه المركب يبتعد عن الرصيف . استجمعت كل قواي وقفزت إلى ظهره ونجحت القفزة ، وأصبحت فيه . كما ركض غوروف نحو الرصيف ، وصرخت في الرجل الذي يقف على الدفة :
- عد إلى الوراء !

ولكن الرجل أدار رأسه فقط ببطء وسأل :

- من تكون أنت ؟

- قائد الجيش ٦٢

أعاد المركب إلى الرصيف ، وصعد غوروف مع بقية المرافقين . وعندما أصبحوا على متن المركب بدأ سيره بأقصى سرعته نحو الضفة اليمنى .
اعتذر لي قائد المركب المصفح على أساس أنه لم يعرفني ، وخلال عشر دقائق عدنا مرة ثانية إلى الضفة اليسرى . صافحت الرجل بحرارة وشكرته من كل قلبي .



لم يكن في مركز القيادة الجديد أي مخبأ أو مكان مغطى لنتقي به على الأقل من الشظايا والطلقات والقنابل الصغيرة ، وفوقنا في أعلى المنحدر توجد مستودعات للبتروول ، وحوض للمازوت من الاسمنت المسلح ، وعلى الشريط الساحلي الرملي تكسست الآلات والأدوات ومحركات ونهيزات مصانع محضرة لنقلها إلى الضفة اليسرى ، ولكنها ظلت في مكانها لعدم إمكانية نقلها ، وعلى طول حافة النهر تناثرت القوارب المدمرة والمعطوبة ، وكميات من الخشب العائم .

استقرت قيادة الأركان في إحدى القوارب دون نغطية وفي الهواء الطلق، كما

استمر المجلس العسكري ورئيس الأركان بالقرب من الفارب في خنادق حفرت على جناح السرعة دون بغطية .

خرج رجال الهندسة فوراً ببناء المخابىء المغطاة ، وقيل لنا إن مستودعات البرول الموحودة فوقنا فارغة، ولكننا دفعنا فيما بعد ثمننا غالياً لهذه الثقة . كما سمر معنا .

كانت قوات الجناح الأيمن للجيش نعد نفسها للقيام بالهجوم المعاكس إلى جنوب . غرب كورغان ماماييف بالتعاون مع الجيوش الثلاثة التي سهاجم من الشمال ليجزته وإيادته القوات العدو المجهة نحو ساليغراد .

ابتدأ يوم ١٨ أيلول كالمعاد ، فمنذ ارتفاع الشمس طهر طيران العدو وأخذ يقصف وينقص على مواقعنا موجهها جهده الرئيسي إلى المحطة وكورغان ماماييف . بعد الطيران ، فتحت المدفعية وهاونات العدو نيرانها ، فرددت عليها مدفعينا ، وأخذت المعركة بضطرم بعنف متزايد . وفجأة فرغت السماء في الساعة الثامنة مساءً فوق المدينة من قاذفات العدو ، فأدركنا أن قوات جبهة ساليغراد التي نعمل في شمال المدينة نشتبك مع العدو بقوة ، وكانت هناك بداية لمعركة اسنطلاعية . وفي الساعة الرابعة عشرة أصبح واضحاً أن المعركة انتهت ، لأن مائتي طائرة جونكرز قاذفة ظهرت مجدداً فوق رؤوسنا وتابعت غاراتها العنيفة على مواقع الجيش ٦٢ والتي بدأتها في الصباح ، وهذا يعني أن القتال في الشمال على ما يبدو توقف ، أو على الأقل توقف مؤقتاً .

كانت طائرات العدو تعاود غاراتها عند ظهور أية ظاهرة نشطة لقواتنا وبخاصة من الجهة الشمالية ، وكنا نقدر حسب نشاطها ، الموقف على بقية القطاعات لجبهتنا ، ونحن نشكر جيراننا ، لأن ست ساعات من الهدوء قد أتاحت لنا تحسين مواقعنا .

أحرزت قواتنا التي قامت على الجناح الأيمن بهجومها المعاكس مع طلوع الفجر بعض النجاح ، واحتل لواء المشاة بقيادة العقيد غوروف المرتفع رقم ٣٠،٥ ، وكذلك احتل لواء من فرقة سارايف المرتفع ١٣٥،٤ ، وفي قطاع الفيلق المدرع ، احتل اللواء الآلي كل البستان الواقع في الجنوب الغربي من بلدة كراسني أوكتيابر .

صمدت عناصر من فرقة ١ . أيرمولكين ، ولواء الحرس إيلين في المعارك الضارية ، التي دارت على مرتفع كورغان ماماييف ، وفي يوم واحد تقممت

١٠٠ - ١٥٠ م وتحصنت بقوة على القمة . كما نتابعت المعارك في وسط المدينة وعلى الجناح الأيسر للجيش بنفس الضراوة . وبالرغم من التفوق العددي للعدو لم يتمكن من إحراز أي نجاح ، وتمسكت قواتنا بمواقفها بشدة ، عدا المحطة ، فبعد أن نداولنها الأيدي خمس عشرة مرة خلال خمسة أيام من القتال الدموي إحتلها العدو في نهاية يوم ١٨ أيلول .

لم نكن لدينا الامكانيات للقيام بهجوم معاكس لاستعادة المحطة : ففرقة الجنرال روديمتسيف استهلكت بعد أن دخلت المعركة حال اجتيازها الفولغا . وصمدت أمام محور الجهد الرئيسي للقوات الألمانية ، التي كانت تحاول احتلال المدينة بضربة واحدة ، كما تكبد جنود الحرس الآخرين خسائر فادحة ، من المؤكد أن العدو احتل حقيقة بعض أحياء ستالينغراد ، ولكن هذا لم يكن نراجعا أو انسحابا ، فلا أحد يفكر بهذه الأمور ، وصمد جنود الحرس حتى الموت . والذي انسحب منهم، إما كان معزولا عن رفاقه أو أصيب بجروح خطيرة . ومن أقوال الجرحى ، والنتائج التي ظهرت فيما بعد تبين أن الألمان تكبدوا خسائر فادحة ، فجنود الحرس الذين تم إتصالهم بالقوة الرئيسية حفروا الخنادق وتمركزوا فرادى أو بمجموعات من اثنين إلى ثلاثة أشخاص في أرض المحطة وفي مركز التبديل والطوابق السفلية للأبنية المجاورة للمحطة أو وراء الممرات التي كانت تعود لخط السكة الحديدية وعربات القطارات ، حيث واصلوا قتالهم رغم إنعزالهم عن بعضهم ، وكانوا يطلقون على الفاشيين من الخلف والجوانب ، ويقضون عليهم ليلاً ونهاراً . وفرضوا على العدو تكتيك حرب الشوارع ، والذي أجبر الضباط الألمان على إبقاء أفواج وسرايا في حالة استعداد طيلة اليوم كله ، وزج قوات جديدة في كل الاتجاهات ضد المقاتلين السوفييت ، الذين كانوا يقاتلون حتى آخر رمق . وهكذا بدأت تتشكل في ذهني الفكرة التي غنبتها منذ أول يوم وصلت فيه إلى الجبهة ، وهي كيف أواجه تكتيك العدو التقليدي والمطبق حالياً في الجبهة بشكل جيد .

● كان في المقام الأول من تفكيري هو الجندي باعتباره العامل الرئيسي في المعركة ، وعليه يقع عبء الصراع مع العدو ، وجهاً لوجه ، ويعرف أحيانا نفسية الجندي المعادي أكثر من القادة الذين كانت تشغلهم مراقبة تشكيلات العدو القتالية فقط ، وكانوا يدرسون صفات العدو وأشير هنا إلى (كانوا يدرسون) فالطبيعة أعطتهم الفكر والقلب ، وأهلية التفكير دون أن تعطيه إرادة الرئيس

فهم إرادة رتبهم . ومعرفتهم عن تقدير الموقف وغايات الخصم . دون شك . أقل مما يعرفه ضباط الأركان بخصوص القوات العدو ، فهم ينظرون لساحة المعركة بمنظار عريض مثلنا ، ولكن في حدود جنود العدو الذين يصطدمون بهم في القتال ، كانوا يشعرون بعمق وبحيوية أكثر ، بالقوة المعنوية للعدو . ولا يعرفون تلك كعموميات ، بل كانوا بشعرون بها في ساحة المعركة ، وهي في النهاية العامل الحاسم لكل معركة .

إن الجندي المدرب جيداً ، ولديه التفوق المعنوي على خصمه لا يخاف من نفوق العدو العددي حتى في أعنف المعارك ، ولهذا فالمحارب السوفيتي رغم جراحه ، كان لا يترك ساحة المعركة ، ويسعى لتسديد ضربة قاتلة للعدو . بث الحزب الشيوعي في المحاربين السوفييت الحب الجارف للوطن والاخلاص للشعب . وأجادت المنظمات الحزبية للجيش ، ومنظمات الحزب والكومسومول بتنفيذها تعليمات اللجنة المركزية للحزب . ورسخ في ذهن كل جندي الإيمان بعدالة قضيتنا ، ومن خلال الأمثلة الحسية التي تواترت في حياة الجبهة ، ومآثر الأبطال ، ينضح أن هذه المنظمات ، قد نمت فيهم الشعور بعمق المسؤولية نحو الوطن ، وحصنت معنوياتهم . كل ذلك في مجموعه العام يجعلني أفكر بصلابة محاربينا ، وعلى هذه القاعدة من الضروري إجراء تغيير جذري في نكيتك وحداننا الصغرى في ظروف قتال الشوارع : يجب العمل بشكل يصبح فيه في كل بيت ، على الأقل محارب واحد ، كحاجز منيع في طريق العدو . ولا يوجد هناك ما نخشاه ، فيما إذا تركز الجندي في قبو أو على سطح أو درج وهو مدرك لمهمة الجيش العامة ، أن يبقى وحيداً ينفذ مهمته مستقلاً ، فالجندي في حرب الشوارع هو أحياناً قائد نفسه .

قررنا منذ الأيام الأولى للمعارك حول المحطة ، أنا وعضو المجلس العسكري غوروف ورئيس الأركان كريلوف ، أن نجري تغييراً جذرياً تكتيكياً : تشكيل وحدات تكتيكية جديدة بجانب الفئات والفصائل وفصائل الانقضاخ الصغيرة في السرايا والأفواج .



تلقينا في ١٨ أيلول الأمر اليومي الذي أصدرته جبهة (جنوب - شرق)

~~~~~

التي كان الجيش ٦٢ ضمن وحداتها في ذلك الوقت وحاء فيه: « تكبد العدو خسائر فاحشة على خط كوزمينشي - سوخايا - ميسشينكا اكانوفكا من جراء الضربات التي وجهتها إليه جبهة سنالينغراد ، التي قامت بهجومها باتجاه الجنوب، واضطر العدو للتصدي لهجوم المجموعة الشمالية من قواتنا ، وأن يسحب بعضاً من الأقسام والوحدات الموجودة في قطاع سنالينغراد - فوروبونوف ، ونقلها إلى الشمال نحو غومارك » .

« ولتدمير مجموعة العدو في سنالينغراد والتنسيق مع جبهة سنالينغراد أمر ما يلي :

- بشكل قائد الجيش ٦٢ مجموعة صدام في قطاع كورغان مامايف ننألف مما لا يقل عن ثلاث فرق مشاة ولواء مدرع للقيام بهجوم باتجاه العدو المنمرکز على الحدود الشمالية الغربية لسنالينغراد ، والهدف من ذلك هو تدمير وإبادة العدو الموجود في تلك المنطقة ، وكمهمة يومية إبادة العدو في المدينة، وبأمين خط ربنوك - اورلوفكا ، المرفعات ( ١٨٢.٠ - ٩٨.٩ ) الحدود الشمالية الغربية والحدود الغربية لسنالينغراد .

- يقوم قائد مدفعية الجبهة بإسناد قوة الجيش ٦٢ بهجوم مدفعي قوي في المنطقة الممتدة إلى اليمين حتى حدود غورويشنشة - غومارك ، وإلى اليسار حتى مجرى نهر نسايسنا .

- تنضم فرقة غوريشني اعتباراً من الساعة ١٩.٠٠ يوم ١٨/٩/١٩٤٢ ، إلى وحدات الجيش ٦٢ وعلى قائد الجيش ٦٢ نقل القوة الرئيسية لهذه الفرقة إلى سنالينغراد عن طريق المعابر الواقعة في الشمال من قطاع كراسني أوكنيابر قبل الساعة ٥.٠٠ من يوم ١٩/٩/٤٢ واستخدامها بالهجوم اعتباراً من قطاع المرفع ١٠٢.٠ في المحيط الشمالي الغربي للمدينة» .

نبدأ المشاة هجومها في الساعة ١٢ من يوم ١٩/٩/١٩٤٢

كانت الأهداف التي كلف الجيش ٦٢ بتنفيذها معقدة للغاية ، كما سنرى ، لأن ما جاء في الأمر اليومي حول العدو لم يكن صحيحاً ، فالعدو لم يسحب ( عدا الطيران ) من المدينة وضواحيها أية وحدة من وحداته ليستخدمها ضد جبهة سنالينغراد المهاجمة .

لقد وجهت مصلحة مخابرات الجيش انبهاً خاصاً في تلك الأيام لاسنطاق الأسرى ، ودراسة وثائق أركان الحرب المعادية ، التي وقعت في أيدينا خلال



المعارك . وخلال ذلك لم نستطع أن نجد دليلاً واحداً من أي أسير يؤكد طبيعة المعلومات التي أعلنت عنها أركان الجبهة بخصوص نقل القوات من ستالينغراد إلى الشمال .

وحاء في الأمر أيضاً ما يشير إلى عبور قوات غوريشني للفولغا واحتلالها لمواقع انطلاقها بين الساعة ١٢,٠٠ إلى ١٨,٠٠ .

كانت معابر الفولغا في ذلك الوقت تعمل في ظروف صعبة جداً والمهمة التي حددت لنا للهجوم لم تكن كافية مطلقاً لعبور القوات المشتركة .

لم يكن عبور فرقة غوريشني سوى مظهر واحد للمشاكل التي تعترضنا لتنفيذ الهجوم . وقد أشير في الأمر اليومي للجبهة إلى وجود ثلاث فرق على الأقل لدى الجيش ٦٢ للقيام بالهجوم المعاكس . ولكن من أين ستأتي هذه الفرق إذا كنا لا نحفظ بأية فرقة كنسق ثان أو احتياط للجيش ، وجميع القادرين على حمل السلاح يقاتلون في الخطوط الأمامية وهم مشتبكون مع العدو في قتال الشوارع . ولكن أمر الجبهة يجب أن ينفذ مهما كان الثمن .

برهنت كل المسنويات القيادية في أركان الجيش وأركانات مختلف الفرق والأقسام والوحدات على نفسية عالية في التنظيم ، وفعالية وحماس في التحضير لهذا الهجوم المعاكس .

وقعت في ١٨ أيلول لانعام أمر الجبهة أمراً للجيش ٦٢ في الساعة ٢٣.٥ ، ذكرت فيه ، « بأنه بعد المعركة الدفاعية الضارية وبعد تراجعنا البطيء ( ومهما كان نوعه ، كان تراجعاً ) نظهر من جديد كلمة هجوم . ويجب على قواتنا ، ولو كانت منهكة ومعبدة أن نقبل ذلك بترحاب وحماس شديدين فقد بدأت تظهر ثانية الثقة بقواتنا . وإذا كان هناك هجوم معاكس فهذا يعني أن لدينا القوة وسيكون ذلك نهاية الدفاع ، وسبحد البدء بالهجوم المعاكس في ١٩ أيلول الساعة ١٢ .

كنا نراقب منذ الصباح الباكر بيقظة وانتباه تصرف العدو بغية التقاط أية إشارة ندل على بليلة ما في معسكره ، ونرصد أية حركة ندل على انسحاب بعض قطعاته أمام قطاعنا في الجبهة . لاحظنا من جديد انخفاض نشاط طيرانه ، ولم بعد تظهر قاذفاته فوق سماء ستالينغراد . وهذا يعني أن قواتنا في الشمال تنابع عملياتها الهجومية .

انطلقت قواتنا بهجومها في الساعة ١٢ تدعمها مجموعة مدفعية الجبهة

وطيراننا . وقد سهل مهمنا غياب طيران العدو ، رغم أن الطيران في الواقع لا يلعب دوراً حاسماً في معارك الشوارع .

ولكن في الساعة ١٧ عادت الطائرات الألمانية إلى سماء منالينغراد ، فأدركنا فوراً أن هجومنا على الجناح الشمالي للعدو قد توقف من جديد . بحلول هجوم مجموعة الصدمة التابعة للجيش ٦٢ كما هو الحال على الجناح الأيسر إلى معركة جبهية في الوسط من جبهة قتال الجيش، أما على الجناح الأيسر ظل العدو سلباً نسبياً .

دارت طيلة نهار ١٩ أيلول معارك طاحنة في قطاع مرتفع مامايف ، تبادل الطرفان فيها النجاح . واحتل لواء المشاة الآلى المرتفع ١٢٦.٢ ، ونفذ لواء من الفرقة ١١٢ أيرمولكين على منخفض دولفي ، وحقق إنصلاً مباشراً مع اللواء الآلى كما دخلت المعركة فوراً قوات لوانين من فرقة غوريشيني بعد عبورهما النهر في ليل ١٩ أيلول بدون أن يكون لديهما الوقت الكافي للتحضير، وبعد اجتيازهما لهضبة كورغان مامايف ، وجد اللواءان أنفسهما مشتبكين بمعركة جبهية مع مشاة وبنابات العدو ، التي كانت مندفعة للهجوم . وصلت منذ الصباح الباكر أقسام من فرقة المشاة ١١٢ أيرمولكين هجمات العدو العنيفة ، ونمست حتى نهاية النهار بالخط على طول سكة الحديد ، اعتباراً من كورغان مامايف حتى شوارع بولوتنانيه في إحدى فروع منخفض دولفي ، وجسر سكة الحديد فوق منخفض كروتوي، حتى شارع أرينوفومسكايا .

أمامي رسالة من المقدم الاحنياط ف غوسييف ، عضو الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٣٩ ، والذي فأنل اعتباراً من ١٤ أيلول ١٩٤٢ ، في صفوف فرقة المشاة ١١٢ وألحق في تلك الفرقة من قبل الإدارة السياسية للجبهة حسب طلبه « بأية وحدة من الوحدات التي كانت تقاتل في قطاع مصنع كراسني أوكتيابر . ففي هذا المصنع عمل والدي لمدة ٣٥ عاماً حداداً. ولدت بقرب كورغان مامايف ، حيث أمضيت طفولتي وشبابي . حارب والدي من أجل الدفاع عن تساريستين، وأنا لا أستطيع بعد حرق منقط رأسي أن أكون خلاف ذلك » .

وصلت إلى الضفة اليمنى عن طريق المعبر ٦٢ والقصف المدفعي كان يزمجر . وقد خيل لي أن حافة النهر العالية ، كانت درجة مدرعة ضخمة . وفي قطاع مصنع ( كراسني أوكتيابر ) وجدت مقر قيادة الفرقة ١١٢ وتقدمت إلى

قائد الفرقة أبرمولكين وإلى القوميسار ليبكين ، فسألني الرفيق أبرمولكين ، أين كانت خدمتي قبل ذلك ، فأخبرته بأن أول معركة لي كانت في بيريميشي في ٢٢ حزيران ١٩٤١ ، في صفوف فرقة المشاة الآلية السابعة ، وعندما نطقت بهذه الكلمات نظر إلى أبرمولكين قائلاً : « ألا نعرفني يا غوسيف » ؟ عندها فقط تذكرت أن أبرمولكين كان قائداً للواء ١١٥ الآلي من تلك الفرقة ، ووجدنا سوية في الحصار أمام كسف ، وبعد تنظيمنا للمفارز فتحنا طريقنا بالقوة والنحننا بقواتنا بالقرب من خاركوف .

كان قائد الفرقة أبرمولكين ذا اخلاص لا حد له لمهنته ، ورغم أنه كان في عصر الاحسان عصي المزاج ، كان بكرس كل جهده لتنفيذ المهام التي يكلف بها ، ويسمى النقاد السبيرة ونفاليدي قائد الفرقة المرحوم سولوغوب .

كانت الفرقة بعد في ذلك الوقت ٨٠٠ حربة ( مقاتل ) وتتسم باسعداد جيد . وبحل قطاعا دفاعيا على جبهة واقعة إلى الشرق من غوريشنشنة - كورغان ماماييف ، وألحقت مباشرة بلواء المشاة ٤١٦ وهذا الأخير مع المجموعة المسنقلة ١٥٦ المضادة للدبابات التابعة للفرقة ١١٢ ، كان يحضر للهجوم على كورغان ماماييف ، الذي احتله العدو . كان قائد اللواء ٤٦ النقيب آسييف اجتماعيا جدا ووصل برفاقه إلى الحد الذي جعلهم لا يخافون الموت . وكان يعد اللواء لهجوم آخر على كورغان ماماييف ، وقادني إلى مجموعته المدفعية المضادة ١٤٦ حيث استقبلت من قبل قوميسار المجموعة ، الموجه السياسي بوريس فيليمينوف . أرسل فيلينيخوف حالاً عامل إتصال للتفتيش عن القائد ، وهو أمر سرية مدافع ٤٥ الكمي اوتشكين .

كان الأربعة بقيادة النقيب آسييف يدرسون كيفية احتلال كورغان ماماييف بأقل ما يمكن من الخسائر .

ابتدأ الهجوم على كورغان ماماييف في الصباح الباكر ليوم ١٩ وفي نفس الوقت قامت جبهة ستالينغراد بهجومها المعاكس اعتباراً من الشمال ودام الهجوم يومين ، وصمد مقاتلونا للنار الغزيرة التي أمطروهم بها الفاشيون ، وبالرغم من غارات الطيران الكثيفة ، كان المقاتلون يتقدمون بين أشلاء الجثث ، وكان النقيب آسييف يسير في المقدمة . ثم جرح الملازم اوتشكين في رأسه ووجهه وغرقت وجنتاه بالدم . ولم يكن لدينا الوقت لتضميد جراحه ، وكان هو وجنوده يجرون مدافعهم إلى الأمام ، ويغرقون الفاشيست بنيران رشيشاتهم ، ويرمون

القنابل اليدوية على مرابض رمي العدو . وهكذا كان جنود اللواء ٤١٦ والمجموعة ١٦ من قانصات الدبابات يصعدون المنحدر ، الذي أصبح زلقاً من كثرة الدماء ويسيرون بين الجثث . وبعد ذلك تمكنوا من احتلال قمة كورغان مامايف ، وبالتعاون مع وحدات فرقة المشاة ٩٥ ، تم قذف العدو إلى الجهة الأخرى من منخفض دولفوي .

صمدت فرقة الحرس ١٣ روديمستيف لقتال شديد بصفوفها المبعثرة من المعارك السابقة التي دارت في الشوارع الواقعة في وسط البلدة ، وكنا نشعر أن العدو يريد بكل ثمن أن يسحق هذه الفرقة ، لينفذ إلى نهر الفولغا والميناء المركزي ، وليقطع الجيش إلى قسمين .

اشتبك لواءان من المشاة مع بقايا فرقة الحرس ٣٥ واللواء المدرع بقيادة بوبنوف بمعارك الشوارع اعتباراً من مجرى تساريسكا حتى شارع فالديسكايا وإلى الأبعد في الجنوب الشرقي حتى ضفة الفولغا .

كانت قواتنا في قطاع كورغان متعائلة مع قوات العدو ، أما في القطاع الذي كانت تحتله فرقة مشاة الحرس ١٣ وإلى الجنوب كان العدو أكثر منا عدداً بخمس مرات .

أظهرت معارك ١٩ أيلول أن الغزاة لم يسحبوا قواتهم لتوجيهها إلى الشمال ، بل إنهم على العكس ازدادوا نصميماً وضراوة لتدمير الجيش ٦٢ .

تراجعنا في كل الاتجاهات نحو الفولغا في الوقت الذي أصبحت معابر الفولغا، ليس فقط تحت رحمة نيران المدفعية، بل أصبحت أيضاً هدفاً لرميات الهاون . وبعد دراسة المجلس العسكري لهذا الموقف اتخذ سلسلة من القرارات الهامة وبخاصة لتنظيم معابر الفولغا بشكل رئيسي لئلا يقطع إتصالنا وتمويننا القادم من الضفة اليسرى .

كانت المهمة صعبة جداً في هذا المجال بعد أن أصبح الفولغا تحت نظر ورمي العدو ، لهذا قررنا تنظيم معابر لكل فرقة حتى ولو كان بمردود ضعيف إضافة للمعبرين الرئيسيين المخصصين مع أرصفتها للجيش ، فبإمكان هذه المعابر مساعدة الفرق وبخاصة لإخلاء جرحاها وإيصال الامدادات ، بعد ذلك مسحت كافة وسائل العبور، ونظمت ووضعت تحت مراقبة دقيقة .

كما وضع نظام خاص لتطبيق الإتصال الهاتفي والتلغرافي مع الوحدات وتحت اشراف قائد إشارة الجيش العقيد ( جنرال فيما بعد ) لورين . وكان لدينا

احتياط دائم من الأتقية والخطوط الهاتفية الغارقة في قاع الفولغا . وعندما كان يتعطل نظام منها كنا نلجأ للنظام الآخر ، وبالإضافة إلى ذلك أقيم مركز هاتفي وسيط على الضفة اليسرى ، بطريقة نستطيع معها الإتصال بالفرق الموجودة على الضفة اليمنى ، فالإتصال غالباً ما يقطع بين القوات الموجودة على ضفتنا بعد غارات الطيران الكثيفة وقصف المدفعية .



بذل القادة الألمان خلال تلك الأيام كل ما يستطيعون واتخذوا مختلف التدابير لمنع عبور قوات جديدة للمدينة . فمذ الصباح حتى سواد الليل والطائرات الألمانية لا تنقطع عن التحليق والدوران فوق الفولغا ، وتنقض على كل هدف يظهر أمامها . ونفتح المدفعية خلال الليل نيرانها على الأرصفة والمعابر التي تبقى خلال أربع وعشرين ساعة من أربع وعشرين ساعة معرضة لرميات المدفعية والهاون ذي الفوهات الست ، وبهذه الصورة أصبح عبور القوات والعتاد الموجه للجيش ٦٢ صعباً للغاية .

كان على الوحدات التي تنجح في العبور ليلاً إلى الضفة اليمنى الانتشار والتمركز في مواضعها الدفاعية وتوزيع حمولاتها بين القوات فوراً ، وخلال انتيلة نفسها ، وإلا سندمر في اليوم الثاني بغارات العدو . وعلى الضفة اليمنى لم يكن لدينا سيارات ولا خيول ، لذلك كان من الضروري القيام بأعمال التعمية في كل مكان لحماية القطعات والعتاد من الطلقات والقنابل والقذائف والألغام ، وعلينا حمل كل ما برزنا عن طريق الفولغا إلى موقع الرمي على ظهور المحاربين أنفسهم ، وعليهم في الوقت ذاته صد هجمات العدو العنيفة نهاراً ونقل ذخيرتهم ليلاً دون نوم أو راحة بسواعدهم ، بالإضافة إلى نقل غذائهم وعتاد الهندسة المخصص لهم، وهذا يجهد وينهك المدافعين عن المدينة ، ومع ذلك لم يفت بعزيمة الوحدات القتالية ، ولم يدم هذا يوماً أو أسبوعاً ، بل دام كل الوقت الذي طالت فيه المعارك .

كان المقدم سولوكوف يدير في المدينة ،-منذ بداية المعارك حتى نهايتها- مركز توزيع العتاد المخصص للمدفعية في ميناء الشحن ، أما المقدم سباسوف والرائد زينوفيف فكانا مسؤولين عن توزيع الغذاء ، وطيلة هذه الفترة ظل هؤلاء الضباط يعيشون ويعملون بالقرب من صنابير الألغام والقذائف ، التي يمكن أن

ننفجر عليهم في كل لحظة .

وصلت في ١٩ أيلول إلى الضفة الشرقية للفلوفا فرقة المشاة ٢٨٤ (ن . باتيوك) ملحقة بالجيش ٦٢ ، وكنا ننتظرها بفارغ الصبر ، وفي ذلك اليوم ظهر امامنا وضع دقيق جداً في مركز المدينة ، حيث يقاتل أحد ألوية فرقة روبيمستيف ، وعلى كورغان مامايف حيث تصمد عناصر من فرقتي المشاة ٩٥ ، ١١٢ . وتحطم المقر المركزي للفلوفا ، ولا يمكن لأية قوة من استخدامه .

علمنا في مساء اليوم نفسه أن جبهة ستالينغراد ستقوم من جديد في ٢٠ أيلول بمهاجمة العدو من الشمال ، لهذا قررت متابعة هجومنا المعاكس اعتباراً من قطاع كورغان مامايف باتجاه الجنوب الغربي ، وظننا أنه بعد الهجوم الفاشل الذي قامت به قوات جبهة ستالينغراد ، سوف تكال هجمات أخرى بالنجاح . أعطى الأمر لقوات الجيش ٦٢ بمتابعة الهجوم ليلاً في ٢٠ أيلول بكل الوسائل المتوفرة لدى الجيش ، وطلب المجلس العسكري في هذا الأمر من القطعات أن تنفذ المهمات التي لم تستطع القيام بها حتى الآن .

كما طرأ على قطاع فرقة روبيمستيف موقف خطير جداً ، ولم نكن بحالة نستطيع فيها مساعدته حتى ولو بفوج واحد ، والشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو إعادة اللواء ٣٩ الذي أخذ من فرقته في ١٩ أيلول ، وأخذ يقاتل في كورغان مامايف ، تحت قيادة ايلين . أما ما تبقى من فرقة الحرس ٣٥ بقيادة المقدم دوبيانسكي ، فبعد أسبوع من القتال المرير ، ودون انقطاع ضد عدو متفوق عدة مرات ، دب الضعف في هذه القوات ، ونزفت حتى النهاية ، لذلك قررنا توزيع رجالها وعتادها بين ألوية المشاة ٤٢ ، ٩٢ ونقل أركانها وأركان أخرى إلى الضفة الأخرى من الفلوفا ليعاد تشكيلها بعناصر جديدة .

دخلنا في تلك الأيام بنقاش حاد مع قائد مدفعية الجبهة ميچور جنرال ف . مانفيف حول وضع مدفعية الفرق والألوية . وكان مانفيف يريد من وحدات المدفعية التابعة للفرق والألوية القائمة لتعزيز الجيش ٦٢ عبور الفلوفا مع تشكيلاتها والتمركز في المدينة . ولكننا اعترضنا منذ البداية لدى المجلس العسكري على وصول المدفعية للضفة اليمنى ، فنحن عادة نترك مجموعات المدفعية التابعة لفرق المشاة على الضفة اليسرى ، وتسمح بدورها بعبور النهر للضفة اليمنى إلى مراكز المراقبة وقيادة الرمي . فمن الطرف الأيمن يمكنها قيادة رمي وحداتها على جبهة عريضة ، ولكننا طلبنا نقل الهاونات والمدفعية

## المضادة .

لم يكن لدينا في المدينة إمكانية جر المدفعية بالوسائل الآلية والحيوانية ولا يمكن أي شيء أن يخفي الجرار والسيارة أو الخيل عن نيران العدو ، وكل مناورة بالآليات أو نحرك ممنوع . ومن غير الممكن جر المدافع أو القاذفات بالسواعد عبر خرائب ، تبنية السكنية أو الشوارع المغمومة بالقنابل والقذائف . وفي النصف الثاني من شهر أيلول أصبح تحميل القذائف ومعدات المدفعية عبر الفولغا حتى المدينة مهمة صعبة ومتعبة جداً ، وتصبح في بعض الأحيان مستحيلة كلياً ، حيث أصبح العدو منذ ذلك التاريخ يراقب كل أماكن تقربنا من الفولغا في الضفة الشرقية . وعندما وصل العدو اعتباراً من ٢٢ أيلول إلى مشارف الميناء النهري المركزي أخذ يوجه إلى كل زورق رمية دقيقة . كما أن الاعتماد على نقل النخيرة ليلاً خطراً جداً ، لأن العدو يعرف قطاعات عبورنا ، ويضيء الفولغا طوال الليل بالقنابل والصواريخ المضئية ، لذلك فمن الأسهل علينا نقل النخيرة إلى الفولغا بطريق طوله مائة كيلومتر من اجتياز ممر مائي بعرض كيلومتر ، وعلى أساس ما نقدم إنضم المجلس العسكري للجبهة إلى وجهة نظرنا، وبقيت المدفعية على الضفة الأخرى الشرقية .

لعب قرار إبقاء المدفعية الفرعية على الطرف الأيسر للفولغا دوراً إيجابياً خلال المعارك الدفاعية والهجومية داخل المدينة ، فببقاء ألوية المدفعية الطويلة والقصيرة في الجهة المقابلة من الفولغا ، أصبح بمقدور كل قائد فرقة أو لواء أن يطلب توجيه نيران مدفعيته نحو أي قطاع من قطاعات الجبهة ، وبإمكان قائد مدفعية الجيش الجنرال بوجارسكي أن يركز في الأوقات الضرورية على قطاع واحد كل مدفعية الألوية والفرق بان واحد .

واعتباراً من ٢٠ أيلول كان يجتمع عندي ، في الساعة الخامسة من كل يوم القادة كريلوف ، بوجارسكي ، غوروف والعقيد غيرمن رئيس مصلحة المخابرات ، وحسب المعلومات التي كانت تردنا من مختلف المصادر كنا نستطيع تحديد المربعات التي يجمع فيها الهتلريون قواتهم استعداداً للهجوم . وفي الليل وقبل ظهور الفجر كنا نفتح على هذه المربعات نيراناً مفاجئة من مدفعيتنا ، ونقصفهم بصليات من الكاتيوشا . ونوجه غارات طيراننا القائف بعيد المدى ، وفي مثل هذه الحالة فكل قنبلة ، وكل لغم يرمى في مركز تجميع العدو ، كان يسبب من الخسائر والتدمير أكثر من نيران سد ثابت ، أو الرمي

على منطقة وبذلك نحطم ونستنزف موارد العدو من الرجال ونضرب الهتلريين بنيراننا المدفعية . وبعد مثل هذه الغارات الليلية كان الفاشيون يسرون للهجوم بمعنويات منخفضة أكثر فأكثر .

ابتدأت المعركة في ٢٠ أيلول عند ارتفاع النهار ، وفيما كانت تتوالى على جناحنا الأيمن معارك التثبيت ، كانت تصمد في قطاع كورغان مامايف فرق المشاة ٩٥ و ١١٢ أمام هجمات قوى عدوة زجت حديثاً في المعركة .

أبلغني في الظهر قائد الفرقة ٩٥ العقيد غوريشني عن الموقف :  
- عدا بعض التغيرات غير المهمة التي حدثت في الجبهة - حوالي مائة متر تقريباً لكل طرف - فالموقف في كورغان مامايف بقي دون تغيير .

أجبتة محذراً ومنكراً بأن أي تغيير ، ولو كان مئة متر يمكن أن يؤدي إلى خسارة الكورغان .

- سأفنى ، ولن أترك الكورغان يسقط - أجاب غوريشني بعد صمت قصير .  
كان العقيد فاسيلي أليموفتش غوريشني قائد الفرقة ومعاونه للعمل السياسي إاليا أرخيوفتش فلاسنكو يديرون سير المعركة بدقة وإحكام عميقين، وبعد ذلك ربطت بين الطرفين زمالة السلاح ، ويبدو أن الواحد منهم كان يكمل الآخر .  
فالأول لم يكن رئيساً فقط ، ولكن كان شيوعياً أيضاً يعطي انتباهاً خاصاً للتربية السياسية للقوات ، وأما الثاني الذي يدير العمل السياسي والحزبي ، فكان يتدخل في مختلف تفاصيل العمليات ، وكان يعرف كيف يتكلم وكيف يناقش كأحسن من أي ضابط اختصاصي .

وعند إصفائي لتقريرهم الهاتفي عن الوضع في جبهة الفرقة لم أكن أشك بالدقة والموضوعية لتقديراتهم ، إن كان الذي يقدم التقرير غوريشني أو فلاسنكو ، فكل منهم كان لديه المعلومات عن الموقف العملياتي، وكانا يعرفان جيداً احتمالات وتصرف العدو .

وصلت فرقة غوريشني هي الأخرى للمدينة بعد فرقة روبيستيف ، كما أنها اشتبكت مع العدو مباشرة بعد وصولها عبر الفولغا في القتال من أجل كورغان مامايف ، ثم في القطاع الذي يحوي مصانع تراكورني وباريكادي . وسحبت ألوية هذه الفرقة الواحد تلو الآخر بما فيها أركاناتها بالتناوب إلى ما وراء الفولغا للراحة وإعادة إتمام تعداد السرايا ثم العودة للقتال .

وكان الاثنان غوريشني وفلاسنكو موجودين دائماً في المرصد في فترات



أشد المعارك ضراوة يديران من المرصد بهدوء وثبات الهجمات والهجمات المعاكسة .

لم يكن الوصول إلى مركز قيانتها سهلاً ، حتى ولو كان على الأقدام ، فحافة الفولغا والمنخفض الواقعين بين مصانع باريكادي وكراسني أوكتيابر كانا معرضين لنيران رماة العدو ، وفي الأيام الأولى ولكثرة ما سقط من جنودنا هناك أطلقنا عليه اسم منخفض الموت ، ولتجنب الخسائر كان من الضروري بناء سد من الحجر عبر المنخفض وبالانحناء والاتصاق بحافته كان بإمكاننا الوصول أحياء إلى مقر قيادة غوريشني .

كان الموقف في قطاع فرقة مشاة الحرس ١٣ (روديمستيف) يتدهور كثيراً ففي وسط نهار ٢٠ أيلول ، تسرب عدد من حملة المسدسات الرشاشة والأسلحة المعادية إلى قطاع المعبر المركزي ، وأصبح مقر القيادة هدفاً لرمياتهم ، وجد قسم من عناصر لواء الحرس ٤٢ التابع للفرقة أنفسهم محاصرين ، وأصبح الإتصال معهم مضطرباً وكل ضباط الإشارة التابعين لأركان الجيش الذين أرسلوا للإتصال بأركان روديمستيف قد قتلوا . كما تأخرت عناصر لواء ايلين المتوجهة نحو المعبر المركزي ، وما كاد طيران العدو يكتشف تحركها حتى ركز عليها غاراته دون انقطاع .

وكان بإمكان الجيش مساعدة هذه الفرقة بنيران المدفعية من الضفة اليسرى ، ولكن ذلك لم يكن كافياً بشكل ملموس .

وعلى يسار فرقة روديمستيف وعلى ضفتي نهر تساريستا . كانت المعارك الشديدة تدور بشكل متواصل ، وفي هذا القطاع كانت أفواج من لواء المشاة ٤٢ باتراكوف تقاتل مع لواء مشاة من بحرية الشرق الأقصى ولواء من فرقة ساراييف . وغالباً ما كان الإتصال مع هذه القوات مقطوعاً ومن الصعب علينا التعرف على الموقف في ذلك القطاع ، ولكن الأشياء كانت واضحة ، فقد أرسل العدو إلى هناك قوات جديدة ، وجرب بكل ثمن النفوذ إلى الفولغا في قلب دفاعنا وتوسيع الثغرة لذلك من الضروري متابعة الهجمات المعاكسة في قطاع كورغان مامابيف ، فإذا ضعفت هجمائنا فسيكون العدو طليق اليدين ويندفع بكل قواه على جناحنا الأيسر ، مع سحق وحدائنا التي كانت صامدة بقتال دفاعي في وسط المدينة .

اجتاز الفولغا في ليل ٢٢ أيلول لواء مشاة تابع للفرقة ٢٨٤ (باتيوك) ، وعندما

أصبح في المدينة، وضع كاحتياط للجيش في شرق كورغان ماماييف .  
إتصل بي هاتفياً في الساعة الثانية صباحاً العقيد الجنرال أبرمنكو قائد  
الجبهة . وأعلمني أن أحد الألوية المدرعة العائدة لجبهة ستالينغراد ، استطاع  
خرق جبهة العدو في الشمال ، ولن يتأخر طويلاً في تحقيق إتصال معنا في  
قطاع اورلوفكا . وقف الجميع على أقدامهم واستقروا بجانب أجهزة الهاتف  
يفنشون عن تلك اللواء طيلة الليل ، وهم ينتظرون قدوم أول خبر سار عن اللقاء  
بين قوات جبهة ستالينغراد والجيش ٦٢ بتاريخ ٢١ أو ٢٢ من الشهر . فقد  
استطاع العدو رغم خسائره الفاحشة أن يقطع جيشنا إلى قسمين لأول مرة ، حيث  
استطاعت وحدات العدو المتقدمة في قطاع الفرقة ١٣ الوصول إلى الفولغا  
ودخول المرفأ الرئيسي .

ظلت بعض أقسام الفرقة ١٣ والتي أحيط بها تقاتل حتى آخر طلقة لديها ، كما  
لم تكن لدينا معلومات تفصيلية عن مصير الفوج الأول من مجموعة لواء إيلين ،  
لذلك ذكر في كل النشرات ، والصحف التي تحدثت عن معركة ستالينغراد ، أن  
الفوج المدافع عن المحطة أبيد في ٢١ أيلول ١٩٤٢ ، ولم يبق منهم على قيد  
الحياة سوى الملازم كوليفانوف .

وهنا أقول بصراحة إنني ما ظننت أبداً وحتى آخر يوم أن الفوج أبيد في ٢١  
أيلول ، وكنت أشعر من تصرفات العدو ، أن مقاتلينا لا يزالون يعملون في  
قطاع المحطة والمنطقة الواقعة على يسارها . وكنت أعتقد بأن العدو يتكبد  
خسائر فاحشة ، ولكن من كان يقاتل هناك وكيف ؟ لا أحد يعرف شيئاً عن  
مصير هؤلاء الرجال ، وكان هاجسهم يتقل كاهلي ويجثم كحجر على صدري .  
وبعد نشر مذكراتي « بسالة جموع المحاربين في الجيش » ، وبعد بث بعض  
المقطوعات منه في الإذاعة وصلتني عدة تحارير ، كان أحدها من رسائل انطون  
دراغان مشوه الحرب الوطنية الكبرى . كتب لي هذا الجندي القديم بأنه يستطيع  
أن يقص علي ما حدث لهذا الفوج بعد احتلال الألمان للمحطة ، لذلك أفلقتني هذه  
الرسالة . وأخيراً وبعد خمسة عشر عاماً أصبح من الممكن الكشف عن مصير  
هؤلاء الأبطال ، الذين كنت أفكر بهم دائماً ، وما كنت أظن أن الذين قاتلوا بشدة  
سبعة أيام ضد العدو في هذا القطاع ، يمكن أن يبادوا في ليلة واحدة أو يلقوا  
بسلحهم .

● لم أكن مخطئاً أبداً ، ففي صيف ١٩٥٨ وأثناء إحدى العطل قمت بزيارة

مراسل التحرير الذي كان يعيش في قرية ليكوفتشي الواقعة في منطقة تشيرنيكوف .

● بعد التحية والسلام نكرنى انطون كوزميش باليوم الذي تلاقينا فيه لأول مرة : - « هل تذكر ؟ كان ذلك في مساء ١٥ أيلول ، بالقرب من الكنيسة في شارع بوشكين . وعندما رأيتني سألتني : أيها الملازم أين هم رجالك ؟ إذن ما داموا هنا ! فهذه مهمتك عليك - إزالة وتفريغ المحطة من الفاشيين ، هل هذا واضح ؟ » . أجبت :

- نعم تذكرت ذلك .

وأظن أني أرى أمامي ثانية بيتاً مهدماً - وعلى حافة النهر الملتهبة التي كان الرجال يسرون عليها مسلحين بالبنائق والمسدسات الرشاشة ( رشيش ) ، كان هناك ملازم رشيق بقامة صغيرة وعيون حادة يحمل نطاقاً من القنابل اليدوية . كان الملازم هو انطون كوزميتش دراغان ، ويقود في ذلك الوقت السرية الأولى من اللواء ٤٢ من مشاة الحرس التابع لفرقة روديمتسيف . أتذكر ما جرى وكأنه أمامي الآن ، فبعد تلقيه الأمر نشر الضابط الشاب سريته مباشرة ، وابتعد معها باتجاه المحطة حيث اختفى في الدخان وظلام الغسق ، وبعد بضع دقائق أخذت تصلنا من هناك أصوات تبادل إطلاق النار الغزير حيث اشتبكت السرية بالعدو .

- اسمح لي أن أقص عليك جميع ما جرى بانتظام . مقترحاً انطون كوزميتش عندما جلسنا سوية على الطاولة وهذه حكايته .

- عندما كنت أقود السرية نحو المحطة وتبادلنا النار مع الفاشيين ، لحق بي قائد الفوج تشيرنياكوف وأوضح لي .

- يجب إيقاف الفاشيين واحتوائهم والتمسك هناك لأطول مدة ممكنة والتزود بالقنابل اليدوية .

نهضت مع السرية في الظلام وقمنا بالالتفاف حول المحطة .

الليل ، وضجيج المعركة يحيطان بنا ، تحصن جنودنا بمجموعات صغيرة في البوت المهدمة ، وأخذوا يحتنون ضغط العدو بصعوبة بالغة ، كنت أشعر ساعتها أن المحطة كانت بين أيديهم ، اجتزنا خط السكة الحديدية من اليسار . وفي إحدى تقاطعات السكة وجدت عشرة من سدة الدبابات يصعدون بالقرب من إحدى دباباتنا المعطوبة . تكتلنا بالقرب من المحطة وسرنا للاشتباك مع العدو جسماً

بجسم . كانت ضربة مباغتة : القنبلة أولاً ثم المحاربين . لاذ الفاشيون بالفرار وهم يطلقون النار على غير هدى .

وهكذا تم احتلال المحطة من قبل السرية قبل أن يعود الهتلريون إلى صوابهم ، ويدركوا بأننا لم نكن سوى سرية واحدة وقد بدأنا بالتحصن للدفاع . قام العدو بعدة هجمات من ثلاثة اتجاهات ، وظل حتى الصباح ولم يستطع استعادة المحطة .

عم نور الصباح يرتفع شيئاً فشيئاً ، وكان صباحاً ثقيلاً في ستالينغراد ، حيث بدأت طائرات العدو منذ الصباح الباكر بالانقضاض علينا ورمي القنابل بالمئات على المحطة . وبعد القصف الجوي أتت نيران المدفعية ، فاشتعلت النيران في المحطة والجدران ، وتناثرت قضبان السكة الحديدية والتوت من الحرارة . أما الرجال أنفسهم فقد واصلوا القتال ، ولم تنتن عزيمتهم .

لم يكن باستطاعة الهتلريين احتلال البناء ، وأدركوا أنهم لا يستطيعون احتلاله بهجوم مباشر ، لذلك فكروا بالالتفاف حولنا ، وعندها نقلنا المعركة إلى ساحة المحطة ، وكانت معركة عنيفة بالقرب من البئر وعلى طول السكة الحديدية . وإني أتذكر هذا المشهد . فقد حاول الألمان أخذنا من الخلف ، وتجمعوا في بناية على الزاوية التي كنا نطلق عليها تجاوزاً لمعمل المسامير . وحسب تقارير دورياتنا الاستطلاعية أنه كان يوجد فيها مستودع للمسامير ، كان العدو يستعد لمهاجمتنا من الخلف ، ولكننا تجنبنا مناوخته وقمنا بهجوم معاكس . وصلت إلى المحطة في ذلك الوقت سرية الهاون ، بقيادة الملازم سافودون وأخذت تدعمنا بنيرانها ، ولكننا مع ذلك لم ننجح بأن نكون أسياد معمل المسامير . ولم نخرجهم إلا من مشغل واحد ، وقد بقوا في المشغل المجاور .

دارت بعد ذلك معركة داخل المبنى ، ولم تكن سريتنا لوحدها ، بل كان هناك كل الفوج الذي أصبح في موقف خطير جداً ، فقد جرح قائد الفوج الملازم تشيريناكوف وأُخلي إلى الضفة الأخرى من الفولغا ، واستلم مكانه الملازم فيدوسيف .

كان العدو يضغط على الفوج من ثلاث اتجاهات . وأصبح التموين بالذخيرة صعباً جداً . ولم يعد لدينا وقت للنوم أو الغذاء ولكن الشيء الذي أنهكنا هو العطش ، ولكي نحصل على الماء للشرب، وتبريد الرشاش ، ثقبنا إحدى

الأنابيب وأخذ الماء يجري قطرة قطرة .

وما تكاد المعركة في مبنى معمل المسامير تهدأ لبضع لحظات ، حتى تعود إلى حدتها ، وفي هذه الاشتباكات القصيرة كانت السكين والرفش وأخمص البندقية لها دورها الرئيسي في القتال .

زج الهتلريون في الصباح احتياطهم وأخذوا يهاجموننا سرية تلو سرية ، حيث أصبح من المستحيل احتواء هذا الضغط العنيف ، وأبلغت الملازم فيدوسيف قائد الفوج فأرسل لنجدتنا سرية المشاة الثالثة بقيادة الملازم كوليفانوف بقامته الطويلة النحيلة ، وتمكن أن ينجح بالمرور مع عشرين من جنوده والالتحاق بنا ، وعندما وصل كان معطف الجندي الذي يرتديه مغطى بالتراب .

وفي تقريره إلى أركان الفوج كتب : « وصلنا إلى مبنى معمل المسامير والموقف خطير جداً ، ولكن ، ماضت على قيد الحياة لن أترك أحداً من سفلتهم يمر » . دارت معركة حامية طوال الليل مع مجموعة من رماة العدو ومهرة رماته ، التي أخذت تتسرب إلى خلفنا وتختفي في مخازن العلف والأنقاض والأنابيب ، ومن هناك كانوا يقتصوننا .

وبأمر قائد الفوج فيدوسيف ، أرسلت إلى مؤخرات الألمان مجموعة من حملة المسدسات الرشاشة . وإليك ما كتبت في مفكرتي حول هذا الموضوع . أعطاني أنطون كوزميتش مفكرته لأقرأها ، وأورد هنا ما جاء فيها بالحرف :

« انصرفت المجموعة في ظلام الليل الحالك ليوم ١٨ أيلول دون ضجة . وذهب أفرادها وهم يعلمون بوضوح عن كل التعقيدات والصعوبات التي ستعترض مهمتهم الصعبة ، وهي التسرب إلى مؤخرات العدو والعمل فرادى . تلقى كل واحد منهم تمويناً بالذخيرة والغذاء لمدة خمسة أيام ، وتعليمات مفصلة وواضحة حول الطريق ، التي سيعملون بموجبها خلف العدو .

لا نعرف ماذا حل بهم ولكن بعد قليل استنفذ الدفاع الهتلري ، ولم يستطع هؤلاء الفاشيون معرفة أسباب الانفجارات التي حدثت في سياراتهم ، التي كانت تنقل الذخيرة وكذلك قتل سدنة الرشاشات وقطع المدفعية .

نسف العدو في ليل ١٩ أيلول الحائط الذي يفصل معملنا عن بقية بناء معمل المسامير ، وأخذ أفراد العدو يرمون علينا القنابل اليدوية في الوقت الذي لم يعد

بإمكان محاربي الحرس رمي القنابل اليدوية عبر الشبائيك . ثم جرح الملازم الثاني كوليفانوف بجراح خطيرة بسبب انفجار إحدى القنابل ، وأخذ جنود الحرس يتساقطون الواحد تلو الآخر .

بعد ذلك حمل بعض الجنود بصعوبة كوليفانوف نحو الفولغا، وما حصل معهم لا أعرف عنه شيئاً .

ثم سألته : ماذا جرى معكم بعد هذه السطور ؟

- صعدنا في معمل المسامير أربعاً وعشرين ساعة أخرى . نابع انطون حديثه . ووصل لنجدتنا جنود الحرس من سرية الهاون التابعة للملازم زافودوف . فبعد انتهاء ذخيرة مدافعهم انقلبوا إلى جنود رماة وتمددوا في الشوارع ووراء الحواجز ، وحفروا الخنادق وأخذوا يطلقون نيرانهم الغزيرة على العدو . أخبرنا المرصد في ٢٠ أيلول ، أنهم يلاحظون قيام العدو بعملية تجميع نشيطة لقواته ودبابات ومدفعية تتحرك نحو المحطة ، لذلك أنذر أمر الفوج للاستعداد لصد هجوم الدبابات .

شكلنا في السرية عدة مجموعات مسلحة ببنادق مضادة للدبابات وقنابل يدوية وزجاجات حارقة ، ولكن الهجوم لم يقع في ذلك اليوم .

وصلت في ظلام الليل الدامس إلى موقعنا امرأة ، دون خوف على حياتها من القطاع المحتل ، وأعطتنا معلومات قيمة عن مواضع الوحدات المعادية . وأناي أتذكرها ، اسمها ماريّا فيدينيفا . واني أشير هنا إلى أن السكان غالباً ما كانوا يزودوننا بالمعلومات ، ويحملون لنا الماء ، ولكن ظلت أسماء أولئك الوطنيين مجهولة ، وأناي أتذكر أيضاً إحدى الفتيات الكشافات ويطلقون عليها اسم ليزا ، وقد قتلت هذه أثناء إحدى الغارات .

كان يوم ٢١ أيلول أكثر الأيام التي مرت على الفوج رهبة ، فمنذ الصباح أخذ الفاشيون يندفعون بهجوم جنوني تدعمهم الدبابات والمدفعية ، ولكن نيران وحماس محاربينا الأقوياء تجاوز كل التوقعات .

زج الهنثريون بالمعركة بجميع الوسائط التي كانت متوفرة لديهم وبكل الاحتياط الموجود في ذلك القطاع للقضاء على مقاومة الجنود السوفييت في حي المحطة ، ولكنهم لم يتمكنوا من التقدم إلا بعد أن دفعوا ثمناً باهظاً من الأرواح ، ولم يستطيعوا النجاح في قطع الفوج إلى قسمين إلا في نهاية النهار .

عزل قسم من الفوج مع رئيس أركانه في قطاع المخزن العام ، وطوق

الأعداء هذه المجموعة من كل الاتجاهات ثم انقضوا عليها ، واشتبك الطرفان وجهاً لوجه داخل المخزن ، حيث كان أركان الفوج بقيادة الملازم فيدوسييف ، وصعد هؤلاء في معركة غير متكافئة . وقدمت هذه المجموعة حياتها للعدو بثمن غال ، ثم انطلقت أربع مجموعات منا لنجدتهم ، ولكن كان لدى العدو الوقت ليستقدم بباباته ، وبصلية نارية واحدة قضا على كل من كان حياً هناك ، وهكذا قضى قائد الفوج الأول فيدوسييف ورفاقه الأبطال .

بعد استشهاد فيدوسييف استلمت قيادة ما تبقى من الوحدات . وبدأنا بتجميع قوائنا في قطاع المسامير ، ثم أرسلت تقريراً مفصلاً إلى قائد اللواء العقيد إيلين مع أحد عمال الاتصال الذي لم يعد ولم يره أحد ، ومنذ ذلك الوقت أخذ الفوج يعمل مستقلاً بعد فترة الاتصال مع اللواء .

عزلنا الألمان حتى عن جيراننا . وبذلك قطعوا تمويننا بالذخيرة والغذاء وأصبح ثمن كل خرطوشة يعادل وزنها ذهباً ، وأعطيت الأوامر للاقتصاد بالذخيرة وجمع الطلقات من القتلى ومن أسلحة العدو ، وفي المساء جرب الهتلريون مجدداً إزاحتنا وإخماد مقاومتنا . ووصلوا إلى قرب مواقعنا المباشرة وحسب تشتت صفوفنا كنا نضيق جبهة دفاعنا ، وبدأنا بتراجع بطيء نحو الفولغا محاولين تثبيت العدو أمامنا ، وكنا دائماً نترك أنفسنا على مسافة قريبة من العدو ليصعب عليه استخدام طيرانه ومدفعيته ضدنا .

أخذنا نتراجع من عمارة إلى أخرى ، بعد أن نحولها إلى مركز مقاومة ، وكان المحاربون لا يتركون أماكنهم حتى تحترق الأرض من تحتهم وتصل النار إلى ثيابهم . وبعد ذلك كانوا يزحفون إلى مكان آخر ، وطوال اليوم لم ينجح العدو إلا باحتلال حيين من المدينة .

احتلنا في تقاطع شوارع كراسنو بيترسكايا ، وكومسومولسكايا بيتاً يقع في إحدى الزوايا مؤلفاً من طابقين ، ومن هذا البناء كنا نمسك بكل الأماكن القريبة بنيراننا . أصبح هذا البيت آخر موقع لنا حيث أمرت بسد كافة المنافذ وتصليح وفتح الثغرات في الجدران كي تتمكن من استخدام كل الأسلحة التي لدينا وربصنا رشاشاً ثقيلًا في مكان ضيق مع بقية الذخيرة الاحتياطية التي كانت آخر شريط ذخيرة .

صعد للمخازن التي كانت في الطوابق العليا مجموعتان من الجنود ، كل واحدة مؤلفة من ستة أشخاص بمهمة تدمير الجدران التي كانت تفصل النوافذ ،

وتحضير كتل من الحجارة والعوارض لرميها على المهاجمين ، عندما يتمكنون من الوصول إلى قرب البناء ، وخصص مكان في القبور للجرحى الخطرين . كنا في ذلك الوقت أربعين رجلاً والأيام الرهيبة لم تلبث أن ننت ، فالهجمات العدو أخذت تتوالى دون انقطاع أو نهاية . وفي كل مرة نصد هجوماً ، كان يبدو لنا أننا لن نتمكن من صد الهجوم القادم . ولكن عندما كان العدو يحضر نفسه للهجوم ، كنا نجد لدينا القوة والامكانيات . ودام الحال على هذه الصورة خمسة أيام بلياليها .

امتلاً الطابق الأرضي بالجرحى ، وبقي لدينا تسعة عشر مقاتلاً دون ماء أو غذاء إلا من بضعة كيلوغرامات من قمح محروق ، لقد قرر الألمان إجبارنا على الاستسلام عن طريق تجويعنا ، فتوقفت هجماتهم، ولكن رمايات رشاشاتهم الثقيلة ظلت تزار فوق رؤوسنا دون انقطاع ، لم نعد نفكر في الخلاص ، ولكن كنا نفكر كيف نبيع أرواحنا بأعلى ثمن ممكن . لم يكن لدينا أي مخرج . بعض خسائرنا كانت واضحة لا يمكن تجنبها ، وأخيراً ظهر بيننا جبان، فقد إنهار أحد الملازمين ، وقرر تركنا والهرب ليلاً نحو الفولغا . هل كان يعلم بأن ذلك هو خيانة عظيمة ؟ نعم كان يعلم ، جر معه في جريمته هذه أحد الجنود الذي كان هو الآخر جباناً مثله وبدون أن يراهم أحد إنزلقوا في ظلمة الليل نحو الفولغا ، وصمما لنفسيهما طوقاً من العوارض الخشبية . وقد أطرهم العدو الذي كان يحتل الضفة بنيرانه فقتل الجندي ، ولكن الملازم وصل إلى فصيل التموين التابع لفوجنا الذي كان يتركز في الضفة الأخرى، وأبلغهم أن الفوج أبيد وقال لهم :

- دفنت بيدي دراغان ، بالقرب من الفولغا محاولاً إقناعهم ، ولكن كل هذه الأمور توضحت بعد أسبوع ، فقد أخطأ في دفني قبل ساعتني .

عاد الفاشيون للهجوم ، وكنت أصعد بسرعة للأعلى لأتفقد جنودي فأراهم بوجوههم النحيلة المجللة بالسواد ، وضماذاتهم الوسخة المغطاة ببقع الدم المتجمد على جراحهم . ولكن أيديهم كانت دائماً على سلاحهم . ولم يكن في وجوههم أية علامة من علائم الخوف . فالمرضة ليوبا نستيرينكو كانت تحتضر والدم يسيل بغزارة من جرح في صدرها ، وفي يدها ضمادة ، ورغم قربها من الموت حاولت مساعدة أحد الرفاق ، وتضميد جراحه ، ولكن لم يسمح لها الوقت للقيام بذلك .



صد هجوم العدو ، وخلال فترة الهدوء التي كانت تتبعه ، كنا نسمع جلبة المعركة الضارية التي كانت تتتابع من أجل كورغان ماماييف ، ومن أجل المصانع في المدينة .

كيف يمكن مساعدة المدافعين عن الكورغان ؟ وكيف يمكننا سحب قسم من قوات العدو ، التي توقفت عن مهاجمة بيينا ؟

قررنا رفع العلم الأحمر فوق بيينا لكي يعرف العدو أننا لم ننوقف عن القتال . ولكن لم يكن لدينا القماش الأحمر إذن ما العمل ؟ وفهم أحد الرفاق الجرحى فكرسا ، لذلك إنزِع قميصه المضرج بالدماء ، وبعد أن عطر قميصه بدم حراحاه اعطانا إياه .

في تلك اللحظة أذاع الألمان بعكبرات الصوت .

- أيها الروس استسلموا ! أنتم على كل حال ، ستموتون من الجوع ! وهنا ارتفع العلم الأحمر فوق بيينا .

- خسنت أيها الكلب الأجرى ، لدينا ما يكفينا للعيش مدة طويلة ، أجابه عامل الإنصال الجندي كوجوشكو .

صددنا أيضا الهجوم الذي تلا صراخ الألمان ، بضربات الحجارة وكنا نطلق رصاصا من حين إلى آخر ورمىنا آخر قنابلنا اليدوية . وفجأة سمعنا صرير سلاسل إحدى الدبابات في الطرف الآخر من الحائط الذي كان يختفي عن أنظارنا . لم يكن لدينا أية قبلة مضادة للدبابات . ولم يعد معنا سوى بندقية مضادة فيها ثلاث طلقات ، أعطيتها لقانص الدبابات بيريشيف وأرسلته لاستقبال الدبابة ، ورمى طلقة عليها من مسافة قريبة . ولكن الرامي أسر من قبل الألمان ، ولا أعرف ماذا حدثهم بيريشيف ، ولكني أستطيع أن أفترض أنه غرر بهم وأعطاهم معلومات خاطئة ، لأنهم عاودوا الهجوم بعد ما يقرب من ساعة من الجهة التي كنت وضعت فيها الرشاش الثقيل ، وآخر شريط من الذخيرة معه .

اعتقد الفاشيون هذه المرة أن نخيرتنا نفنت ، لذلك اندفعوا من مخابثهم يملؤهم الغرور ، ويطلقون الصرخات التي تنم عن عجرفة ، وأخذوا يتقدمون في الشوارع رتلًا، رتلًا .

وعلى هذا الأساس انطلقت إلى موضع الرشاش الثقيل ووضعت فيه آخر شريط . وأودعت المائتي وخمسين رصاصة في هذا الحشد المذعور من ذوي

اللباس الأخضر والرمادي من النازيين . وجرحت في دراعي ، ولكنى لم أنرك  
الرشاش ، وأمام البناء تمددت أكوام من الجثث على الأرض ، أما النازيون الذين  
ظلوا أحياء ، فقد عادوا بهلع إلى ملجأهم ، وبعد ساعة قادوا جندينا ، قانص  
الدبابات ، وأوقفوه فوق إحدى الخرائب وأطلقوا عليه الرصاص أمام أعيننا لأنهم  
كما يبدو قادهم إلى الطريق الذي أدى بهؤلاء ، لأن يقعوا تحت نيران  
رشاشاتنا .

لم تكن هناك هجمات بل مطر من القذائف والألغام أخذ ينساقط على بيننا ،  
وكان العدو المسعور يقصفنا بكل ما لديه من أسلحة ، وكان من المستحيل على  
أحد منا رفع رأسه .

ومن جديد أخذنا نسمع ضجيج محركات الدبابات ، ومن زاوية مجموعة من  
البيوت المهدمة فوق بعضها كنا نرى ندفق الدبابات النى لم نكن نشاهد إلا  
أسفلها . ومن الواضح أن ساعتنا قد حانت وأخذ جنود الحرس يتبادلون الوداع ،  
وكتب عامل الاتصال بسكينته الفنلندية على الحائط الآجري « هنا قاتل جنود  
الحرس روديمنسيف وقضوا من أجل الوطن » . أودعنا في حفرة تقع في الزاوية  
اليسرى من القبو أرشيف الفوج ، مع كيس من أكياس الجنود ، وضعنا فيه  
هويات الحزب والكومسمول والمدافعين عن البيت ، وقد قطع حبل الصمت أول  
رشقة من قذائف المدفعية ، وتلتها ضربات عنيفة على البيت الذي أخذ ينعايل ثم  
إنهار علينا ، وأعود بذاكرتي ، كم من الدقائق مرت عليّ ، والتي أصبحت فيها  
لا أتذكر شيئاً ، فكل شيء أصبح سواداً أمامي ، وقوس من الغبار المتصاعد من  
الآجر كان يملأ الهواء ، وعندما سمعوا أنيني ، قفز عامل الاتصال كوجوشكو  
نحوي وهز كتفي متسائلاً

هل أنت على قيد الحياة ؟

كان بعض الجنود أيضاً يثنون وهم نصف منحنين على الأرض ، لقد طمرنا  
ونحن أحياء تحت أنقاض هذا البناء ذي الطابقين . وكان الهواء يخف تدريجياً ،  
ولم يعد أحد يفكر بالغذاء ولا بالماء ، فالهواء أصبح بالنسبة إلينا ضرورياً للبقاء  
على قيد الحياة .

ومع ذلك ففي هذا الجو من السواد المخيف ، كنا نرى وجوه بعضنا ونشعر  
بوجود رفيق بالقرب منا .

قمنا بمجهود كبير للخروج من هذا القبر كنا نعمل بصمت وأجسامنا غارقة

بالعرق البارد اللزج وجروحنا كانت تؤلمنا لسوء التضميد . وكان غبار الأجر يضغطك تحت أسنانتنا ، وأصبح تنفسنا صعباً شيئاً فشيئاً . ولكن لم يكن هناك أنين أو تأوه .

خلال بضع ساعات وعن طريق إحدى الفجوات التي حفرناها رأينا النجوم اللامعة ، ودخلت علينا طراوة نسيم تشرين الأول .

أخذ الجنود الذين وصلوا إلى حد الإعياء يمرون الواحد تلو الآخر أمام الفجوة ليستنشقوا نسيم الخريف الطري . وحالاً أصبحت الفجوة عريضة وكافية لمرور شخص منها . ولم تكن جراح كوجوشكو شديدة لذلك ذهب للاستطلاع وعاد بعد ساعة يقول :

أيها الرفيق الملازم يحيط بنا الألمان من كل جانب . وهم يلغمون حافة النهر ، وعلى طول ضفة النهر تمر دورياتهم بالقرب منا .

وأخيراً اتخذنا قراراً بالعمل على الوصول إلى جماعتنا . وقد فشلت أول تجربة لنا بالمرور خلف الألمان . فقد اصطدمنا بمفرزة قوية من الرماة حاملي البنادق الرشاشة ، ولم نستطع الاختفاء عن أنظارهم إلا بشق النفس . ووصلنا إلى قبونا . وانتظرنا حتى تخفي الغيوم القمر تحتها ويحل الظلام .

تركنا مخبأنا زحفاً واتجهنا بحذر نحو الفولغا . كنا نسير ويمسند الواحد منا الآخر . كنا نضغط على أسنانتنا خوفاً من التأوه بسبب الآلام ، التي كانت تسببها لنا جروحنا ، لم يتبق منا سوى ستة ، كلنا جرحى ، وكان كوجوشكو يسير في المقدمة فهو الآن قائدنا الأمامي وقوتنا الضاربة الرئيسية . المدينة كانت غارقة بالدخان ، وحتى الانقراض أخذت تتلف . وعلى شاطئ الفولغا كانت تشتعل مستودعات البترول وعربات السكة الحديدية كانت متفحمة على طول الخط الحديدي . وعلى اليسار كانت تعصف ضجة معركة ضارية لا تتوقف ، رغم الانفجارات ، النار الاصطناعية المتعددة الألوان . رشات من الطلقات الخطاطة تسقط كالمطر والهواء العبق برائحة البارود النتنة . كان مصير المدينة يقرر هناك . وأمامنا على شاطئ الفولغا كنا نرى الدوريات الألمانية على ضوء القذائف المضئية .

كنا نتقدم زحفاً واخترنا المكان الذي سنخترقه ، والمهم هو القضاء على الدورية التي تصادفنا دون ضجة ، لاحظنا أن الألمان كانوا يقتربون بين فترة وأخرى من عربة قطار منفردة ومقلوبة ، وكان باستطاعتنا الاقتراب منها .

إنزلق الجندي كوجوشكو نحو العربة وسكينة في فمه . رأينا أحد الفاشيين يقترب من العربة من جديد ، وبضربة قصيرة سقط دون أن يصرخ . عراه كوجوشكو من معطفه بسرعة ولبسه ... واتجه نحو الآخر الذي اقترب منه دون التشكك بأمره . استطاع كوجوشكو إزالة أثر الجندي الآخر . واجتزنا الخط الحديدي أيضاً بسرعة بقدر ما تسمح لنا به جراحنا وكشريط من الهنود ، اجتزنا دون حادث حقل الألغام . هذا هو الفولغا إنحنينا على مائه البارد الذي تصطك منه الأسنان ، وأخذنا نشرب دون ارتواء . صنعنا بعد تعب شديد طوقاً مائياً من العوارض وبقايا الخشب الموجودة في النهر ، ودون مجانيف ، ركبنا الطوف ، وأخذنا نجذف بأيدينا لنضع الطوافات في مجرى تيار النهر . الذي قذفنا في الصباح إلى لسان رملي يحتله بعض رجال الدفاع المضاد للطائرات . أخذوا ينظرون بدهشة إلى ثيابنا الرثة - ووجوهنا الشاحبة الضعيفة ، وبصعوبة وثقوا بأننا منهم ، ثم أعطونا مواداً غذائية من البسكويت وحساء السمك . وكان هذا أول طعام لنا منذ ثلاثة أيام . وأرسلنا فريق م/ط في نفس اليوم إلى الفوج الصحي .

وعلى هذه الصورة أعلاه ختم كوزميتش دراغان حديثه . هنا بالذات وجدت إيضاحاً لمصير الفوج الأول من لواء الحرس ٤٢ وكذلك وجدت شاهداً على تضحيات وبسالة الجنود السوفييت ، فقد عملوا مستقلين في حامياتهم المعزولة بمجموعات صغيرة ، كانوا يقاتلون من أجل كل بيت حتى النفس الأخير ويكبدون العدو الخسائر الفاحشة .

في نفس ذلك اليوم وهناك اخترقت مجموعة من حاملي المعينات الرشاشة الألمان مع دباباتهم المنطقة ووصلت حتى الميناء الرئيسي للنهر ، وبذلك عزل عن القوة الرئيسية للجيش لواءان من المشاة ولواء من فرقة سارايف ، التي كانت تقاتل في قطاع شوارع كورسكايا ، كفكارسكايا ، كراسنوبولسكايا . وعدا أن فون بولوس لم يعد يأمل بأنه سيكون سيد المدينة بكاملها في الزمن الذي حدده وهو ٢١ أيلول ، ولا حتى المعبر الرئيسي للنهر . فالمعارك الطاحنة ظلت تجري لمدة طويلة ، وتأخذ أبعاداً مختلفة .

لاحظ المراقبون في مساء ٢١ أيلول في قطاع درارغورا تجمعاً معادياً قوياً من المشاة والدبابات ، وبعد قليل وتحت تغطية إعصار من نيران المدفعية والهاون إندفع الألمان إلى الأمام ، وبدا وكأنهم يحاولون اختراق خطوطنا

بضربة واحدة للوصول إلى الضفة اليمرى لنهر تعاريسقا ، وقد استقبل هذا الهجوم بنيران حامية من مدفعيتنا المتمركزة على الضفة الأخرى من النهر . وقد اضطر قسم من دبابات ومشاة العدو للتراجع وهم يقاتلون إلى قواعد انطلاقهم الأولى ، وقد أنهى محاربو اللواء باتراكوف بطل الاتحاد السوفيتي المعركة لصالحهم ، وكان أكثر أفراد هذا اللواء من البحارة ، وهذا ما قصه علينا الملازم ف . جوكوف عن هذه المعركة التي اشترك هو فيها على رأس مجموعة من سبعة عشر بحاراً .

استقبل جنود الفصيلة التي كانت بقيادة قائدها الثاني بوريسوغلييسكي بنيرانهم الغزيرة دبابات ومشاة العدو من حملة المسدسات الرشاشة ، الذين نفذوا عملية فتح الثغرة وعطب قائد الفصيلة نفسه الدبابة المعادية الأولى بطلقة محكمة من بندقيته م/د ثم صوب على الآلية الثانية التي كانت وراءها ودمرها أيضاً . ولكن الدبابات الأخرى ظلت تتقدم وترمي على مواضع البحارة دون توقف ثم أعطب بوريسوغلييسكي دبابة أخرى ، فلم يصمد العدو أمام هذه النيران الغزيرة والدقيقة فاضطر للتراجع ليحمي نفسه من رماياتنا . ولكن الهجوم تجدد فجأة وهنا أطلق البحار بالاتسين هو الآخر نيرانه على الدبابات العدو بالإضافة إلى بوريسوغلييسكي . وكان ينتظر بهدوء اللحظة المناسبة ليضرب الهدف بطلقة مدمرة ، وفي تلك اللحظة أعارت الدبابة جانبها مما سمح للبحار بالاستتين أن يطلق عليها أسنة من اللهب الذهبي ، الذي أخذ يتراقص على صفيح الدبابة العدو . كما أن دبابة معادية أخرى وضعت خارج المعركة بطلقتين محكمتين ، أما رامي الرشاش البحار كودريغاتي فقد حصد بنيران رشاشه مشاة العدو المهاجمة بعد أن تركهم يقتربون ويصلون إلى مسافة ستين متراً .

وعلى هذه الصورة تمكن البحارة من صد ست هجمات . ولم يكونوا سوى ستة عشر بحاراً . كبدوا العدو في هذا القطاع ثمانى دبابات وحوالي ثلاثمائة جندي وضابط . إن رماة البحارة السوفييت لا يتراجعون خطوة واحدة في القتال .

جرب العدو في اليوم الثاني ، وفي مركز المدينة عزل فرقة روديمنتسيف عن قوة الجيش الرئيسية ، وقد تتابعت الهجمات بالمشاة والدبابات على مواقع قوات روديمنتسيف ساعة بعد ساعة ، وظل الوضع على هذا الشكل حتى المساء ، عندما استقدم العدو التعزيزات لمعشاته ودباباته وطائراته واستطاع دفع محاربي الحرس إلى الوراء قليلاً ، كما استطاعت مفارز العدو المتقدمة النفوذ على

القولغا عن طريق شارع موسكوفكايا . وفي نفس الوقت استطاع لواء مشاة معار ، أحداث خرق عن طريق شوارع كييفسكايا - تورسكايا في حي بيوت الاختصاصيين ، ورغم كل ذلك ورغم التفوق العددي لم يتمكن الهتلريون مطلقاً من عزل فرقة روديمنتسيف عن قوة الجيش الرئيسية ، وقد انسحب جنود الحرس قليلاً إلى الورااء نحو الشمال من المعبر المركزي على القولغا ولكنهم ظلوا متمسكين بمركز المدينة ، وفي يوم واحد ، أي يوم ٢٢ أيلول صدوا اثني عشر هجوماً للعدو ، ودمروا له ٣٢ دبابة . ولم يستطع العدو أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام .

حصلت بعض الأقسام التي وجهت إلى هناك من فرقة غوريشني على بعض النجاح ونفذت في ٢١ أيلول على المدخل الشمالي لمنخفض دولجوي ، ودخلت بتماس مع وحدة مدرعة عدوة ، انسحبت هذه الأقسام في نفس يوم ٢٢ بعد هجمات العدو المتعددة عليها ، واتخذت لها مواقع دفاعية على المنحدرات الجنوبية الغربية لكورغان مامايف .

عندما وصلت معركة العشرة أيام في المدينة إلى نهايتها كان تاريخ ١٥ أيلول الذي حدده هتلر لاحتلال المدينة قد مر ومضى على مروره مدة طويلة . اضطرت الأركان العامة للقوى البرية في الجيش الألماني ( الفيرماخت ) لمتابعة زج احتياطها طيلة هذه المدة في أتون ستالينغراد ، وقد أفادت مصلحة مخابراتنا بأن العدو يرسل يومياً الامدادات بالرجال والعتاد نحو ستالينغراد .



أصبح بإمكان العدو مراقبة مؤخرة جيشنا ونهر القولغا بعد أن تمكن من الاشراف على البناء المركزي النهري ، كما أصبح بإمكانه قطع طريق تمويننا . لذلك أعطيت الأوامر لمعاوني في المؤخرات لإقامة ثلاثة معابر على النهر . كان المعبر الأول في قطاع فيخنايا اختوبا ، أما المعبر الثاني فهو الذي كان في سكودريا ، أما المعبر الثالث فهو من توماك . ومن هذه النقاط كانت تأخذ الحمولات طريقها ليلاً على المراكب والسفن التابعة لأسطول القولغا ، ثم من هناك بالزوارق الصغيرة ، أي إلى رصيف معمل كراسني أوكتيابر ، وضاحية سبارتاكوفكا .

أقيم أيضاً ممر عائم للمشاة من الأعمدة والصفائح الحديدية ، بدءاً من مصنع باريكادي حتى جزيرة زاييتسيفسكي . وبين الجزيرة والضفة اليسرى من النهر بالمراكب وقد وزعت كل المراكب والزوارق التي كانت بحوزة الجيش بين الفرق والألوية وقد نظم في كل فرقة ممر عن طريق المراكب وعلى مسؤولية قائد الفرقة وتحت مراقبته ، أما وحدات المشاة التي كانت تعمل في الجنوب في تساريستا ، فكانت تتمون مستقلة اعتباراً من جزيرة غولودني وبالمراكب .

كان من الواضح بالنسبة إلينا أن العدو بعد أن نفذ إلى الفولغا ، سيطور هجومه على طول الشاطئ نحو الشمال والجنوب من أجل فصل وحداتنا عن النهر ومعابره . ومن أجل إحباط خطة العدو ، قرر المجلس العسكري في ٢٣ أيلول ودون إيقاف الهجوم في قطاع كورغان مامايف ، زج فرقة ( باتيوك ) في المعركة وكانت هذه قد عبرت النهر خلال الليل ووصلت بكاملها إلى المدينة . وكانت مهمة ألوية هذه الفرقة هي التالية : تدمير العدو في قطاع المرفأ المركزي ، ومنع العدو من الوصول إلى وادي تساريستا .

نصحت قائد الفرقة عندما كنت أعطيه مهمته ، بأن يسفيد من تجربة قتال الشوارع بالمجموعات الصغيرة . وقد بدا لي في بادئ الأمر ، أنه لم يفهم أهمية حضائر الانقضااض وعملياتها . فلم يكن من السهل إلغاء التشكيلات القتالية التقليدية للمرايا والفصائل التي تعلمها منذ تشكيلها على هذا الشكل الذي يتطلب فن قيادة المعركة . ولكن باتيوك الذي كان مقدماً في ذلك الوقت كان رجلاً نبهاً وعلى مستوى عالٍ من الخبرة ، نظر إليّ بعينه وقال :

ايها الرفيق القائد ! لقد أتيت لأقاتل الفاشيين ، ولم أحضر للاستعراض ، وفي ألويتي يوجد السيبيريون ...

علم باتيوك عندما كان في الطرف الآخر من الفولغا من ضباط الاتصال التابعين لنا أنه في الجيش ٦٢ يطبقون طرماً تكتيكية جديدة . وأمر قادة الألوية والأفواج دراسة تجارب القتال في المدينة ، ومضاعفة كميات الطلقات والقنابل اليدوية ورقائق ت . ن . ت المخصصة لكل جندي .

خلال هذه المحادثة القصيرة تأكدت من أن محاربي فرقة باتيوك سيقاقلون بحماس ضد العدو ، ولن يتراجعوا إلى ما وراء الفولغا ، وفي نفس الساعة شنت هذه الفرقة هجوماً معاكساً لدعم فرقة روديمتسييف على طول الضفة الفولغا باتجاه الجنوب نحو المرفأ المركزي ، كما أن تعزيزات من حوالي ألف رجل أرسلت

إليه بنفس الوقت . كنا نأمل بهذا الهجوم المعاكس ليس فقط إيقاف العدو من الجهة الجنوبية ، ولكن تدمير الوحدات العدو التي نفذت إلى الفولغا .

بدأ الهجوم المعاكس في الساعة العاشرة من ٢٣ أيلول ، وخلال يومين نشبت معارك عنيفة وكثيراً ما كان القتال يجري وجهاً لوجه ، كما أن هجوم العدو الموجه من قطاع الميناء المركزي نحو الشمال توقف . ولكن لم نستطع إبادة قوات العدو التي نفذت إلى الفولغا ، ولم نستطع إقامة الاتصال مع ألوية المشاة التي كانت تعمل في الجهة الأخرى من تساريسنا .

أحبط مخطط فون باولوس الذي يرمي الوصول إلى الفولغا ، ثم توجيه الضربات إلى مؤخرة الجيش على طول الفولغا . وتوقف أمام المقاومة الصلبة لفرقة روديمسيف باتيوك غورشني وأيرمولكين ولواء باتراكوف والوحدات الأخرى .

أما بالنسبة للجيش ٦٢ فالموقف الدقيق الذي تعرض له قد مر . فلم يضعفه اختراق العدو الأول ، ووصوله الفولغا ، وظل كورغان مامايف في أيدينا . ولم تبد أية وحدة من وحداتنا أي ضعف . أوقف هجوم السييريين من فرقة باتيوك ، هجوم العدو في المدينة ، وغرق الفاشيون في دمائهم واشتعلت العشرات من دباباتهم . وتمددت جثث الآلاف من القتلى في الشوارع .

لم يكن لدي أي تفكير شخصي بتراجع نحو الطرف المقابل مطلقاً ، وكنت أعتقد باستحالة نقل مقر قيادتي حتى إلى إحدى الجزر . لأن ذلك ينعكس على معنويات قادة الوحدات . وتكرني غوروف بأنه احتفظ بعدد من المراكب للمجلس العسكري للجيش ، فأجبت أنه لا يخصني مطلقاً ، فأنا لن أراجع مطلقاً إلى الطرف الأيسر ماامت محتفظاً بكل قدراني « ، وقد عانقني غوروف بشدة قائلاً : « سنقاتل حتى إذا لم يبق سوانا نحن الاثنين وحتى آخر طلقة . هذا التصميم جمعنا ووجدنا أكثر من أي صداقة .

كان نيقولاي ايفانوفتش كريلوف يتفق معي بأنه من الصعب قيادة وحدات الجيش المنتشرة بين الفولغا والعدو في مساحة عمقها ١ - ٤ كم ، وظهرها إلى الفولغا . ولكن عندما كنت أتطرق ولو من بعيد لموضوع الانتقال إلى نقطة الاتصال الوسيطة الموجودة على الطرف الأيسر ، كان يرفض ذلك كلياً ويقول سنفرغ رصاصاتنا سوية ، احتفظوا بأخر طلقة لتفريغها برؤوسنا .

كنا نشعر ونحن على علم أيضاً بأن تحركات أركاننا الفرق تقريباً وحتى



الألوية يراقبون تصرف المجلس العسكري ، وكانوا يرسلون من قبلهم ضباطهم والموجهين السياسيين إلى أركان الجيش لمشاهدتنا ويتأكدون من أننا جميعاً موجودون على الضفة اليمنى .

وغالباً ما كنا نقوم بزيارة مراصد الفرق والألوية ، وكان كل منا يعرف غوروف-كريلوف ، وعلينا أن لا نبقي دائماً في مقر القيادة . وكثيراً ما كنا نصل بزياراتنا حتى الخنادق الأولى بشكل برانا فيه المحاربون بأعينهم ، ويؤمنون أن قانتهم أعضاء المجلس العسكري هم دائماً معهم .

وإذا كان فون بولوس موجوداً هو وأركان حربه في أحلك المعارك في نيجنه تشيرسكايا أو ستلنيتسا غولونيسكا على بعد ١٢٠ - ١٥٠ كم كان المجلس العسكري للجيش ٦٢ وأركان حربه يعيشون على بعد ٢٠٠ - ٣٠٠ م من الخط الأول ، وظلوا في منتصف تشرين الأول أياماً عديدة على هذا الشكل . ومن الأهمية بمكان أن يشعر قادة الفرق والألوية أيضاً، وليس الجنود فحسب ، أنهم ليسوا وحدهم ، بل أن كل أعضاء المجلس العسكري بجانبهم دائماً .



أخذت المعارك تفقد حدتها اعتباراً من مساء ٢٤ أيلول في وسط المدينة وكانت الإذاعة تعلن للعالم أجمع ، أن قلعة الفولغا لا تزال صامدة تفرق ببحر من النيران واللهب ، وقد تحولت إلى بركان ثائر يفترس الهتلريين بالآلاف ، وهذا هو الواقع دون مبالغة .

بدأت القوات المدافعة عن ستالينغراد تقاتل بضراوة نادرة بعد أن خبرت القتال في النار والدخان ، عن كل شبر من أرض الوطن وتبيد الآلاف والآلاف من الهتلريين وكانت إذاعاتنا تبث تلك يوهياً خلال نشراتها المسائية ، مما يجعل القيادة الألمانية تصب في اليوم الثاني للنشرة جام غضبها على المدينة وترسل مئات القاذفات للنار منا ، وعشرات الآلاف من القنابل والألغام كانت تتساقط على رؤوسنا .

كان هنلر يعتبر مدينة الفولغا عام ١٩٤٢ ، هدفاً استراتيجياً هاماً ، لهذا كان بزج في أنون المعركة في ستالينغراد الفرقة بعد الفرقة ، ولم يكن يولي أي اهتمام للماء جنوده .

أما قادة القوات الألمانية فكانوا يرون بأعينهم مثل ( هانس دوير ) الثمن الباهظ ، الذي كانت تدفعه قواتهم من أجل كل متر من الأرض على شاطئ النهر الروسي الكبير ، وفي كتابة « معركة ستالينغراد » كتب دوير مايلي : « بدأت في منتصف أيلول مرحلة المعارك من أجل الأحياء الصناعية في ستالينغراد . ومن الممكن تسميتها معركة المواضع أو « معركة القلعة » . لقد ولى زمن العمليات الكبرى في السهوب الواسعة وانتهت نهائياً وانتقلت المعارك للمرتفعات التي تشقها المنخفضات المتجهة نحو شاطئ الفولغا بغاباتنا ووديانها الصعبة ، وفي حي المصانع في ستالينغراد ، المبني على أرض غير متساوية ، منخفضات وتضاريس وتعاريج حادة تغطيها أبنية الحديد والأسمنت والحجارة . ثمة مسافة كيلومتر من الطول يستعاض عنه بمتر على خريطة المدينة المعلقة في غرفة الأركان العامة .

« كانت تنشب معركة طاحنة لم يسبق لها مثيل حتى ولا في الحرب العالمية الأولى ، من أجل كل بيت أو معمل أو مستودع مياه أو على حوافي السكة الحديدية ومن أجل كومة من الركام يضاف إلى ذلك مصروف النخيرة الهائل . لقد نكرت أن المسافة بين قواتنا وقوات العدو وصلت إلى أنها وبالرغم من غارات الطيران الكثيفة والقصف المدفعي المتواصل كان من المستحيل التخلص في أي قطاع من معركة القتال القريب .

« كان الروس يتقنون أفضل من الألمان استخدام الأرض والتمويه ولديهم خبرة كبيرة بقتال الحواجز ، واحتلال البيوت المنعزلة ، وكانوا يحتلون مواقع دفاعية قوية .. » وجاء في نشرة العمليات العسكرية التي تصدرها الفرقة الميكانيكية ٢٩ الألمانية والتي وقعت في أيدينا « أنه في صباح ١٧ أيلول أرسل قائد الفرقة تقريره إلى قيادة الجيش السادس الماريشال فون باولوس إذ كتب : « دمر اللواءان الميكانيكيان في الفرقة تدميراً كاملاً تقريباً ، فمن أصل ٢٢٠ دبابة لم يبق سوى ٤٢ » .

وكتب العريف الألماني ولتر في أيلول لأمه : « ستالينغراد هي جهنم على الأرض » فيردان « إنها » فيردان « حمراء بأسلحة جديدة . كنا يومياً نقوم بالهجوم . وفيما لو تمكنا نهائياً من احتلال عشرين متراً ، كان الروس في المساء يقذفوننا منها إلى الوراء ، ولناخذ بعض المقتطفات من مذكرات رئيس الأركان العامة للقوات البرية العقيد جنرال هالدر باختصار شديد :

- ٦ - أيلول « سقطت نوفوروسيسك . لا تغير في الموقف على باقي الجبهة . صدت قواتنا أمام ستالينغراد هجوماً قوياً للعدو .
- ٧ - أيلول أمام ستالينغراد ضعفت هجمات العدو على الجناح الشمالي لقواتنا وهي تتقدم بنجاح .
- ٨ - أيلول أمام ستالينغراد يتواصل تقدمنا .
- ١٣ - أيلول أمام ستالينغراد نجاحات جديدة .
- ١٥ - أيلول أخبار سارة من ستالينغراد ، هجوم قوي للعدو على فورونيج من الشمال والغرب فرق في الغرب ، أمر من الفوهرر بالنسبة للخطر في قطاع الدون .
- ١٦ - أيلول نجاحات في ستالينغراد ، اهتمام دائم للفوهرر بخصوص قطاع الدون .
- ١٧ - أيلول تكللت المعارك في ستالينغراد بالنجاح خسائرنا فادحة ، صد بشكل عام هجوم العدو في قطاع فورونيج .
- ١٧ - أيلول نجاح جديد في ستالينغراد ، هجوم معاكس قوي للعدو ( ١٥٠ دبابة ) في شمال المدينة . وقد صد بنجاح كبير . يخيم الهدوء على القطاعات الأخرى في جبهة الدون .
- ٢٠ - أيلول أمام ستالينغراد انهكت القوات المهاجمة في ستالينغراد تدريجياً وأصبح الموقف حساساً أكثر فأكثر ، غارات طيراننا المنقّض في قطاع فورونيج خففت الموقف بشكل ملحوظ .
- ٢٤ - أيلول بعد التقرير اليومي استأنفت الفوهرر وكنت منهاراً عصبياً وكذلك كانت أعصاب الفوهرر بعيدة من أن تكون في حالة طبيعية . يجب زرع فكرة التعصب القومي في نفسية ضباط الأركان العامة وهذا قرار الفوهرر ومن الواجب تنفيذه حرفياً .
- نجاحات ، نجاحات . وفجأة في ٢٤ أيلول أقال هتلر هالدر ، فحلت مكانها ضربة صاعقة في سماء صافية . وكما حدث سابقاً في شتاء ١٩٤١ ، عندما أزاح هتلر قانته بعد الهزيمة أمام موسكو .
- صرح هتلر مرة إلى قائد الجيش السادس : « بجيشك تستطيع أن تمتلك السماء » ، ولكن منذ الأيام الأولى للمعركة في ستالينغراد تكسرت أسنان جيشه هناك .

أخذ هتلر بعد إزاحة هالدر بدعم فكرته بأنه سيد ستالينغراد، مهما كلف الأمر .

حصلنا في ٢٣ أيلول من مختلف وسائل استعلاماتنا على أن العدو رغم مواصلته القتال في المدينة كان يركز في نفس الوقت قوى هامة في قطاع غوروديشتشيه والكسندروف . لم يكن من الصعب التوقع بأن هذه المجموعة الجديدة ستهاجم في شمال كورغان مامايف باتجاه مدن العمال والمصانع « تراكتوري و باريكادي » .

ولكي نصد العدو في هذا الاتجاه حضرنا بسرعة موقعاً خلفياً ضد الدبابات حسب خط البستان على الضفة الجنوبية لنهر ميتشيتكا ، حتى منخل منخفض فيشنوفايا ، ثم يحاذي الحدود الغربية للغابة الواقعة شمال منحدرات منخفض دولجوي ، حتى الفولغا . وتلقت وحدات الهندسة الأمر بانتهاء خلال ثلاثة أيام نشر حقول الألغام المضادة للدبابات بكثافة كبيرة وإقامة منحدرات وخنادق ، كما أعطيت الأوامر لقادة الفرق والألوية بإقامة الحواجز ضد الدبابات في حدود قطاعاتهم ، ووضع حقول الألغام تحت حماية نيرانهم وتخصص لذلك مفارز خاصة وقسم من وسائل النيران .

وعند احتمال حدوث خرق لدبابات العدو نحو الخط الخلفي . تهيأ مجموعات من رجال الهندسة مع احتياط كامل من الألغام ، ومستعد في كل لحظة وعند الحاجة أن تلغم بكثافة كل الطرقات والممرات التي يمكن أن تخرقها الدبابات . وبينما كانت المعارك تعود للهدوء في وسط المدينة تلقينا مساء ٢٤ أيلول تأكيدات عن تجمع قوات عدوة في قطاع رازغوليفكا - غوريشتشيه ، وكان علينا خلال الليل إعادة تجميع لعناصر الجيش لدعم وإملاء التدريب القتالي على الجبهة من موكرايا ميتشينكا . وفي قطاع كورغان مامايف . وقد أعطي أمر التجمع في ٢٥ أيلول ١٩٤٢ وهو كما يلي :

★ ★ ★

أمر قتال رقم ١٦٤ أركان الجيش المدرع ٦٢ ، ٤٢/٩/٢٥ الساعة ٢٣,٠٠  
١ - يحضر العدو هجوماً باتجاه غوروديشتشيه - باريكادي اعتباراً من غوروديشتشيه - الكسندروفكا .

٢ - في الوقت الذي يتابع فيه الجيش التمسك بمواقعه الحالية ، يقوم قسم من قواته بالقتال من أجل تدمير العدو في المدينة .

## ☆ أمر ☆

١ - إلى الفرقة ١١٢ (ايرمولكين) مع سريتي هاون تابعتين للحرس الحقنا بالفرقة وبدعم من لواء المدفعية ١١٨ م/د احتلال المنطقة الدفاعية الثانية على خط منخفض فيشلوفايا الساعة ٤,٠٠ من يوم ١٩٤٢/٩/٢٦ . الحد من اليمين زاوية الحديدية الواقعة على بعد كيلومتر غرب بلدة بيسلنايا الجسر عبر مينشكا ، ٦٠٠ متر إلى الشمال من بلدة باريكادي . الحد من اليسار - الطرف الشرقي لمنخفض فيشنوفايا حتى خط السكة الحديدية وإلى أبعد من ذلك على طول الخط الحديدي إلى نخوم بلدة كراسني أوكنيابر .  
مهمة :

(أ) عدم السماح للوحدات العدو من النفوذ في قطاع بلدة باريكادي وكراسني أوكنيابر .

(ب) عدم السماح للوحدات العدو بالقدم في قطاع بلدة مصنع « نراكتورني » .  
٢ - التحضير لمعركة في محلة مسكونه ، ثلاث حاميات كل واحدة بتعداد فصيلة من الرماة المسلحة بالمسدسات الرشاشة والبنادق الرشاشة .

تأمين الدفاع بفصيلة عن بناء المدرسة رقم ٣٢ والمباني الحجرية في شارع جيرديفسكايا .

تأمين الدفاع بالفصيلة الثانية عن مدارس الأطفال والمخازن ( شارع كولبا كوفسكايا ، بلدة باريكادي ) .

تأمين الدفاع بالفصيلة الثالثة عن المدرسة رقم ٢٠ والحمامات « تقاطع شوارع كازانشبا - دوبلينسكايا » .

الخط الأول - على طول الحافة الشرقية لمنخفض فيشنوفايا . في قطاع مينشكا - الخط الحديدي ونهينة موقع دفاعي ضد الدبابات ، وتنظيم حقول ألغام مضادة للدبابات بكثافة كبيرة

مركز قيادة الفرقة - المنخفض في قطاع مفرق شوارع كازانشبا - دوبلينسكايا .  
٣ - أمر للفرقة ٢٨٤ ( بانيوك ) ، تبديل الفرقة ١١٢ في القطاع الدفاعي على طول الحافة الشمالية لمنخفض دولفوي ، ونحضير الأخيرة لموقع دفاعي ضد الدبابات وتأمين الدفاع الصلب على الأقل بفوجين . وإلى بقية قوات الفرقة النمساك بالخنادق بقوة على خط شوارع سوفناركوموفسكايا ، خوبرسكايا وإلى أبعد - منخفض كرونوي إلى الفولغا .

عدم السماح بأي حال من الأحوال للعدو بالخرق في قطاع الشارع ارتيليرسكايا ، حتى ضفة الفولغا والاسنعداد لاحقاً لتنفيذ مهمة تحرير المدينة .  
٤ - إلى الفرقة ٩٤ ( غوريشني ) حفر الخنادق والنمساك بقوة على الخط المحاذي للحدود الشمالية للغابة ( شارع كولودزبايا ) ، وتهئية نقطة استناد بقوة فوج مشاة دفاعية ودانرية مباشرة على منحدرات المرفع ٢٠٢ . عدم السماح للعدو بأي حال من الأحوال احلال نقطة اسناد المرفع ١٠٢ والاسنعداد لاحقاً لتحرير المدينة .

٥ - ننابع الفرقة (١٣) روديمتسيف ازالة العدو في القسم الشرقي من المدينة ، وفي قطاع رصيف المعبر المركزي للنهر .

٦ - يكون كل قوات الجيش على أهبة الاسنعداد في صباح ١٩٤٢/٩/٢٩ لصعد هجمات العدو المحنطة ، وبخاصة في قطاع غوريشنشة - باربكاوي .

☆☆☆

لا يمكن لأي فرار يستهدف نجميع القوات أن بوضع موضع التنفيذ إلا بعد معرفة أكيدة لمخططات واسنعدادات العدو ، التي يقوم بها بهدف الشروع بعمليات هجومية في الانجاه المحدد أعلاه . ومن الضروري أن لا نموه على أنفسنا لأن أي خطأ في ترتيب القوات سيؤدي لا محالة إلى كارثة يصعب نفاذها .

عندما انخذنا قرارنا كنا على ثقة بصحة المعلومات التي زودتنا بها مصلحة مخابر اننا ، التي كانت برئاسة العقيد م . غورمان ، وبعود الفضل أيضا إلى كل رجال الاستطلاع في الجيش ٦٢ الذين لم يخطنوا ولا مرة واحدة في معلوماتهم عن العدو . أعطتنا هذه المعلومات إمكانيات نصور المبادرات التي يمكن أن نفوم بها القيادة الهتيرية ، وانخاذ التدابير المضادة والمناسبة لذلك .

كانت السهوب الواسعة والمكشوفة بين الدون والفولغا تسمح بمراقبة مختلف نضاريس الأرض وعلى عمق كبير ، ومع ذلك كان هذا لا يكفي . فمن الضروري إجراء تحليل صحيح لكل ما يرى ، وإيعاد التحركات المضللة والمعلومات غير الصحيحة وغير الواقعية .

هناك خطر واحد كنا نخشاه دائما هو : بما أننا نقوم بهذا النجمع بتماس مباشر مع العدو ، وبحث بصره في منطقة دفاعية غير عميقة لا يوجد فيها طرق ولا مسالك مباشرة ، وقد نحولت أرضها إلى وديان عميقة . بنايات ضخمة

أصبحت أكواما من الخرائب . الأشجار وجذوعها ، الفوهات الضخمة التي حفرتها الفذائف والقنابل .

لذلك فأقل خطأ في الزمن والنراخي في المرافقة أو التمويه ، يهدد بفشل النجم وبسبب خسائر فادحة من قبل نيران العدو ، ولهذا فقد أرسل كل ضباط الأركان مجددا للوحدات ليكونوا أدلاء لها وموجهين لتحركاتها ، وبخاصة الليلية منها .

من جهة أخرى كانت قوافل العدو القادمة من الغرب ، تصل محملة بالامدادات والتعزيزات بالرجال والعناد . وقد أكمل العدو النقص في فرقه التي نكبت خسائر فادحة من أفواج المسير ( التدريب ) ، وبالعناد والطواقم المجربة .

لم تكن ننوقع هدوءا طويلا . وكنا ننتظر هجمات عنيفة من الجهة الغربية من غور ويستنشيه ومن رازغوليافا ، وكنا نعتقد بأنها لن تتأخر طويلا لتبدأ ولكن أس ؟ وكيف كانت في تلك اللحظة أوضاع الوحدات التابعة للجيش ٦٢ ؟ يمكن معرفة ذلك من الأمر الذي ورد أعلاه .

ولكن من الضروري أن نشير بأن القوات التي كانت تدافع عن الجناح الشمالي للجيش كانت مؤلفة فقط من ثلاثة ألوية مستقلة هي ( ١١٥ - ١٢٤ - ١٤٩ ) ولواء من فرقة سارايف . وكان على بسار هذه الألوية اعتبارا من نهر موكرانا وإلى المنحدرات الشمالية الخلفية لمنخفض دولفوي ، يدافع عن هذا القطاع الضيق اللواء المدرع ٢٣ ، ولديه ٥٦ دبابة منها ٣٦ دبابة متوسطة و ٢٠ خفيفة وكان يعمل بالتعاون مع الفرقة ١١٢ ( أبرمولكين ) .

وبشكل السق الثاني في قطاع المرتفع ١١٢.٠ وعلى الحدود الغربية للغابة لواء الحرس السادس المدرع ولديه سبع دبابات ت ٣٤ وست دبابات ت ٦٠ ولكن كل دباباته كانت معطوبة تقريبا وتستخدم كنقاط رمي ثابتة وقد كان أحد الألوية فرقة سارايف بقاتل وهو محاصر ، في إحدى حدائق المدينة بالقرب من المحطة المركزية وقد عزل هذا اللواء وأصبح الاتصال معه صعبا . لم يبق منه إلا عدد قليل بقاتل .

كما عزل عن الجيش لواءان من المشاة . كانا يقانلان في جنوب نسايسا . ولم يعد ضباط الأركان الذين أرسلوا إلى هذين اللوامين لقياننهما ، وكان الاتصال معهما يتم عن طريق اللاسلكي فقط . ويواصل القتال في المدينة

اللواء ٩٢ مشاة بقيادة الموجه السبائي الرئيسي في الفصل السبائي ف .  
فلاسوف الذي اسنطاع جمع الوحدات الصغيرة المعزولة . أما رماة البحرية  
فكانوا بواصلون القتال حتى النفس الأخير .

بعد فرب ف . فلاسوف الذي وصلني عن حفيفة الوضع في اللواء ٩٢  
اسنخت قرارا بنقل بقايا اللواء للطرف الآخر من الفولغا مع اللواء ٤٢  
(باتراكوف) . وقد جرح الجنرال المذكور نفسه ، وترك اللواء قبل انخاذ هذا  
القرار .

وعاد هذا اللواء للقتال في ستالينغراد بعد فترة اسراحة قصيرة في الطرف  
الثاني واستكمل تعداداه وقد عين المقدم م . سدربول قائدا لهذا اللواء . كما أن  
فلاسوف أصبح رئيسا للفصيل السياسي . وفي المعارك التي بليت ، أثبت هذا  
اللواء مرة ثانية بأنه يتمتع بروح عسكرية عالية .

كان للعدو حرية العمل على جناحنا الأيسر ، لذلك بدأ بنقل وحداته الموجودة  
هناك باتجاه كورغان ماماييف ، إلى أبعد نقطة نحو الشمال مع احتمال تعزيزها  
بالأشخاص والعتاد ، لذلك أبعد التهديد بهجوم جديد على قواتنا ، التي كانت  
ننمك بنلك المواقع .

لم يقم العدو باسنطلاعاته معتمداً على نفوقه الحوي ، وحتى لم يكن بعننى  
باخفاء تحصيرات هجومه واسنعداداته . وكان يعمل بعجرفة واسنعتار شديدين  
وينطبق نلك بخاصة على الوحدات الجديدة ، التي لم ندخل حتى نلك الوقت ولم  
نشترك في معارك ستالينغراد .

في مساء أو ليل كل يوم يسبق المعركة ، كان الجنود الألمان يصرخون  
وأحيانا يقولون :

- روس غدا سنقضي عليكم !

في مثل هذه الحالة كنا نعرف دون شك ، أن العدو سيشن هجوما قويا في  
اليوم الثاني ، وبالتحديد في هذا القطاع حيث يسمع صراخ الجنود .

ووضعنا نكتيكات جديدة وطرقاً خاصة للقتال للقضاء على مثل هذا العدو  
المزهو بنفسه . لقد تعلمنا بعمق كيف نقاتل ونسحق الغزاة نفسيا ومعنويا .

وجهنا ضمن هذا الاتجاه اهتماماً خاصاً لحركة الرماة المهرة داخل القطاعات  
ودعم المجلس العسكري هذه المبادرات الهامة ، وكانت ننشر في الصحيفة  
اليومية للجيش « الدفاع عن الوطن » يوميا أعداد الجنود الفاشيين الذين كانوا



يعلمون برصاص هؤلاء الرماة الماهرة وينشر في الوقت نفسه صور أفضل هؤلاء الرماة .

● كانت الفصائل السياسية ، ومنظمات الحزب والكومسمول ندير حركة الرماة الماهرة ، وينظم لحم الاجتماعات التي كان يحب فيها المسؤولون عن أسلحتهم ، وقد وضعت اسس وطرق جديدة قيد العمل على أساس الاستفادة من خبرة الاف الماهرة من الرماة ، وكان كل واحد منهم يقصد بتدريب بضعة رجال ليصبحوا من رماة الهدف . لهذا كان على الفاشيين المستعربين أن ينوقعوا أوخم العواقب . البعث شخصيا بعدد من الرماة الماهرة المرموقين وتكلمت معهم ، وقمت لهم المساعدة قدر استطاعتي ، ووجهت اهتماما خاصا بفاسيلي زاييتسيف ، وأنا تولي مسحوف وفكتور مدفيدف و آخرين غيرهم . وكنت أجمع بهم كثيرا .

ولا يظهر على هؤلاء رغم أهليتهم أنهم يميزون عن غيرهم ، فعندما التقيت لأول مرة بزاييسف ومدفيدف ، لغت نظري نواضعهما وحركاتهما البعيدة عن الزهو والخللاء ، وحدثني طبيعتهما الهادئة جدا وانتباههما الشديد . كان باستطاعتهم بسبب نظرهما طويلا على نفس النقطة دون أن ترف أعينهما ، وكان لدهما قبضات صلبة فعند المصافحة كانا بضغطان على اليد كالملزمة الحديبية .

كان الرماة عادة يذهبون « للصيد » باكراً في أرض منتخبة ومحضرة مسبقاً ومموهة بشكل جيد ، وينظرون بصبر شديد ظهور أهدافهم ، وكانوا يعلمون أن أقل نياون من طرفهم ، يعرضهم للموت وخسارة أنفسهم ، وكان العدو يراقب بدقة نشاط رماننا الماهرة . فمن المعروف عنهم أنهم كانوا مقتصدين جداً في الرمي ، ولكن كل طلقة من طلقاتهم كان لها معنى واحد هو الموت للخصم الذي أطلق عليه ، أو ببر أحد أعضاء جسمه .

جرح فاسيلي زاييتسيف في عينه ، ومن المحتمل أن الرامي الألماني بذل جهداً كبيراً لكشف الفناص الروسي زاييتسيف ، الذي سجل لحسابه قتل حوالي ٣٠٠ من الفاشيين . بعد ذلك بدأ زاييسيف باختيار رجاله ليكمل منهم رماة مهرة ، أي كما كان يقال ، اخنار أرائنه الصغار .

وعلى العموم كان كل رام يعمل على وضع خبرته تحت تصرف الآخرين وبعلم الشبان من الرمي الدقيق ( رماة الحق ) . وكان جنودنا يتندرون بقولهم :

-بدر زائيسيف أرائبه الصغار ، ويدرب مدفيسيف ديبه على اقتناص الألمان دون أن نخيب أبة ضربة من ضرباتهم .

رافنا فكتور مدفيسيف حنى برلين ، ولائحة فرائسه من الهنريين فاقت لائحة أستاذ زائيسيف .

أثار نشاط رمانا المهرة الجنرالات الألمان بشدة ، وبخاصة بعد أن وقعت في أيديهم إحدى نشراتنا ، وفيها لائحة عن الخسائر التي كبدها لهم رمانا المهرة . لذلك أخذوا يعملون لأخذ الثأر في هذا الفرع من مهنة الحرب .

وأخبرنا أفاندا أحد المخبرين الذين جلبه لي رجالنا في نهاية أيلول ، بأن طائفة قدمت من برلين وتحمل معها مدير مدرسة الرماة المهرة الألمان الرائد كوننج بمهمة القضاء ، قبل كل شيء على افضل رام ماهر سوفيني .

لهذا استدعي العقيد باتيوك قائد الفرقة مهرة رمانه وقال لهم :

- اعتقد أن هذا القناص الخارق الذي وصل من برلين لن يخيف رمانا المهرة ، أليس كذلك يا زائيسيف ؟

- كن واثقاً من ذلك أيها الرفيق العقيد - أجابه فاسيللي زائيسيف .

- إذن من الضروري القضاء على هذا القناص الخارق - تابع العقيد كلامه - ولكن بحذر ونكاء .

أخذت في ذلك الوقت تتضخم مجموعات الرماة المهرة بازدياد ، حيث قتلوا بضعة آلاف من الفاشيين . وكنا نذكر ذلك في صحفنا ونشرياتنا اليومية ، التي وقع بعضها في أيدي العدو ، الذي درس طريقة عمل رمانا وبدأ باتخاذ التدابير المضادة وأنا أقول بصراحة - وهذا من الماضي - ففي القوت الذي أصبحت فيه أعمال مهرة الرماة وتجاربهم شعبية ، كان علينا أن لا نتعجل ذلك فيكفي أن يصاب ضابط أو ضابطين من العدو ، حتى يفتح العدو ، نيرانه الكثيفة علينا ، وبخاصة على الكمين الذي أطلق النار . وكان من الضروري الهرب بسرعة من مخارج النجاة والتخلص بسرعة من المأزق .

وضع وصول القناص الخارق ، أمامنا مشكلة جديدة . فكان علينا معرفة مكانه ، ودراسة تصرفاته وأساليب المواجهة التي يتبعها ، ثم الانتظار بصبر اللحظة التي نستطيع فيها الرمي طلقة واحدة فقط ، ولكن محكمة .

حول هذه المباراة الغريبة يستعيد زائيسيف ذكرياته ، ويتحدث عن النقاش الحاد الذي جرى في إحدى الليالي في مخبأنا الأرضي فيقول : « كان كل قناص

من بيننا بشرح افراضانه ، ونصوراه ، ونتاج مراقبته الدائمة لخطوط العدو الاولى ، وقد قدمت اقراحات على صور مختلفة ، ودرست مختلف الخدع والحيل ، ولكن فن قتال الرماة المهرة يتميز بهذا الاختلاف ، فبالرغم من الخبرات العميقة التي يمتنع بها كل منهم ، إلا أن رامياً واحداً هو الذي يقرر طريقة المواجهة . وذلك عندما يكون وجهاً لوجه أمام العدو ، فهناك وفي كل مرة عليه ابتداء الأساليب واكتسابها ، والعمل دائماً بطريقة جديدة ، فبالنسبة للرامي لا توجد طريقة تقليدية والتقليد يعادل بالنسبة إليه الانتحار .

ولكن كل منا كان ينسأل وبطلب من الآخر : أين هذا القناص الخارق القادم من برلين ؟ فأنا كنت أعرف طبيعة مهارة الرماة الألمان من طريقة رميهم وبمويهم ، وكنت أميز دون أدنى صعوبة الرماة الأكثر تجربة من بينهم ، من الرماة ذوي الخبرة الضعيفة ، وكذلك الجبناء من ذوي العزم والصلابة ، ولكن طبيعة هذا القناص الألماني الخارق ظلت لغزاً علينا ، ولم تحمل لنا المراقبة اليومية التي يقوم بها رفاقنا أية معلومات دقيقة ، كان من الصعب القول بأي قطاع هو موجود ، فقد كان دون شك يغير موقعه يومياً وكنت أفتش عنه ، كما كان هو يفتش عني بحذر ، وإليكم ما حصل ! استطاع العدو تحطيم منظار سيد صديقي موروزوف ، وجرح شيكين رغم أن كليهما من مهرة الرماة المجربين ، وكانا يخرجان غالباً منصرين في أكثر المواجهات نعيداً وحدة مع العدو . وحتى ذلك الوقت كنت لا أشك بأنهما وقعا على القناص الخارق الذي كنت أفتش عنه ، لذلك ذهبت في الفجر مع نيقولاي كوليكوف إلى هناك حيث يوجد رفاقنا المصابون ، وعند مراقبتي للخطوط الأولى المعادية والتي خضعت لمراقبة دقيقة أياماً كاملة ، لم أكتشف أنا أيضاً شيئاً جديداً ، ولكن عندما هبط النهار ظهرت فجأة خوذة فوق الخندق الألماني وكانت تنتقل ببطء على طول الخندق وسألت نفسي هل أطلق ؟ وكان الجواب لا فهذا فخ لأننا لم نكن نعرف ما هي هذه الخوذة التي تهتز بشكل عادي تقريباً ، ومن الواضح أنها كانت محمولة من قبل مساعد القناص ، الذي هو الآخر كان ينتظر مني أن أخون نفسي وأطلق في الأول .

- إلى أي حد سوف يمويه نفسه ؟ تساءل كوليكوف . عندما كنا نترك نقطة الكمين بسبب الظلام . ونظراً للصبر الذي أبداه العدو طيلة النهار توقعت وجود القناص البرليني هناك ، لذلك كان علي اتخاذ أقصى الحذر الدقيق .

مر اليوم الثاني هل أتمتع بأعصاب قوية ؟ ومن يكون بيننا الأخبث ؟ كان صديقي الحميم نيقولاى كوليكوف في الكمين ، خلال هذه المباراة صبوراً أيضاً ولم يعد يشك أن العدو كان أمامنا تعاماً ، وكان يأمل بالنجاح بسرعة . ذهبنا في اليوم الثالث إلى نقطة الكمين يرافقتنا الموجه السياسي دانييلوف . بدأنا في الصباح كالعادة عندما أخذ الظلام بالانقشاع وكشف دقيقة بعد دقيقة مواقع العدو ، كانت تظهر بوضوح شيئاً فشيئاً . كانت المعركة صاخبة حولنا . والقنابل تزمجر في الهواء ، ولكن أعيننا كانت ملتصقة بالمناظير نراقب كل ما كان يجري حولنا دون انقطاع . وفجأة قال الموجه السياسي .  
- ها هو القناص ! سأظهر له أصبعي ، ورفع نفسه قليلاً للأعلى دون حذر بشكل جانبي فوق حافة الخندق وخلال ثانية من الزمن . وكان هذا الوقت كافياً لأن بصاب الموجه بجرح ، ومن الطبيعي أنه لا يمكن لقناص ماهر مجرب أن يرمي هكذا .

ويتابع زائتسيف : « درست طويلاً مواضع العدو ، ولكن دون أن أرى أين يكمن العدو . وقد استنتجت بسبب سرعة الرمي ، أنه في موضع ما أمامنا وبخط مستقيم لذلك تابعت مراقبتي ، وعلى اليسار كانت هناك دبابة مدمرة وإلى اليمين يوجد بلوكوس ( تحصينات ) ميداني ولكن أين هذا الفاشي ؟ هل هو في الدبابة ؟ لا ؟ فقناص مجرب لا يحنجر نفسه فيها . إذاً من المحتمل أن يكون في البلوكوس ؟ أبداً ، فكة البلوكوس مغطاة . وبين البلوكوس والدبابة كانت تتحرك على أرض مسطحة ورقة صفيح بالقرب من كومة من الآجر المفتت دون أن تنتبه إليها . وضعت نفسي في مكان العدو وأخذت أفكر ، أي مكان أفضله لوضعية الرمي ؟ لماذا لا تكون هناك حفرة تحت هذه الصفيحة ، تحفر ليلاً وتوصل بممرات مغطاة ؟

نعم إنه هناك ومن المحتمل أنه تحت الصفيحة في الأرض الحيادية ، فقررت أن أتأكد من ذلك لذلك علقت بكرة ورفعتها في الهواء على رأس خشبة ، وهنا عض القناص على الطعم وأطلق ، أسقطت البكرة بسرعة في الخندق في المكان الذي رفعنها فيه ، وفحصت باننباه الثقب الذي أحدثته رصاصة القناص فلم أجد فيها أي انحراف وكانت ضربة بخط مستقيم . إذن هو تحت الصفيحة . إذن القدر هناك ! علق على ذلك رفقى في الفريق نيقولاى كوليكوف بصوت منخفض وهو يراقب من الكمين المجاور .

من الضروري الآن إجباره على الكشف ووضع قسما صغيرا من رأسه فوق منطاري . ومن الطبيعي أن لا نجرب في تلك اللحظة الخطئة لعدم فائدتها فمن الضروري أن يكون هناك وقت كاف .

درسنا الآن طبيعة هذا الفاشي فلم يدرك هذا المكان الملازم له ، اما نحن فكنا مجبرين على تغيير أماكننا .

عملنا في الليل ، وبقينا في المكان حتى الصباح ، كان الهنريون يوجهون رماياتهم على معرات الفولغا والنهار برفع بسرعة ، ومعها بضاعت حدة المعركة ، ولكن كل ذلك لن يبعدنا عن إنعام مهمتنا إن كانت زمجره المدافع أو فجور الفذائف والغارات .

ارفعت الشمس وأطلق كوليوف طلقة « المرأة المخمورة » ، فمن الضروري إثارة إنباه القناص .

قررنا انتظار اللحظة التي لا يمكن بها أن نخوننا انعكاسات أجهزة التسديد ، بعد الظهر كانت بنادقنا في الظل ، في حين كانت الشمس تسقط عموديا على خصمنا ، شيء لمع على حافة الصفيحة : هل هو تناثر زجاج سقط صدفة أم منظار تسديد ؟ أخذ كوليوف بحذر يرفع خونته موهما بأنه أفضل القناصين خبرة ، وهنا أطلق القناص الألماني عليه النار معتقدا أنه اسنطاع أخيرا قتل السوفيني ، الذي كان يفتش عليه طيلة أربعة أيام ليصطاده ، رفع نصف رأسه فوق الصفيحة ، وهذا ما كنت أنتظره ، وأطلقت تماما وفي تلك اللحظة ، وبذلك انمحي رأس الفاشي وسقط منظار تصويب بندقيته وظل يلعب في الشمس دون أن يتغير مكانه حتى الليل .

هؤلاء هم الرماة المهرة في الجيش ٦٢ ، ولبس من العدل أن أذكر هؤلاء المشاة فقط . ولم يكن عندنا القليل من رماة المدفعية المهرة وسدنة الهاونات ، فهناك ضباط المدفعية مثل شومكين وقائد وحدة الهاون بيزديكو الذي كان مرموقا في كل الجيش بدقة نيرانه ، فلم تكن تستطيع أن ترى أية دبابة عدوة تمر دون عقاب أمام سرية مدفعية شومكين ، وهاونات بيزديكو إذا كان بالامكان إصابة العدو عبر قساطل المداخل .

لا يمكن أن أنسى المدفعي ، قانص الدبابات برونو دياكونوف الذي تحدثت معه شخصا في مخبأي المغطى ، حيث استدعيته وهو من قومية ياكوت . كان رجلا طويل القامة ذا فيزيولوجية كبيرة . بقي لوحده سدينا لمدفع ٤٥ ملم بين

خنادقنا وخنادق العدو في وهدة من الأرض ، وعلى المنحدرات الشمالية لكورغان مامايف . ولم يثر انتباه العدو بسبب نمويته الجيد ولا طواقم الدبابات المعادية الا بعد أن تشتعل النيران بدباباتهم أو نصاب .

ومرة، عندما لاحظوه وعلموه عن طريق نيرانه كان من الطبيعي أن يفتحوا عليه نيران المدفعية الكثيفة ، فأصاب إحدى الشظايا منظار نسيدي المدفع ، ولكن المدفع ظل يعمل وبقي برونو دياكونوف في مكانه ، ولم يترك مدفعه وظل يطلق على العدو بنسيدي محكم عن طريق فتحة السبطانة وعندما كانت الدبابة تظهر أمام أنف مدفعه ، كان يلجم بسرعة ويضرب العدو بنسيدي مباشر . التقيت مجدداً ببروتودياكونوف في ١٩ آذار ١٩٧٢ في سنالينغراد على مرتفع مامايف ، لقد تغير كثيراً ، وتغيرت أنا أيضاً ، وهذا شيء طبيعي بعد ثلاثين عاماً ولكننا عرفنا بعضنا .

كانت المعركة في المدينة معركة خاصة والقوة هنا لبست هي التي تقرر بل الحيوية ومعرفة ما يجب عمله . وحسن التصرف والتخلص والمفاجأة . كانت الأبنية السكنية حطاماً مثل الأمواج المتكسرة . وقد توزعت تشكيلات العدو على جوانب الشوارع ، وكنا نصمد بعناد في الأبنية الصلبة التي كنا نركز فيها وحدات صغيرة نجهزها بكل الامكانيات ، التي تستطيع بها القتال الطويل والشديد رغم تطويق العدو لها . ساعدتنا العمارات المتينة بجعلها نقاط استناد قوية يستطيع المدافعون عن المدينة اصطلياد العدو بنيران رشاشاتهم وبنادقهم الآلية .

نخلينا في هجماتنا المعاكسة عن الهجمات التي كنا نقوم بها بالمفازز القوية أو الوحدات الكبرى ، وظهر في كل الوحدات اعتباراً من ١ أيلول ما نطلق عليه مجموعة الانقضاض ، التي كانت قليلة العدد ولكنها كانت قوية بصدمتها بشكل لا يمكن مقاومتها ، حيث تعمل وتتمرب برشاقة الثعبان . وكان كل هدف يحمله العدو يتعرض لمجموعات الانقضاض هذه فوراً ، ونادراً ما كان الهتلريون بصمدون أمام هجماتها ونيرانها ومنفجراتها وقنابلها البدوية التي تدعمها الحربة والسكين ، وكانت الشوارع فارغة ولا قتال فيها في حين كان القتال يجري في داخل الأبنية ، التي يراد احتلالها ، وفي الأقبية والطوابق والغرف وكل منعطف في ممراتها الداخلية .

تعلم جنودنا وضباطنا كيفية الاقتراب من العدو عندما يمهد لهجومه

بالطيران أو المدفعية ، وذلك بالزحف والنماس معه في مواضعه التي كان بحنمى بها ، وكان طيارو العدو ورجال مدفعينه يخشون عند الرمي على مواضعنا من أن بقصفوا مواضع جنودهم ، لذلك كنا نسعى بإرادتنا للقتال على أقرب ما يكون من العدو .

لم يكن الهنريون يحبون مطلقا أو بالأحرى لا يعرفون القتال القريب ، وغالبا لم يكونوا معنوبا أهلا للصمود . وفي أغلب الأحيان كان جنود العدو يظهرون بشكل واضح على الخطوط الأولى ، وكانوا في الليل يظهرون أيضا وبين كل خمس أو عشر دقائق يرمون صلية نارية من أسلحتهم . ومن الواضح أن ذلك كان لاعطائهم القوة والشجاعة . فهم جنودنا بسهولة هذا الأسلوب الحربى لذلك كانوا يزحفون إليهم ليلا ويقضون عليهم إما بنيران طلقانهم أو بحرايبهم .

علم المدافعون عن المدينة كيف يتركون الدبابات الألمانية نمر فوقهم وتحت نيران مدفعينا المضادة للدبابات وقانصات الدبابات ، ولكنهم كانوا لا يوفرّون نخيرتهم لفصل الجنود الألمان عن دباباتهم التى تقوم بالاختراق لوحدها فهي دون مشاة لا تستطيع القتال ، وتضطر لعكس اتجاهها وتعود أدراجها دون نجاح بعد تكبدها الخسائر الفادحة .

كان الليل ومعركته من اختصاصنا . ولم يكن الغزاة يعرفون كيف يتصرفون في الليل . أما نحن فتعلمنا أن لا نعمل إلا في الليل نحت ضغط الظروف القاهرة التى لم نكن لترحم أحدا . كنا نتخذ مواقف الدفاع طيلة النهار لصد الهجمات الهندية . وكان هؤلاء لا يتحركون دون حماية جوبة أو دعم المدرعات وكانت مجموعات الانقضاض تخفي أليا في المباني والملاجئ تنتظر اقتراب العدو منها وإلى مدى القنبلة البدوية .

استخدمنا شتى الوسائل لتدمير العدو وإيادته ، فمثلا كنا نعلم أنهم يستريحون في الليل في ملاجئهم ، لذلك كنا نعمل ونحاول لجئهم الى النوافذ والكوات فبعد صرخة ( هرا ) الروسية وإلقاء القنابل اليدوية ، كان العدو يندفع مذعورا نحو النوافذ والكوات ، ومراكز الرمي لصد هجومنا المزعوم ، وفي تلك اللحظة نفتح المدفعية والرشاشات نيرانها على العدو .

كانت رميات الكاتيوشا فعالة ضد أماكن وجمعات المشاة والدبابات التى كنا نعمل على كشفها قبل كل هجوم جديد للعدو . لذلك لا يمكن أن أنسى في هذا المحال لواء الكاتيوشا بقيادة العقيد ايروخين ، الذي كنت النقى به كثيرا في

المعركة . كانت أجهزة وطافم نوجيه الفذائف فى هذا اللواء محملة على هيكل دبابة ٦٠ ذات سلاسل ، وكان يعطيها ذلك سهولة للمناورة فى أى اتجاه وعلى أى أرض .

كان هذا اللواء المتمركز فى ستالينغراد صعب الإصابة من قبل العدو ، حتى عندما كان يعود إلى مواقعه الدائمة خلف الحافة المنحدرة نحو الفولغا ، ولم يتمكن العدو من تعليم مكانه . وكان باستطاعة ابروخين اسندعاء لواءه المنحرك مع أجهزة الرمي إلى أماكن الرمي الخاصة به ، والقيام بضربه أو بالآخرى فذف صلبة عنيفة على العدو والانسحاب بنفس السرعة التى أتى بها والاختفاء وراء السار .

كان عتاد هذا اللواء مخيفاً للعدو . كما كان بين أيدي أمينة من حنود وضباط . ولا يمكننا إيراد كل ما ابتدعه محاربونا فى معارك الفولغا الشرسة . لقد نقدمنا وندربنا وتعودنا على الحرب من أبسط جندي إلى أعلى ضابط .





## بسالة رجال الحرس

(١)



تؤكد كل المعلومات التي تلقيتها في ٢٦ أيلول من عناصر الاستطلاع أن العدو يمهّد لنوجبه بهذه الرئيسي في هجومه الجديد نحو غوروديتشنشه - رازغوليفكا . وبدون أن توقف هجمات مدفعينا على مراكز تجمعات مشاة العدو وببابانه ، قررنا الصمود أمام صدمة العدو بكل ما لدينا من سلاح وبفوق المجموعة المدرعة ، وفرقة مشاة إيرمولكين . كما التحق بنا زيادة على ذلك الفرقة ١٩٣ مشاة بقيادة الراند جنرال و . سميخوتوفوروف التي أرسلت لتعزيز الجبهة الدفاعية للفيلق المدرع .

كنا بقلق دائم بخصوص كورغان ماماييف ، الذي كان يدافع عن قمه أقسام من فرقة غوريشني . لقد احتل العدو المنحدرات الجنوبية والغربية للهضبة ، ويكفي أن يتقدم العدو منه منر حتى يسقط هذا المفناح التعبوي للدفاع عن المدينة ، وعن مدن العمال التي يمكن أن تقع في أيدي العدو ، ولكي لا نسمح للعدو ، ونحبط تحضيراته المنهجية للهجوم على أحياء المصانع ، قررنا العودة إلى الهجمات المعاكسة .

لم نزع قواتنا إلا جزئياً بالهجوم المعاكس ، وليس على جبهة متصلة ولكن بمجموعات انقضااض ، أما القوات الرئيسية فقد ظلت في مواقعها المحضرة لصد الهجوم الألماني من جهة غوروديتشنشه .

أعطى أمر الهجوم المعاكس في ٢٦ أيلول الساعة ١٩,٤٠ ، ولكن التعليمات عن الاحتمالات القادمة للمعركة كانت قد أرسلت قبل أربع وعشرين ساعة . مع مراقبة مستمرة للعدو لاكتشاف نقاطه الضعيفة ومواضعه على طول جبهة الجيش .

كان الجميع يعرفون ويشعرون ويرون العدو وهو يحضر لعمليات نشطة

حديده ، وتركهم بفاحأون بداية الهجوم معناه الخسارة . فالفراغ الذى بحنله الجيش ٦٢ على الطرف الأيمن للقولما كان ضيقا جدا ولا سمح بالراجع لاي مكان .

أثبت المثال التالى ، كم هو صحيح وعميق نعرف الضباط ، وحتى أسط الجنود على موقف العدو فى تلك الأيام ، فكما نعرف أن النموين بالنخيرة والغذاء كانا فارغان على شاطئىء الفولغا نم بنقلان على الأتزع والأكشاف من مناطق الإنزال وحتى مواقع الرمى والخنادق فى الخطوط الأولى . وكان عملا منهكا وشاقا ، وإذا كنا فيما مضى وقبل أسبوع نخبر القوات بوصول النخيرة ونطلب استلامها حالا وبسرعة ، فالمستقبلون الآن والحمالون أخذوا يصلون بفصائل كاملة إلى أرصفة التفربغ دون أي إخبار تلفونى سابق أو خلاف ذلك ، ومنذ هبوط الظلام . وما تكاد المراكب نصل حتى يجري تفريغها بسرعة ونحمل حمولتها إلى الخطوط الأولى .

من الضروري هنا أن نسجل ما قام به بحارة أسطول الفولغا بقبادة الأمرال د . روكاتشيف والخدمات غير المتوقعة التى قدموها للجيش كوسيلة إيصال الحمولات من الطرف الأيسر . فكل رحلة بين الضفتين كانت لها خطرة ، ومع ذلك لم يصدف أن بقيت بعض المراكب الحربية أو البخارية وغيرها مع حمولتها على الطرف الآخر .

وسأنكلم باختصار عن دور بحارة أسطول الفولغا ، وما أثرهم البطولية وأقول لولاهم كان من المحتمل أن يباد الجيش ٦٢ بسبب النقص فى النخيرة والغذاء ولا يمكنه من تأدية واجبه .

استند الجميع من مشاة ومدفعية ودبابات وبحارة وكل المدافعين عن سبالينغراد ، لصد هجوم العدو على المصانع الكبرى ومدن العمال ، وبدأنا نحن أيضا فى الهجوم المعاكس فى ٧ أبلول فى الساعة السادسة صباحا . وقام الجيش ٦٤ فى نفس اليوم بهجوم فى قطاع كوبروسنوي .

نجح الهجوم المعاكس فى البداية ، ولكن فى الساعة الثامنة ، حلقت مئات الطائرات الألمانية التى أخذت تنقض على مواقعنا . لذلك اضطرت الوحدات المهاجمة للتوقف والاحتماء بالأرض ثم انتقل العدو للهجوم فى الساعة ١٠,٣٠ ، واندفعت فرقة المشاة الخفيفة (١٠٠) المعابية ، التى وصلت حديثا للجبهة وكذلك فرقة المشاة ٣٨٩ بعد أن استكملت تعدادها تعززهما الفرقة المدرعة

٢٤ : لاحتلال بلدة كراسني أوكتيابر ومرنفع ماماسف .

أخذت طائرات العدو نفقض على مواقعنا الدفاعية اعتباراً من الخطوط الأمامية حتى الفولغا ، ثم على نقطة استناد مامابف ، وكانت ندافع عنها قوات غوريشني بعد أن حُصّنت . وقد سحقنا هذه النقطة كلياً تحت ضربات طيران وقصف المدفعية كما كان مركز قيادة الجيش واركانه طيلة الوقت نتعرض للغارات الجوية ، ثم اشتعلت النيران بمستودعات البترول ، وبعد ذلك اندفعت دبابات العدو بالهجوم اعتباراً من غوريشنيشتشه بخط مسنقيم عبر حقول الألغام ننعها وحدات المشاة التي كانت تنقذ بأمواج متلاحقة إلى الأمام . وأصبح الإتصال التلغفوني حوالي الظهر غير مؤكد مع القطاعات ، وتعطل مركز الرابو .

لم نكن نعرف تماماً ماذا يجري في الجبهة ، وقد كنا دون إتصال ثابت رغم قرب مركز القيادة ، حيث يقع على بعد ٢ كم من الخطوط الأولى . لذلك اضطررنا للتقدم أكثر من الخطوط الأولى ، لكي نشرف بفعالية أكثر على مجرى المعركة وانطلق غوروف ومعه ضباط إتصال الوحدات نحو الفيلق المدرع ، ونوجهت أنا إلى فرقة بانيوف ، في حين ذهب كريلوف إلى مركز قيادة غوريشني . ورغم أننا كنا قريبين من الوحدات المقابلة لم نستطع تكوين فكرة كاملة عن المعركة التي كانت تدور تحت غطاء كثيف من الدخان . وعندما عدنا في المساء نحو مركز القيادة ، وعدنا أنفسنا وجدنا أن عدداً من ضباط الأركان ، تخلفوا عنا إلى الأبد .

نجحنا في ساعة متأخرة من الليل أن نطلع على الموقف وكان حرجاً للغاية فبعد أن اجتاز العدو حقول الألغام وعبر مواقعنا المتقدمة استطاع التقدم بثمن باهظ من الخسائر مسافة كيلومترين إلى ثلاثة كيلومترات إلى الأمام في بعض القطاعات .

فكرت أن معركة أخرى من هذا النوع سوف لن نجد أنفسنا إلا ونحن في الفولغا فقد نكبد كل من فيلقنا المدرع والجناح الأيسر لفرقة إيرمولكين خسائر فادحة وهما اللذان نحملنا صدمة العدو الرئيسية ، والأحياء الباقون من هذه الوحدات احتلوا آخر النهار ٢٧ أبلول جبهة ممتدة من قطاعات ! جسر مانشنشكا إلى كيلومترين ونصف غرب بلدة باريكادي ، وحتى القسم الجنوبي الغربي منها ، ثم إلى القسم الغربي من بلدة كراسني أوكتيابر .

كما أرندت فرقة غوريشنى بعد قتال عفيف عن قمة كورغان ماماييف .  
بمفصلات وحداتها وهي بحل المنحدرات الشمالية الشرقية للهضبة .  
أما في بقية الفطاعات ، فقد صد العدو .

فقد العدو في يوم واحد من المعارك الالف القتلى ، وأكثر من خمسين دبابة .  
وبحسب أيضا نكبدنا خسائر فادحة ، وبخاصة في وحدات الفيلق المدرع وألوية  
المشاة التابعة لفرقة غوريشنى .

وعلى هذا طلب المجلس العسكري في الليل من كافة الضباط السياسيين  
والموجهين للوحدات والأقسام ، أن يظلوا وبصورة دائمة في الخطوط الأولى مع  
الجنود في الخنادق والحفر والعمل على إعادة تنظيم ورتيب القتال في الوحدات  
والقتال حتى آخر طلقة .

هل هناك حاجة للنويه بما كان عليه الحوار في خنادق الخطوط الأولى من  
أهمية كبرى وبخاصة بين ضباط برتبة عالية والموجه السياسي من جهة والجنود  
البسطاء من جهة أخرى ، وكنت أعرف بنجربنى الشخصية أنه عندما نتكلم مع  
الهندي في خندقه ، فنحن نقسم معه النعب والفرح وبخاصة عندما نشعل سوبة  
سيكارة وننصرف على الوضع ونناقش طريقة العمل وهنا تترسخ الثقة بين  
المحاربين « مادام القائد هنا فعلينا الصمود » ولا يتراجع الجنود دون أمر .  
ومن الأهمية بمكان أيضا أن يعرف كل محارب أن رئيسه لا يبقى جالسا في  
مخبئه ، وفي هذه الحالة نكون متأكدين من أن الأوامر ستنفذ . لبس من  
الصروري دائما أن يكون قائد الفرقة في الخنادق الأولى . فمكانه الطبيعي في  
مفرد في القيادة . ولكن عند احساسه بوجود خطر داهم فعليه أن لا يبتعد عن  
الخطوط الأولى ، وأن يكون في أقرب مكان ممكن من جنوده وهنا ، لا يمكن أن  
يرتكب الجنود أي خطأ ، ويفتحون لك صدورهم وينفذون مهامهم .

أح المجلس العسكري للجيش على كل الضباط والموجهين السياسيين ، بما  
فيهم ضباط الأركان ، أن يكونوا في الخطوط الأولى ليظهر واضحا للجميع أن  
لا تراجع هناك ولا نعرف إلى أين نتراجع .

نزلت في ليل ٢٨ أيلول عناصر لواءين من فرقة المشاة بقيادة الجنرال  
سمبخو نغوروف على الضفة اليسرى حيث التحقت بنا ، وزجت هذه الألوية في  
المعركة فورا على الحدود الغربية لكراسنى اوكنباير ، كما حضر هجوم  
معاكس على كورغان ماماييف بما تبقى من عناصر اللواء التابع لفرقة غوريشنى

بدعمهم عناصر من فرقة بانبكو ، وأعطيت الأوامر بقيادة مدفعية الجيش بمواصلة الرمي طوال الليل بالمدافع والهاونات على المرفع لأجل أن لا نسمح للعدو بحصينه ونفوينه .

ثم شن العدو صباح ٢٨ أيلول هجوما عنيفا بالمشاة والدبابات ، وكان طبرانه بهاجم بكثافة دون انقطاع مواضع فواننا ، ومعار النهر ومركز فنادة الجيش . ولم تكن الطائرات ترمي القنابل فقط ، بل كانت ترمي معها ايضا قطعاً من الحديد وقواعد العربات ، وأجزاء الحرايات وال تجهيزات الزراعية واعمدة وقطع من الصفيح المفرغ ، وكانت هذه الأشياء تحدث صغيراً ، وضجة خلال طيراتها فوق رؤوس محاربينا .

إثر ذلك أخذنا نشرح - بصدد هذا الوضع - للجنود بأن العدو باستخدامه هذه المعدات المعدنية ، فمعناه أنه لم يعد لديه من الوسائط بشكل عام ، يمكنه أن يستخدمها في المعركة . لقد حاول العدو برمي قطع الحديد أن يخلق ضغطاً نفسياً علينا ، ولكن كان مسعاه دون جدوى .

أعطيت خمس مراكب من المراكب الستة التي كانت ننقل إلينا الامدادات عبر الفولغا ولم يبق سوى واحدة ، ومن جهة أخذت السنة اللهب المتصاعدة من مسودعات البرول ، التي كانت نحترق نصل إلى مخبأ المجلس العسكري المصفحة وقد اخنق رجال مركز القيادة والأركان من الحرارة والدخان . وإثر كل غارة يقوم بها العدو كان هناك عطب في مركز الراديو وخسارة في الأشخاص .

حتى طبأختنا غلينكا نفسها جرحت وهي في مطبخها الموجود في أحد الخنادق الضخمة .

كنا نشعر رغم كل شيء أن العدو وصل إلى حد الانهالك ، وأصبحت هجماته غير منتظمة ، ولم يعد لديها ، أو بالأحرى لم تعد تنصف بطابع التنظيم والاستمرارية ، كان العدو يرمي في المعركة أفواجا مدعومة بالدبابات في مختلف القطاعات ، دون تركيز كبير أو إصرار مما كان يعطينا الفرصة لصد الهجمات التي يشنها بالنيران الغزيرة ، الواحدة تلو الأخرى والقيام بالهجمات المعاكسة ، وقد طلبت من قائد الجيش الجوي ت . كريكين مساعدتنا وقدم لنا هذا مساعدة قيمة وعمل ما في وسعه .

فام لواء من فرقة غوريشني في الوقت ، الذي كان فيه طيرانا يشن أكبر

غارانه ، مع فوجين من فرقة باتيوك بهجوم قوي وحازم على كورغان مامابيف واستطاعوا احلال النفطة الجيومنرية الواقعة فوق المرتفع ولكنهم لم يصلوا إلى النفطة نفسها حيث مسنودعات المياه . ظلت النفطة أرضا محايدة ووضعها المدفعية تحت نيرانها من كل الانجاهات .

صمدنا في المجموع طيلة يوم ٢٨ أيلول في مراكزنا فلم بسنطع العدو تطوير هجومه أو تقدمه ، ولم يكن بحالة يسنطبع التغلب على مقاومتنا الصلبة والتي كان يظهرها رجال صمموا على الموت دون التراجع ، وفي ذلك اليوم فقد الفاشيون على الأقل ١٥٠٠ قتيل و ٣٠ دبابة محروقة وعلى منحدرات كورغان مامابيف ، كانت هناك حتى ٥٠٠ جثة معادية .

وخسائرتنا كانت هي الأخرى مرتفعة حيث فقد الفيلق المدرع ٦٢٥ قتيل وجريح ، أما فرقة باتيوك ففقدت ٣٠٠ قتيل ولم يبق إلا القليل من محاربي فرقة كروشني ، ولكنهم مع ذلك كانوا يستطيعون متابعة القتال .

جعلت الخسائر التي أصابت وسائل عبورنا في الفولغا اجتياز القوات للنهر صعباً في المعابر . وكذلك نقل الذخيرة ، والعدد الكبير من الجرحى الذين لم يتمكنوا من العبور ليلاً ، ظلوا متجمعين على الضفة اليمنى للفولغا .

في نفس الوقت أفادت مصلحة الاستطلاع أن قوى جديدة من المشاة والدبابات العدو تتقدم من قطاع غوربيتشيتشه ، وتتحرك نحو كراسني أوكتيابر . ولم يناخر البدء بمعركة المصانع وضواحيها .

ولهذا قررنا الانتقال للدفاع الصلب باستخدام أقصى ما يمكن من سدود الهندسة . فأمر القتال رقم ١٧١ الذي أعطي في ٢٨ أيلول الساعة ١٩,٣٠ ذكر بوضوح « يتطلب من كافة قيادات الوحدات الإسراع بأقصى ما يمكن بتنفيذ أعمال الهندسة لدعم مواقعنا وعمل السدود في الخطوط الأولى بعمق ضد الدبابات والمشاة وكذلك في العمارات للدفاع ، حيث احتمال القتال في الشوارع . وستستخدم كل الوسائل المتوفرة لاقامة الحواجز والسدود في المكان ، بما فيها تدمير البيوت وخطوط « الترامواي » ، وطلب معونة المدنيين عن طريق المنظمات المحلية .

تنفيذ العمل بقسمه الأكبر من قبل الوحدات وبوسائلها الخاصة « اعملوا ليلاً ونهاراً لتنفيذ الأعمال المطلوبة ! »

أما الأعمال ذات الصبغة العاجلة ، وبخاصة الحواجز ضد الدبابات ، فيجب

إنهاؤها في التاسع والعشرين من أيلول ١٩٤٢ صباحاً بشكل أصبح معه المدينة والمراكز الصناعية قوبة لا يمكن احتلالها وبجب حماية كل حاجز أو سد بقوة وبمختلف وسائل النيران .

أشروا للجميع بأن الجيش يحارب حالياً دفاعاً عن آخر مواقعه ، ولا توجد منطقة يمكن التراجع إليها لذلك من واجب كل جندي وضابط الدفاع عن خندقه وموقعه دون التراجع خطوة واحدة إلى الوراء ، ويجب تدمير العدو بأي ثمن . ويجرنا الحديث إلى موضوع آخر فالآف من القنابل ومئات الآف من الألغام والقذائف رميت على المدينة ، وترمى عليها يوميا فيكف يمكن معرفة فيما إذا كانت هناك سلطة محلية أو سكان مدنيون .

كانت السلطات المحلية وآلاف السكان في أحياء المعامل يساعدون الجيش ٦٢ بكل قواهم مثلاً في مصنع ( تراكتورني ) ظلت طواقم الدبابات يصلحون ألياتهم المعطوبة حتى الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول بمساعدة العمال في مصنع باريكادي ، كما كان العمال بالتعاون مع المدافعين يصلحون المدافع .

شكل قسم من العمال مفارز للدفاع عن مصانعهم . كما قدمت لجنة الحزب في المدينة والأحياء المساعدة لتنظيمات الحزب في الجيش والضباط ، وأقامت نقاط استناد قوية في المدينة والضواحي العمالية . وكنا لا نتأخر مطلقاً عن اللقاء بسكرتارية لجنة الحزب في المدينة الرفاق ا . ابيكسين و ا . فوفين ، والاتصال مع منظمات الحزب في الأحياء ومع السكاز والعمال ومنظمات الحزب الأخرى ، فالشيوعيون في المدينة كانوا معنا ونحارب سوية من أجل الدفاع عن المدينة .

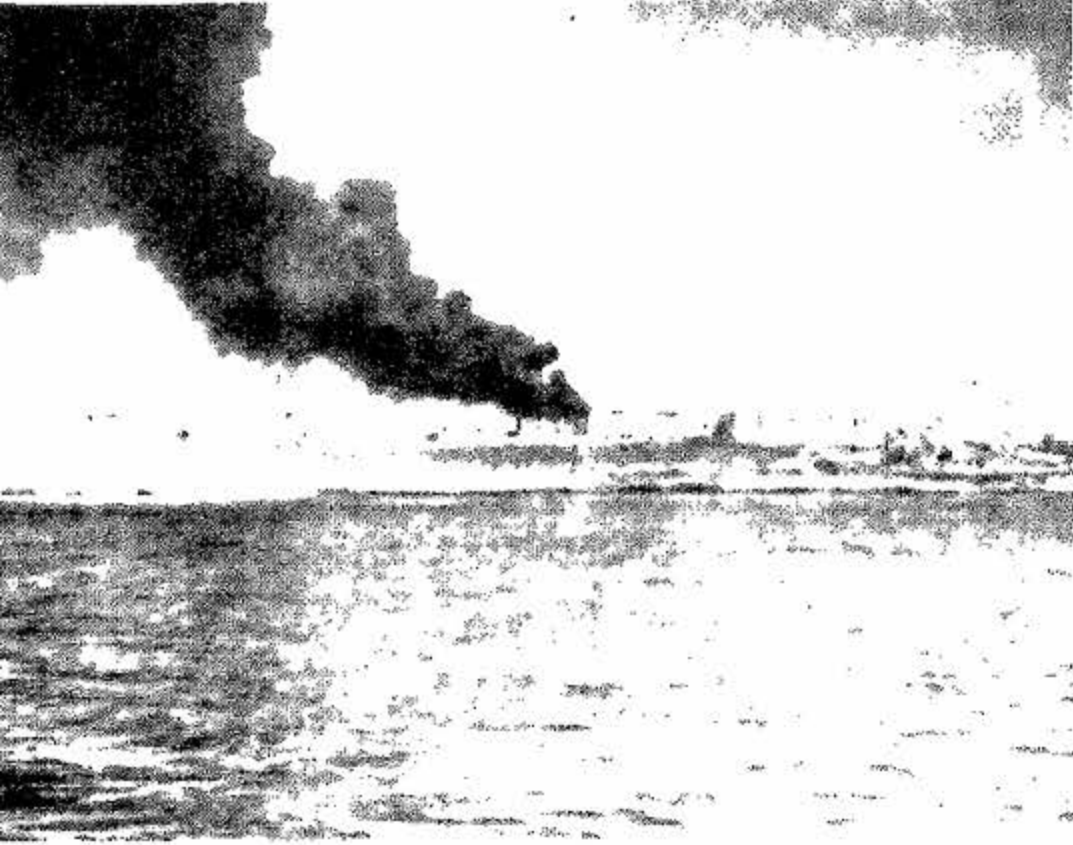
هل يمكن نسيان ف . مالمشيف ممثل لجنة قوميساري الشعب ، الذي أصبح فيما بعد نائب رئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفيتي ( متوفى حالياً ) ، وهو يقاتل في ستالينغراد ، وفي أكثر الأيام لوحده في مصنع تراكتورني وينفذ المهام الموكلة إليه من الحزب والحكومة .

نحن لا نكتب عن هؤلاء الأشخاص كأبطال فقط ، بل نتذكرهم باحترام لمآثرهم البطولية والتي كانوا - دون ضجة دعائية - يظهرونها كل يوم وهم أهل لمثل هذه الأعمال الكبيرة ، ولهذا النواضع الذي يتميز به السوفيتيون المخلصون حتى النهاية لشعبهم وحزبهم الشيوعي الغالي ، فالشيوعيون تحت قيادة

- ف تشويكوف / ١٩٤٢ / .



- ستالينغراد آب ١٩٤٢ .



- منطقة «باريكادي» بداية شباط العام ١٩٤٣ .

- قناصو العربات لا يصيبون المدرعات فقط بل  
وطائرات العدو أيضاً .





.. الجنود السوفييت وهم في حالة هجوم مضاد ..



.. الموجهون السوفييت التابعون للجيش ٦٢  
متحدثون الى الجنود ..



.. ستالينغراد في شهر أكتوبر للعام ١٩٤٢ «ف»  
تشويكوف ك. غوروف» في حالة رصد ومراقبة ..

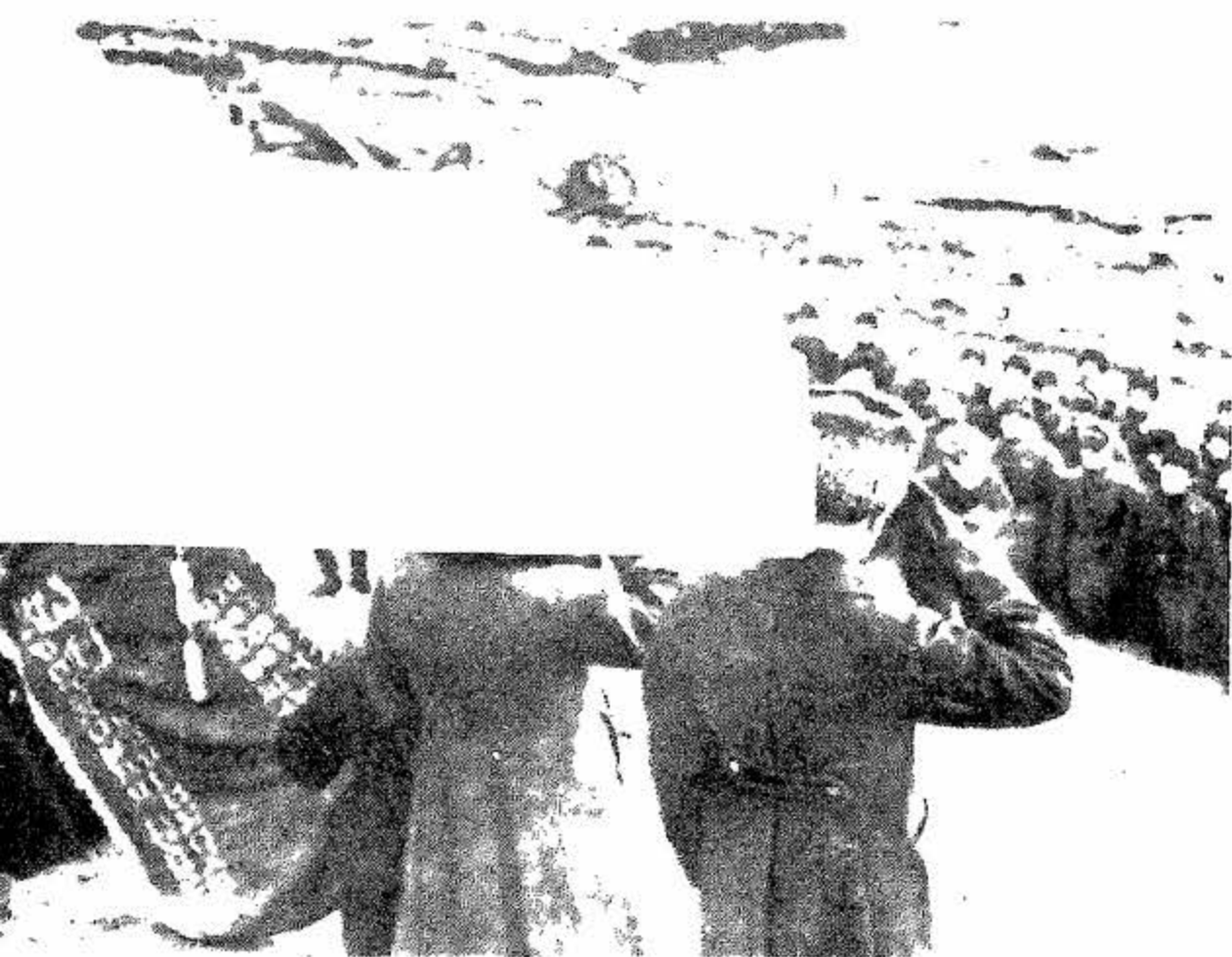
.. ستالينغراد في مرتفع مامايف ..



..ميجور-جنرال «ن. كريلوف» رئيس هيئة أركان  
الجيش ٦٢ / (في شهر أكتوبر للعام ١٩٤٢).



..مقدمة الجنود التابعون لفرقة الحراسة ٣٩.



..الجنرال «أرودميتسوف» أمر «قائد» الفرقة  
١٣ / للحراسة.



.. وفد من أوزبكستان في زيارة لجنود الجيش  
٦٢ / المدافع عن ستالينغراد.





- ستالينغراد العام ١٩٤٢ . ومشهد للجنرالات  
في موقع قيادة احدى الوحدات .



- الميجور جنرال فاسيليف  
رئيس دائرة الشؤون السياسية في الجيش لفرقة  
/٠

- فرقة هجومية أثناء إحدى المعارك في شارع من  
شوارع ستالينغراد.



- الجنود يتناولون وجبة الحساء.





- اجتماع منظمة الحزب قبل المعركة.



- صف طويل من الأسرى مصطفون على طول نهر  
القولفا «ستالينغراد» ١٩٤٣.



هتلر يصدر أوامره الى فون باولوس ( في الوسط ) بوجوب الاحتلال ستالينغراد  
قبل حلول الشتاء . ويرى في أقصى اليسار الجنرال هوزينجو وفي أقصى اليمين  
الجنرال فون بوك





- مجموعة من عداد الـ ٣٣ بطلاً الذين صدوا هجوم  
٧٠ دبابة فاشية كانت تقترب من ستالينغراد العام  
١٩٤٢.



- آمر فرقة الحرس «لاكوف بافلوف».

- الميجور جنرال «س. غوروكوف» قائد  
١٧٤ / .



- ستالينغراد في العام ١٩٤٣ فريق من المدافعين.





- منزل بافلوف.



- في موقع قيادة الجيش «ك. غوروف»



- هكذا ينقلون المؤن والمعدات عبر نهر الفولغا.



- فريق من المدافعين خلال معركة المصنع «باريكادي»





- وهكذا ينقلون الجرحى الى المستشفى.



- وحدة الاتصال «سلاح الإشارة» ستالينغراد العام





جنود الانقاذ السوفييت



في احدى شوارع المدينة





- الفاشيون يستسلمون رافعين أياديهم في الهواء وهذا  
ماحدث مراراً وتكراراً.

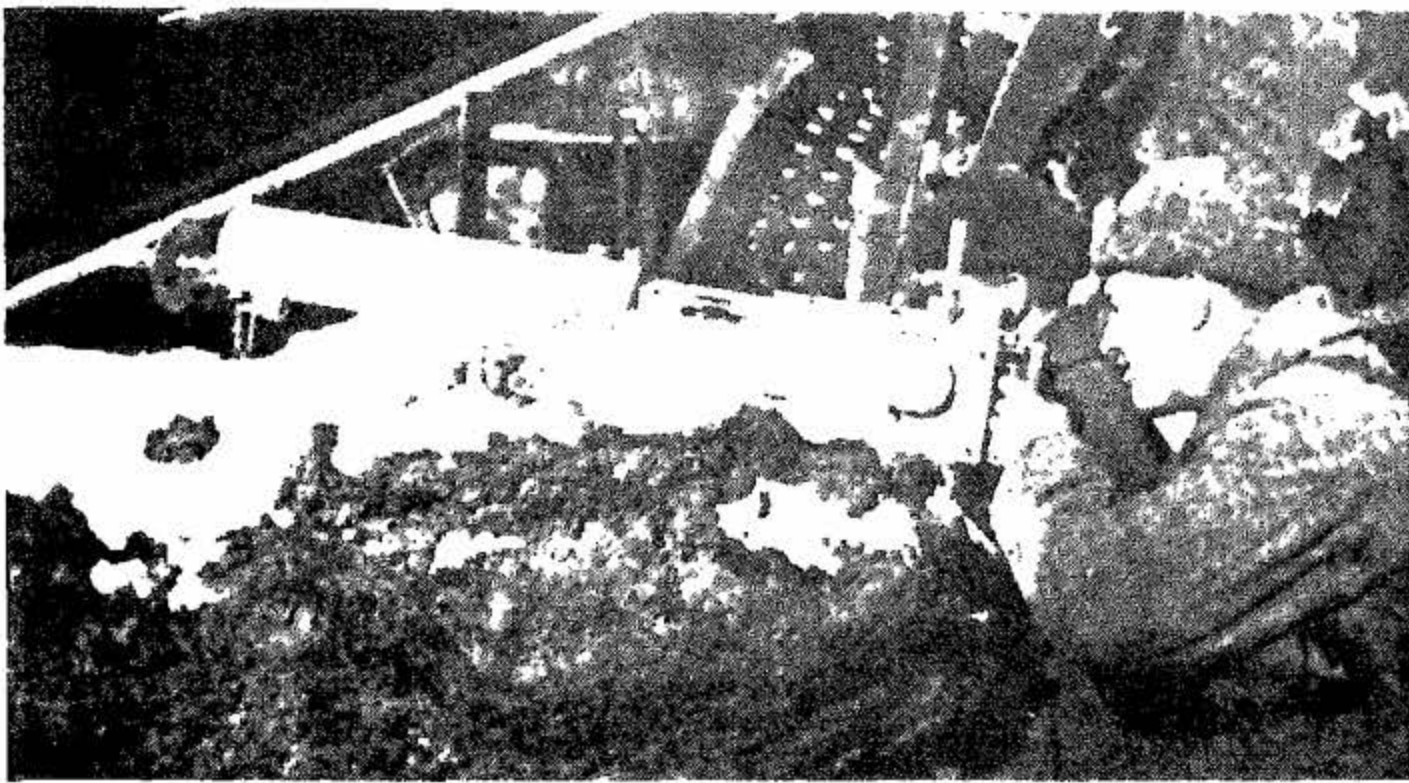
- احدى فرق المدفعية أثناء القتال في قطاع «كورغان ماغابيف».



- الجنرال «غورييف».







- في ورشات معمل « كراسني أوكتيابر ».



- فرقة من فرق الهجوم بالمدافع أثناء العمل والقتال.



- المقاتلون في أطراف المدينة.



أ. ف. سيريبنيكوف  
مارشال الاتحاد السوفياتي



ر. ر. روكوسوفسكي  
مارشال الاتحاد السوفياتي

ن. فورونوف  
مارشال قائد سلاح المدفعية



ل. جوكوف  
مارشال الاتحاد السوفيتي



أ. ارسينكو  
مارشال الاتحاد السوفيتي





- الخط الاول للدفاع لفرقة ٦٢ وللجيش -



- ستالينغراد ٤ شباط ١٩٤٣ .



المارشال فون بولوس الالماني  
وقد استسلم مع ٩٠ الف  
من جنوده

المنظمات والمنظمات السياسية للحزب هم روح الدفاع وقلبه .  
عليّ أيضاً أن أتكلّم عن العمل الجماعي للجنة الحزب في الجيش . وهي قبل  
كل شيء جماعية الحزب وجماعية المحاربين ، التي كانت تعمل حسب المبدأ -  
الواحد من أجل الكل والكل من أجل الواحد - من أجل النصر على العدو والثأر  
لوطنتنا ، كنا موّخدين دائماً ونعمل سوية ، دون أي اختلاف فيما بيننا .

جمعنا الهدف المشترك والشعور بزمالة الحزب والصداقة التي كانت توحدنا  
في كل أعمالنا ، وهنا لا أسنطيع إلا أن أنوه بقيادة المنظمات السياسية والشيوعية  
أمثال مفوض اللواء فاسيلييف، العقلاء فافيلوف . تشيرنيتشيف وفلاسكو ،  
والمقدمين كاكشنكو وامتشارنكو وآخرين ، وذلك لاختلاصهم لوطنتهم وأهليتهم  
وقيادتهم ، وهم الذين علموا الجماهير القيام بالمأثر البطولية ، وأحرزوا هذا  
النصر الذي بدا للجميع غير ممكن . كانوا يستوعبون دائماً وبسرعة طرق القتال  
الجديدة ونماذجها في معارك الشوارع وتجارب آلاف الرماة المهرة والقيام  
بالأعمال الهندسية الدفاعية .... الخ .

كان المحاربون يرون الضباط السياسيين والموجهين الحزبيين دائماً  
بجانبيهم ، وكل منهم يعرف أن المجلس العسكري للجيش موجود بينهم على  
الطرف الأيمن من الفولغا . رفع العمل السياسي والحزب معنويات المحاربين إلى  
أقصاها في المدينة وطور القدرات القتالية للفصائل .

ومع تطور القتال وبالرغم من الخسائر الفاحشة التي تكبدتها منظمات الحزب  
والكومسمول ازدادت هذه قوة وتعدت على القتال ، عشرات ومئات من  
الجنود ، كانوا وهم في ساحة القتال يتقدمون بطلبات الانتماء للحزب ، وكل منهم  
يريد أن يصبح شيوعياً أو كومسمولياً ، ويقايل حتى الموت .

تكلّمت فيما مضى عن الرقيب ياكوب بافلوف ، الذي ظل هو وجماعة من  
الرجال أكثر من خمسين يوماً دون نوم وراحة ، متمسكين في بيت يقع في  
وسط المدينة ، وأصبح له أهمية كبرى في قطاع دفاع فرقة روديمتسيف .

قذف الهتلريون على هذا البيت بوابل غزير من القذائف والألغام والقنابل دون  
أن يتمكنوا من القضاء على صلابة دفاع هذه الحامية البطلة . وظل بيت بافلوف  
دون مساس ، يدافع عنه مواطنون سوفيتيون بسطاء ، أبناء أمناء لعدد من  
شعوب بلادنا منهم الروس - بافلوف ( حالياً بطل الاتحاد السوفيتي )  
والكسندروف وأفانسييف ، الأوكرانيان - سافيدا وغلوشتشنكو . الجورجيان -



موسيا شيفيلي وستبانشيلي . الأوزبيكي - نورغونوف . من كازاخستان  
مورزايف والأبخاري - سوكيا ، والطاجيكي - توردييف ، والتتري - رامازانوف .  
و آخرون من البوasl .

هذا مثال لتضحية السوفيتيين التي ليس لها حدود من أجل وطنهم ، فبين  
مصانع كراسني أوكنيابر وباريكادي ، يمتد منخفض للغرب من الفولغا ،  
وخلال سنين طويلة كانت تلقى فيه بقايا الحديد . واختار الهتلريون هذا  
المنخفض كنقطة لخرق دفاعنا وقد تلقى فصيل الرشاشات بقيادة زاييسيف مهمة  
الدفاع عن الموقع ، وعدم السماح للعدو من الوصول إلى الفولغا .

كان من الصعب في هذا المكان وخلال النهار رفع الرأس حيث جعل  
الهلريون كل حجرة فيه تحت رماياتهم ، وكل خندق وكل متر من الأرض ،  
وقام زاييسيف بتقديم فصيلته ليلاً إلى المكان دون ضجة ، لكي لا يلت أنظار  
العدو لوجوده ، وثبت رشاشاته في مواضع الرمي ، بشكل يجعل كل الأرض  
التي أمامه معرضة لرمياتهم الجانبية والسامة .

فتح العدو في الصباح نيراناً غزيرة من مدفعيته وهاوناته على المنخفض ، ثم  
اندفع بالهجوم . فاستقبلتهم رشاشاتنا برمايات محكمة ، ووصلت المياه المبردة  
لقميص الرشاش إلى درجة الغليان بسبب إطلاق النار دون توقف . توقف أحد  
الرشاشات لحظة لأن الرامي أصيب وخرج من المعركة . ولكن حل محله  
سكرتير الحزب في الفصيلة الجندي ايميليانوف ، كما استلم قائد الفصيلة  
رشاشاً آخرأ وخلال ذلك كان الهتلريون يتقدمون إلى الأمام ، جرح الملازم  
أول زاييسيف ، قائد الفصيلة جرحاً قوياً ، ووقع على رشاشه ، فاستلم الرقيب  
كاراسيف القيادة وتتابعت المعركة حتى الليل ، ولم يستطع الفاشيون اخراق  
الدفاع أو تحطيم إرادة رماة الرشاشات البوasl . كلفت هذه المبادرة للوصول إلى  
الفولغا العدو غالباً . وظل أكثر من أربعمئة جندي معددين في المنخفض .

وفي حي المصانع حقق الكومسمولي ميخائيل بانيكافا . وهو جندي من فوج  
مشاة البحرية عملاً ضخماً يفتخر به وها هو :

« اندفعت بوابات العدو في مواضع قتال الفوج ، واتجهت بعض المدرعات  
نحو الخندق ، الذي كان فيه البحار ميخائيل بانيكافا ، وهي تطلق النار من  
مدافعها ورشاشاتها » .

كان صوت صرير السلاسل مميزاً دائماً من بين أصوات الرمايات وانفجار

القذائف وحتى من داخل الخندق . وفي اللحظة التي إقتربت فيها الدبابات استنفذ الجندي ميخائيل كل قنابله ، ولم يبق لديه سوى زجاجتين حارقتين ، لذلك خرج من الخندق ، ورمى إحدى الزجاجات باتجاه الدبابة القريبة ، وفي نفس اللحظة التي كانت فيها الزجاجاة فوق رأسه ليطلقها انفجرت بفعل إحدى الطلقات عليه وأثر ذلك تحول الجندي إلى شعلة حقيقية تحترق . ولكن الألم المريع لم يفقده وعيه فتناول الزجاجاة الثانية وهو يشتعل واندفع نحو إحدى الدبابات العدو التي أصبحت قريبة منه جداً . كان الجميع يشاهدون الجندي الذي أصبح كحاجز متحرك من اللهب يخرج من الخندق مندفعاً نحو تلك الدبابة ، وراكض حتى وصلها ورمى الزجاجاة في شبكة ثقوب التمويه للمحرك . وبعد لحظة خرجت حزمة من اللهب والدخان ، وغاب البطل والآلية التي أخذت تحترق عن النظر . عرف كل محاربي الجيش ٦٢ بمأثرة ميخائيل بانيكافا البطولية .

نقش اسم هذا البطل بعد الحرب على الحجارة التي تحيط بالنصب التذكاري للأبطال ، الذي أقيم على كورغان مامايف .

كما قدم بالتتكو ، قائد أحد المدافع المضادة للدبابات البرهان على صلابه رائعة في معارك الشوارع ، كان مدفعه متربصاً في خرائب بيت لم يبق منه إلا لوحة كتب عليها «شارع فوزنايا ١٧٦» . وكان عدد سدة المدفع ثلاثة هو واثنان من السدة ، أما بقية الأشخاص فقد خرجوا من المعركة ورغم أن بولتنكو كان ينتظر المدد إلا أنه كان مستعداً للقتال لوحده في مختلف الحالات التي يمكن أن تعترضه كرئيس ومسدد وملقم .

ظهرت دبابة استطلاع عدوة خلف حافة سكة الحديد ، ومن أول طلقة أشعل بولتنكو فيها النار أما الهنريون ، الذين خرجوا من الدبابة فقد أبيدوا من قبل بقية الرفاق بطلقات المسدسات ، ولكن بعد نصف ساعة ظهرت ثمانية دبابات واندفعت من وراء حافة سكة الحديد ، واتجهت مباشرة نحو مدفع بولتنكو ولكنها كانت ترمي من الجهة الأخرى ، وكان سدة الدبابات الفاشيون لا يشكون بوجود مدفع في أنقاض البيت . وقد يمر بولتنكو دبابة الرأس بعد أن أطلق عليها ثلاث طلقات ثم اقتربت دبابة أخرى لم تلبث هي أيضاً أن توقفت في مكانها بعد إصابتها ببعض الطلقات ، ولكن بولتنكو رأى أن برجها أخذ يدور بانجاءه ببطء . وكان لدى الرامي السوفيتي الوقت ليطلق طلقة ، خرقت برج الدبابة . أما بقية الدبابات فقد اضطرت للتراجع والاختفاء بسرعة وراء حافة سكة الحديد .

وبعد أقل من عشر دقائق ، خرجت خمس عشرة دبابة من نفس الجهة واجتازت سكة الحديد والمشاة يركضون وراءها .

اقترح الملقم على قائده سحب المدفع إلى المنخفض قائلاً :  
- لا نصل معهم إلى نتيجة أيها القائد فهم أقوىاء ومن الأفضل التراجع إلى الورااء .

- لا يوجد أمر بهذا الخصوص ، قطع بولتنكو الحديث بجفاء .  
كانت هناك عشر دبابات أي عشرة مدافع وعشرة رشاشات . ولم يكن بحوزة المدفعيين سوى مدفع ومسدس . وكان الاشتباك الأول مع الدبابات الفاشية بالنسبة لبولتنكو غير متكافئ ولكن كان المحاربون السوفييت يتمتعون بميزة المباغتة ، ولكن هذه المرة ، حتى هذه الميزة لم تكن بحوزتهم فقد اكتشف العدو مركز رميهم .

كانت الرصاصات تضرب واقية المدفع ولم يكن لدى بولتنكو العلاج ، وبمدفعه المموه والمتربص في خرائب البيت اشتبك بالقتال مع عشر دبابات ، وخرج منتصراً فقد أحرق المدفع دبابتين وأجبر الدبابات الباقية على الفرار .



حول العدو بعد يوم ٢٢ أيلول جهده الرئيسي إلى القسم الأوسط من المدينة ، وعلى ضفتي نهر تساريسكا ، وكان يسعى لتطوير هجومه عن طريق المحطة المركزية باتجاه المعبر المركزي للفولغا ، بعد معارك طاحنة سقطت المحطة في ١٤ أيلول ، وسقط الرصيف في ٢٦ أيلول ، وباحتلال العدو للرصيف استطاع أن يقطع الجيش وسط مدينة ستالينغراد إلى قسمين ، وكانت قوة الجيش الرئيسية موجودة في شمال تساريسكا .

عزلت الألوية ٩٢ و ٤٢ مشاة واللواء ٢٧٢ من الفرقة العاشرة عن قوة الجيش الرئيسية في القسم الجنوبي من المدينة ، حيث خاضت معارك حامية ضد قوى عدوة متفوقة بالعدد ، وكبدتها خسائر فادحة ففي يوم ٢٥ أيلول خسر العدو في هذا القطاع ٥٠٠ قتيل وعدد من الدبابات .

في نفس الوقت قام العدو بهجوم بفرقتي مشاة و ١٥٠ دبابة إلى الشمال من كورغان مامايف على مدينة كراسني أوكتيابر ، واجهناه بهجوم معاكس

بوحدات الفرق ٩٥ ، ٢٨٤ مشاة واللواء ١٣٧ المدرع .

كان اعتماد العدو في تغيير محور جهده الرئيسي في الشمال من كورغان مامايف نحو مدينة مصنع كراسني أوكتيابر على المفاجأة والحصول على نصر سريع في هذا الاتجاه ، ولكن استطلاعنا اكتشف في الوقت المناسب تجمعات العدو الكثيفة وتحضيراتها للهجوم . وكان لدينا الوقت لتعزيز ذلك الاتجاه بالوحدات : فرقة المشاة ١١٢ والوحدات التي وصلت حديثاً من الطرف الأيسر والعائدة لفرقة ١٩٣ (سميخوتوفروف) فقد وضعت في النسق الثاني من الدفاع على طول منخفض فاشينوفويا إلى الحدود الغربية من مدينة كراسني أوكتيابر . جرت في ٢٦ و ٢٧ أيلول معارك طاحنة على طول خط الجبهة الدفاعية للجيش ، ومن الصعب إحصاء المرات التي تبادلت فيها الأيدي الشارع أو الحي الواحد . كانت المعارك التي وقعت في شمال كورغان مامايف عنيفة بخاصة ، وكذلك باتجاه كراسني أوكتيابر وخلال كل الوقت كان طيران العدو يحلق فوق مساحة المعركة بمجموعات من ٣٠ - ٥٠ طائرة ، وكانت قنابلها تقصف قواتنا ، وفي بعض الأحيان تقصف المهاجمين الهتلريين أنفسهم ، وفي تلك الأيام اشبكت تقريباً كل قوى الجيش الثاني والمستين في القتال على طول الجبهة . تجاوزت بطولة محاربينا كل ما هو ممكن فكلمة الأمر « لا توجد لنا أرض وراء الفولغا » يعرفها كل محارب في ستالينغراد من أبسط جندي إلى الجنرال . رجال الدبابات . المشاة . المدفعيين . رجال الهندسة كلهم كانوا يعرفون أنه من غير الممكن التخلي عن متر واحد من أرض ستالينغراد وبجب التمسك بها حتى الموت دون التراجع ولا خطوة واحدة . ولم يدخل خلال المعركة في اللعبة الطيران والرشاشات وقاذفات الألغام فقط ، ولكن دخلت الحراب والقنابل اليدوية ، وكنا نسعى للقتال القريب حيث ضاقت المسافة بين الخصمين إلى بضع عشرات من الأمتار .

حدث في بعض الحالات وعند حدوث الغارات العنيفة التي كانت تقوم بها طائرات الانقضاض أن يلجأ الجنود الألمان والسوفييت إلى نفس الأقبية ويبقون جاثمين حتى إنتهاء الغارة ، ثم يعود العراك في الأقبية .

وكنتيجة لهذه المعارك التي وقعت في شمال كورغان مامايف ومدينة كراسني أوكتيابر لم يستطع العدو رغم خسائره الفاحشة أن يتقدم سوى بين ١-١,٥ كيلومتر ، ولم يستطع النفوذ باتجاه الفولغا ولا التقدم إلى الشرق من

منخفض فيشنينوفايا ومن كورغان مامايف . لم يكن من المستطاع دائماً إعطائي أرقام عن خسائر العدو . ففي نار المعركة التي لم تتوقف من الصعب الحساب ، ولم يكن دائماً دقيقاً .

نحن نعرف بالمقارنة مع نموز ، أن هتلر ضاعف في أيلول حجم قواته وضاعف عدة مرات حجم وسائطه وعتاده ، وكل ذلك ذاب كذوبان الشمع ولم نكن هناك نتيجة أخرى ، سوى تقم بسيط نحو الغرب باتجاه الفولغا ، كان التقدم خلال أربع وعشرين ساعة على المحور الرئيسي ، وكل القوى المتجهة نحو ستالينغراد يقاس بعشرة أو مائة متر . لقد تكبدنا أيضاً خسائر فادحة ، ولكن خسائر العدو كانت أكثر من خسائرنا بعدة مرات ، دون أن يتمكن من تطوير نجاحانه في العمق والعرض .

استطاع العدو بين ١٣ - ٢٨ أن يصل إلى الفولغا ، على جبهة ستة كيلومترات من محطة الإنزال المركزية ، حتى منخفض كوبوروسنايا . وأصبح بهذا سيد قطعة من الأرض مساحتها ٢٥ - ٣٠ كيلومتراً مربعاً أي كيلومترين مربعين في كل أربع وعشرين ساعة ، ولكنه دفع ثمن كل كيلومتر مربع ألف قتيل وجريح على أقل تقدير .

دارت المعارك على الجناح الأيمن في قطاع اورلوفكا اعتباراً من ٢٨ أيلول دون كثافة ملحوظة ، فتواتر هجمات العدو وهجماتنا ، كانت تجري بأعداد محدودة ، ولم يكن لها أية نتيجة تذكر على مجموع الجبهة والتي كانت تنتقل من ١٠٠ - ٢٠٠ م على أكثر تقدير .

استطاعت قوات العدو التي تجاوزت هذا الجناح ، وبعد أن صدت الهجمات ، التي قامت بها جبهة ستالينغراد ، أن تعيد تنظيم ترتيبها القتالي ، وتستكمل أعدادها في حين أن قواتنا ، دون النظر إلى الهجمات الجزئية المعاكسة ، لم يعد بإمكانها القيام بعمليات نشطة ، لأنه لم يعد لديها القوى الضرورية لهذا العمل .

لم يكن لواء المشاة ١١٥ الذي يعمل في هذا القطاع ومعه الوحدات الأخرى ، يعد سوى ٢٥٠٠ محارب بحالة استعداد للقتال ، خاصة أن هذه القوى تدافع عن مواضع مهمة من الناحية التكتيكية والتي كنا ندعوها قلعة ( اورلوفكا ) . ولدى اللواء مهمة الدفاع عن هذه القلعة بكل ثمن . وكانت هذه القوات معلقة كسيف «ديموقليس» فوق التجمع الرئيسي للعدو ، المتمركز في قطاع

غوروديتشيتشه . وفي حالة نجاح القوات المجاورة ، ( أي قوات جبهة ستالينغراد من الشمال ) يمكن أن تلعب قلعة أورلوفكا دوراً كبيراً ، حتى ولو أن وحدة فقط تقوم بالهجوم من الشمال ، وتنمكن من إحداث فرجة بعرض ١٠ - ١٢ كم وتحقق الإتصال مع قلعة أورلوفكا والوحدات المدافعة عنها ، فالقوات العدو المهمة التي نفنت على الفولغا بالقرب من لاتشافكا ، ستجد نفسها مقطوعة والجناح الأيسر للمجموعة الرئيسية يصبح محاصراً .

ولكن فون باولوس كان يتوقع مثل هذا الخطر لذلك كان يحضر لهجوم على أورلوفكا . ولكي يدمر قواتنا في تلك القطاع ، قذف بالهجوم دفعة واحدة في المعركة ، بعدة أفواج وألوية من الفرقة ١٦ المدرعة والفرقة ٦٠ الآلية وفرق المشاة ٣٨٩ و ١١٠ ، وفي نفس الوقت أخذ الهتلريون يهاجمون بشدة وحدات فرقة المشاة ١١٢ (ايرمولكين) ويتجهون نحو مدينة باريكادي .

قاتلت الوحدات التي هوجمت بضراوة لا مثيل لها ، وتكبد العدو خسائر فادحة . ولكن صفوفه كانت تعوض بشكل دائم لوجود الاحتياط .

في الساعة ١٥ نفنت خمسون دبابة يرافقها رماة المسدسات الرشاشة على غورديتشيتشه . وكنت في مواضع قتال الفوج الثاني من لواء المشاة ١١٥ اندريوسنكو ، واقتربت من أورلوفكا من الجنوب . وفي نفس الوقت اسنطاعت المدرعات والمشاة العدو التي كانت تقوم بهجومها نحو أورلوفكا من الشمال ، أن تسحق الفوج الأول من نفس اللواء . وقد تكبد هذا اللواء خسائر فادحة وأخذ يتراجع نحو الحد الشمالي لأورلوفكا ، وبهذا أصبحت القوات التي تقايل في الغرب من أورلوفكا مهددة بالتطويق .

أما الهجمات الأخرى التي قام بها العدو في ٢٩ أيلول على القطاعات الأخرى من الجبهة فكانت هي الأخرى ضارية جداً ، وكلفتنا أرواحاً كثيرة . اشتبكت وحدات الفرقة ١١٢ (ايرمولكين) مع العدو بمعارك متواصلة من الدون حتى الفولغا ، واضطرت للتراجع على خط مصنع ( سيليكات ) ، ولم يبق في كل لواء من هذه الفرقة أكثر من مائة شخص .

وفي قطاع فرقة سميخونغوروف التي كانت تدافع عن الحدود الغربية لمدينة كراسني أوكتيابر ، اسنطاع العدو أن يخرق ترتيبنا القتالي . وخلال ذلك اليوم قتل ثلاثة قادة ألوية ، وثلاثة قواد أفواج من هذه الفرقة أو جرحوا .

فقد الفيلق المدرع قدرته القتالية بعد القتال المرير . ولم يبق لديه سوى ١٧

دبابة مصابة و ١٥٠ محارب ، وزعوا على وحدات المشاة ونقلت أركانه إلى الضفة اليسرى للبولغا لتشكيل وحدات جديدة .

كانت المعارك متواصلة دون انقطاع في كورغان مامايف ، وكنا نجيب على هجمات الألمان بهجوم معاكس ، ونقاتل عن كل متر مربع من الأرض . قام الهتلريون في ٣٠ أيلول بهجوم في الساعة ١٠.٣ ووجهوا جهدهم الرئيسي من جديد على وحدات لواء المشاة ١١٥ الذي كان يدافع عن أورلوفكا ، وبما أن هجوم العدو شن في هذه المرة ، بعد تمهيد من المدفعية والطيران دام ساعتين ، فقد تكببت الأفواج ١ و ٢ من اللواء خسائر فادحة ، ولكنهم صمدوا في الأقسام الشمالية والجنوبية من المدينة . وكانت كماشات العدو ، أن تغلق في الغرب من أورلوفكا ، وفتح له الطريق على مصنع تراكورني وسبارتانوفكا من منخفض أورلوفكا .

اكتشفت جماعة اسنطلاعنا في نفس اليوم تجمعاً قوياً للمشاة والمدفعية العدو في المشارف القريبة من بلدة كراسني أوكتيابر . كما وصلت إلى حدود المدينة الجنوبية وحدات عدوة من الفرقة المدرعة ١٤ والفرقة ٩٤ البرية ، بعد أن استكملت هاتان الفرقتان ملاكهما ، وعوضتا عن الخسائر الفادحة التي لحقت بهما . وكانت غاية العدو واضحة وهي الاستعداد للقيام بهجوم جديد على مصنعي تراكورني . وباريكادي .

سألني قيادة الجبهة عن الندابير ، التي اتخذت للحفاظ على قلعة أورلوفكا وبماذا يمكنني أن أعزز الوحدات التي تقاتل هناك ؟

بماذا أجيب ؟ إن أفضل مساعدة تقدم لهذه القلعة ، هي دون شك ضربة موجهة من الشمال ، تقوم بها قوى جبهة ستالينغراد على أورلوفكا ، وعلى مؤخرات الفرقة المدرعة العدو والفرقة الميكانيكية ٦٠ أما أنا فلا يوجد لدي مجالاً إلا أن أطلق طلقة واحدة .

لم يكن في الجيش أي احتياط ، كما لا يمكنني أن أقدم أية مساعدة حقيقية لقلعة أورلوفكا خوفاً من هجوم عنيف ومؤكد من قبل العدو على مصانع تراكورني وباريكادي . ورغم هذه الظروف قررنا القيام بهجوم معاكس قصير على بلدة باريكادي بالفوجين الأول والثاني من لواء المشاة ١١٥ بعد تعزيزهما بفوج من قناصات الدبابات ، وبسريتين من لواء المشاة ٢٤ .

ابتدأت فرقة مشاة الحرس ٣٩ بالعبور في ليل الأول من تشرين الأول من الضفة

السرى للفلوفا . ولم يكن بعد قد استلمت ملاكها إلا بمقدار النصف وكانت السرايا بعد ٤٠ - ٥٠ رجلا فقط .

يعود هذه الفرقة لجيش الحرس الأول ، وقد اشتركت في أغلب المعارك التي دارت بين ١٨ - ٢٠ أيلول شمال سنالينغراد ونكبت خسائر قاذحة ، ولكن كل سراياها وفصائلها كانت مؤهلة للقتال . فهي تشكل بغالبيتها من المظليين الشيوعيين والكومسموليين ، وكان على رأسها الجنرال غورييف الذي كان يقد حماسه . وهو في القتال منذ بداية الحرب ، وبدون شك قد ربي معاونيه على نفس الشعور ، وأنى أتذكر أول لقاء لي معه . اقنعت بسرعة بأنى لم أكن مخطئا في حكمى عليه . دافعت فرقة مشاة الحرس ٣٩ مدة طويلة عن مصنع كراسنى أوكتيابر . ولا يعرف جنود هذه الفرقة معنى للنراجع ، وقائدها نفسه غورييف ، لم يترك مركز قيادته أو مرصده مطلقا ، حتى في الوقت الذي كان فيه الرماة الأعداء يطلقون على باب مخبئه من مسدساتهم الرشاشة ، ولم يكن نصره هذا لمرة واحدة فقط ، بل نكرر ذلك كل الوقت ، واقتدى به قادة الألوية وكانوا بنصرفون بعناد وبسالة في القتال .

كما كان الشيوعيون والكومسموليون في هذه الفرقة دائما في مراكزهم أمام الجميع ، وفي أشد الأماكن خطورة . وكان يمضي القوميسار ف . نشرنشف ( فيما بعد مساعد قائد فرقة ) جل وقته في الخطوط الأولى ، ينظم عمل الجهاز السياسي في الوحدات . وأنى أتذكر جرحه في فخذه . ورغم ذلك لم يترك ساحة القتال ، وقد رأيت أيضا والعكازة في يده بالقرب من إحدى سرايا المدفعية ، التي كانت نرمل على مسافة قريبة ، وهو مريض جدا .

لم تكلل الفرقة ٣٩ بالفخار في معارك الفلوافا فقط ، بل ظلت على نشاطها حتى نهاية الحرب وهزيمة الألمان . أنهت هذه الفرقة مسيرتها في برلين ، وعلمها ، علم الحرس ، أصبح موشى بخمس ميداليات نالتها في ساحات القتال . نقرر في اليوم ، الذي وصلت فيه هذه الفرقة للمدينة بأن تنتشر الألوية التابعة لها بمهمة الاستعداد للقيام بهجوم معاكس على بلدة باريكادي . ولكن خلال المعارك التي دارت في اليوم الأول من تشرين ، كان علي أن أغير قرارى ، لأن العدو استطاع في قطاع فرقة سميخوتوفوف بنجاح فتح ثغرة عميقة في مواقعنا ، وهدد باحتلال مصنع كراسنى أوكتيابر . في ذلك اليوم وضعت فرقة مشاة الحرس ٣٩ في النمق الثاني ، خلف فرقة سميخونوفوف على طول



الخط الحديدي غرب المصنع ، وقد أعطي الأمر لها بالتمركز في أقسام المصنع بشكل تجعل منه نقطة استناد قوية .

وصلت ألوبة فرقة المشاة ٣٠٨ بقيادة العقيد غورتييف إلى الضفة الشرقية للقولغا ، وأخذت نستعد لاجتياز النهر والالتحاق بنا . وأوكلت لها مهمة القيام بالهجوم المعاكس على مدينة باريكادي .

قاتلت هذه الفرقة في المدينة مدة أقل من غيرها . ولكن بالنسبة لعدد الهجمات العدو التي صدنها ، أو بالنسبة لصلابتها ، فلم تترك شيئاً لغيرها من وحدات الجيش ٦٢ فقد كانت نقاتل على محور الجهد الرئيسي للعدو ، خلال أشد المعارك التي دارت في قطاع المصانع ، وقد صدت أكثر من مائة هجوم قام به الغزاة الهانجون .

وقد أظهر العقيد غورتييف قائد هذه الفرقة وقادة الألوية ومنظمات الحزب وكل المحاربين السيبيريين ، الذين كانوا يشكلون الغالبية في الفرقة ، أنهم مثال الشجاعة والبرسالة وأنهم استوعبوا مهمتهم ونفذوها باخلاص ، وهي عدم التراجع خطوة واحدة إلى الوراء .

ونستطيع أن نقول بأن البطولة الجماعية التي أظهرها جنود الفرقة ٣٠٨ توجت بالبرسالة التي لا تجارى لقائدها العقيد غورتييف الذي غالباً ما كان جنوده يرونه في الهجمات المعاكسة أو في الخطوط الأولى فقد كان هذا الرجل الرشيق الطويل القامة ، لا يحب أن ينحني ولا يطأطأ رأسه أمام القنابل أو القذائف العدو . وقد أصبح فيما بعد جنرالاً ، لكنه سقط شهيداً في عام ١٩٤٣ ، في قطاع أوريل حيث نصب له تمثال هناك .

● شرع الغزاة في الأول من تشرين أول بشن عدة هجمات على طول جبهة الجيش في أورلوفكا . وأطبق بكماشاته ، التي أغلقت على الفوج الثالث من لواء المشاة ١١٥ الذي حوسر ، مع بعض العناصر من الوحدات الأخرى .

أما في الشرق من أورلوفكا ، فبعد أن أكملت الأفواج ١ و ٢ من اللواء نفسه وعززت بسريتين وصلتا حديثاً مع لواء مدفعية مضادة للدبابات ، تمركزت هذه القوى وجبهتها نحو الغرب ، وكان عليها أن تتقدم باتجاه أورلوفكا للإتصال بالوحدات المعزولة .

في نفس اليوم دفع العدو أمامه من جديد قوات سميخوتوروف ، وفي قطاع فرقة باتيوك وروديميسيف . عادت القوات الألمانية للهجوم على طول المنخفض

بامل النفوذ إلى الفولغا ، وقطع الجيش مرة ثانية ، ولكنها لم نفلح أبدا . وبرك العدو ٥٠٠ جثة من جنوده المقوليين في المنخفض .

أدى طيران العدو برماياته القاتلة وتبران المدفعية التي كانت نصب لئلا ونهارا مدمرة الزاورق والمراكب في الفولغا إلى تأخير عبور وحدات فرقة غورنييف حتى ٢ تشرين أول ، حيث اسنطاع لواءان من هذه الفرقة النزول إلى الضفة اليمنى .

أمرت القيادة دون انتظار منذ وصول كل قوات الفرقة ، الفوجين ١ و ٢ من اللواء ١١٥ بمنايعة الهجوم المعاكس بهدف إقامة إنصال مع الفوج الثالث ، المحصور وبقيّة العناصر المعزولة وقد نقلت وحدات فرقة غورنييف التي نزلت إلى الضفة اليمنى ، بعد عبورها الفولغا مهمة القيام بهجوم معاكس قصير على بلدة باربيكادي وإخراج العدو منها والنمساك بها .

كما أعطى الأمر لوحداث فرقة سميخوتوف بتتنظيف القسم الغربي من بلدة كراسني أوكنيابر من العدو واحتلال المرتفع ١٠٧.٥ ، وكان على مجموعة مدفعية الجيش ، دعم الهجوم المعاكس على بلدة باربيكادي .

كانت المعارك نتابع دون توقف في هذا الاتجاه خلال عدة أيام بلياليها إلا من بعض التوقيات القصيرة في بعض القطاعات .

قابل بين ٢ إلى ٧ تشرين أول ٥٠٠ عنصر من القوات المحاصرة التابعة للواء المشاة ضد قوات عدوة متفوقة . وفي ليل ٨ تشرين الأول ، وبعد أن نفذت الذخيرة بكاملها قامت هذه القوات بخرق الحصار بغارة ليلية ناجحة ، وصلت للحدود الشمالية لبلدة مصنع تراكتورني وراء نهر ماركايا متشيتكا ، وظل ٢٠٠ منهم على قيد الحياة وخسروا ٣٠٠ من قواتهم .

روى الناجون من التطويق كيف عزلوا عن قوة الجيش الرئيسية دون طعام أو ماء ، وبكمية محدودة من الذخيرة ، وصمدوا لمدة ستة أيام من القتال ، ولكن موقفهم تدهور بسبب فشل الهجوم المعاكس ، الذي قام به الفوجان الأول والثاني من اللواء ، في ٢ تشرين أول ونجح العدو بهجومه من الشمال في تطويق الفوجين وقسم من لواء المشاة ٢٨٢ من فرقة ساراييف إلى الغرب من أورلوفكا . وبعد يومين ( ٤ و ٥ تشرين أول ) من الصراع داخل نطاق التطويق وبأمر من قائد اللواء اندريوسنكو ، نجحت هذه القوات بعد غارة ليلية موفقة من الانسحاب من التطويق يوم ٦ تشرين أول صباحا . ونفذت في الجزء الشمالي

من مصنع تراكنورني .

كانت خطة فون باولوس إزالة قلعة أورلوفكا بضربة واحدة . وكلف ذلك العدو غالبا . حيث استطاعت قوات اندريوسنكو رغم ضعفها أن تصمد لمدة سنة أيام في قطاع أورلوفكا ، ونشبت قسماً من الفرقة الآلية ٦٠١ وحوالي ١٠٠ دبابة من الفرقة المدرعة ١٦ وكذلك الألوية العدو التابعة للفرق ٣٨٩ و ١٠٠ مدرعة ، وارتفعت خسائر العدو هنا بين ١ - ٧ تشرين أول إلى أكثر من خمسة أفواج مشاة مع ١٧ دبابة و ٢١ رشاش و ٨ هاونات .

استنتج المجلس العسكري من هذا الموقف أن الضربة القوية القادمة للعدو ستوجه إلى مصانع تراكنورني ، باريكادي ، وكراسني أوكتيابر ، حيث ركز العدو في هذا الاتجاه قوى هامة قمت من المناطق المحيطة بستانلينغراد . وقد أخذنا استعداداتنا لصد الجهد الرئيسي للعدو في القطاع المهدد .

كانت المسافة بين منخفض فاشينوفايا ، حيث تمر خطوطنا الأولى والفولغا ، لا تتجاوز ٥-٤ كم فقط ، ومع ذلك صممنا على تنظيم دفاع عميق وعلى نسقين ، وعلى جبهة تمتد من النقاء أنهار موكرايا متشنتكا وأورلوفكا حتى بلدة باريكادي ، ووضعنا في الدفاع فرقة المشاة ٣٠٨ التي عانت للجبهة في ٢ تشرين أول والفرقة ٣٧ من مشاة الحرس بقيادة الرائد جنرال جوليديف . التي وصلت في ١٣ تشرين ثاني . وبفضل هذه القوى نكون قد ملأنا قطاع جبهة الفرق ١١٢ و ٩٥ المشاة ، التي كانت تغطي مصانع تراكنورني ، وباريكادي وكراسني أوكتيابر .

عززنا إضافة إلى ذلك المفارز المشكلة من عمال هذه المصانع بالسلاح . ونظمنا إتصالها وتعاونها مع بقية القوات . وظلت مفارز العمال هذه تقوم بإصلاح السلاح ، والمدافع ، والدبابات حتى ذلك الوقت ثم أخذت تشترك في الدفاع عن مصانعها منذ ١٠ و ١٢ تشرين أول مع جنود الجيش ٦٢ . احتلت في ٩ تشرين الأول مجموعة الشمال المؤلفة من الألوية ١٢٤ ، ١٤٩ وبقايا اللواء ١١٥ رينكو ، سبارتانوفكا ، والغابة للغرب من سبارتانوفكا وبلدة مصنع تراكنورني على مجرى نهر ميتشنتكا .

كما وضع لواء من فرقة ساراييف كاحتياط على الضفة اليسرى للفولغا . أخذت المعارك التي كانت تدور في وسط الجيش في قطاع بلدتي باريكادي - كراسني أوكتيابر تزداد ضراوة شيئاً فشيئاً . ولكن الهجوم المعاكس الذي قامت

به الفرقة ٣٠٨ في منتصف يوم ٢ تشرين الأول فقد توقف بسبب قيام العدو بكرة هجومية معاكسة ، ورغم ذلك استطاعت الفرقة في نهاية النهار تنظيف قسم من مصانع « سيليكاتني » ، وأصبحت تتحكم في الحدود الشمالية الغربية لمدينة باريكادي ، ولكنها لم تستطع تطوير هجومها إلى أبعد من ذلك .

صمدت فرقة سميخوتوروف بمعركة غير متكافئة بالويته التي كان الواحد منها لا يعد سوى ٢٠٠ محارب ضد مشاة ودبابات العدو المنقدمة على طول الشوارع .

استطاع في نفس النهار فوج هتلري يلبس لباس الجيش الأحمر اختراق مواضعنا باتجاه منخفض كروتوي باتجاه الفولغا ، ولكن سرعان ما سحق هذا الهجوم بفضل هجوم معاكس قامت به سرايا الاحتياط التابعة لفرقة باتيوك ، ولم تنجح طريقة العدو المخادعة ، حيث اختار لهجومه نقطة إتصال فرقة باتيوك وروديميسيف .

كانت قيادة الجيش - كما رأينا سابقاً - متمركزة بالقرب من أحد مستودعات البترول ، وتنخفض قليلاً عن المستودع البنزولي المكشوف .

من المحتمل أن العدو عرف مركز القيادة فوجه في ٢ تشرين أول ضرباته العنيفة بالمدفعية والطيران فحرثت بقنابلها كل الضفة ودمرت مستودعات البترول المملوءة ، وسرعان ما شبت النار فيها ، وأخذ البترول الملتهب يسيل نحو الفولغا ماراً في طريقه على مخبئنا ، وأصبح مركز القيادة بحيرة من النيران وأحرق السيل الملتهب كل ما كان في طريقه نحو الفولغا ، وأخذ البترول الملتهب ينساب عائماً على المياه نحو المراكب والعوارض الخشبية الموجودة في النهر أمام القيادة التي التهمت واشتعلت فيها النيران ، ويبدو أن الفولغا نفسه أخذ يحترق وبدأ اللهب يتراقص أمام الأعين .

احتترقت بفعل اللهب أيضاً أسلاك الاتصالات الهاتفية ، ولم يعد بإمكاننا الإتصال إلا بواسطة الراديو وبشكل متقطع ، وأصبحنا أسرى النيران التي أحاطت بنا من كل اتجاه ، فاضطررنا لمغادرة المخبأ وبقينا بقربه والدخان يتصاعد منه

هنا أعطى رئيس الأركان نيقولاي كريلوف أوامره :

- على الجميع العودة واستخدام المخابىء السالمة دون أن ينحرك أحد ، أعيدوا الإتصال مع القوات ! استخدموا اللاسلكي ! ثم اقترب مني وهو يهمهم :

- هل سنصمد ؟

- نعم سنصمد . أجبتّه وأعدت نفس قوله : « عند الحاجة تأتي مسدّاتنا » .  
- صحيح .. قال مجابوا .

وإني أقول بصراحة إنه في بداية الحريق وأنا أقفز خارج المخبأ ، كنت أعمل يائساً كالمركب الذي نزعّت أشرعتّه ، ولكن أمر الجنرال ن . كريلوف الذي كان يلقي بصوت مدوّ للجميع ، بما فيهم أنا ، - جاء وكأنه صرخة « هورا » في لحظة الهجوم وهكذا عدنا للعمل ، وكان علينا الانتظار والعمل في المخابيء السليمة وفي الخنادق والحفر ، نحت نيران العدو لعدة أيام لم نذق فيها طعم النوم .

كثيراً ما كنت والجنرال كريلوف نستدعي للتكلم باللاسلكي مع رئيس أركان الجبهة الجنرال زاخاروف ، وكان يلح على معرفة الموقف بدقة في الجبهة ، والذي كنا نحن لا نعرف عنه دائماً بدقة ولا حتى رؤساء أركان الفرق . فالإنصال كان دائماً مقطوعاً .

والتكلم باللاسلكي ، وتشكيل الكلمات بين الأسنان حسب الرموز السرية في الوقت الذي كانت فيه القنابل والقذائف تتطاير فوق رؤوسنا ليس ، عملاً مسرراً وسهلاً ، وكان يحدث غالباً أن يقضى على عمال اللاسلكي الذين كانوا يؤمنون لنا الاتصالات والسماعة بأيديهم .

- أين أنتم موجودون ؟ كانت أركان الجبهة تطلب منا دائماً ، وكنا نعلم أيضاً : أن قيادة الجبهة تريد أن تتأكد مني ، إذا كنت على قيد الحياة ، وهل لا تزال هناك قيادة للقوات في الجبهة ، وبدون أن نعطيهم أية كلمة كنا أنا وكريلوف نجابون نفس الجواب

- نحن هنا حيث يوجد أكثر ما يمكن من اللهب والدخان .



ابتداءً فجر ٣ تشرين أول بهجوم جديد للعدو . فقد هوجمت الفرقة ١١٢ للمشاة التابعة لـ ( إيرمولكين ) من قبل لواء مشاة وعشرين دبابة ، قبل أن يكون لديها الوقت لاحتلال مقاطعها في الجبهة ، وتتحصن في المخابيء القريبة من مصنع نراكورتني . ولكن العدو . لم يستطع أن يحطم مقاومة المحاربين السوفييت

بضربة واحدة .

أما فرقة غورنيف فقد احتوت هجوم العدو حتى الساعة (١٨) ولكن في نهاية النهار تم تجاوزها من جناحيها . فاضطرت للتراجع وراء الخط الحديدي إلى الجنوب من شارع نيجنيودنسكايا وجناحها الأيسر على شارع فينيسكايا .

صمدت الفرقة ١٩٣ مشاة سمبخوتوفوف كل النهار في مدينة كراسني أوكتيابر وجرت معارك في الحمامات ومعمل المطابخ ، وتبادلت الأيدي منطقة الحمامات مراراً وظلت في نهاية النهار بأيدينا ، ولكن لم يبق في كل لواء من الفرقة سوى ١٠٠ - ١٥٠ محارب .

صمدت فرقة غورنيف كل الهجمات الألمانية على مصنع كراسني أوكتيابر ، كما أن فرق غوريشني وبانيوك ، وروديمستيف دعمت مواقعها بعد أن صمدت الهجمات العدو .

النحى بالجيش ٦٢ حسب أوامر الجبهة في ٣ تشرين أول فرقة الحرس ٣٧ بقيادة الجنرال جولوديف .

أظهرت المعارك السابقة ، أن العدو صمم على إحداث خرق في مواضعنا بكل ثمن حتى الفولغا ، ثم تطوير هجومه اعتباراً من هناك على طول نهر الفولغا باتجاه الجنوب ، بعد أن يحتل المصانع الرئيسية . وكانت قواته تزداد بشكل دائم في هذا الاتجاه ، وفي ٤ تشرين أول علمنا أن العدو ركز اعتباراً من نهر موكرايا ميتشكا حتى المرتفع ١٠٧,٥ وعلى جبهة عرضها حوالي خمسة كيلومترات خمس فرق للعمل في هذا القطاع : ثلاث منها مشاة واثنان مدرعتان وعدد من وحدات الدعم ، وكانت المعارك في قطاع أورلوفكا لا تستهدف فقط إزالة القلعة ، بل إبعاد انبهاها عن محور الجهد الرئيسي المعادي الذي كان يستهدف السيطرة على المصانع . ونظراً لهذه الظروف المعقدة فقد قررنا الإسراع بعبور فرقة جولوديف ، ووضعها على الجناح الأيمن لفرقة غورنيف للدفاع عن مصنع « تراكتورني » .

اضطرت فرقة ابرمولكين بعد المعارك الضارية ، التي نشبت في ٣ تشرين أول ضد قوات العدو المتفوفة . للتراجع في ليل ٤ تشرين أول إلى ما وراء ميتشكا . وبعد نفوذ العدو على شارع شتشكوفكايا احتل موقعاً حصيناً ، وأخذ يحاول عبه تحقيق خرق ثانٍ على طول الطريق نحو الفولغا . وقد زجت فرقة غورنيف باحتياطها لصد الهجمات المعادية العنيفة على مصنع سيليكاتني ،

ولكنها اضطرت للانكفاء هي الأخرى إلى شوارع ميتشينش . أفانورنايا وسروزافودسكايا .

عبرت خلال تلك الليلة الفرقة ٣٧ التابعة للحرس النهر إلى الضفة اليمنى ولكن دون مدفعيتها المضادة للدبابات ، بسبب النقص في وسائل العبور وحتى أركان الفرقة نفسها بقيت في الخلف ، لذلك اضطرت أن أعطي مهمات ألوية هذه الفرقة لصباط من أركان الجيش وإرسالهم للانتشار في القطاعات الدفاعية . ذهب كل ضباط أركان قيادة الجيش تقريبا إلى هذه الألوية لكي يؤمنوا معها الإنصال والتعاون ، ومنذ أن احتلت وحدات الفرقة ٣٧ مواقعها اعتبارا من صباح ٤ تشرين أول ، اشنت ألبتة بالقنال ضد مشاة ودبابات العدو ، التي كانت قد استطاعت تحقيق خرق عبر خطوط فرقة غورتيف وايرمولكين .

كان جيشنا بحاجة لراحة يوم على الأقل ليسنعيد ويعيد تنظيم وحداته وجلب المدفعية وإيصال الذخيرة ، وإنعام تعداد الوحدات وبالتالي القيام بالهجمات المعاكسة الجزئية لإخراج الغزاة انطلاقا من بلدات مصانع تراكثورني ، وباريكادي . وكانت قيادة الجبهة تلح علينا البدء بالهجوم المعاكس صباح ٥ تشرين أول ، ولكن لم تكن بحالة نستطيع فيها القيام بالهجوم ، فقد نفدت ذخيرتنا وفيما يخص طريق الإمداد عبر الفولغا فالموقف أخذ يزداد تعقيدا شيئا فشيئا .

كان على اللواء ٨٤ المدرع في ليل ٥ تشرين أول أن يسرع في العبور إلى الطرف الأيمن ودباباته الخفيفة ، هي وحدها التي استطاعت العبور ، وقد تمركزت هذه الدبابات في خطوط الفرق جولوديف ، وغورتيف حيث استخدمت كمواضع للرمي لأن إقامتها بهجوم معاكس ضد المدرعات الألمانية ، لم يكن صحيحا .

سجلت في يوم ٥ تشرين أول لوحده ألفى غارة للطائرات العدو في قطاع المصانع ، وحتى هبوط الليل لم يستطع الجنود الجرحى الانسحاب من خنادقهم وحفرهم . وقد استغلوا الظلام ليتوجهوا نحو الضفة الفولغا ونقاط الاخلاء .

وصل في المساء الجنرال غوليكونف معاون قائد الجبهة وقبل وصوله حصل هدوء خفيف في مركز القيادة حيث توقف البترول عن الاحتراق ، ولكن حفر المازوت التي كانت فوق مخبئنا كانت لا تزال تدخن وبذلك أصبح الوضع أسوأ من ذي قبل . وكانت الإنصالات تقطع في كل دقيقة ، ولا شك أن رجال مدفعية

العدو ورماء الهاون عرفوا بشكل دقيق أين يقع مركز قيادتنا وأخذوا يمحطرونه بوابل من القنابل المحكمة فالألغام كانت تنفجر حتى أمام عتبة المخبأ وفي مركز القيادة وأخذ عدد القنلى والجرحى يتصاعد ساعة بعد ساعة . وبعد أن بفى غوليكونف معنا أربعاً وعشرين ساعة طلب منا نقل مقرنا إلى مكان آخر . ولكن إلى أين ؟ قررنا بعد المناقشة الانتقال بمركز قيادة الجيش إلى المخابىء المغطاة لأركان فرقة ساراييف ، الذي انسحب إلى الضفة اليسرى من الفولغا لإعادة تشكيل قواته . وكان علينا الانتقال على طول ضفة النهر حوالى خمسمائة متر تقريباً لنصبح بالقرب من معمل نراكورنى . وقد نفذ هذا النزوح ليلاً .

كان المجلس العسكري طوال تلك الأيام يعمل دون انقطاع . ولم نكن نلاحظ تتابع الأيام ، فقد اختلط علينا الليل بالنهار وكنا ننام على دفعات فى اللحظات التي يتم فيها الهدوء ، ونتناوب فيما بيننا الواحد منا بعد الآخر . كنا نعرف أن الأيام الرهيبة التي سيمر بها جيشنا قد ننت ساعتها . فالعدو رغم أنه كان يشن الهجمات المتتالعة . كان يكلل قوى كبيرة فى منخفض فيشنيوفايا ، فى مدينة باريكادي على نهر موكرايا ، ميتشكا . وكان بمقدورنا الاعتماد على قواتنا الذاتية وعلى صلابة محاربينا ، ولكي نحبط جميع القوى المعادية وتحضيراتها للهجوم ، قمنا بهجوم قصير بالطيران والمدفعية بشكل رئيسي حيث اشترك فى الغارات الجوية طيران الجيش والجنبة وكذلك طيران القيادة العليا . ومن الطبيعي أن لا يكون هذا كافياً : فقد وصلتنا معلومات مفادها ، بأنه يجري تكثيف قوى كبيرة بأمر شخصي من هتلر للقيام بضربة كبيرة على سبالينغراد ، فى شهر تشرين الأول وجهت ٧٥٪ من التعزيزات المقررة للجنبة الألمانية - السوفيتية كلها إلى سبالينغراد فقط ، لتعويض الخسائر . وتم الحصول على هذه المعلومات من الوثائق الألمانية . ولكي نستطيع التصدي لهذه الصدمة ، فقد أتممنا الذخيرة وحضرنا أنفسنا وهيانا كل المحاربين للمعركة الفاصلة .

تابع الألمان هجومهم صباح ٦ تشرين الأول ووجهوا محور جهدهم الرئيسي اعتباراً من بلدة باريكادي حتى بلدة مصنع نراكورنى . ومن الواضح أنهم لم يتوقعوا ظهور فرقة الحرس ٣٧ بقيادة جولوفيف فى هذه النقطة فنشبت معارك شديدة ، ولا يسعنا قول بعض الكلمات بخصوص جنود الحرس من



الفرقة ٣٧ للجنرال جولوبف ، فرجالها كانوا جميعاً شباباً طوال القامة جربنين ، وكثيراً منهم كانوا يلبسون لباس المظليين . الخناجر والسكاكين الفنلندية على أحزمنهم . كانوا يقاتلون بشجاعة وبمجموعات الانقضاض ، وخلال غاراتهم على البيوت والأقبية ، كانوا يجربون استخدام خناجرهم وسكاكينهم ، ولا يعرفون النراجع وإذا حوصروا يقاتلون حتى آخر قواهم ، ويمنون والأغاني على شفاههم وصرخاتهم ( من أجل الوطن ) « لن ننراجع مطلقاً ولن نسسلم أبداً » .

في يوم واحد فقط سجلت الطائرات الألمانية سبعمائة غارة على مواقع الفرقة . ولكن الفاشيين لم ينجحوا بالنقم ولا خطوة واحدة ، ولواء الحرس الأول التابع لهذه الفرقة حقق بعض النقم وكان يدعم الفرقة اللواء ٤٩٩ المضاد للدبابات ولواء المدفعية الطويلة ١١ ومجموعة من لواء قذافات الحرس ٨٥ .

وباستثناء قطاع اورلوفكا صنت كل هجمات العدو في بقية القطاعات . اتخذت عناصر اللواء المدرع ٨٤ خلال الليل مواقعها في قطاع الفرق جولوبف وغورتييف في نفس الوقت كانت وحدات الجيش تعمل بنشاط وتعمق بالأرض وتبني الخنادق ونقاط الاستناد وتقيم الحواجز . كل العالم كان يهتف نفسه للأحداث القائمة على الجبهة . أفادنا الاستطلاع بمعلومات عن تجمعات المانية جديدة في بلدة باريكادي . مر يوم ٦ تشرين أول دون أي نشاط خاص من مشاة ودبابات العدو ، ولكن الطيران المعادي كان يقصف مواقع قتالنا منذ الساعات الأولى للصباح حتى وقت متأخر من النهار وهبوط الليل وقد قضي على أركان اللواء ٣٣٩ جميعهم بسقوط قنبلة من عيار كبير ، بما فيهم قائد اللواء والمفوض السياسي .

ترجم الهدوء النسبي الذي حدث في ٦ تشرين أول من قبل أركان الجبهة بأنه مؤشر على الإنهاك الذي أصاب العدو . ولذلك ألحت علينا بإصرار للعودة إلى الهجمات المعاكسة بقوى الفرقة ٣٧ . كنت أعتبر من جهتي أن الغارات العدو التي قام بها طيرانه ما هي إلا تمهيد للهجوم لذلك كان رأينا مخالفاً لرأي أركان الجبهة . وقد تعرضت في المساء لضغط شديد ، وكان عليّ أن أوافق مكرهاً على القيام بهجوم معاكس ، بقسم من قوى فرقة جولوبف وفرقة غورتييف ، وقررنا الشروع به في النصف الثاني من يوم ٧ كانون أول على أساس أنه لن يكون للعدو الوقت لتفادي ضربتنا قبل سقوط الظلام ولن يتمكن طيرانه من الاشتراك

في المعركة .

وقعت أمر الهجوم المعاكس في الساعة الرابعة صباحا . ولكن لم يكن لدينا الوقت الكافي لتنفيذه ، لأن العدو قام بهجوم جديد في الساعة ١١،٢٠ بقوى كبيرة ، وقد استقبلنا المهاجمين بنار منسابة من مواقعنا المحضرة والمموهة مسبقا وبشكل جيد .

كان الهنريون يسرون للاتقضاض علينا وهم مكشوفون حيث زجت في الهجوم فرقان من المشاة وأكثر من خمسين دبابة ضد خنادقنا . صد الهجوم الأول ، وكبدت فرقة جولوديف الفاشيست خسائر فادحة . مما أجبر العدو على استدعاء احتياطه وجدد الهجوم لعدة مرات . وبعد معركة ضارية نجح العدو في اختراق مواقعنا واحتل في نهاية النهار حبا من مدينة العمال في مصنع براكنورني ، ووصل إلى الضواحي المباشرة للسناد الرياضي .

في الساعة ١٨ عاود فوج مدعوم من المشاة العدو الهجوم على غرب حصر سكة الحديد على نهر ميتشكا ، دمر الفوج جميعه تقريبا برمايات محكمة من قذائف الكانيوشا ، وفي قطاع سميخوتفوروف دارت رحي معركة حامية طوال اليوم من أجل الحمامات الواقعة في مدينة كراسني أوكنيابر ونباليت الأيدي هذا الهدف خمس مرات على الأقل في تلك اليوم ، وفي الليل كان من الصعب معرفة مع أي طرف بقي وقد صد الهجوم في كل القطاعات .

دمر للعدو خلال النهار حوالي أربعة أفواج من المشاة وأحرق ١٦ دبابة . وبعد هذه الخسائر ، لم يعد بإمكان العدو متابعة الهجوم في اليوم الثاني . وقد بعثر ظهور فرقة الحرس ٣٧ في الاتجاه الرئيسي حسابات فون بولوس ، فلم يتمكن من النجاح والقيام بضربة مفاجئة لاختراق جبهتنا .

ابتدأ التمهيد لمعركة أخرى في ٨ تشرين أول ، وكنا نعلم أن هتلر وعد تابعيه ، بأنه سيكون سيد قلعة الفولغا في الأيام القريبة القادمة . وكان الألمان يصرخون في خنادقهم « روس قريبا سنقضي عليكم في الفولغا » .

كانت الطائرات الألمانية تغرق المدينة بالمناشير . وكنا نقرأ فيها أن هتلر يعتبر كل ضابط أو جندي ينسحب إلى الضفة اليسرى من الفولغا كهارب من الجيش الأحمر . ولن يؤخذ أسيرا . ورسم في هذه المناشير مخطط يظهر فيها كيف تطوق الدبابات والمدفعية الألمانية جيشنا من كل الجهات .

ذهبت كل مجهودات غوبلز الدعائية سدى ، فالحزب والكومسمول كانا

يعملان دون كلال في الوحدات والمفارز يشرحون للجنود تخرصات العدو الدعائية . وعندما كان المجلس العسكري يقدم للجنود المميزين في المعركة الأوسمة ، كان يتحدث معهم دون أي شكليات . ويخبر كل القوات بقراره الدفاع عن المدينة بأي ثمن

وكان هذا القرار مسنوعاً بعمق من قبل كل القوات .

ونورد هنا وثيقة عن نشاط إحدى منظمات الكومسمول في المعركة :  
نقرير عن تصرف الكومسمول في القتال .  
بعد الاطلاع :

قررنا : خير لنا الموت في الخنادق من انسحاب مخز ، وليس فقط أن لا ننسحب أنت ، ولكن اعمل بشكل حتى لا ينسحب الجار أيضاً .  
سؤال طرح على المحاضر : هل يوجد سبب وجيه للانسحاب من مواضع الرمي ؟

جواب : من كل الأسباب الوجيه سبب واحد يؤخذ بعين الاعتبار هو « الموت » .

تحدث الجنرال غورييف خلال تلك الأيام .

- كان عندي جندي شاب هو الكمي بابوف . وعندما أخذ الجنود الهتلريون يقتربون منه ، وضع في جهة بندقيته الرشاشة ، ومن الجهة الأخرى مسدسه الرشاش ، واحتفظ ببندقيته وقنابله اليدوية أمامه موضوعة على شكل دائرة . فعندما كان الفاشيون يهاجمون بعدد كبير كان يربص ببندقيته الرشاشة . وإذا ظهر جندي واحد كان يرمي ببندقيته العادية ، وعندما كانوا يقتربون منه زاحفين كان يرمي عليهم قنابله اليدوية . وهكذا صمد في خندقه وكان يقوم لوحده مقام خمسة اشخاص .

تكن قوة محاربي الحرس ، بأنهم كانوا يقاقلون بنشاط وحذر . وكذلك بسعيهم لاستخدام أقصى ما يمكن من فعالية اسلحتهم التي قدمها لهم الوطن ، كان هناك آلاف من الجنود مثل بابوف مثلاً للشجاعة والخبرة في مكائد الحرب ، ومعرفتهم التامة باستخدام مختلف أنواع الأسلحة .

اكتسبت أغنية المدينة البطلة التي ألفها الرقيب بابوف بسرعة شعبية كبيرة في جيشنا فبالرغم من بساطتها نوعاً ما ، ولكن الذي كان يسر أفراد الحرس منها صدقها كالحياة نفسها .

الشوارع تهتز من الانفجارات  
احمرار رهيب في المحرك ،  
الألوية مثل الصخر تهزم الموت  
من أجل الدفاع عن شواطئ الفولغا .

كان الرفيق يقول وهو يحتضر :  
ليعرف العدو أبداً أن الجيش ٦٢ لا ينراجع أبداً حتى ولا خطوة واحدة .  
هكذا كان قانون محاربي الجيش ٦٢ لا تراجع ، بل استئصال العدو واستعادة  
مسقط رأسنا منه منراً بعد متر .

اليوم قاتل قنال الأبطال كل من :  
كوزلوف أندريه ايفيموفتش - رامي رشاش . عضو في الكومسمول خلال  
الحرب الوطنية .

أباد الرفيق كوزلوف ٥٠ هتلريا دون حساب الفاشيست ، الذين أبادهم رفاقه  
من سدة الرشاش . أزال كوزلوف فقط منذ ٧ تشرين أول ١٩٤٢ سبعة عشر  
هتلرباً . كان طاقم رشاش كوزلوف أفضل طاقم في الفوج ، قاتل الرفيق  
كوزلوف في ليننغراد ، وجرح مرتين من أجل خاركوف ، وحصل مرتين على  
أوسمة . اقتدوا بكوزلوف !

وها هي أخرى :  
لقد أصابوا وأحرقوا ٧ دبابات المانية .  
جرح الجنود الحمر اباكوف شنشوبينا وايفان نيكيتين ، ولكنهم لم يتركوا  
ساحة المعركة . هؤلاء هم أبناء الوطن الأماء قاتلوا حتى صد آخر هجوم للعدو  
ففي حوالي ساعة أخرج هؤلاء القديرون من رماه م/د سبع دبابات عدوة خارج  
المعركة .

كانت مثل هذه النشرات المخصصة كثيرة .  
كم من الأشخاص قد دخلو التاريخ خلال عمليات عبور الفولغا ؟  
أبا كان عملهم هناك ، كانوا يرون الموت بأعينهم كل ساعة وكل دقيقة . من  
الواجب أن نكون الأعصاب فولاذية والبطى بشجاعة لا تجارى أثناء عبور  
الفولغا ثم العودة للعبور في المراكب تحت نيران العدو ، وكان بحارة أسطولنا  
في الفولغا يفومون بمثل هذه السفرات لبلا ونهارا لتموين المدينة بالسلاح  
والمون .

انخذت أكثر الاجراءات فعالية باننظار هجوم العدو بقوات كبيرة في قطاع المصانع ، ولنقوبة الجبهة على طول مجرى موكرايا مينشكا ، منخفض فيشنيوفايا حنى كورغان مامايف . وقد تمركز اللواء المدرع ٨٤ الذي وصل لتوه في مواقع نغطي هذا القطاع بالتعاون مع فرق المشاة . أما الفيلق المدرع الذي أصبح بحالة لا يصلح فيها للقتال ، فقد أخلي للصفة اليسرى وببواباته النى كانت نسنطيع القتال وزعت على اللواء ٨٤ المدرع .

أعطيت الأوامر لكل القوات بالاسراع بتنفيذ أعمال الهندسة التى نساعد على الصمود بقوة في مواقعنا الدفاعية ، وبخاصة الاتجاهات المعرضة لهجمات الدبابات . لذلك زرعت آلاف الألغام ونصبت الأفخاخ ، كما اخننقت فرقنا الحرس ٣٧ والمشاة ٩٥ بتعدادها ، وعززت مدفعيتها وكانت عمليات التعزيز بجري ليلا فقط ، رغم هجمات العدو الجزئية التى لم تتوقف على طول الجبهة . ومع الأخذ بعين الاعتبار أن للعدو هدفا مزدوجا هو القيام بالاستطلاع بالنبران على طول جبهة الجيش ، والحد من نحركاتنا في منطقة الدفاع القليلة العمق على طول الضفة الغربية للقولغا ، بالمقابل كانت مجموعات الانقضاض باغت العدو على طول جبهة الجيش ، ونقضي على حامياته الموجودة في البيوت ، وحتى مهرة رماة الجيش (حوالي ٤٠٠) كانوا أيضاً في حالة من الحذر الدائم.



## أشد الأيام هولا



لم يكن هناك هدوء ، ولا يمكن إلا أن يكون كذلك طيلة الأيام بين ٨ - ١٤ تشرين الأول لأن مواقعنا ومواقع الألمان كانت على مسافة رمي القنبلة اليدوية . لا يتجاوز عمق ترتيبنا القتالي ٣ كم ، ( يعني كل المسافة بين الخطوط الدفاعية الأولى حتى الفولغا ) ، ومثل هذا الوضع يجعلنا حذرين ، وعلىنا القيام بالمراقبة الدائمة والاستطلاع النشط .

كنا نعتبر أن أفضل أنواع الحذر والاستعداد للقتال هي عمليات رماتنا الماهرة ومجموعات الانقضاض ، ونشاط رجال المدفعية ورماة الهاون .

كانت مدفعيتنا بما فيها الكاتيوشا توجه ضربات ساحقة لتجمعات العدو في قطاع مدن المصانع . ومنخفض فيشنيوفايا كما كان طيراننا الليلي يقصف المواقع الألمانية ويطلق عليها رشاشاته .

والمنكرات الشخصية والرسائل التي كانت تقع بين أيدينا من قتلى العدو نتحدث عن الخسائر ، التي كانت تلحقها أعمالنا الوقائية بالعدو والضغط عليه : « ستالينغراد هي الجحيم ، ستالينغراد هي مقبرة جماعية ، ستالينغراد تسحق الموت هكذا كان يكتب الهتلريون » .

لم يكن العدو الذي يريد حصرنا على الفولغا يترك لنا أي دقيقة للراحة ، فقد كانت طائراته تقوم بشكل متواصل بطيران استطلاعي فوق مواقعنا وتقذف القوات والمعابر ، حيث كانت مدفعينه وهاوناته تمطر خطوطنا بالقذائف والألغام .

كان ضباط الأركان والمنظمات السياسية موجودين دائماً في وسط القوات يعيدون تجميع القوى ، وينسقون بالعمق ترتيب القتال على محور الجهد الرئيسي للعدو . ولقد أجبرنا على التحصن بشكل أفضل في الخنادق وتحويل

كل بيت إلى نقطة استناد قوية وتعزيز بشدة الدفاع عن قطاع المصانع .  
أصبحت فرقة غورثني مثلاً ، الآن على إتصال مع فرق جولوديف  
وغورثيف بعد تراجع مواقع القتال وضع لواء من فرقة الحرس ٣٩ غورثيف في  
١٢ تشرين أول بشكل يؤمن الدفاع بالعمق ويدعم الإتصال بين فرقتي جولوديف  
وغورثني .

عادت إلى الضفة اليمنى فرقتا المشاة ٥٢٤ والفرقة ١١٢ اللتان كانتا حتى ١٢  
تشرين أول على الضفة اليسرى من الفولغا لاتمام ملاكهما بعناصر المؤخرة وقد  
اتخذت مواضعه الدفاعية في النسق الثاني في قطاع الستاد الرياضي شمالاً .  
غربلنا كل تشكيلات المؤخرة التابعة للالوية والفرق ووحدات الجيش ، ولم  
نترك إلا القليل من الأشخاص من أجل تسليح الآخرين وتوزيعهم بين سرايا  
المشاة والمدفعية ، كنا نشعر بأن العدو بهذه الهجمات الجزئية على مختلف  
قطاعات الجبهة ، يحضر لانقضاض عنيف وبالتحديد على مصنع تراكتورني  
وقد أكدت مصلحة الاستطلاع ، التي كان يقودها غيرمن دائماً هذا الافتراض  
إن من الواجب مجابهة ضربة العدو الجديدة بتسليح جديد .

زجت في الهجوم حسب أوامر الجبهة فرقة جولوديف ولواء من فرقة  
غورثني في ١٢ تشرين أول على الحدود الغربية من مصنع تراكتورني وذلك  
لتشويش مخططات العدو واستعداداته للهجوم الجديد .

لم نكن ننتظر نتائج كبيرة من هذا الهجوم المعاكس . ولكن كنا نشعر هذه  
المرة أن قيادة الجبهة لم تلح على وحدات الجيش ٦٢ للقيام بهذه الأعمال النشطة  
دون مبرر ، وخطة التموين بالنخيرة المخصصة لشهر تشرين أول تلقيناها من  
إدارة مدفعية الجبهة ، وكانت تفرض على الجيش نوعاً من التقشف . إن هناك  
هجوم معاكس قوي يحضر من قبل قواتنا .

وجه هجومنا المعاكس نحو التجمع الرئيسي للعدو وذلك لتذكير العدو بأننا  
نستطيع إحباط مخطط هجومه الجديد ، وقد اضطر العدو للقيام بالهجوم الجديد  
قبل وقته وكان ذلك بالنسبة إلينا أفضل من الانتظار ، حتى ينهي تحضيراته  
وبهاجمنا بكل قواه .

صحيح أن ترتيبنا القتالي قد نسق بالعمق ولم تشترك بهجومنا المعاكس إلا  
قسم قليل من قواتنا إلا أننا كنا نشعر بالخطر نحونا . بدأنا بالهجوم في ١٢  
تشرين أول صباحاً . وأظهر الألمان مقاومة عنيدة ، وبعد يوم من القتال حققت

فرقة جولدوف نجاحا وبقدمت على جناحها الأيسر ، وفي الوسط حوالى ثلاثمائة  
مدر نحو الغرب وتتابع القتال فى المناطق القريبة شمالى السناد الجنوبى . كما  
أن وحدات فرقة غروشنى تقدمت متنى متر أيضا .

بلت المعارك فى هذا اليوم على أن الهتلريين لم يكونوا بانتظار هجومنا  
المعاكس ولكن كثافة ترتيب العدو القتالى ، كانت متماسكة بقوة وبشكل لم  
تسقط معه قواننا من تحقيق خرق فى العمق .

نابعا فى ١٣ تشرين أول هجومنا المعاكس واسقطنا إجبار العدو على  
النراجع إلى ما وراء منخفض ميتشيثي كما دارت رحى معركة طاحنة طيلة  
اليوم .

وصل يوم ١٤ تشرين أول وكان يوما من المعارك النائرة بضراوتها فثلاث  
فرق مشاة عدوة وفرقتان مدرعتان ، اندفعت بهجوم معاكس على جبهة طولها  
خمسة كيلومترات .

أعطى هتلر فى يوم ١٤ تشرين أول أمراً لكافة القوات الألمانية ، وعلى طول  
الجبهة السوفيتية - الألمانية باتخاذ موقف الدفاع ، عدا جبهة سنالينغراد التى وجه  
إليها كل ما لديه من احتياط ، وتجمعت قوات جوية قوية جداً فى ذلك الاتجاه .  
سنحتفظ طوال عمرنا نحن الذين كنا على مرأى من الأحداث بذكرى ذلك  
الهجوم الألمانى الرهيب .

استيقظت باكراً وحسنى يدفعنى للتفكير بما يمكن أن يحدث ، وكنا متوترى  
الأعصاب ، ننتظر ضربة العدو المحضرة ومن المحتمل أن بعض الأشياء  
نخلبت على نومى ، رغم التعب ، وجعلتنى أنهض مسرعاً .

وبعد أن شربت كأساً من الشاي الثقيل الذى صنعه لى الجندي الوصيف  
شاهدت لى بعيداً عنى الجنرال بوجارسكى يقف بالقرب من سماره ، فقد  
خاض هذا الجنرال كل الحرب دون أن يفترق عن سماره .  
- حسنا بتروفانيش ، هل سيكون لديك الوقت لتشرب شايك قبل أن تبدأ مسفونية  
الفريتز؟ - سألته بهدوء .

- نعم ، وإذا لم يكن لدى الوقت ، فسأحملة معى للمرصد .

خلال حديثنا دوى انفجار قوى قائم من الغرب وفيما نحن نرفع رؤوسنا سمعنا  
مباشرة صفير القنابل والألغام ، وحالاً أخذت الانفجارات تهز الأرض حولنا ،  
عشرات الآلاف من القنابل من مختلف العيارات والأحجام أخذت تهطل مع



الألغام على مواقع جيشنا الدفاعية وأجبرتنا موجات الصدمات للالتصاق بمنحدرات الفولغا وانقلب السماور قبل أن يحين وقت غليانه ، في حين أخذت مياه الفولغا تغلي بكل معنى الكلمة ، بسبب شظايا القذائف وفي نفس الوقت أخذت الطائرات الفاشية نحلق فوق رؤوسنا بمجموعات متعددة ، وجعلت أصوات انفجار القذائف والألغام كل محادثة غير ممكنة ، ثم أقيت نظرة على بوجارسكي الذي فهم مرادي ، فأخذ معطفه ومنظاره ، وذهب راكضا إلى مقره وركضت أنا إلى مقري أيضا .

كانت الشمس غير واضحة فالدخان والغبار يغطيان السماء ، وعندما وصلت إلى ملجئي ، وأريت أن أغلق الباب بقدمي نلقت بظهري ضربة موجعة بسبب موجات الصدمة التي جعلتني أطير من مكاني .

وجدت كل من كريلوف وغوروف جالسين على الطاولات ، وكل منهم يمسك بيديه الاثنتين جهازا هائيا كما كان حاضرا في المخبأ ، رئيس مصلحة إشارة الجيش العقيد لورين الذي كان يقدم تقريره عن الاتصالات السلكية واللاسلكية - سأله : كيف حال الاتصالات ؟

فأجابني لورين :

- غالبا ما تكون الاتصالات الهاتفية مقطوعة ونحن نستخدم الراديو وننكلم دون شفوه وهنا صرخت بوجهه :

- هذا لا يكفي أصعد ونظم مراكز إنصال وسبط احنياطي على ضفة النهر اليسرى لازواجية الاتصالات وأخبرني بسرعة .

خرج لورين بسرعة بعد أن فهم كلامي ، وأخذت أزرع المخبأ الذي كان على شكل نفق مثلثي . أخذ ضباط الأركان وعمال الهاتف ينظرون إلى . ويجربون أن يقرأوا في وجهي حالتي النفسية والموقف على الجبهة ولكي لا أظهر لهم أنه لا يوجد ما يرعب ، اجتزت المخبأ بخطوة هائلة وبطبنة ، وخرجت من المخرج الآخر .

كل ما كنت أراه ، بخاصة في حبهة مصنع نراكنورنى بصعب وصفه وكانت أصوات محركات القاذفات الألمانية تزمجر فوق رؤوسنا . والقنابل نولول أثناء سقوطها في الوقت ، الذي كانت فيه قذائف المدفعية المضادة للطائرات والتي كانت تنفجر في السماء ، وتترك نائيرا يدل على اتجاهها ودوبا كالرعد ، صيحات وانفجارات كانت نحيط بنا ، ثم قطع معبر البراميل الطافية

الخاص بالمشاة في دينجنايا فولوجكا ذراع مائي من الفولغا ، وجرفه التيار وفي الأفق البعيد كنا نرى جوانب البيوت تنهار والنار تشتعل في مباني مصنع تراكتورني .

أعطيت أمراً لقائد مدفعية الجيش بوجارسكي لرمي رشقتين من مجموعة الكاتيوشا . الرشقة الأولى على معمل سيليكاتشي ، والثانية أمام استاد الرياضي حيث تتجمع قوات العدو . وقد نجحت بالاتصال مع قائد طيران الجيش الجوي خريوكين وطلبت منه التصدي للقاذفات الفاشية ، وقد أجابني خريوكين بصراحة إنه لا توجد لديه الامكانيات للقيام بذلك ، فقد شل العدو مطارات الجيش ومن المستحيل أن تصل طائراتنا في الوقت الحاضر حتى ستالينغراد . زج العدو بكل قواه ضد الجيش ٦٢ مستغلاً تفوقه في العتاد والرجال والقدرة النارية ، وكان من الواضح أنه يحاول قطع الجيش إلى أجزاء وتدميرها بالنفالي ، لذلك وجه كل جهده الرئيسي في تلك الوقت للمنطقة بين المصانع تراكتورني - وباريكادي ، وكان هدفه التالي خرق الجبهة حتى الفولغا وإذا نظرنا إلى القوى والوسائل التي زجها في القتال كان من الواضح أنه يعمل لمنع وصول التعزيز عن طريق الفولغا ، وقطع طريق التموين بالذخيرة لستالينغراد ، وهكذا سيكون علينا في الأيام القادمة أن نتحمل قتالاً شرساً فقط بالقوى الموجودة لدى الجيش ٦٢ .

كان ملجؤنا تحت الأرض يهتز كمن وقع فريسة للحمى، والرمل يتساقط من السقف ، والاهتزازات الناتجة عن تفجر القنابل ذات الأحجام الكبيرة حولنا تهدد بتهديم المخبأ ، ولكن لم يكن لدينا أي مكان نذهب إليه .

وتحت عاصفة من النيران ، قامت ثلاث فرق مشاة ، وفرقتا دبابات بمهاجمة مواقعنا على جبهة حوالي ستة كيلومترات . ووجه الجهد الرئيسي المعادي نحو الفرق ١١٢ و ٩٥ و ٣٠٨ مشاة وفرقة الحرس ٣٧ ، التي ضعفت وأنهكت قواها بشكل خطير بسبب الخسائر التي تكبته في المعارك السابقة وبخاصة الفرق ١١٢ و ٩٥ . كان تفوق العدو علينا خمس مرات بالنسبة للرجال و ١٢ مرة بالمدافع ، وطيرانه يهيمن على هذا القطاع دون منازع .

كانت مشاة العدو ودباباته تهاجم مواضعنا منذ الساعة الثامنة صباحاً ، وقد صد الهجوم الأول حيث أحرقت عشر دبابات أمام خطوطنا الأولى . وبعد ساعة ونصف عاود العدو هجومه بقوى متفوقة وكثف نيران مدفعيته . فأغرقنا تماماً

بنيرانه الكثيفة التي لم تسمح لأي شخص أن يرفع رأسه فوق الموقع .  
سحق في الساعة العاشرة اللواء ١٠٩ من فرقة الحرس ٣٧ تحت ضربات  
الدبابات والمشاة العدو . وتحصن جنود هذا اللواء في أقبية وغرف البيوت وأخذوا  
يقاقلون وهم محاصرون . استخدم الهتلريون ضدهم قاذفات اللهب ، وكان  
جنودنا الأشداء يدافعون بأخمص البنائى وجهاً لوجه ، وهم يطفئون الحرائق في  
الوقت ذاته .

إنهار في مركز القيادة مخبأان بسبب انفجار قنبلة طائرة بالقرب منا . قام  
رجال سرية حرس القيادة وبعض أعضاء الأركان بإنقاذ رفاقهم من تحت  
الأنقاض .

علمنا في الساعة ١١ أن الجناح الأيسر لفرقة المشاة ١١٢ سحق هو الآخر  
أيضاً فقد سوت مع الأرض خمسون دبابة مواقعهم تحت سلاسلها . هذه الفرقة  
التي اشتركت بعدد من المعارك في الغرب من الدون وعلى الدون وبين الدون  
والفولغا ، ولم تكن تعد في صفوفها في ١٣ تشرين أكثر من ألف شخص جاهزين  
للقتال بقيادة العقيد ايرمولكين ، حيث تحولت إلى مجموعات صغيرة منعزلة  
أخذت تقاتل ببطولة في بعض الأبنية في المعامل والمصانع « نراكتورني »  
وفي ضواحي نيجنه على ضفاف الفولغا المنحدرة .

احتل العدو في الساعة ١١,٥٠ استاد مصنع نراكتورني ، وحقق خرقاً عميقاً  
في دفاعنا ، ولم يبق إلا أقل من كيلومتر حتى المصنع . وإلى الجنوب من  
الستاد الرياضي كان يقع الحي المعروف باسم هيكسايدر وأبنيته من الحجر ،  
فحولته قواتنا إلى نقطة استناد قوية إذ تمركزت فيه حامية مؤلفة من فوج من  
لواء مشاة الحرس ١٠٩ وتبادلت الأيدي هذا الحي عدة مرات . وقد قاد أمر  
اللواء اومتشنيكو نفسه فصائله للهجوم المعاكس .

أرسلت عدة تقارير بالراديو دون شفرة عن الموقف ، وفيما يلي التقارير التي  
التقطها مركز اتصال اركان الجيش وأتكرها كلمة، كلمة .

« يهاجم الفريتز في كل مكان بالدبابات ، وقواتنا تقاتل في قطاع أنانيغو ،  
حيث دمرت أربع دبابات ، كما دمرت دبابتان لدى نكاتشنيكو ، ودمر جنود  
الحرس من الفوج الثاني من اللواء ١٨ دبابتان أيضاً . كما يمسك الفوج الثالث  
بمواضعه على ضفة المنخفض استطاع رتل مدرع معاد من تحقيق اختراق في  
لانترنايا »

أبلغتنا مدفعية الفرقة ٣٧ الحرس : « نحن نرمي الدبابات على مسافة قصيرة جداً ، وقد دمرنا خمساً منها » .

أبلغ رئيس أركان فرقة بروشكو أركان الجيش « عزل جنود بوستافاغاروف من لواء الحرس ١١٤ ، على أثر الخرق الذي حققه العدو بدباباته . وتحصنوا بمجموعات في البيوت والخرائب ، ويقاثلون رغم الحصار » .

نقل إلينا الراديو في الساعة ١٢ من لواء مشاة الحرس ١١٧ الخبر التالي : « قتل قائد اللواء اندرييف . نحن مطوقون سنموت ، ولكن لن نستسلم » اللواء لم يمت مطلقاً فأكثر من مائتي جثة المانية كانت ممددة على التراب حول مركز قيادته ، وجنود الحرس كانوا يواصلون القتال .

أنذرت ألوية الفرقة ٣٠٩ مشاة غورتييف « دبابات عدوة تهاجم مواقعنا من الشمال المعركة طاحنة ، يطلق رجال المدفعية برماياتهم المباشرة على دبابات العدو ، تكبدنا خسائر فادحة بسبب الطيران ، نطلب طرد هذه المصائب من فوقنا » .

أغار طائرات منقضة في الساعة ١٢,٣٠ على مركز قيادة فرقة الحرس ٣٧ وطمرت قائد الفرقة جولوديف تحت أنقاض مخبئه ولم يعد لنا معه أي إتصال ، لذلك تسلمت أركان الجيش قيادة وحدات الفرقة المذكورة . كانت خطوط الإتصال الهاتفي واللاسلكي تعمل بأكثر من طاقتها ، ثم تم إتصال هاتفي في الساعة ١٧,١٠ مع الجنرال جولوديف المطمور تحت الأنقاض ، عن طريق إدخال أنبوب معدني ، وكان الجميع يتابعون عملية إخراج قائد الفرقة وأركانها . وقد وصل في الساعة ١٥ جولوديف شخصياً إلى مركز قيادة الجيش ، وهو مغطى بالتراب وأبلغنا : « أيها الرفاق أعضاء المجلس العسكري لن نتراجع فرقة الحرس ٣٧ ، وبعدما قم تقريره ، ترك نفسه وسقط على إحدى الدرجات الترابية وهو يغطي وجهه بيديه .

في الساعة ١٣,١٠ أبلغنا « إنهار مخبأنا في مركز قيادة الجيش ويوجد قتيلاان وعدة جرحى » .

إنقطع الإتصال التلفوني في الساعة ١٤ مع كل القطاعات ولم يعد يعمل سوى مركز الراديو بشكل متقطع وأقمنا إتصالاً مزدوجاً عندما أرسلنا ضباط الإتصال ولكن هذه الطريقة كانت بطيئة ومعلوماتهم تصل متأخرة .

اخترقت مدرعات العدو بعمق مواقعنا الدفاعية في الساعة ١٥ ونفنت على

خط المصانع تراكتورني باريكادي ولكن حامياتنا استطاعت برمايتها فصل مشاة العدو عن مدرعاته ، وهي تقاتل موزعة بسبب تطويق العدو لها ولكنها استطاعت تثبيته ، فدباباته لم تكن تتقدم دون المشاة وهذه اضطرت للاحناء بالأرض مما جعل الدبابات هي الأخرى تتوقف عن التقدم وأصبحت هدفاً ممتازاً لرجال مدفعيتنا وقانصات الدبابات ، ورغم ذلك نجحت في الساعة ١٥ مدرعتان عدوتان بالتقدم نحو مركز قيادة الجيش وأصبحتا على بعد ٣٠٠ م منا ، لذلك اشتبكت معها سرية حرس أركان الجيش . ولو وصل العدو إلى أقرب من ذلك لكنا مضطرين نحن للاشتباك مع الدبابات ، فلم يكن هناك مخرج غير ذلك لأننا لا نستطيع مطلقاً التراجع ، فنفقد في هذه الحالة آخر وسائل قيادتنا واتصالنا مع غيرنا .

اختبأت في حديقة « سولكورني » عشر دبابات من اللواء ٨٤ المدرع ومعها الأوامر بعدم القيام بهجوم معاكس والبقاء في كمين حتى الساعة التي يستطيع فيها العدو من تحقيق خرق باتجاهها ، وكان ذلك في الساعة ١٥ إذ حققت مجموعة من الدبابات الألمانية خرقاً باتجاه الحديقة المذكورة وهنا اصطدمت بالدبابات المختبئة التي أطلقت عليها قذائفها دون أن تخطيء أهدافها ، لذا جرب الألمان احلال نقطة الاستناد هذه لعدة أيام من يوم ١٤ حتى يوم ١٧ ولم يوفقوا إلا في اليوم الأخير ، بعد أن اضطر فون باولوس لادخال الطيران بكثافة وقام بأكثر من مائة طلعة ، وبالأحرى غارة على هذه النقطة ضد دبابتنا .

بالرغم من الخسائر الفاحشة التي تكبدها العدو ، ظل يتقدم نحو الأمام ويدفع بمشاته ورماته ، الذين كانوا يتسربون إلى المناطق الفارغة من مواقعنا ، واشتبك حرس الأركان عدة مرات بالقتال ضد الألمان .

طلب المقدم اوستينوف قائد أحد الألوية في الساعة ١٦,٣٠ من مدفعيتنا أن ترمي قنابلها على مركز قيادته الذي كان يشبك مع الفاشيين بقتال مباشر بعد وصولهم إلى قربه وأخذوا يرمون عليه قنابلهم اليدوية ، ولم يكن سهلاً أن نقرر فتح النار على أحد ضباطنا . ومع ذلك قام الجنرال بوجارسكي بإرسال رشقة من مجموعة مدفعية الكاتيوشا ، قتلت الألمان فقط ، ولم تمس رجالنا .

دافعت المفارز المشكلة من العمال عن مصانع تراكتورني وباريكادي بالتعاون مع الجيش ٦٢ . ويعود لهذه المفارز الفضل في الدفاع عن ستالينغراد

خلال الحرب الأهلية ، وكانوا في أغلبيتهم من الشيوعيين ومنذ ظهر ١٤ تشرين الأول اشتبكت هذه المفارز مع العناصر المتقدمة المعادية نحو المصنعين . بالتعاون مع وحدات وعناصر الفرقة ١١٢ والفرقة ٣٧ المدافعة عن المصنعين . ونصدى الجميع للعدو في الساحات أمام المصانع والشوارع المتجهة نحوها كما أن وحدات الفرق ٩٥ و ٣٠٨ التي كانت تسند على معمل النصليح في مصنع باريكادي ، استطاعت بالتعاون مع العمال المسلحين تحرير عدة شوارع منجهاً نحو المصنع ، وكذلك بالتعاون مع رجال دبابات اللواء ٤٨ بيلوف . آلاف من جنث الهتلريين أصبحت ممددة في الساحة والشوارع ، عدة عشرات من الدبابات المشتعلة والمدمرة كانت تسد الطرق والممرات ، استطاعت بعض وحدات العدو الصغيرة تحقيق اختراق نحو ضفة الفولغا ، وبخاصة في المنطقة بين المصانع ، ولكننا لم نترك لها الوقت الكافي لتتحصن فرمايات المدفعية المتمركزة على الضفة اليسرى والهجمات المشتركة لقواتنا على أجنحة القوات المعادية ، قذفت بالفاشيين للوراء بعد أن تكبدوا خسائر فادحة .

كثيراً ما كانت ضربات الطيران المعادي ، وتفوقه بالدبابات والمشاة تؤدي لقطع خطوطنا الدفاعية في بعض النقاط . وقد قطع الجيش ٦٢ إلى قسمين ، وأصبحت المسافة التي تفصل بين مصانع باريكادي وتراكتورني ( ١٥٠٠ ) م تحت مراقبة شديدة من العدو الذي أخذ يغطي بنيرانه كل المنخفضات التي تقود إلى دينيجنايا ، فولوجكا ، ولم يعد ضباط إتصالننا يستطيعون الوصول حتى مصنع تراكتورني ، ومن مركز القيادة كنا نراقب المصنع بشكل جيد ، ولكننا لم نكن نستطيع أن نرى المعركة التي كانت تدور في أقسام المصانع ، والمساعدة التي كان باستطاعتنا تقديمها للمدافعين عن المصانع هي رمايات المدفعية التي كانت قيادتها بشكل دائم بين أيدينا . ظل مصير الوحدات والأشخاص في المصنع مجهولاً مدة طويلة بالنسبة لنا ، وقد أثقل قلبي عدم معرفة ما يجري هناك .

وبمنظرة واحدة للمعركة ، التي دارت ضد الدبابات في قطاع ساحة دزيرجنسكي ، يظهر بشكل واضح الثمن الباهظ لمبادرة فون باولوس التي كان يستهدف منها فتح الطريق نحو الفولغا بضربة واحدة ( نطحة كبش ) عبر قطاع مصنع تراكتورني .

أوكلت مهمة الدفاع عن ساحة دزيرجنسكي لسرية المدفعية بقيادة الملازم

أوتشكين ، وكان لديها ثلاث قطع مدفعية وتسع بنادق ضد الدبابات وكان عليها البقاء على أتم استعداد للقتال في مختلف الظروف وحتى ظروف التطويق . وكان من بين طاقم المدافعين التابعين لهذه السرية والمتمركزين في النهاية الجنوبية للساحة المذكورة ، الملقم فانيا فيدوروف ، وعمره ستة عشر عاماً وقد أصر بإلحاح على قائده الملازم أوتشكين أن يصحبه للجبهة . وهكذا اشترك في المعارك غير المتكافئة ضد دبابات العدو في ساحة دزيرجنسكي . وفي إحدى الاشتباكات ، وبعد غارات الطيران المعادي ، لم يبق سوى اثنين أو ثلاثة من سدة مدفع مضاد لذلك استلم فيدوروف دور المسدد لذلك المدفع ، ولم تتأخر اللحظة التي كان ينتظرها فقد اندفعت الدبابات الألمانية إلى الساحة ، ومن ورائها جنود العدو ورماة الرشاشات باتجاه موضع فانيا فيدوروف ، حاول اليكسي أوتشكين نجدة فانيا ، ولكن الموجه السياسي للفرقة بوريس فيليخينوف ، أوقفه قائلاً :

- دبابات عدوة من اليمين والمسدد قد قتل .

لقد ظنوا أن فانيا قتل في الهجوم الذي قام به رماة العدو من حملة المسدسات الرشاشة ، ولكن الغلام الشاب بقي سليماً بمعجزة ، ومن خندق محفور بجانب المدفع اخذ يقنف بقتاله اليدوية على المهاجمين ، ولكنه لم يتمكن من صد الدبابات هكذا .

ويقص بوريس فيليمونوف ، الذي كان شاهداً على عمل فانيا البطولي ما جرى لفانيا ويقول : « كانت اليد اليمنى للغلام تندلى إلى جانبه دون حركة ، كما استأصلت شظية قنبلة يده الأخرى من الذراع . ودبابتان أخريان كانتا تقتربان من المدفع ، عندها خرج الشاب من خندقه ، وهو مغطى بالدماء ويدها الاثنتان لا نفع منهما ، ولم يعد لديه إلا أسنانه التي كانت تمسك بقنبلة مضادة للدبابات ، ولم يلبث أن سقط تحت سلاسل إحدى الدبابات ودوى الانفجار .

عمر فانيا ستة عشر ربيعاً عندما استشهد ، وكان يحمل على صدره بطاقة الكومسمول منذ أن يستيقظ في الصباح . أي حب عظيم كان يكنه هذا الابن البار للأرض الروسية .

عزلت مدرعات ومشاة فون بولوس التي اخترقت المصنع بقايا الفرقة ١١٢ وجزأتها إلى ثلاثة أقسام قسم انسحب من الشمال وحقق إتصاله مع لواء جورخوف في قطاع ريفوك ، والقسم الثاني بقيادة الملازم شوتوف واليكسي

اوتشكين ، ظل في معامل الصهر والتجميع في المصنع ، والقسم الثالث هو الذي جمعها الموجه السياسي بوريس فيلمونوف والتجأت إلى أقبية مدينة نيجني حيث كانت أركان الفرقة وعلى رأسها المقدم غوليفسكي قائد المدفعية .

صممت مجموعة فيلمونوف يومين في المعارك التي دارت ضد الدبابات والمشاة العدو ، ثم قتل المقدم غوليفسكي ، إثر إصابته بشظية قنبلة في صدره ، بعد ذلك نفذت النخيرة وحان الوقت للتخلص من التطويق ، وكانوا متعبين وجائعين ، فأخر وجبة كانت لهم في ١٤ تشرين أول . واشتبكوا بمعركة ثلاثون جندياً ضد فوج هتلري كامل ، وقد استطاعوا الخروج من دائرة النار وجرح فيلمونوف فحملة الأحياء مع أوراق الرفاق القتلى إلى معبر النهر بالقرب من سبارتانوفكا .

نجح الملازم شوكوف وأنا بنجميع المحاربين المنعزلين ، ومن بينهم كان عمال المصنع ، ونظمنا هجوماً على معمل الصهر ، وأطاش هذا الهجوم المباغت صواب الألمان ، الذين كانوا يعتقدون ، بأنه لم يعد هناك من يدافع عن المصنع منذ زمن طويل ، ولكن الألمان استطاعوا طردنا من المعمل ، ثم عدنا وأخرجناهم منه ، وبعد ذلك قاموا بمهاجمتنا من جديد . وقد وجدنا أنه لا يمكن التمسك به طويلاً لذلك النجأنا للحيلة وقمنا بعملية انسحاب تلقائية من المعمل بعد أن نصبنا كميناً من رماة المسدسات الرشاشة ، ومنذ أن بدأ الألمان ينسابون إلى المعمل ، أخذت زخات من رصاص رماتنا في الكمين تنصب في ظهور المهاجمين الألمان ، وبعد أن تمتد حوالي نصفهم على الأرض اضطر الآخرون للهرب مشتين ، فقد كانوا لا يحبون القتال القريب .

وتشهد على ذلك رواية اليكسي اوتشكين ، فالألمان الذين أغاروا على المصنع لم يتمكنوا من التغلب نهائياً في ذلك اليوم على مقاومة المجموعات الصغيرة التابعة للفرقتين ١١٢ و ٢٧ أما مجموعتا اوتشكين وشوكوف ، فقد ظلتا نقاتلان عدة أيام ، وكان حرم المصنع يمتلئ كل يوم بعناصر عدوة جديدة من مشاة ومدركات .

طبق الضباط الهتلريون بالاعتماد على تفوقهم الساحق أسلوباً منهجياً في إبادة مجموعائنا المنعزلة ، حيث أخذت بباباتهم المتمركزة في الباحات والأروقة تطلق نيران مدافعها على مسافة قريبة على قواتنا ، وتدمر كل ما تجده أمامها إن كان يتحرك أو لا يتحرك ، وتنقل تدميرها من معمل إلى معمل ، وقطاع بعد قطاع



لذلك أصبحت كلها غارقة باللهب والدخان ، وكان غبار الاسمنت يملأ الجو وتنتشر معه الرائحة النتنة التي كانت تنبعث من احتراق شحوم وزيوت الآلات الصناعية ، كما كانت حفر إصلاح الآليات تشتعل هي الأخرى ، وتنتشر لهباً كان يتعب عيون جنودنا الأبطال ، ويقطع أنفاسهم في الوقت الذي كانوا فيه يتعرضون لحرارة عالية ، غيرت لون ثيابهم وجعلتها صفراء .

- ويتابع الكسي اوتشكين قوله : بعد أن فشل الفاشيون الذين كانوا يطوقوننا من إيجابارنا على الاستسلام أخذوا يضيقون علينا دائرة الحصار ، وينشرون النيران حولنا لنحترق ونصبح رماداً . وإني أتذكر أن أحد جنودي حاول القفز خارج الركاب الملتهب لمعمل التجميع ، تعرض فوراً لرمية طويلة من رشيش قضت عليه ، ونتيجة لذلك قررنا الانتظار والصبر حتى هبوط الليل لنعمل على اختراق الحصار بوثة واحدة حتى بلدة نيجني ، وكانت ذخيرتنا قد وصلت إلى نهايتها . وأنهكنا العطش ، حتى أصبحنا نتمنى جرعة الماء . وقد ساعدنا أحد العمال على جمع الماء من أحد الأنابيب . ولكن سرعان ما نفذ ما فيها من ماء . وأخيراً أتى الليل الذي انتظرناه طويلاً ، وبعد أن رمينا بآخر قنابلنا وأطلقنا آخر طلقاتنا اخترقنا الحصار حتى نيجني .

كان عمر الكسي اياكوفليفتش اوتشكين في ذلك الوقت ٢٠ عاماً . وقد ولد في قرية لاتينيفو في منطقة سمولنسك ، وتربى لدى امرأة كانت تعمل مساعد طبيب في المستشفى الريفي قبل بداية الحرب ، ثم دخل الكسي مدرسة المدفعية وتخرج منها بعد ستة أشهر وذهب رأساً إلى الجبهة . كان الملازم اوتشكين خلال المعارك عند آخر خطوط الدفاع عن مصنع تراكتورني ، على رأس مجموعة مؤلفة من رماة مسلحين بالرشيشات وسنة هاون . ورجال هندسة ، وقانصي دبابات .

- يقول اليكسي اوتشكين وهو يتابع سرد قصته « كنا أقل من سرية ، وكان الهتلريون أكثر منا عدداً بالرجال والدبابات والمدفعية والطيران ، ورغم ذلك قررنا الصمود حتى الموت . كان على جناحنا الأيسر بيفوروف وهو قانص دبابات ، ولديه مهمة تأمين الدفاع عن هذه الجهة برشاشه الثقيل ، وكان بيفوروف أكبر منا عمراً ويناhez الخمسين تقريباً ، وقد اشترك في الدفاع عن مدينة تساريستين ( اسم ستالينغراد سابقاً ) ، وكان الشيوعي ستيفان كوختاوكا الذي كان يشغل عمل سكرتير منظمة الحزب على رأس مجموعة قانصي

الدبابات والرماة من حملة الرشاشات والرشيشات ، بالإضافة إلى كونه رامياً ماهراً من رماة الرشاش خلال الحرب الأهلية .

وقد تمركز جميع هؤلاء في منتصف قطاع الدفاع . كما كنا قد ركزنا هاونين بقيادة الملازم شوتوف في الأسفل بالقرب من المياه ، بالإضافة إلى ذلك كان شوتوف ينشر هؤلاء ليلاً إلى الخلف - على لسان رملي - ومعهم رماة الرشيشات لكي يحبطوا كل تفكير معاد للالتفاف حولنا » .

تكلم الجنرال الألماني دوير في كتابه « معركة ستالينغراد » عن الهجوم الألماني على معمل تراكتورني في ستالينغراد « بدأت في الرابع عشر من شهر أيلول أكبر العمليات ، التي وقعت في تلك الوقت فقد قامت بالهجوم بضع فرق ألمانية هي - الفرقة الرابعة المدرعة ، فرق المشاة ( ٣٠٥ - ٣٨٩ ) على جبهة تمتد من معمل تراكتورني - دزيرجنسكي - الحدود الشرقية ، حيث يقع مقر قيادة الجيش ٦٢ الروسي ، تعزيزها قوات أخذت تصل من مختلف حدود الجبهة ، وحتى من أجنحة قواتنا التي كانت متمركزة على الدون وسهوب « كالموك » ، كما وصلت كدعم وحدات وأقسام من رجال الهندسة . وتشكيلات الدفاع المضاد للدبابات . التي سحبت من تلك المناطق رغم ضرورتها ، ونقلت خمسة أفواج من سلاح الهندسة بالطائرات من ألمانيا مباشرة إلى قطاع القتال ، وكان يدعم الهجوم الفيلق الجوي الثامن بكامله » .

« وتقدمت قواتنا المهاجمة خلال معركة دامية مسافة كيلومترين ، ولكنها لم تتمكن من القضاء نهائياً على مقاومة ثلاث فرق روسية ، كانت تدافع عن المصنع من جهة منحدرات الفولغا . واضطرت قواتنا التي نجحت في النهار بالاختراق والوصول إلى ضفة الفولغا للتراجع والانسحاب ليلاً ، فقد كان الروس يكمنون لها في المنخفضات ويضربونها من الخلف » .

ولكي نكون موضوعيين من الضروري القول بأن الفرق التي كانت تدافع عن مصنع تراكتورني ليست ثلاثاً كما كان يعتقد الجنرال بل كانت قطع فرقة واحدة وهي فرقة الحرس ٣٧ بقيادة جولوفيف مع ٦٠٠ عنصر من فرقة المشاة ١١٢ . كنا - نحن المجلس العسكري للجيش وقادة الفرقة والألوية - على علم باستعدادات العدو للقيام بهجوم قوي بقوات متفوقة علينا . وبصراحة لم تكن نتوقع هجوماً على هذا المستوى من الاتساع ، كنا نعلم حقاً بأن معارك حاسمة ستدور ولن تنتهي بسرعة ، وكنا نعلم أننا إذا استطعنا مقاومة هذا الهجوم ، فلن

يتمكن الهنريون من العودة مرة أخرى للهجوم بمثل هذه القوى ، وبهذه الوسائط والامكانيات ، كنا على يقين بأن مرحلة دقيقة بدأت بالنسبة لنا وبالنسبة للعدو .  
بلاغ عن معارك ١٥ تشرين أول :

صمد الجيش في المعارك الدفاعية القاسية في القطاع الشمالي والأوسط من الجبهة . وقد صنت في القطاع الجنوبي الهجمات التي قامت بها تشكيلات صغيرة من المشاة والدبابات . وقد زج العدو بوحدات جديدة تابعة لفرقة المشاة ٣٠٥ وتابع قتاله محاولاً تطوير هجومه اعتباراً من مصنع تراكورني في سنالينغراد ونحو الجنوب باتجاه مصنع باريكادي . كما وجه أيضاً جهده الرئيسي على سبارتانوفكا . وريفوك ساعياً للوصول إلى الفولغا ومؤخرات الجيش .

في نهاية يوم ١٥ تشرين أول وباحتلال العدو للمصنع ، يكون قد قطع جبهة الدفاع بين فرقة الحرس ٣٧ وفرقة المشاة ٩٥ كما وصلت عناصره الأمامية إلى ما وراء فرقة المشاة ٣٠٨ وإلى أقرب مركز قيادة الجيش ، واشتبك حرس « مقر القيادة » في المعركة مع العدو على بعد ٣٠٠ متر من مقر القيادة .  
قطعت في الساعة ١٦ فرق إيرمولكين وجولوفيف والجناح الأيمن لفرقة غورتييف إلى قسمين من قبل الدبابات وأخذت هذه القوات تقايل وهي مطوقة .  
« كانت الأخبار التي تصلنا متناقضة وأصبح من الصعب شيئاً فشيئاً التأكد منها .

بعض مراكز قيادات الفرق دمرت بسبب القذائف والقنابل وأعداد من الضباط قضوا نحبتهم . ثلاثون شخصاً قتلوا في مركز القيادة ، لم يتوصل حتى الآن حرس أركان الجيش من نخليص الرجال في المخابىء المدمرة . قيادة القوات كانت تجري بواسطة الراديو بشكل رئيسي ، ومحطة الراديو الاحتياطية على الضفة اليسرى للفولغا ، كانت تعمل منذ الصباح . وكنا نرسل لها تعليماتنا التي كانت تنتقل للوحدات الموجودة في الضفة اليمنى عن طريقها .  
تدور المعارك دون انقطاع ليلاً ونهاراً . والوحدات المطوقة أو المعزولة كانت تواصل القتال ، وتعطي المعلومات عن وجودها بالراديو « منموت من أجل الوطن ، ولن نسنسلم مطلقاً » .

علمنا في منتصف ليل ١٥ وبشكل مؤكد أن الغزاة أحاطوا من كل الجهات بمصنع براكورني ، والمعركة تدور في اقسامه وفروعه .



كانت خطوط الاتصال التلفوني مقطوعة بعد احتراقها ، ليس فقط على الضفة اليمنى للفلوفا ولكن أيضاً على الضفة اليسرى حيث أقمنا مركز قيادتنا التبادلي . لقد أزعجتنا هذه الظروف بخاصة لأن قوة الجيش الرئيسية ، وكل مدفعية الجبهة موجودة في تلك الضفة ، لذلك طلبت من قيادة الجبهة الآن بالسماح لبعض أقسام الأركان للانتقال إلى مركز القيادة التبادلي بشرط أن يبقى المجلس العسكري بكامله في المدينة ، نحن نريد تأمين فقط قيادة القوات من الضفة اليسرى في حالة تدمير مركز قيادة الجيش .

كان الجواب بأننا لن نسمح بذلك .

كنا نجد أنفسنا شيئاً فشيئاً في مكان ضيق ، في ملاجئ المجلس العسكري ، يضاف إلى ذلك أفراد الأركان المدمرة لفرقة جولوفيف الذين أنو إلى المخابىء ، واللواء المدرع ٨٤ . فهناك فقط يستطيعون الاحتباء من القصف ونوجيه وحداتهم ، في نفس الوقت ، رغم الصعوبات .

اقترحت وعلى مسؤوليتي على قائد المدفعية الجنرال بوجارسكي بالانتقال إلى الضفة اليسرى لكي يقود من هناك المدفعية ، فأجابني والدمع يكاد يسقط من عينيه .

لن أذهب فأين تكون أنت سأكون ، وسنموت سوية .

وقد أجبرني جوابه على التخلي عن اقتراحي .

كان فينيروب قائد القوات المدرعة في الجيش ٦٢ يمضي أيامه بقرب دبابات اللواء ٨٤ حيث كان يختار لها الأماكن والمرابض الجيدة ، وينصب الكمائن ، وينظم التعاون بين المشاة والمدفعية .

كنا نتلقى التقارير المتعلقة من الوحدات والأقسام . وكثير من هذه الوحدات كان يطلب النجدة . ومنهم من كان يسأل ماذا نعمل ؟ وكيف ؟ وكنا نجاب بصرامة على هذه التساؤلات باختصار :

الصمود حتى النهاية ، وإلى آخر رمق . وعدم التراجع خطوة واحدة .

كانت خسائرنا فاحشة جداً ، فقد فقدت فرقة جولوفيف ، وفرقة غوريشني حوالي ٧٥٪ من عدادهما ، في يوم ١٥ تشرين أول ، ولكن في تلك اليوم لم يستطع الفاشيست أن يتقدموا بهجومهم وصدوا بعد أن فقدوا ٣٧ دبابة . وحوالي

ثلاثة أفواج مشاة .

زج العدو في صباح ١٥ تشرين الأول في المعركة بوحدات قدمت حديثاً إلى الفرقة ٣٠٥ مشاة ، كما طور هجومه باتجاه الجنوب والشمال على طول الفولغا ، وكانت مدفعيته تضرب مواضعنا ، وتنتقل بنيرانها من جهة إلى أخرى . وكما هو الحال دائماً كان الطيران يقذف المدينة بالآلاف القنابل .

ظل الجيش يتابع قتاله رغم أنه قطع إلى قسمين : مجموعة الشمال « ألوية المشاة ٢٤ ، ١١٥ ، ١١٩ » مع عناصر من فرقة ( إيرمولكين ) ظلت تقاتل وهي محاصرة ضد قوات العدو المتفوقة ، والتي كانت تهاجم من الشمال اعتباراً من لانتشكا . ومن الغرب على طول وادي موكرايا ميتشكا ، ثم من مصنع تراكتورني ، وقد قطع الاتصال بشكل دائم مع هذه المجموعة .

عبر في ليل ١٦ تشرين أول إلى الضفة اليمنى من الفولغا لواء من فرقة ايفاليتش ليونيكوف ، وزج في المعركة فور عبوره في شمال مصنع باريكادي ، وفي أضعف نقطة من جبهة الدفاع .

جدد العدو في نفس الليلة هجومه ، بفرقة المشاة ٣٨٩ والفرقة المدرعة ١٦ تعززها ألوية ميكانيكية وكانت هذه القوات تستهدف تدمير مجموعة الشمال المحصورة والتي كانت تدافع عن بلنتي رينوك وسبارتانوفسكا . كما عادت في صباح ١٦ تشرين أول ثلاث فرق مشاة عدوة للهجوم وهي ( ٣٠٥ ، ١٠٠ ، ٩٤ ) وكذلك فرقتان مدرعتان هما ( ١٤ و ٢٤ ) باتجاه الجنوب على طول الفولغا ، محاولة تدمير وسائطنا القتالية ومواضعنا .

دب الضعف إلى أقصى درجة في الوحدات التابعة لفرق : جولوفيف . وغوريشني ، وصمد في معركة غير متكافئة لواء من فرقة ليونيكوف ، واللواء المدرع ٤٨ أمام هجوم قامت به خمس فرق مشاة عدوة وبدعم من المدفعية والطيران . وكان الهنريون هم أيضاً يتكبدون خسائر فادحة بفعل رمايات مشاتنا . وطيراننا المنقض الذي دفع ثمناً غالياً حتى وصل إلى سماء المدينة وحلق فوق العدو عبر ستارات الطيران الألماني التي كانت تعترضه . كما كببت مدفعيتنا بما فيها مدفعية أسطول الفولغا العدو خسائر فادحة .

اكتشفت مصلحة استطلاعنا أثناء المعارك من أجل مصنعي تراكتورني وباريكادي مجموعة قوية من العدو تسند للهجوم على مصنع كراسني أوكتيابر إنطلاقاً من قطاع شارع شاكتينسكايا والمرتفع ١٠٧,٥ . ووضع كشافونا أيديهم

على وثائق من أسرى يعودون إلى وحدات من الهندسة ، قدموا بالطائرة من كيرتش وميلينيروف ، وحتى من ألمانيا نفسها .

لم تفتر مراقبتنا لهذا القطاع من الجبهة ، وكنا نلح بإصرار على الوحدات التابعة لفرق سميخوتفوروف وغورييف وباتيوك وروديميسيف تحصين مواقعها ودعمها وتقويتها أكثر فأكثر . مع مواصلة الاستطلاع المكثف وأن تعمل على تدمير الغزاة بغارات مجموعات الانقضاض .

كان تكتيك فون باولوس واضحاً : كان يريد أن يجذب إليه قواتنا الرئيسية في قطاع المصانع وتثبيتها هناك ، وفي الوقت ذاته يحضر بسرية تامة ضربة قوية على قطاع جديد من الجبهة .

ولكن فون باولوس لم ينجح في تخدير حذرنا ، فمشاريعه كانت دائماً مكشوفة من قبل رجال مخابراتنا ، وكل ضربة من قبل العدو كانت تصطدم بدفاع محضر جيداً وسلفاً .

وهذا ما حدث عندما اندفعت في يوم ١٦ تشرين أول مجموعات عدوة هامة من مشاة ودبابات بالهجوم على طول الطريق المؤدي إلى مصنعي تراكورني وباريكادي ، حيث وجه العدو جهده الرئيسي الحاسم في هذا الاتجاه ، ولكنه اصطدم بدبابات اللواء ٨٤ المطمورة في التراب في قطاع شارع ترامغابانيا ، كما استقبل رجال دباباتنا غرب القطاع المذكور العدو بنيران غزيرة على مسافة ١٠٠ - ٢٠٠ متراً ، مما أدى إلى تدمير عشر دبابات واشتعلت فيها النيران ، ولذا أخذ يتعثر هجوم العدو في الوقت الذي كانت فيه مدفعيتنا تفتح نيرانها القاتلة من الضفة اليسرى على مشاة ودبابات العدو .

ولكي نعطي فكرة عن حدة الصراع الذي دار في شهر تشرين أول سأورد هنا بعض البلاغات التي كتبت في الفترة التي دارت فيها أشد المعارك هولاً ومصير ستالينغراد في كفة الميزان .

وهذا هو البلاغ الصادر في ١٦ تشرين أول بعد ثلاثة أيام من المعارك المستمرة .

يصمد الجيش لمعارك دفاعية قاسية في القطاعات الشمالية والوسطى من الجبهة ، وفي القطاع الجنوبي صُنّت هجمات المجموعات العدوة من مشاة ومدفعية .

هاجم العدو بقوات متفوقة ( فرقة مشاة وفرقة مدرعات ) - وحدات مجموعة

الشمال من قواتنا باتجاهين اعتباراً من لاتشكا نحو رينوك ، ومن الغرب على سبارتانوفكا ، حيث نفذ على المنحدرات الغربية . وفي نفس الوقت ، وبقوى تزيد على فرقتي مشاة ومائة دبابة ، تابع هجومه اعتباراً من مصنع تراكتورني نحو الجنوب وفي نهاية النهار أصبح سيد شوارع ديريفيانسك ، مينوسينسك . والأقسام الغربية من شوارع فولخوفسترويفسكا ومن ترامغاينايا . سكوليتورني كما واصل هجومه على مصنع باريكادي .

قُطع الجيش مجدداً إلى قسمين من قبل العدو حتى ضفة الفولغا نفسها . صمدت وحدات مجموعة الشمال المطوقة لمعارك قاسية ، وتكبدت خسائر فادحة . ففي الفرقة ١١٢ واللواء ١٥ مشاة ، لم يبق أكثر من ١٥٢ حربة ( مقاتل ) وتحت ضغط قوى متفوقة ، اضطر لواء المشاة ١٤٩ للتراجع إلى الحدود الغربية لسبارتانوفكا .

انتقلت بقايا فرقة مشاة الحرس ٣٧ مع اللواء ٩٦٠ من فرقة المشاة ١٣٨ خلال الليل من الضفة الغربية للفولغا إلى ستالينغراد ، كما صمدت ألوية المشاة ٩٥ - ٢٨ أمام معارك قاسية دفاعية ضد المدرعات والمشاة العدو على خط ديريفيانسكي - مينوسينسك - ترامغاينايا - سكولبورتنورني . وزج العدو بالجبهة بفرقة مشاة حديثة هي الفرقة ٣٠٥ .

أُحصي في مركز قيادة الجيش ثلاثون بين قتيل وجريح بسبب نيران المدفعية والهاون ورشاشات العدو ، ودمرت خمسة مخابىء مغطاة بالرمي المباشر . الموقف لدى الوحدات الأخرى لا تبديل عليه .  
تمر العدو خلال الأيام الثلاثة الأخيرة ١٠٠ دبابة وقتل عدة آلاف من الجنود والاحتياط .

قرر قائد الجيش : زج فرقة المشاة ١٣٨ على الخط فولخوترويفسك . مصنع باريكادي سكولباتورني ، وإيقاف تقدم العدو على طول الفولغا نحو الجنوب في مؤخرات العدو .

وصل في ليل ١٧ تشرين أول لواءان من فرقة ليونكو إلى ضفتنا ، واشتبكا فوراً في القتال على خط شارع فولخوفسترويفسكايا . معمل باريكادي حديثة سكولبوتورني ، واستطاعا الاتصال بالأقسام المعزولة من فرقتي جولوفيف ، وغروشني . تمركزت أركان ليونكوف في ملجأ المجلس العسكري أيضاً لعدم وجود مكان آخر .

أفرزت فرقة المشاة ١٣٨ ليودنكوف من الجيش ٦٤ ولكنها لم تصل إلى ستالينغراد بتعداد كامل لتكبدها خسائر فادحة في معارك الدون ، ثم على لاسايا خلال عملها في الجيش ٦٢ .  
وصل في تلك الليلة نفسها إلى مركز القيادة العقيد الجنرال إيرمنكو ومعاونه الرائد جنرال بوبوف .

كانت هناك لوحة حية أمام أعينهما . فمقر القيادة أصبح ضيقاً ، وكأنه في حفرة قنبلة غرزت في أرضها العوارض الخشبية ، وعلى الطرف كانت كل الأشياء مغطاة بطبقة من الأوساخ والغبار .

عندما افترقنا في الصباح ، رجوت قائد الجبهة إرسال التعزيزات من الرجال وكميات أكبر من الذخيرة حيث كنا نشعر بنقصانها جداً ، فأجاب وهو يغادرنا .  
حسناً سنعمل على تلبية هذا الطلب . كما أمر بعد وصول الفرقة ١٣٨ نقل مقر قيادة الجيش أكثر إلى الجنوب من الضفة اليمنى لل فولغا .

مر يوم ١٧ تشرين وسط معارك دفاعية قاسية : مجموعة الشمال تقاتل وهي مطوقة . جربت أكثر من عشرين دبابة ألمانية يتبعها جنود من حملة الرشيشات اختراق الحدود الجنوبية لبلدة سبارتانوفكا ، وهنا نشب صراع حتى الموت . وكان أقل ضعف أو نقص في التحلي بالصبر من قبل الضباط ، يمكن أن يؤدي إلى كارثة لكل المجموعة .

حسب أنباء العدو تم القضاء على وحدات وأقسام فرق المشاة ١٢٤ - ١١٥ - ١٤٩ التي كانت تدافع عن بلدة رينوك وسبارتانوفكا عدة مرات ، ولكن هذا كان موجوداً فقط في التقارير المتناقضة للأركان الهتلرية .

أخبر في ١٥ تشرين الأول قائد مجموعة القتال الألمانية « B » فون ويشز *von weishs* هو أيضاً مقر القيادة العليا لهتلر : « تم القضاء على الوحدات السوفيتية المطوقة في مدينة العمال - سبارتانوفكا ، وقضي عليها نهائياً » ، ولكن في العشرين من الشهر نفسه ، نقل رئيس الأركان العامة الألمانية لهتلر « وحدات من الفرقة المدرعة ١٦ وفرقة المشاة ٩٤ حققت خرقاً في القسم الجنوبي من سبارتانوفكا واحتلت مجموعة من البيوت المعجونة ببعضها »

جاء في نشرة عمليات قيادة الجيش الجوي ريشتوفن *Richtofen* الصادرة بتاريخ ١٩ تشرين أول : « لا يمكن أخذ رؤيا واضحة في ستالينغراد عن الموقف فالفرق كانت ترسل تقارير مشجعة . وكل فرقة تبلغ عن أخبار مختلفة ،



والهجوم على سبارتانوفكا شمال ستالينغراد فشل فشلاً ذريعاً «  
كان قائد الفيلق الجوي الثامن فيبيج *Fiebig* يائساً لأن المشاة لا تستغل نتائج  
الهجمات التي نقوم بها طائراته .

أبلغ ريشوفن كلا من فون باولوس وسيليتز *Syblitz* بأن المشاة الألمانية  
أصبحت عاجزة عن الاستفادة من الغارات الجوية « وصلنا في انقضاضنا  
وغاراتنا أمام المشاة حتى مسافة القنابل اليدوية ، ومع ذلك فهؤلاء كانوا لا  
يستطيعون عمل شيء أمام الروس » .

كتب ولفانج ويرشن *Wolfgang Werthen* في كتابه تاريخ الفرقة المدرعة  
١٦ « تلقت الفرقة المدرعة ١٦ الأمر بتجميع كل قواتها لمهاجمة رينوك .  
هجمات الألوية مع ٢٥ دبابة تابعة للكونت دوهنا *Dohna* على رينوك وتكبدت  
الفرقة خسائر فادحة حيث سقط أكثر من أربعة آلاف جندي وضابط وأصبحنا  
غارقين في مقبرة عسكرية »

تلقيت برقيات من قيادة الألوية ١٢٤ - ١١٥ يطلبون فيها السماح لأركاناتهم  
بالانتقال لجزيرة سبورني ، ولكنني أجبتهم « بأن انتقالهم من الضفة اليمنى  
للفولغا ، يعتبر وكأنه هروب من القتال » وبعد هذه البرقية أرسلت إلى مدير  
العمليات في الجيش « كامينين » للاطلاع بدقة على الموقف ، اخبرنا عما  
يجري في هذا القطاع من جبهة القتال .

كان العدو خلال هذا الوقت يواصل هجماته باتجاه الجنوب اعتباراً من مصنع  
تراكتورني وعلى مصنع باريكادي ، والمئات من طائراته القاذفة تنقض على  
المنطقة التي طمرت فيها دبابات اللواء ٤٨ ، فأحرقت القنابل ما تبقى من  
الأبنية ، وحتى الأرض احترقت هي والدبابات ، ولم يكن باستطاعة مدفعيتنا  
المضادة للطائرات تغطية قواتنا بفعالية .

واحتُرقت في نفس اليوم مجموعة منفردة من مشاة العدو ، تدعمها دبابات  
القطاع الشمالي . الغربي من مصنع باريكادي ، ولكن مفارز العمال المسلحة  
اشتبكت معها بالقتال .

شكلنا بما تبقى من فرقة غوريشني لواءً واحداً هو اللواء ١٦١ ، الذي تمركز  
دفاعياً ، وأخذ يقاتل في قطاع شارع سورموفسكايا في حين نقل أركان الفرقة  
وأركانات اللواءين فيها إلى الضفة اليسرى من الفولغا ليعاد تشكيلهما وإتمام  
ملاكهما .

صدت طيلة اليوم فرقة غورتييف رقم ٢٠٨ هجمات العدو التي قام بها بالمشاة والمدرعات في قطاع الستاد الرياضي ، كما استطاعت وحدات الفرقة ١٣٩ سميخوتفوروف ، صد هجمات العدو بالمشاة والمدرعات في قطاع كازاتشاي . أصبحت فرقة غورتييف في موقف دفاعي صلب بعد أن أحاطت بها مشاة العدو ودباباته من جوانبها ، كما حقق في المساء فوج من الهتلريين اختراقاً في شارع سيفيرنايا .

صدت كافة الهجمات العدو على قطاعات فرق غورتييف ، وبانيوك ، وعطبت في يوم ١٧ تشرين أربعون دبابة عدوة أو احترقت ، وسقط حوالي ألفي قتيل من مشاة العدو .

أخبرني مساء السابع عشر من شهر تشرين أول ، غوروف عضو اللجنة المركزية أن الرفيق ن . مانويلسكي عضو اللجنة المركزية للحزب وصل من موسكو ، وهو يريد زيارتنا في المدينة ، وأنه أعطي موافقته على هذه الزيارة ، وقد رفضت الزيارة مباشرة ، وألححت على غوروف أن يلغي هذه الزيارة ، ولكن غوروف لم يقبل بذلك فقلت له :

إن مانويلسكي شخصية مهمة في الحزب وقدومه إلينا لا يفيدنا بشيء ولا نستطيع حمايته ، ويمكن أن يقضى عليه خلال عبوره الفولغا ، وحتى إذا بقي على قيد الحياة لن نسمح له بزيارة القوات .

وأخيراً إتفق معي غوروف بعدم الزيارة واقتنع بعدم جدواها .

عرف الرفيق مانويلسكي سبب رفضي فيما بعد .

ففي عام ١٩٤٧ عندما كان عائداً من أمريكا إلى موسكو عن طريق برلين ، واستقبلناه بالمطار ، وخلال حفلة الغذاء التي أقمناها على شرفه . وكان جالسا إلى الطاولة بقربي فاقترب مني وأخذ يسأل ، لماذا لم أتركه يزورني في مقر القيادة على الطرف الأيمن للفولغا ؟ وبعد أن أصغيت إليه أجبته :

- لو تركتك تحضر لمقر القيادة في آذار ١٩٤٢ ، فمن المحتمل أن لا أجد الفرصة لأجلس مع رفيق مثلك إلى هذه الطاولة .

معارك عنيفة من أجل كراسني أوكتيابر أخذت تقترب . فمعلومات استطلاعنا تشير إلى ذلك ، ومن أجل تقوية السيطرة على القوات ، وموافقة أركان الجبهة على ذلك ، قررنا نقل مقر القيادة إلى منخفض « فاني » تحت

جسر سكة الحديد قريباً جداً من مصنع كراسني أوكتيابر .  
في ليل ١٨ تشرين أول ترك أعضاء أركان الجيش والمجلس العسكري  
مخابئهم محملين بالوثائق والعتاد . وعند وصولنا للمنخفض فتشنا طويلاً على  
مكان يوضع فيه مركز القيادة ولكن وجدنا أنفسنا معرضين في أكثر الأحيان  
لنيران رشاشات العدو . وظهر واضحاً أن المكان الذي اخترناه ليس بالمكان  
المناسب ، لذلك واصلنا طريقنا على طول ضفة الفولغا بعيداً إلى الجنوب حوالي  
كيلومتر ، وهناك بدأنا بالعمل في سهل على الضفة وتحت سماء مكشوفة ، دون  
أي ملجأ . كما وجدنا أنفسنا على بعد كيلومتر من كورغان مامايف الخط  
الأول .

كان هذا الموقع آخر موضع لنا كمركز القيادة ولم نتركه حتى نهاية معركة  
سفالينغراد .

وصلتنا في ١٨ تشرين أول معلومات من رئيس عمليات الجيش العقيد  
كامينين ، الذي كنت قد أرسلته إلى مجموعة الشمال ، وتدل على أن الموقف  
أصبح خطيراً ولكن غير ميؤوس منه . فقد أبعد العدو الذي كان قد حقق خرقاً  
في سبارتانوفكا . عناصر من مجموعة الشمال اتخذت مواقعها الدفاعية على  
المشارف الشمالية من بلدة رينوك على الحدود الغربية والجنوبية لسبارتانوفكا ،  
بما فيها رصيف الإنزال الواقع بالقرب من مصب موكراميتشسكا . هدأت هذه  
المعلومات قليلاً من قلقنا على الجناح الأيمن للجيش .

تتابعت خلال اليوم المعارك الرئيسية من أجل مصنع باريكادي ، وامتدت  
إلى الجنوب نحو مصنع كراسني أوكتيابر . خلال كل الليل والنهار الذي تلاه  
صدت وحدات ليونكوف وجالوديف وغورييف الهجمات العدو القادمة من  
الشمال نحو باريكادي ، وحديقة سكولبونورني . في الساعة ١٥ اخترق العدو  
الجبهة إلى الجنوب من شارع دبر يفنسكايا ، ونفذ على الفولغا ولكن الهجوم  
المعاكس الذي قام به اللواء ٦٥٠ بالحرايب ، أباد العدو الذي وصل الفولغا وأعاد  
تثبيت الموقف .

استطاع العدو في نهاية النهار بهجوم قام به بالمشاة والدبابات على طول  
شارع نرامغابنايا التغلب على مواضعنا ، ونفذ على سكة الحديد إلى الغرب من  
مصنع باريكادي . واشتبكت مفارز عمال المصنع في معارك ضارية دامت  
بضعة أيام ، لم يبق في نهايتها سوى خمسة أشخاص أحياء .

صدت وحدات سميخونفوروف منذ الصباح هجمات العدو ، التي قام بها بالمشاة والمدرعات قادماً من الغرب وفي الساعة ١١,٣٠ سحق الجناح الأيمن للفرقة . وقد وجدت وحدات غورنيف نفسها مهددة بالتطويق الأكيد في قطاع حديقة سكولبوتورني ، ومن أجل نفاذي ذلك ، ولأول مرة منذ بدء القتال في المدينة سمحت لقواتي بالتراجع ٢٠٠ - ٣٠٠ م ، وبعد ذلك تم إصلاح الجبهة وكثفنا مواقعنا .

أما الأمر الذي أرسل فلم يذكر التراجع ولكنه قال « إلى فرقة غورنيف ، الأمر ، بالانتقال في ١٩ تشرين أول ، الساعة ٤ والدفاع عن قطاع شوارع سموروفسكا توبيكوفسكا » ، وهذا يعني الانسحاب من قطاع سكولبوتورني إلى الخلف نحو مواضع جديدة .

وأني أتذكر بكل مرارة توقيعي على ذلك الأمر . وكيف كان غالباً علينا كل متر من الأرض على شاطئ الفولغا ، وفي معارك ١٨ تشرين أول خسر العدو ١٨ دبابة وحنى ثلاثة أفواج مشاة .

شعرنا في ١٨ تشرين أول أن هجمات العدو ضعفت قليلاً وبخاصة الطيران . وشجع هذا في بعض النواحي قواتنا ، ففي أربع وعشرين ساعة ، لم ينجح العدو بالتقدم سوى ٥٠ - ١٠٠ م في بعض القطاعات .

كما شعرنا بأن قواتنا ليست وحدها والتي أصبح من الواضح ، أنها نزلت بقوة ، بل إن الغزاة لم يعودوا يستطيعون حنى النهاية تجديد هجماتهم العنيدة فمواردهم من العتاد أخذت تنضب ، ونشاط طيرانهم ، هبط من ثلاثة آلاف طلعة إلى حوالي ألف طلعة يومياً .

ومع ذلك فبالرغم من الخسائر الكبيرة ، لم يتخل فون باولوس عن هدفه باحتلال كامل المدينة ، فقد أخذت تظهر على الساحة قوى جديدة من المشاة والمدرعات ، وبالرغم من خسائرها أخذت تندفع نحو الفولغا .

ولكن الهتلريون لم يكونوا جميعهم بنفس الصلابة . فالوحدات الجديدة والتعزيزات نفسها ، كانت تعرف ما هي المعارك على شواطئ الفولغا ، وهذه قطعة من يومية جوزيف شافستين ، وهو ضابط صف في اللواء ٢٢٦ من فرقة المشاة (٧٩) الألمانية .

« غوروديشنشه ليست بعيدة عن ستالينغراد ، هنا كانت جهنم حقيقية اليوم شاهدت للمرة الأولى الفولغا ، لم تكن هجمائنا تحرز أي نجاح . ف هجومنا ما يكاد

بيداً حتى نعاد إلى الوراء بقوة . فنف ليلي عنيف ، كنا نعتقد بأن نهايتنا قد بدأت .. في اليوم الثاني هجوم جديد ولكنه لم ينجح ، معارك طاحنة ، العدو يطلق علينا من كل الاتجاهات ، حتى أصبح من المستحيل الظهور في الليل فطيران العدو ومدفعيته « الكاتيوش » الروسية ، لم تترك لنا وقت للراحة ، وخسائرنا فاحشة »

أظهرت المعارك من أجل المدينة والفولغا كوامن القوة البطولية لدى الشعب السوفيتي وجنوده ، وبقدر ما كان العدو هائجاً ، بقدر ما كان جنودنا يقاتلون ببسالة وصلابة المحارب ، فالذي كان يبقى سليماً كان يحاول الدفاع عن نفسه ، وعن قطاعه من الجبهة ، وكانوا يثأرون لرفاقهم الذين قضوا ولانفسهم .

حدثت حالات كثيرة فالجندي الذي كانت إصابته خفيفة ، كان يشعر بالخلج ليس فقط من أن يتركهم يخلونه إلى الضفة الأخرى من الفولغا ، بل من أن يذهب إلى المركز الصحي القريب .

صد الجيش في ١٩ و ٢٠ تشرين أول هجمات العدو أمام مبارتانوفكا وأمام مصانع باريكادي . وكراسني أوكتيابر طوال هذين اليومين بلياليهما . ولكن هجمات العدو هذه لم تقدم له أي نتيجة تذكر .

هجمائنا كانت تتوالى أربعاً وعشرين ساعة في أربع وعشرين ساعة ، وكنا نجبر العدو على أن يقوم هو الآخر بهجوم ليس فقط نهاراً ، ولكن خلال الليل أيضاً . وعلى العموم كان الألمان يهاجمون ليلاً دون دعم جوي ، ودون نجاح وهذا ما جعل المعركة تنقلب غالباً إلى قتال بالنيران فقط .

كنا نرى ونعلم أن العدو يكتل قواه في قطاع بلدة باريكادي والمرتفع ١٠٧,٥ ليقوم بهجوم وبقوى جديدة ، وكان علينا أن نقوم بحساباتنا بدقة ، لكي نصد الضربات المتتالية للهتلريين ، ونكتل ونكس لصد الهجمات القادمة من اتجاهات جديدة .

كان علينا تعويض خسائرنا بعناصر من المؤخرة . من المتعافين ، في الأفواج الصحية للفرق ، لذلك أرسلت مجموعات من ضباط أركان الجيش للخلف وغدا لكل خمس إلى ست سيارات سائق واحد ، اختصرنا رجال التصليح والمخازن والخياطين والحذائين وعمال اختصاصيين آخرين . كنا نشكل سرايا مسير ، ونرسلها إلى الضفة اليمنى ، بعد أن تتلقى تدريباً ضعيفاً . ولم يكن بالإمكان غير ذلك ، ومنذ وصولهم إلى المدينة أصبحوا بسرعة خبراء في حرب

الشوارع ، فخطورة الموقف أجبرت كل واحد منهم على نفهم طبيعة معركة ستالينغراد .

- أصبح الاقتراب من الضفة اليمنى مخيفاً ، ولكن حال ما تطأ القدم على الأرض يختفي الخوف . كان الجنود يقولون كنا لا نعرف إلا شيئاً واحداً هو أنه لا توجد أرض لنا في الضفة الأخرى من الفولغا ، ولكي تبقى على قيد الحياة عليك أن تقضي على العدو .



ظهرت قوى ألمانية جديدة في ٢١ - ٢٢ تشرين أول واندفعت للهجوم ضد فرق سميخوتفوروب وغورييف . منذ ذلك اليوم أخذت المعارك تزداد ضراوة شيئاً فشيئاً من أجل مصانع باريكادي ، وكراسني أوكتيابر ، ومن أجل معبرنا على الفولغا .

زاد طيران العدو مجدداً عدد طلعاته اليومية حتى ألفي طلعة . خسر العدو خلال هذين اليومين ١٥ دبابة وحوالي ألف من جنود المشاة . وأصبحت المواقع الألمانية قريبة جداً من مواقعنا حتى أخذنا نستخدم معه قاذفات اللهب التي تصل مداها إلى مائة متر .

في ٢٣ تشرين أول زج العدو في المعركة فرقة المشاة ٧٩ تعزيزها الدبابات ، وتحت تغطية كثيفة من الطيران إندفع بالهجوم . موجهاً جهده الرئيسي الى مصنع كراسني أوكتيابر . ثم أخذ مركز ثقل المعركة ينقل من الآن فصاعداً إلى القطاع الممتد من مصنع باريكادي حتى منخفض ( باني ) .

نجح المهاجمون في نهاية النهار وبثمن باهظ من الخسائر من إحداث خرق باتجاه المخبز ، ونقموا إلى ما وراء الخط الحديدي الذي تمددت عليه العربات المحطمة . مجموعة من حملة المسدسات الرشاشة العدو بتعداد سرية تقريباً ، تسربت في القطاع الشمالي - الغربي من مصنع كراسني أوكتيابر .

لقد اقترب خط المعركة الأول الى ٣٠٠ - ٥٠٠ م من الضفة الفولغا ، وبذلك هدد بشكل جدي آخر معابر الجيش عبر الفولغا .

وجهت مدفعيتنا مع هبوط الظلام ضربة قوية إلى دبابات العدو ومشاته المتكتلة على أطراف مصنع كراسني أوكتيابر . وهذا ما ألجم قليلاً الهجوم

الألماني ، وخفف الوطأة على المدافعين .  
وإذا كان العدو بين ١٨ - ٢٣ تشرين أول ركز جل قواته على مصنع  
باريكادي وسبارتانوفكا اعتباراً من يوم ٢٤ تشرين أول ، إلا أنه نغلغل أيضاً  
بقوى جديدة على كراسني أوكتيابر ، وأخذت حدة وحرارة المعارك تتزايد حسب  
ندرج ضراوتها .

أخذ البلاغ الصادر في ٢٤ تشرين أول ١٩٤٢ ، بعين الاعتبار السير العام  
للقتال :

« صعد الجيش خلال اليوم لمعارك شديدة دفاعية في القطاع الجنوبي  
والأوسط من الجبهة ، وفي القطاع الجنوبي حصلت اشتباكات مع مجموعات  
صغيرة من مشاة العدو » .

عاد العدو . بعد نمهيد كثيف من الطيران والمدفعية والهاون ، للهجوم في  
الساعة ١١ بقوى جديدة من المشاة والدبابات باتجاه مصانع باريكادي كراسني  
أوكتيابر وعلى سبارتانوفكا .

استطاعت وحدات مجموعة الشمال خلال النهار صد كل الهجمات العدو ،  
وخلال الليل بعد أن أخرجت المجموعات العدو التي كانت قد تسربت واحتلت  
بلدة سبارتانوفكا .

بدأ العدو هجومه في الساعة التاسعة صباحاً وبعد معركة طاحنة أصبح آخر  
النهار سيد الأجزاء الوسطى والجنوبية الغربية لمصنع باريكادي . وواصلت  
فرق المشاة ١٣٩ ، ٣٠٨ القتال للدفاع عن مصنع باريكادي .

صمدت فرقة المشاة ١٩٣ اعتباراً من الساعة ١١ هجمات العدو التي قامت بها  
مشاته ودباباته ، وطور هجومه اعتباراً من قطاع شارع توبيسكوفيا . وعلى  
طول شوارع كراسنو بريسنيسكايا الى المحيط الشمالي لمصنع «كراسني  
أوكتيابر» ، جرب بجزء من قواته النفوذ إلى الفولغا عن طريق شارع ستالنايا .  
وفي الساعة الثامنة وفي قطاع لواء المشاة ٨٩٥ ، وصلت مدرعات العدو حتى  
مركز قيادة اللواء ، وفنحت المشاة التي كانت تتبع الدبابات ثغرة في صفوفنا  
الضعيفة والمعركة مستمرة .

صمدت فرقة الحرس ٣٩ في المعركة التي نشبت من أجل مصنع كراسني  
أوكتيابر كما فتح العدو ثغرة جزئية في القسم الشمالي الغربي من منطقة  
المصنع .

بمرت قنبلة مباشرة أربعة مخابىء مغطاة تابعة لأركان الجيش ، مما أدى لارتفاع الخسائر إلى ١٥ شخص . كما قتل المقدم تيموشين قائد اللواء ١٠٤٥ أيضاً .

حسب إفادات الأسرى والوثائق التي وقعت في أيدينا ، كانت تعمل أمام جبهة الجيش ٧ فرق مشاة وثلاث فرق مدرعة .. وفي قطاع بتشينكا صد تجمع لوححدات آلية عدوة تقدر بفرقة وفي يوم واحد ، وخلال المعركة قام طيران العدو بـ ١٥٠٠ طلعة .. » .





## آخر محاولة لفون باولوس



حسب المعطيات التي كانت لدينا حول مجرى المعركة من الواضح أن قوات العدو قد أنهكت كما هو الحال بالنسبة إلى قواتنا . وفي عشرة أيام من الصراع قطع الألمان مرة أخرى الجيش إلى قسمين ، وسقط مصنع تراكتورني في أيديهم ولكنهم لم يستطيعوا تدمير قواتنا الرئيسية .

لم يعد لدى العدو القوى والوسائل للعمل ، وكان عليه استدعاء احتياطياته من المؤخرات البعيدة . قوات جديدة وصلت من ألمانيا . وظهرت أمام جبهة الجيش فرقة عدوة جديدة وألوية وأفواج منفردة ، استقدمت بالطائرات بسرعة . ولم يكن كل ذلك كافياً ، وكان على العدو ورغماً عنه أن يسحب من مختلف الفرق عدداً من الألوية والأفواج وبخاصة النقيبون ( رجال الهندسة ) وكان العدو يرميهم دفعة واحدة في القتال من أجل إسكات مقاومتنا . وكما زجت هذه الوحدات بالمعركة بسرعة ذابت كالشمع في أنون معركة ستالينغراد .

ومن الطبيعي أن يسعى هتلر للاحتفاظ بالمبادرة بين يديه . فلا يزال لديه حتى ذلك الوقت القوى للقيام بضربة جديدة .

ولكن استقر في أذهان جنودنا أنه بعد المعارك الشديدة التي دارت في تشرين الأول ، لم يعد بالإمكان تحضير مثل هذه العمليات الهجومية بسرعة ، كما لم يعد سهلاً كما يقولون أيضاً على المهاجم أن يجتاز الحواجز التي شكلها هو بنفسه من أكوام الجثث الألمانية المتروكة والعتاد المدمر . كان مقاتلونا يرونه ذلك بأعينهم ، ويستخلصون النتائج الخاصة بهم ونادراً ما كانوا يخطئون .

صرح هتلر في نهاية أيلول « نحن نهجم ستالينغراد وسنحتلها . ونستطيعون أن نعتمدوا على ذلك وعندما نأخذ أي شبر ، فلن نخرج منه . كما أن غوبلز قال في إحدى اجتماعاته مع الصحفيين الأتراك « أنا الذي

أتكلم دائماً ، وأزن كلماتي ، أستطيع أن أؤكد لكم ، أنه قبل الشناء سوف لن يشكل الجيش الروسي أي خطر على ألمانيا ، كما قال لهم إني مقتنع بذلك ، كما هو حالي دائماً مع الأحداث التي لا نخطيء أبداً ، ورجائي أن تنتكروا ذلك بعد بضعة أشهر » .

كان من الصعب الظن بأن هتلر وغوبلز يجهلان الحالة النفسية لدى جنودهم وضباطهم ، الذين كانوا يقاتلون في ستالينغراد نفسها ، ففي رسائل الضباط الألمان المؤرخة في أيلول ونشرين أول ، نقرأ تقريراً مختلفاً للأحداث . فواحد من بينهم - وكان من الواضح أنه لم يمر حتى ذلك الوقت في تجربة ستالينغراد - الملازم الأول غ . هنس ، كتب في بداية تشرين أول « نحن نهاجم ستالينغراد . لقد قال الفوهرر : ستالينغراد يجب أن تسقط » ونحن منجابه ستالينغراد لن تلبث أن تصبح بين أيدينا ، وستكون جبهتنا في شتاء هذا العام على الفولغا .

ولكن منذ نهاية تشرين أول تغيرت اللوحة كلياً ، في رسائل الجنود الألمان ، وكل الملاحظات التي سمعنا بها .

كتب العريف ولتر « ستالينغراد هي الجحيم على الأرض هي فردون ، فردون حمراء بأسلحة جديدة . نحن نهاجم يوماً فبعد نجاحنا في الصباح باحتلال عشرين متراً كان الروس يلقون بنا في المساء إلى الوراء » .

العريف ف . بيست كتب بنفسية سلبية وصرخ في كتابه لأمه « يجب انتظار النشرة الخاصة مدة طويلة ، تلك النشرة التي أعلنت أن ستالينغراد هي لنا ، الروس لا يستسلمون أبداً إنهم يقاتلون حتى آخر شخص » .

قرر المجلس العسكري للجيش ٦٢ الموقف هكذا : لم يعد بإمكان فون باولوس الضرب مجدداً بقوة مثل الضربات التي قام بها بين ١٤ - ٢٠ تشرين أول لذلك فهو بحاجة إلى توقف طويل من ١٠ إلى ١٥ إلى ٢٠ يوم ، لكي يستقدم كميات كبيرة من القذائف والقنابل والدبابات لاستخدامها في عمله ، ولكن كنا أيضاً نعرف ، بأنه يوجد في قطاع غورماك وفوروبونوفو تقريباً فرقتان احتياطيتان عدوتان . يمكنه أن يزوجهما في المعركة . وكنا نأمل أن تلك الفرق ستكون خلال ثلاثة إلى خمسة أيام في نهاية تحملهما ، وسيكون فون باولوس مضطراً للتخلي عن ضغطه ، وبهذا يمكننا أن نعيد تنظيم صفوفنا . وتجميع قواتنا وأن نتحصن . ولكن كيف نصمد خلال تلك الأيام الثلاثة أو الخمسة بقواتنا

القليلة ، فالفرق ٣٧ ، ٣٠٨ ، ١٩٣ لم نعد سوى أرقام فجميعها ، لا تعد سوى بضع مئات من الحراب المستعدة للقتال . فبعد أن صددنا أقوى هجوم معاد أصبحنا في أننى قوتنا . وكنا نأمل على كل حال أنه باستطاعتنا صد الهجمات العدو الجديدة . التى سيقوم بها احتياط العدو الجديد . وكنا كما فى السابق مصنعين للقتال حتى آخر رجل و آخر طلقة .

اعتباراً من ٢٤ تشرين أول لم يعد الهتلريون يهاجمون ليلاً والظاهر أنهم اقتنعوا بأنهم لا يحصلون على النتائج المرغوبة ، لذلك قرروا استخدام ساعات الليل للاستراحة والنحضير للقتال فى النهار ، أما نحن فقررنا عكس ذلك ، فبالغارات التى نقوم بها مجموعات الانقضاض والأعمال المباغته من قبل المدفعية والطيران خلال الليل نحبط نحضير العدو لهجماته ، التى يخطط لها فى اليوم الثانى ، ولن نترك له أننى راحة فى الليل . لقد أصبح الليل حليفنا الحقيقى .

عاد العدو إلى هجماته فى يوم ٢٥ تشرين أول على طول الجبهة بقوى جديدة . ووجه ضربته إلى بلدة سبارتانوفكا مع فرقة مشاة ودبابات مما خلق وضعاً حرجاً على جبهة مجموعة الشمال ، وبدعم من الطيران والمدفعية استطاعت مشاة العدو دفع وحدات اللواء ١٤٩ واحتلت قطاعاً يضم خمس منخفضات واقعة إلى الجنوب من الخط الحديدى غومارك - فالديميروفكا ووسط سبارتانوفكا . هرع أسطول الفولغا بمدفعيته لنجدة اللواء ١٤٩ وكبد العدو خسائر فادحة .

قامت فى نفس اليوم ٢٥ تشرين أول قوات من الجناح الأيمن للجيش ٦٤ بالهجوم على قطاع كوبوروسنويا .

لم تحقق الهجمات المتكررة التى قام بها العدو بين ٢٦ - ٢٧ تشرين أول أي نجاح واستطاعت قوات اللواء ١٤٩ ف . بولفينوف ، بدعم من مدفعية أسطول الفولغا من طرد العدو من سبارتانوفكا .

نشبت فى ٢٧ تشرين أول معارك شديدة فى قطاع مصنع باريكادي . سحق العدو الجناح الأيسر لفرقة ليونكو ، ولواء من فرقة غورييف ، واحتل رماثته من حملة المسدسات الرشاشة ، شارعين وبدأ هؤلاء يوجهون رشاشاتهم على قطاع آخر معبر لنا ، وفى نفس اللحظة استطاعت وحدات سميخوتفوف وغورييف صد الهجمات التى قامت بها الفرقة ٧٩ الألمانية التى وجهت جهودها

الرئيسي على معمل كراسني أوكتيابر .

وصل رماة المستمات الرشاشة الفاشيون ، الذين تمربوا عبر صفوفنا الضعيفة العائدة لهذه الوحدات حتى أركان الفرقة ٣٩ . وأخذت القنابل اليدوية تتطاير في مخابأ غورييف . وعندما علمت بذلك أرسلت لنجدتهم سرية حرس أركان الجيش ، وبهجوم عنيف تمت هزيمة الرماة الألمان وبملاحقتهم نفذوا إلى مصنع كراسني أوكتيابر ، حيث يفوا هناك ، ثم وزعوا في فرقة غورييف .

تابع العدو توجيه ضرباته باتجاه معبر النهر من كراسني أوكتيابر حتى الساعة ١٥ حيث تمكنا من صد هجماته . ولكن في نهاية النهار نجح الهنريون على كل حال باحتلال شارع ماشينايا .

كان المهاجمون على بعد أربعائة متر من الفولغا ، في القطاع المحصور بين مصانع باريكادي ، وكراسني أوكتيابر . وأصبحت المنحدرات والمنخفضات على الفولغا من الجهة الغربية تحت رحمة نار رماة المسدسات الرشاشة ، والمدفعية العدو ، ولم يكن بالإمكان التنقل إلا زحفاً على طول ضفة الفولغا وهذا لا يناسبنا كلياً . وسرعان ما قام رجال الهندسة وركزت عبر الوبان الصغيرة حواجز مزدوجة من الخشب ملئت بالحجارة . وهكذا ارتفع حائط يحمينا من الطلقات .

تابعت بالرغم من تحضيراتها للهجوم المعاكس - قيادة الجبهة مساعدة الجيوش التي كانت تدافع عن ستالينغراد وبخاصة الجيش ٦٢ . في ليل ٢٧ تشرين أول بدأ وصول ألوية الفرقة ٤٥ مشاة التي ألحقت بالجيش ٦٢ وخلال الليل لم يستطع أن ينجح بالعبور سوى فوجين من تلك الفرقة حيث وضعا تحت قيادة الفرقة ١٩٣ واتخذت مواضعها في الموضع الدفاعي بين مصنعي باريكادي ، وكراسني أوكتيابر بمهمة عدم ترك العدو ينفذ حتى الفولغا ، ومعبر النهر .

ويظهر أن العدو أخبر بوصول وحدات جديدة ، لذلك أخذ يقصف القطاع الواقع بين المصانع طيلة النهار تقريباً ، بقنابل تزن الطن . وكانت تسقط على مواضع الفوجين . وبعد ذلك ، وبعد نشاط الطيران كالعادة إندفعت مشاة العدو مع ٣٥ دبابة للهجوم في هذا القطاع وبعد فشل انقضاضه الأول أتبعه بهجوم ثان وثالث .

خسرت أفواجنا في يوم واحد من المعارك نصف تعدادها ، ولكنها لم تترك

العدو يصل حتى الفولغا . وعلى كل حال نجح العدو في المساء من دفع الجناح الأيسر لهذه الأفواج مع المجموعات المنعزلة من مشاة الفرقة ١٩٣ ، فتحصنت بقايا هذه الوحدات الصغيرة على بعد ثلاثمائة متر من الفولغا .

نوصل العدو في المساء لاحتلال القسم الشمالي الغربي من مصنع كراسني أوكتيابر ، واحندم صراع طويل ، امتد إلى عدة أسابيع .

نهلت صفوف الجيش ٦٢ خلال المدة التي دارت فيها المعارك بين ١٤ - ١٧ أيلول بشكل لم يعد بالإمكان سحب فصيلة واحدة من الخطوط الأولى ، وكنا نردد « أيضاً بضعة أيام » « أيضاً بضعة أيام » .

كان بإمكان فون باولوس أيضاً ، أن يسحب القوات من قطاعاته السلبية من الجبهة ووضعها ضدنا ، أما نحن فلم يكن لدينا احتياط . ولم يعد بإمكاننا كلياً القيام بمناورة على هذا الشريط الضيق من ضفة النهر . وبقيت الأركان تقريباً دون حراسة . وكنت قد استبقيت حتى آخر لحظة فوج التدريب الوحيد من لواء الاحتياط الذي كان يدرّب ضباط الصف ، ومن ثم انخرط هو الآخر في المعركة في قطاع المصانع ، وكان من الصعب على الفرقة ٤٥ مشاة سكولوف التي ألحقت بالجيش عبور الفولغا .

بلاغ ٢٨ تشرين أول ١٩٤٢ .

« صمد الجيش ٦٢ طيلة يوم ٢٨ تشرين أول في معارك دفاعية قاسية بصورة غير عادية في القطاعات الشمالية والوسطى من الجبهة ، وصد الهجمات العنيفة التي قام بها العدو . وقام هو نفسه بالهجوم بمجموعات الانقضاض على نقاط استناد العدو تعاونت وحداتنا مع طائراتنا القاذفة ، والمنقضة » .

« كان العدو طيلة اليوم يقصف القطاع الواقع بين مصانع باريكادي وكراسني أوكتيابر ومنخفض باني . رمى العدو كل قواه المتوفرة في المعركة ، من المشاة والدبابات في محاولة لرمي قواتنا في الفولغا » .

« صدت قوات مجموعة الشمال خلال اليوم ثلاث هجمات عدوة . وفي المساء تمسكت بقوة في مواقعها » .

« وبعد جهد كبير لا حدود له ، صدت وحدات الفرق ١٣٩ و ٣٠٨ هجمات العدو القادمة من الشمال الغربي على مصنع باريكادي . ودامت المعركة حتى هبوط الليل » .

« نشبت معارك ضارية بين مصانع باريكادي ، وكراسني أوكتيابر وعلى

طول شارع ماشينايا» .

« صمدت وحدات الفرقة ١٣٩ مشاة لمعارك قاسية ضد وحدات العدو من المشاة والدبابات التي كانت تهاجم المارة في الشوارع بين مصانع باريكادي وكراسني أوكتيابر . في محاولة للنفوذ على الفولغا . احتوت قواتنا إندفاع العدو بثمن باهظ من الجهد والخسائر ، ولم يبق سوى بضعة مئات من الأمتار حتى الفولغا» .

« تابعت فرقة الحرس ٣٩ القتال في منطقة المعامل كراسني أوكتيابر ، وبذل مشاة العدو ، ودباباته جهدهم للنفوذ في القسم الأوسط ، اعتباراً من زاوية المصنع الشمالية - الغربية . وفي نهاية النهار كانت المعارك لا تزال دائرة . خاض لواء مشاة الحرس ١٠٩ التابع لفرقة الحرس ٣٧ معركة ضارية على بعد ثلاثمائة متر من الفولغا بين شوارع نوفوسيليسكايا . وموستوفايا . وعلى نفس الخط في قطاع توفنيسك ، اشتركت دبابات اللواء ٨٤ في المعركة . دمر خلال هذا اليوم فوجان من مشاة العدو واحرقَت ١١ دبابة ، وأسقطت ثلاث طائرات» .

« قررت قيادة الجيش متابعة العمل بمجموعات الانقضاض الصغيرة ومنع العدو من الاختراق حتى الفولغا »

بعد هذه المعارك المميتة والتي دارت دون انقطاع ، تشرنمت صفوف الوحدات ١٣٨ و ٣٩ من مشاة الحرس ، وكذلك فرق المشاة ٣٠٨ و ١٩٣ . ولم تعد هناك جبهة منصلة في قطاعات معامل باريكادي . وكراسني أوكتيابر . وكانت نمسك قطاعات القتال بؤر المقاومة المنعزلة . وارتفعت الخسائر بكادر القيادة . وبدون الضباط المجربين كان من الصعب قيادة العناصر المنعزلة التي لم تعد القتال في ستالينغراد والتي وصلتنا كدعم للجيش .

كان عبور ألوية الفرقة ٤٥ سوكولوف يجري ببطء بسبب احتراق مراكب الجيش ٦٢ التي وضعت تحت تصرفهم . وقد ركبت الألوية الأطواف بعيداً عن المدينة في الذراع المائي أختوبنسك وفي ضواحي مدينة توماك ، وكانت لا تصل إلى الفولغا إلا في الليل ، وبذلك نتفادى خطراً كبيراً بمرورها تحت أنف العدو في بعض الأماكن ، وعندما تصل إلى شواطئ الفولغا تكون قد وصلت إلى القطاع الدفاعي للجيش .

كان علينا الصمود يومين أو ثلاثة أيام حتى عبور الفرقة ٤٥ بقيادة

سوكولوف . وباختصارنا لرجال الفصائل والخدمات اسنطعنا جمع عشرين شخصاً وأكثر من ثلاثين محارباً سحبوا من الوحدات الصحية . ومراكز النجدة الموجودة على الضفة المباشرة للنهر . ثم سحبنا ثلاث دبابات معطوبة من ساحة المعركة وفانف لهب واسطنتين أخريين . لذلك قررت أن أفرك أنف العدو ، وذلك بالقيام بهجوم معاكس صباح ٢٩ تشرين أول بثلاث دبابات وخمسين جندياً من المشاة ، ونقطة انجاء الهجوم المعاكس ، نقطة الإتصال بين فرق سميخونفوروف ، وغورييف حيث حقق العدو خرقاً على شواطئ الفولغا . قاد معاوني لقيادة القوات المدرعة فانيروب ، طيلة الليل هذه الدبابات على طول الضفة المنعرجة لكي يجد لها نقطة صالحة للانطلاق .

ابتدأ الهجوم المعاكس في الصباح الباكر وقبل الفجر ، ندعمه المدفعية من الضفة اليسرى . أما لواء الكانيوشا العقيد ابروخين فلم ينجح بالوصول الى أرض ملائمة . ومع ذلك فالنناج كانت معتبرة . أحرقت الدبابة قاذفة اللهب ثلاث دبابات عدوة . وقاذفا اللهب استطاعا إحراق العدو في خندقين ، تحصن فيهما مشاننا فوراً .

تكلم الهتلريون كثيراً عن دباباتنا باللاسلكي ، فقد أبلغنا عمال الاصغاء أن الهتلريين أقاموا ضجة كبرى بالرايو بخصوص الدبابات . وكان من الواضح أنهم يريدون تبرير أنفسهم أمام قيادتهم لعدم تمكنهم من صد هجومنا المعاكس . واستطعنا أن نربح يوماً كاملاً في هذا القطاع ، وطيلة يومين لم يجر أي تغير ملحوظ في القطاعات الأخرى من جبهة الجيش .

وفي قطاع مصنع باريكادي فقط نجح الألمان بعد هجمات منلحقة من النفوذ إلى شارع نوفو سيليسكايا . وفي هذا المكان حاول مغاوير ( كوماننوس ) منفردون ، يحملون المسدسات الرشاشة الوصول إلى الفولغا . ولكنهم أبيدوا بعد معركة دارت وجهاً لوجه على الضفة .

أحبطت وحدات ليونكوف وغورييف خلال هذين اليومين سبع هجمات معادية .

صبت فرقة المشاة ٢٨٤ باتيوك وفرقة الحرس ١٣ روديمنسيف عدة هجمات في قطاع كورغان مامايف ، وإلى الأبعد للجنوب استخدمنا قاذفات اللهب . أخذت المعارك نهداً في مساء ٢٩ تشرين أول وفي ٣٠ اقتصرت على تبادل إطلاق النار . وقوات العدو وصلت كلياً إلى نهايتها .

لقد نثرت في المعارك النني وفعت في نهاية تشرين أول ، وفي الأيام الرهيبة التي مرت على المدافعين عن ستالينغراد بذور النصر النهائي .  
ومن الواضح أن هتلر كان يهاجم أيضا فلا يزال يحتفظ بالمبادرة على الفولغا والقوقاز ولكن فشل هجومه كان بداية هزيمته .  
وكنا نعلم خلال أيام تشرين الأول أن هتلر كان لا يريد سماع أي حديث حول اتخاذ وضع الدفاع أمام ستالينغراد . لذلك كان يرمى دائما في أبون المعركة بقوى جديدة . ولم يدخل في تفكيره احتمال فشل مخططاته . ولكن المبادرة في حملة عام ١٩٤٢ كانت قد خرجت من بين يديه .



ضعفت حدة المعارك قليلا خلال المعارك النني دارت في الأيام الأولى لشهر تشرين الثاني . وكان لدى كشافينا إمكانية التسرب عميقا داخل ترتيب العدو القتالي ، ولم تكن هناك أي إشارة تدل على رغبة العدو الانسحاب من ستالينغراد بل على العكس من ذلك فقد حصلنا على معلومات تشير إلى أن فون باولوس كان يحضر أيضا إنقضا جديدا على المدينة . والموضوع بالنسبة إلينا يطرح على النحو التالي . هل سيكون لدى فون باولوس الوقت قبل هجومنا المعاكس الكبير للقيام بضربه ؟ ولكن لم يكن لدينا أي تصور متى سيكون هذا الهجوم والمدة الباقية . ولم تكن تظهر أية فضولية زائدة خلال محادثتنا مع قيادة الجبهة لمعرفة ذلك ، فكلنا يعلم أنه لا يوجد سر في الجيش الأحمر يحافظ عليه أكبر من المحافظة على سر مدة المهلة التي نسبق الهجوم .

نحن نعلم اليوم أي قوى كان هتلر يركزها أمام ستالينغراد ومدى إصراره على دعمها ، وهذا يفسر بقسم من الموضوع لماذا لم يدخل في قناعة القيادة الألمانية استحالة احتلال المدينة بكاملها ؟

وكشاهد سأورد هنا بعض الأرقام فيما يخص القوات العدو .  
كانت مجموعة الجيوش ( ب ) النني كانت تهاجم باتجاه ستالينغراد في أبلول مؤلفة من ٤٢ فرقة وفي نهاية تشرين أول أصبحت تعد ٨١ فرقة .

أما التنقلات الرئيسية للقوات لتعزيز مجموعة الجيوش ( ب ) فكانت تتم على حساب مجموعة الجيوش ( أ ) النني كانت تتابع الهجوم باتجاه القوقاز . وقد بدأت



مجموعة الجبوش هذه هجومها بقوة ٦٠ فرقة ، ولكن في تشرين أول لم يبق لديها سوى ٢٦ فرقة .

كما وصلت وحدات بشكل إفرادي من الجبهة الوسطى من أمام فورونيج ومن فرنسا وألمانيا كلها وُجّهت نحو ستالينغراد .

كتب الجنرال الألماني هانس دوير *Hans Dvorr* وهو يحاول شرح قرارات هتلر ما يلي : كانت القيادة العليا للفيرماخت ( الجيش الألماني ) تريد في غضون ذلك « إنهاء معركة ستالينغراد ، وننظف العدو من الأحياء الأخرى في المدينة ، حسب ما جاء في أحد توجيهاتها » .

« لم تكن هذه المهمة تمثل سابقاً أكثر من طابع تكتيكي ولكن الدعاية الصادرة من هنا وهناك هي التي أعطتها معنى استراتيجياً ، فما دام الروس لا يزالون يقاتلون للغرب من الفولغا ، كان باسقاط ستالين أن يمجّد بطولة الدفاع عن المدينة . ولم يكن هتلر يستطيع أن يهدأ ما دامت قواته لا تستطيع احتلال آخر قطعة من الأرض التي كانت نسمي ستالينغراد . فالسياسة والاحترام الشخصي والدعاية والمشاعر كانت لها اعتبارات فوق الحكم الصحيح لدى سيد الحرب » .

لدى هانس دوير بعض الحقيقة طبعاً في تحليله لأحداث تشرين الثاني . ولا يوجد خلاف في أنه في تشرين الثاني لم يكن هناك أي اعتبارات سياسية حلت محلها . فالدكتاتور هو دائماً حساس لمسائل الاحترام الشخصي . ومن الطبيعي أن يكون لدى الجنرالات الألمان الميل للنيل من قوى الشعب السوفيتي وجيشه الأحمر .

ألقيت على عاتقنا في الأيام الأولى من شهر تشرين الثاني مهمة إزعاج العدو بكل قواها ، وعدم ترك الفرصة له للراحة أو السماح له بالتراجع في الحالة التي تقرر فيها القيادة الألمانية فجأة سحب قواتها من ستالينغراد .

وضعنا كل شيء في العمل - الخبرة والتجربة ، حسن التصرف - الجرأة . فمجموعات الانقضاض لم تكن تعطي الغزاة أية فرصة للراحة لا ليلاً ولا نهاراً . وكانت تعمل على طرد العدو من المنازل المنعزلة ومن أحياء كاملة . مما يجبر العدو على تبديد قواته واستدعاء احتياطه .

كنا في نفس الوقت نستعد لصد أي هجوم جديد للعدو ، حصل استطلاعنا على معلومات تدل أن العدو يعمل على تركيز قواته في قطاع مدن باريكادي

وكراسني أوكتيابر ، فضربات البرد الأولى قد بدأت ويمكن القول بأن الهتلريين كانوا يرغبون ، نصفية الحساب مع الجيش ٦٢ الذي لا يزال يعمل في ستالينغراد ليؤمنوا لأنفسهم قبل وصول الشتاء ، الهدوء في الملاجئ الحارة وأقبية المنازل وهنا سجلت في منكراتي بتاريخ ٤ تشرين الثاني « سينابع العدو في الأيام القريبة القادمة هجماته الضارية ، وسيزج في المعركة قوات جديدة - حتى فرقتي مشاة - ومن الواضح أن ذلك سيكون آخر جهد له »

كان جيشنا بالرغم من الغارات التي كانت تقوم بها مجموعات الانقضاض يعمل في نفس الوقت على تجميع بعض الاحتياط ، فعلى الضفة اليسرى من الفولغا كان لدينا لواءان من المشاة مع أركان فرقة غوريشني « وكانت هذه في طريقها لانمام ملاكها » كما تلقى لواء المشاة ٩٢ التعزيزات من البحارة الذين وصلوا من الشرق الأقصى .

قررنا في الوقت الذي كنا نعمل فيه على عبور تلك القوات النهر والوصول إلى المدينة إعادة تجميع قواتنا وترتيبها ، وذلك بوضع لوائين من فرقة غوريشني في وضع دفاعي بين المواقع الدفاعية ليوننكوف وسوكولوف وإلى الجنوب من مصنع باريكادي ، وبما أننا لم ننجح بعبور سوى لواء واحد ، لذلك وزعنا كل رجال فرقة جولوديف وكادر المرؤوسين فيما بين صفوف لواء المشاة ١٨ الذي كان لا يزال على المواضع الدفاعية التي كان يحتلها ، على أن يلحق من ناحية العمليات بقيادة ليوننكوف ، كما كلف رجال وكادر المرؤوسين في فرقة غورييف بتعزيز فرقة ليوننكوف ، ونقلنا أركان فرق جولوديف وغورييف وأركان ألويتها إلى الضفة اليسرى ، وألحقنا مدفعيتها الموجودة في الضفة اليسرى بقيادة مدفعية الجيش لدعمها عوضاً عن مدفعية الجبهة التي انتقلت للجنوب ، كما ألقي فوج حرس أركان الجيش « لواء التدريب السابق في احتياط الجيش » ووجه ما لديه من عناد ورجال لتعزيز فرقة المشاة بقيادة غورييف ، كما وضعت فرقة سميخوتفوف في النسق الثاني ، مع مهمة الدفاع عن آخر معبر لنا على الفولغا .

فرضت على كل فرقة كمهمة عامة : القيام بعمليات جزئية لتوسيع رأس الجسر الذي تدافع عنه وتقديم الخطوط الدفاعية الأولى نحو الغرب لا أقل من ٨٠ - ١٠٠ م في كل أربع وعشرين ساعة لتنظيف العدو تماماً في نهاية يوم ٦ تشرين الثاني من مناطق مصنع باريكادي وكراسني أوكتيابر ، وكل تقدم ذي

فائدة يجب أن يدافع عنه مباشرة بقوة .

أبرزنا في الأمر الخاص الذي وزع حول هذا الموضوع وجود سريتي دبابات ، وظهرت هذه الدبابات لدينا بفضل العمل الرائع الذي قام به عمال معامل الصليح في ستالينغراد ، فبالرغم من قذائف المدفعية وغارات الطيران المتواصلة اسنطاع هؤلاء إصلاح هذه الدبابات المعطوبة .

كُف العدو بشكل واضح نشاطه بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لثورة تشرين أول ( أكتوبر ) وكانت طائراته الاستطلاعية تحلق طيلة اليوم ، وأياما بكاملها فوق مواقعنا ، ونرصد الأهداف الهامة كمراكز القيادة ، وتجمعات وحدات المشاة ، وكانت تستدعي القاذفات بمجموعات من ٤٠ - ٥٠ طائرة التي كانت توجه إلى مواقعنا ضربات قوية .

جرح قائد لواء المشاة ١٤٩ العقيد بولفينوف جراحاً مميتة ، وكان رجلاً صلباً ذا إرادة حديدية ، ومبادرة قوية ، وهو بطل حقيقي . وسيبقى اسمه إلى الأبد في قلوب محاربي الجيش ٦٢ وفي ٥ تشرين الثاني ، سقطت مباشرة قبلة طائرة على أركان اللواء ٨٩٥ ، وقائده أوستينوف ، وقضت عليهم جميعهم . كثفنا الأعمال الليلية لمجموعات الانقضاض ، وكان السيبيريون من فرقة بانويك مميزين بخاصة ، فعندما يجن الليل ينطلقون بعزم إلى الأمام ، ويحتلون المخابىء المغطاة والبلوكوسات المحصنة ، بعد القضاء على النين كانوا فيها ، ويزيدون شيئاً فشيئاً بعرض منطقتنا الدفاعية .

جلب لنا تشرين الثاني موجة شديدة من البرد .

هبطت درجة الحرارة في الخارج حتى ١٢ درجة تحت الصفر ، وبدأ الفولغا يحمل معه قطع الثلج الصغيرة . وفي درجة ١٥ أخذت قطع الجليد الكبيرة تظهر ، ثم لم يلبث أن غطى الفولغا بطبقة سميكة من الجليد ، غير متماسكة وعائمة وتتبع التيار ولا تحيد عن طريقها ، ولم يعد بإمكان سوى المراكب المصفحة أن تفتح طريقها لوحدها عبر الفولغا . وكذلك بعض النين كان لديهم الجرأة وبخاصة السكان الأصليون لسواطيء الفولغا ، والنين كانوا وحدهم أهلاً لمآثر الرجال ، النين يتحلون بالشجاعة الخارقة .

من المحتمل أن تكون هذه اللحظة التي كان ينتظرها فون باولوس لشن هجومه الجديد ، فقد حمل إلينا كشافونا وثائق أخذت من جنود وضباط قتلى من فرقة المشاة ٤٤ الألمانية التي كانت موجودة سابقاً في قطاع فوروبونوفو

كاحتياط للجيش السادس الألماني ، وهذا يعني أن وحدات جديدة أخذت مواقع الانطلاق للهجوم ، وكان علينا القتال على جبهتين ضد العدو ، وضد مشاكل الفولغا .

أعطى المجلس العسكري مقدماً تجاه التعقيدات الطارئة أمراً إلى أركان المؤخرة لتنظم ساعات محددة بدقة لتموين الوحدات الموجودة في المدينة ، ففي المقام الأول أصر على تأمين وصول التعزيزات بالرجال والذخيرة بكميات كبيرة ، وفي المقام الثاني الغذاء ، وفي المقام الثالث الثياب الدافئة . قبلنا اختيارياً نظاماً من الجوع والشعور بألم البرد . ولكن شعورنا بأن العدو يحضر ضربته ، يجعلنا في وضع لا يمكننا فيه البقاء دون تعزيز بالرجال والذخيرة ، وغياب الذخيرة في مثل هذه الظروف يعادل الموت .

من الضروري أن يكون لدينا ذخيرة بكميات كبيرة أو بالأحرى لا نطلب أكثر منها ، وكان الجنود أنفسهم يأخذون كافة التدابير ليتمونوا . كما يجب . بالذخيرة من مختلف الأنواع فتابل يدوية - ألغام . طلقات .. ألخ . ويصرحون دائماً بأنهم مستعدون للتضور جوعاً ومعاناة البرد الشديد على أن تكون لديهم الذخيرة الكافية .

كان الجنود يحملون على أكتافهم الأحمال التي تفرغها الزوراق ، وذلك لعدم وجود وسائل نقل في المدينة ، كما أجبر قادة الوحدات الكبرى وحتى الصغرى أنفسهم على تنظيم طرق محددة لتموين الذخيرة . وكانوا ينتخبون لهذه المهمة - أي نقل الذخيرة عبر الفولغا - الضباط والجنود من الصيادين القدامى ، وكذلك زرع الألغام التي نصلهم من مسنودات الجيش والجبهة .

من الطبيعي أن لا تحدث كل هذه الأعمال دون خطر ، فكثيراً ما يحدث أن تغرق المراكب المحملة بالذخيرة ، أو لا تصل إلى نقطة الإنزال بسبب الظلام وبخاصة عندما امتلأ الفولغا بقطع الجليد الطافية . فكثيراً ما كانت المراكب تحشر بين قطع الجليد أو تقع تحت رمي رشاشات الألمان ، لذلك شكلت فرق خاصة للانقاذ جهزت بكل ما يلزم لنجدة المراكب أو الغرقى ويظل رجالها متيقظين ليلاً ونهاراً يجلسون بجانب زوارقهم وهم مستعدون للانطلاق بسرعة للنجدة ، حال وصول إشارة أو إستغاثة ما تدل على حادث .

كان الجيش ٦٢ على هذه الصورة يؤمن تموينه بالذخيرة حتى الفترة التي تجمد فيها النهر كاملاً وكان ذلك بداية الهجوم الجديد للعدو . ومع ذلك كنا نعمل في

نفس الطريقة على تأمين احتياط كبير بالغذاء . وقمنا من أجل عيد تشرين الأول ( أكتوبر ) للجنود الحساء السييري المعروف ( رافيولي ) . كما كان لدينا في احتياط الجيش ١٢ طن من الشوكولاته ، كذلك فكرت بتوزيع نصف لوح من الشوكولاته على كل شخص في اللحظات الصعبة ، ثم عدلت عن ذلك وتركناها لمدة أسبوع أو أسبوعين حتى يتم تغطية الفولغا بالجليد ، وبذلك يتم تنظيم تموين مستمر .



كنا ننتظر من العدو باقتراب العيد الخامس والعشرين لثورة أكتوبر ، أن يحاول إفساد عيدنا بهجوم جديد على المدينة ، فنحن نعلم أن لدى العدو احتياط في محطات غومارك وفورونوفو . ولكن هذا لم يكن ليخيفنا مطلقاً فنحن نعلم بأنه للقيام بهجوم - كالذي قام به في تشرين الأول ، عليه إيجاد الوقت وتوفير القوات والوقت كان يعمل لصالحنا . وصلتنا المعلومات عن وصول كل من ا . فاسيليفسكي و ن . فورونوف وممثلين آخرين من القيادة ( الستافكا ) للجبهة . كما وصلتنا معلومات عن تحركات ضخمة لقوات سوفيتية كبيرة تتجه نحو الفولغا والدون ووصلت كلها عن طريق غير رسمي . ففي زمن الحرب يوجد لدى أكثر العناصر عزلة وابتعاداً عن هذا الاتصال الذي لا يمكن تحديد أصله ، والذي يمكن أن ندعوه ( بقناة المقاتل ) ، فعن طريق مختلف الأقنية والخطوط غير المرئية كانت تصل المعلومات ومثلها التي وصلت إلينا .

كنا نعلم أن مثل هؤلاء الضباط الكبار لا يمكن أن يأتوا للتعبد على الفولغا ويعودوا ، وكنا لا نستطيع البقاء مكتوفي الأيدي بانتظار هذه الأحداث التي كانت لا تزال مجهولة ويجري تحضيرها ، لقد أصبح آخر معبر على النهر تحت تأثير نيران العدو . وكان علينا أن نضع بمأمن من طلقات المسدسات الرشاشة والرشاشات ، محطة الإنزال التي كانت موجودة في قطاع مصنع كراسني أوكتيابر ، لكي نستطيع مراكب أسطول الفولغا أن ترسو وتفرغ حمولتها على الأقل في الليل . ثم قرر المجلس العسكري ، بعد أن أنهى عبور كل وحدات الفرقة ٤٥ مشاة ، أن نقوم بهجوم معاكس على العدو لكي نقذف به بعيداً عن المحطة ، وجاء في الأمر أن الجهد الرئيسي ستقوم به قوات الفرقة ٤٥ في

المنطقة الواقعة بين مصانع باريكادي وكراسني أوكتيابر .  
وكان لدى فرقة غورييف الأمر بالهجوم في حدود قطاعاتها الدفاعية والنفوذ  
على خط السكة الحديدية في سيفرنايا . و طُلب من كل العناصر والوحدات  
الاشترك بقسم من الهجوم والنقم بسرعة وجرأة .  
يمكن أن يتسائل القارئ كيف يمكن أن يحدث مثل ذلك الهجوم . بينما  
نكرت قيادة الجيش قبل قليل ، أن الجيش كان على حافة الكارثة ، ومع ذلك  
نقرر القيام بهجوم معاكس في اليوم الثاني ؟  
إنه قانون الحرب وبخاصة عندما يصبح العمل في موقف مثل الذي نحن  
موجودون فيه .

ولنقم لكم وضع الجيش ٦٢ الذي يتمسك بدفاعه منذ حوالي ثلاثة شهور  
على شريط ضيق على طول ضفة الفولغا ، فإذا لم نستفد من هذه الفرصة لطرد  
العدو المنهك بسبب المعارك لدفعه الى الوراء ٢٠٠ - ٣٠٠ م على الأقل ،  
فالجيش نفسه سيكون معرضاً لأن يقذف بالماء ، فهل من الممكن البقاء دون  
حركة على شاطئ النهر وانتظار العدو ليستعيد قواه ؟ وهل من الممكن أن  
نظهر للعدو أننا لم نكن أهلاً للدفاع ؟ أليس هذا مخالفاً للصواب من جهتنا ، أن  
ننتظر العدو ليشرع بالهجوم ، دون أن نفتش عن التغيير ، فنجعل الموقف  
لصالحنا ولو قليلاً .

كان هجومنا المعاكس في ٣١ تشرين أول ، وحسب تقديري أننا حصلنا على  
نجاح كبير ، فقد تقدمنا مائة متر في بعض الأماكن واستعدنا القسم الغربي من  
شارع نوفوسيلسكايا . ومن الحدود الغربية للبساتين حتى مصنع كراسني  
أوكتيابر ، واحتلنا معامل أفران ( مارزن ) للعار والسحب ، وكذلك مستودع  
المنتجات النهائية . والشئ الرئيسي ، هو ما أظهرناه لأنفسنا ، وللعدو أنه  
باستطاعتنا ليس فقط الدفاع بل أيضاً الهجوم واستعادة الأرض المفقودة ، وأخيراً  
وجدنا أن الضربة الأخيرة التي وجهت في نهاية هذا الاشتباك والذي دام بين ١٤  
- ٣١ تشرين الأول ، أنها كانت من أجلنا ، ولم تستهدف العدو مطلقاً . وهكذا  
كان نصرنا المعنوي الذي حملته لنا الفرقة ٤٥ ، فنجاحها لم يكن صدفة ، فالوية  
هذه الفرقة التي كانت غنية بالتقاليد كانت تحمل اسم أول رئيس لها هو بطل  
الحرب الأهلية نيكولاي شتشور .

في الأيام الأولى لمعركة ستالينغراد ، كانت فرقة شتشور بقيادة فاسيلي

سوكولوف وهو عقيد شاب ، ثم جنرال ، تأقلم بسرعة هو ومعاونيه مع الوضع - ومتطلبات معركة الشوارع . وشكلوا مجموعات من فرق الانقضاض . صحيح أن ألوية هذه الفرقة لم يتسن لها أبداً أن تقا تل دفاعياً ، إلا أنها بالمقابل اكتسبت تجارب غنية من القتال الهجومي في البلدة ، ووصلت الفرقة حتى برلين . فخيرتها في القتال على الفولغا ساعدها على تنفيذ مهماتها في الانقضاض على المدن مثل زاباروجي ، اوديسا ، لوبلين ، لودز ، بوزنان ثم برلين . إن مجموعات الانقضاض لفرقة ستشور لا تقاوم في معارك الشوارع ، فكانت تقضي على أي دفاع ، ونخرج منتصرة في مختلف المواقف الصعبة .

حسب المعلومات التي كانت في حوزة الجيش ، نرى أن العدو استقدم التعزيزات إلى ستالينغراد لأجل أن ينتصر ، ويكفي قراءة النشرة في ٢ تشرين الثاني ١٩٤٢ :

« صد الجيش طوال اليوم الهجمات المتلاحقة من المشاة والدبابات العدو على القطاع الشمالي والأوسط من الجبهة ، وهو لا يزال متمسكا بمواقعه » . بعد أن استقدم العدو قوى جديدة من مؤخراته البعيدة ، وأتم تعزيز وحداته الموجودة في ساحة العمليات قام بهجوم ، اعتباراً من الساعة السابعة صباحاً في القطاع الشمالي من الجبهة على سبارتانوفكا بأكثر من لواء مشاة ودبابات ، وبفريقي مشاة تدعمها ٣٥ - ٤٠ مدرعة على القطاع الأوسط . وبعد أن زج باحتياطيه قام في بعض القطاعات ، حتى بخمس هجمات صنت جميعها ودار القتال وجهاً لوجه .

كان طيزان العدو يقصف طوال النهار قواتنا في منطقة الهجوم . وفي بعض الحالات ، كان يهاجم مواضعنا بمجموعات مؤلفة من ٣٠ طائرة .

« وجهت مدفعية العدو وهاوناته نيراناً عنيفة نحو مواضعنا وعلى المعابر ، أخبرنا عن اقتراب رتل من السيارات الثقيلة محملة بالرجال والعتاد ، قادمة من الغرب في قطاع مصانع باريكادي . كراسد كتيابر ، وفي نفس الوقت شوهدت تحركات مجموعة مشاة تنفذ إلى بلدة كراسني أوكتيابر باتجاه المصنع » . وكان الوضع كالتالي :

« صعدت ألوية المشاة التابعة لمجموعة الشمال طوال النهار لمعارك قاسية بالمشاة والدبابات العدو المهاجمة باتجاه الحدود الجنوبية والشمالية الغربية من سبارتانوفكا ، وخمس هجمات قوية صنت خلال تلك المعركة ، واحتفظت

المجموعة بمواضعها» .

« صدت فرقة المشاة ١٣٨ أربع هجمات عدوة نفذت من مصنع نراكنورنى على طول الفولغا ، باتجاه الجنوب ، ولا تزال الفرقة محتفظة بمواقعها» .  
« صدت الفرقة ١٩٣ طوال اليوم هجمات عدوة متتابعة وشديدة باتجاه محطة التفريغ النهرية الوحيدة المجهزة التي بقيت للجيش» .

« انتقلت فرقة المشاة ٤٥ سوكولوف للهجوم المعاكس في جناحها الأيسر ، واستطاعت تحسين مواضعها قليلاً ، وصدت كل هجمات العدو» .

« انتقلت فرقة مشاة الحرس ٣٩ للهجوم المعاكس ، وخاضت معركة على خط معامل السبك ، أعمدة الفونت . والعيار ومخازن المنتجات النهائية» .

« صدت جميع الهجمات في بقية القطاعات والتي قامت بها مجموعات صغيرة من العدو ، واحتلت مفارز الانقضاض عملها» .  
قررت قيادة الجيش :

« في مساء ٤٢/١١/٣ إتمام التموين بالذخيرة للقوات ، إعادة تنظيمها ، ووضعها بشكل نستطيع معه صد الهجوم الذي يحضره العدو .  
في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة قتل أكثر من ١٢٠٠ جندي ، وضابط وعشر دبابات وحصلنا على بعض النجاح» .

وفي رسالة ملحة بالبلاغ قدمنا الدليل حسب الأخبار التي وصلت من قبل استطلاعنا على أن العدو لم يفكر مطلقاً بسحب قواته الرئيسية من المدينة ، ولكن على العكس ، وجه نحوها كل ما استطاع محبه من القطاعات الأخرى في الجبهة الشرقية ، وذلك لاحتلال المدينة والنفوذ على الفولغا .  
وقد تأكد حدسنا هذا .



عاد العدو للهجوم في يوم ١١ تشرين الثاني الساعة ٦,٣٠ بعد تمهيد عنيف من المدفعية والطيران ، واشترك في هذا الهجوم خمس فرق مشاة هي ( ٣٣٩ ، ٣٠٥ ، ٧٩ ، ١٠٠ ، ٢٩٥ ) وفرقتين مدرعتين ( ٢٤ - ١٤ ) تدعمها أفواج من النقيبين ( رجال الهندسة ) من الفرقة ٢٩٤ والتي استقدمت بالطائرات من ميليروف .



طور العدو هجومه على جبهة عرضها خمسة كيلومترات ، وكانت كل فرق العدو مكتملة التعداد ، ومعززة بقوة ، كما كانت كثافة ترتيب العدو القتالي قوية بشكل غير عادي .

ومن الواضح أن فون باولوس كان يعتمد على سحق قوات فرقة المشاة : ليونكوف ، وغوريشني وسوكولوف بضربة واحدة والوصول إلى الفولغا . نشب طوال اليوم صراع بشدة غير متناهية ، حول كل متر من الأرض . حول كل آجرة وحول كل حجرة . ودامت معركة القنابل اليدوية والحرايب عدة ساعات . وفي نفس الوقت انتقلت مجموعة الشمال من قواتنا إلى الهجوم . اعتباراً من نقطة الخط الحديدي على مصب نهر ميتشكا باتجاه الجنوب نحو مصنع تراكتورني .

على كورغان ماماييف ، اشتبكت فرقة باتيوك بقتال صدامي مع المهاجمين . إنهارت مداخل المصنع تحت ضربات قنابل الطائرات وقذائف المدفعية والألغام . وجه العدو جهده الرئيسي بشكل واضح على نقطة إتصال فرق المشاة ليونكوف وغوريشني .

كتب آ . فاسيليفسكي ممثل المقر العام للقيادة العامة ، ورئيس الأركان بأمانة عن الموقف طوال تلك الأيام :

« في الوقت الذي كانت فيه قواتنا توجه جل اهتمامها للتحضير للهجوم المعاكس باتجاه ستالينغراد ، كان موقف القوات في المدينة نفسها يزداد سوءاً . ففي ١١ تشرين الثاني ، وبعد هدوء نسبي ، جدد العدو هجماته العنيفة ضد قوات الجيش ٦٢ الذي يقوده ف . تشويكوف بعد أن استقدم الوحدات التي كانت تعمل في السابق بجبهة الدون ، وفي نهاية النهار نجح باحتلال القسم الجنوبي من مصنع باريكادي . ونفذ من هذا المكان إلى الفولغا ، وازداد موقف الجيش ٦٢ حرجاً بعد تجمد مياه نهر الفولغا » .

زج الهتلريون في الساعة ١١،٣٠ باحتياطهم . سحقوا قواتهم من المشاة والدبابات مواقعنا الموجودة على الجناح الأيمن للواء المشاة ٢٤١ من فرقة غوريشني . وتقدمت ٥٠٠ - ٦٠٠ م . وقد وجد الجيش نفسه مقطوعاً للمرة الثالثة وانفصلت فرقة ليونكوف عن قوة الجيش الرئيسية .

ولكن في القطاعات الأخرى من الجبهة ، لم يتخل الجيش عن مواقعه . ولم يستطع فون باولوس . أن يستفيد الفائدة الكلية من تفوقه في القوى . ولم ينجز

المخطط الذي حدده . فهو لم ينجح برمي الجيش ٦٢ في صقيع الفولغا .  
لم تكن مخطئين ، عندما توقعنا أن فون باولوس كان يحضر لهجوم جديد .  
وحتى هتلر أعلن في ٨ تشرين الأول في نداء وجهه إلى ( حارسه القديم )  
قائلاً :

« أريد أن أصل إلى الفولغا في نقطة محددة .. إلى هذه المدينة التي بمحض  
الصادفة تحمل اسم ستالين نفسه . ولكن ليس لهذا السبب أريد أن أصلها ، إنني  
ذاهب إليها لأنها نقطة في غاية الأهمية فعن طريقها كان يعبر ثلاثون مليون طن  
من البضائع ، من بينها تسعة ملايين طن من البترول كانت تصلها من أوكرانيا  
والكوبان لترسل إلى الشمال . ومن هناك يأخذ معدن المنغنيز طريقه . هي تلك  
المدينة التي أريد أخذها ، وأنت تعلم ذلك . لم يعد هناك الكثير لأخذها فلم يبق  
سوى بعض الأماكن غير المحتملة . بعضهم يطلب لماذا لم نأخذها بسرعة ؟  
لأنني لا أريد أن يكون هناك فردون ثانية ، وسأصل إليها بمساعدة مجموعات  
الانقضاض الصغيرة .

ركز فون باولوس - في الحقيقة - على جبهة معمل باريكادي ووادي باني ،  
خمس فرق مشاة وفرقتين مدرعتين ، معززة بخمسة أفواج من المهندسين سحبت  
من أفواج أخرى . ولم تعرف معركة فردون ترتيباً قتالياً يمثل هذه الكثافة .  
صعد الجيش ٦٢ طوال يوم تشرين الأول في المعارك القاسية التي دارت  
ضد القوات العدو المتفوقة بالعدد والعدة . وزاد في خطورة المعركة وطبيعتها  
المضنية إنتقال مجموعة مدفيعتنا الموجودة على الضفة اليسرى من الفولغا  
- والتي كانت تقدم لنا مساعدة لا غنى عنها - إلى الجنوب لتشارك في الهجوم  
المعكس الذي يجري الاستعداد له من قبل القيادة .

وكما كان منتظراً - توافق هجوم العدو مع تجمد نهر الفولغا . ولم يعد بإمكان  
أسطول الفولغا فتح طريقه ليلاً أو نهاراً نحونا ، أو نحو اختوبا أو أوتوماك ،  
لذلك بقينا فترة طويلة معزولين عن الضفة اليسرى ، ورغم هذا الموقف الصعب  
والمعقد ، لم يأخذنا هجوم العدو على غرة ، ولم يقدم اليوم الأول من الهجوم لفون  
باولوس أية نتيجة حاسمة .

يمكن أن نستنتج حسب الوثائق التي أخذت من القتلى الألمان ، أن الهتلريين  
لم يعد بإمكانهم متابعة الهجوم طويلاً ، وبهذا الزخم . ولن تلبث دعاوهم أن  
تنزف بعد يوم أو يومين من القتال . ويصبحون في غاية الإنهاك . وكنا نشعر

بأننا كنا على صواب في تنفيذ مهمتنا . وأن العدو لا يفكر بالخروج من ستالينغراد ، ولن يخرج وأنه على عكس ذلك سيزج بقوات جديدة في الأنشطة التي لن تلبث طويلاً من أن تلتف على عنقه .

فهمت خلال محادثاتي الهاتفية مع قيادة الجبهة أنهم مسرورون من مقاومتنا الصلبة ، ولكن كان على الجيش ٦٢ أن يصمد لتجارب قاسية قائمة عديدة ، فقد شرع العدو اعتباراً من صباح ١٢ تشرين الثاني ، بإعادة تجميع قواه بعد اسندعاء الاحتياط ، لذلك علينا أن نتوقع هجمات جديدة . وهذا ما حدث في الساعة الثانية عشر ، حيث عاد العدو للهجوم ودارت رحى معركة حامية جداً على طول الجبهة . وكان الفاشيون يتقدمون برؤوس محنية ، فإما أنهم كانوا سكارى مخمورين ، أو كانوا مذهولين من حدة المعركة .

أظهر بحارة الشرق الأقصى الذين قدموا لتعزيز صفوف فرقة غوريشني ، كيف يقاتل بحارة الأسطول الأحمر الأبطال . وتبادلوا مع العدو احتلال مستودعات البترول في شارع نوفينسكايا مراراً ، ثم انتقلوا للهجوم بعد أن صدوا الهجمات المعاكسة العدو ، ونشبت معارك ضارية في مصانع كراسني أوكتيابر وباريكادي وعلى مامايف .

كانت تقديراتنا عن المعركة ، وقوى ووسائل العدو التي ستشارك فيها صائبة جداً ، فالهجوم المعاكس اليأس الذي شنّه الهتلريون لم يقدم لهم كثيراً من النجاح في ١٢ تشرين الأول ، وكانت خسائرهم في هتين اليومين من القتال العنيف كبيرة جداً وتعد بالآلاف .

أرسلنا إلى قيادة الجبهة كيساً من الوثائق التي جمعناها من الجنود والضباط والجرحى الألمان .

وقعت في ١٢ تشرين الأول هذا الأمر .

« جرب العدو خرق الجبهة في القسم الجنوبي الشرقي من مصنع كراسني أوكتيابر والوصول إلى الفولغا ، ومن أجل تقوية الجناح الأيسر لفرقة مشاة الحرس ٣٩ وذلك بتكثيف ترتيبها القتالي ، ضم إليها الفوج الذي سحب من الجناح الأيسر لفرقة الحرس ١١٢ وقد وجه الاهتمام بذلك لوسط وجناح الفرقة الأيسر ، ومهمة هذا الفوج تثبيت الموقف كلياً ، وتنظيف منطقة المصنع من العدو »

في نفس الوقت أعطى قائد فرقة المشاة الألمانية ٧٩ الجنرال فون شويرن

لقائد أحد أفواج المهندسين النقيب ويلز المهمة التالية :

أمر الهجوم ١١ - ١١ - ٤٢ :

(١) تمسك قوة هامة من العدو ببعض أقسام منطقة كراسني أوكتيابر . والنواة الرئيسية للمقاومة موجودة في معمل أفران مارتن « المعمل رقم ٤ » واحتلال هذا المعمل معناه سقوط ستالينغراد .

(٢) أمر إلى فوج المهندسين رقم ١٧٩ تعزيز واحتلال معمل رقم ٤ والوصول إلى الفولغا .

من هذين الأمرين اللذين أعطيا تقريباً في وقت واحد ، يظهر بشكل واضح كثافة المعارك الدائرة . دام الصراع العنيف من أجل معمل أفران مارتن عدة أسابيع ، ومن أجل كل المصنع وداخله أكثر من شهر ونحن نخالف جادة الصواب ، إذا قلنا إن العدو لم يكن يعرف ما هي مجموعات الانقضاض والمغاوير .

كتب ويلز « جمعت ضباطي وشرحت لهم مخططي . فسأرمي في المعركة بأربع مجموعات قوية كل منها من ٣٠ - ٤٠ شخص ، عدم الدخول للمعمل من الشبابيك والأبواب ، هدموا كل الزوايا في المعمل ، تقوم المجموعة الأولى بغارة من الثغرة التي تفتح . يكون بجانب رؤساء المجموعات مراقبو التسديد ، وقادة رمي المدفعية ويجب أن يكون سلاح مجموعات الانقضاض ، مسدسات رشاشة ، قاذفات لهب . قنابل يدوية حشوات مركزة صواعق تفجير . قنابل بخانية . القطعة المكتسبة نحتل مباشرة من قبل الفصائل الكرواتية الموجودة في النسق الثاني » .

تساءلت في نفسي عندما كنت أقرأ هذه السطور من كتاب ويلز ، فيما إذا لم يكن الألمان قد اقتبسوا كل هذا من المعاملة التي شكلنا بها حضائر الانقضاض وسلاحها ، وبعد دراسة دقيقة وجدت أن هناك اختلافاً فليد الألمان لا يوجد نكر لموضوع حضائر الانقضاض ، وبناء الممرات الأرضية والخنادق الفرعية التي تمتد نحو الهدف المهاجم . ف وراء مجموعات الانقضاض الألمانية يأتي الاسناد فوراً من النسق الثاني كما هو الحال في المعركة العادية . وليس مجموعات الدعم ، كما هو الحال بالنسبة لحضائرتنا وعلى كل حال كان هناك شبه كبير بين الأسلوبين .

وهكذا قذف الهنريون بآخر قواهم لاحتلال مصنع كراسني أوكتيابر وهم

يأملون بأنه سيكون آخر نقط المقاومة في ستالينغراد . في الوقت الذي كنا فيه نعمل لتنظيف كل منطقة المصنع من العدو .

« كيف سندور هذه المعركة ؟ كتب النقيب الألماني ويلز .، لم تكن نشعر بأن العمل سيكون سهلاً في الصباح الباكر . ويبدو أن سدة المدفعية الروسية إنتهوا من فطورهم بسرعة وأخذوا يمطروننا بقنابلهم ، لذلك كنا مجبرين غالباً للاحتماء بالأرض والغبار يملأ الهواء ، أصبحنا وراء ضفة السكة الحديدية بعد وثبة . وعبر الطريق التي حفرناها القنابل وأكوام الصفيح وغيوم النار والدخان وأصلت الركض اتجاه الهدف وها أنذا وصلت إليه ، والجدار الذي تعمدت وراءه كان نوعاً ما سميكاً . والأبراج أصبحت هيكلاً من الحديد ، جمعت تفكيري ، وفحصت المكان ، المعمل رقم ٤ لا يبعد عنا سوى خمسين متراً ، وهو بناء ضخمة أسود ، بطول أكثر من مائة متر وهو قلب المصنع . وفوقه ترتفع المداخل العالية ، واستدرت نحو العريف فيتز الملتصق بالجدار بالقرب مني ، وأمرته : - فجر هذه الزاوية من المعمل من ناحية اليمين ، خذ معك ١٥٠ كيلوغراماً من المتفجرات ، ستصل فصيلة إلى هنا ليلاً ، وسيكون التفجير في الصباح إشارة بدء الهجوم .

سأعطي الأمر للآخرين ، وألهمهم على نقطة الانطلاق للهجوم »  
كان هذا مخطط هجوم الهتلريين . ومن الطبيعي أن يستطيع مثل هذا المخطط أن يسبب لنا كثيراً من المتاعب ، فاستيلاؤهم على الأقسام الرئيسية لمصنع كراسني أوكتيابر جعلهم يستغلون ذلك في تسليط نيرانهم ، وضرب ممرات الفولغا وكذلك محطات الإنزال على الضفة اليمنى للفولغا ، التي كنا نحفظ بها كمستودعات مؤقتة . كان استطلاعنا يراقب بانتباه هذه القطاعات إن كان في الجبهة أو الأعماق أو مواضع العدو . وكان يعمل على إحباط مخططات العدو ، وقبل بضعة أيام من الهجوم الهتلري استطعنا أخذ بعض الأسرى والمعلومات التي حصلنا عليها منهم بصدد الهجوم ، الذي يجري الاستعداد له ، تأكد بالاستطلاع أن تكثيف الترتيب القتالي في المصنع ومعامله لم يكن تدبيراً عرضياً بل مقصوداً ومخططاً له .

ويتحدث ويلز فيما بعد فيقول :

« لقد وصلت نهاية آخر أفران مارتن ، يعني أن تخبر عن وجودنا في مواضع الانطلاق ، نظرت في ساعتى كانت ٢,٥٠ كل شيء على أتم استعداد .

وقبل قليل أخذت حضائر الانقضااض مكانها على قواعد الانطلاق بدءاً للهجوم ، فتحت الممرات في حقول الألغام أمام المعمل رقم ( ٤ ) والفوج الكرواتي كان مستعداً فوراً لاحتلال النسق الثاني ، وهذا وقت العمل كل شيء كان مظلماً ... لقد وصلت تماماً حسب التوقيت وقذائف مدفعيتنا تدوي وراءنا ، وكانت نقاط سقوطها مرئية تماماً من قبلنا وفجأة دوى انفجار قوي أمامي ، وآخر على يساري ثم آخر ، وتناثر المعمل والساحة والمداخل واختفت في ضباب أسود .

- التفت إلى مراقب المدفعية قائلاً : أنظر يا للشيطان فقدنا الكرة ؟ بهذه السرعة ؟ ولكن ما الخبر ؟ وهناك في الشرق ، في الجهة الأخرى من الضفة الفولغا تظهر ومضات المدفعية واضحة ، وهي ترسل نيرانها ولكنها ليست مدفعيتنا هل هذا ممكن ؟ لا يوجد رامي مدفعي في العالم يرمي بهذه السرعة الكبيرة ، أيضاً خسائر قبل بدء المعركة » .

حصل في تلك اللحظة شيء لم يتوقعه الألمان ، فقد أخبر قائد الفرقة ستيفان سافيليفتش غورييف عن تجمعات للعدو . وكان هو على الضفة اليمنى للفولغا على بعد ٣٠٠ متر عن معمل أفران مارتن ، ولم يكن يرضى بتعزيز ترنيبه القتالي داخل المصنع ، ولكنه هب المدفعية للتدخل في الحال ، والثانية على موقع محضر سلفاً أمام المعمل رقم ٤ ينتظر فيه العدو .

« ولكن مدفعيتنا - تابع ويلز - مدت نيران السد . هنا قفز العريف فيتزر بخفة ، وكان جسمه لا يعرف الوزن - خارج الحفرة نحو البناء ، الذي كان نصف مظلّم ورسم أماننا هيكله ، وعليه سنعمل الآن .

عاد فيتزر

- يا الله إنه يحترق ! صرخ وسقط على الأرض ثم إنهار جدار المعمل بعد انفجار قنبلة أثارت ومضة ضوئية ساطعة ، ضباب كثيف أسود ورمادي يلف الجميع ... انطلقت مجموعات الهجوم في تلك الدخان مجتازة الحواجز وبعد زوال ستارة الدخان ، وجدت أن كل زوايا المعمل إنهارت . وعبر فجوة من عشرة أمتار ، أخذت أسلق كومة من الحجارة تكسبت لتوها . قام رجال الهندسة بغارة في المعمل . رأيت أيضاً على يساري مجموعة الانقضااض الثانية ، وتقوم هي الأخرى بفتح طريق لها وأخذ الهجوم في أرض مكشوفة يتطور بنجاح لأن مجموعات التغطية كانت تتقدم إلى الأمام ، ورغم كل شيء شعرت بغم ويأس شديدين . قفزت إلى الحفرة المفتوحة أمامي ، ونسقت ركاباً من الحصى

ونظرت حولي في الداخل فلم أجد سوى فوهة بركان . كان للمدافعين ميزة خاصة يتفوقون بها على المهاجمين ، فالمهاجم الذي يعطي الأمر للسير إلى الأمام يجب عليه النظر طيلة الوقت تحت أقدامه ، خائفاً من الوقوع ، وإلا فسيعلق في هذه الأكوام من الحجارة والحديد ، وسيجد نفسه معلقاً بين السماء والأرض مثل السمكة التي تعلق بالسنانة ، وذلك لأن حفر القنابل العميقة والقذائف ، بالإضافة إلى أنواع مختلفة من الحواجز ، تجبر الجنود على السير ، واحداً تلو الآخر ، لعدم وجود ممر آخر كمجموعة من الهنود الحمر مع مراعاة النوازن خلال المسير ، ولكن الرشاشات الروسية كانت توجه إلى مثل هذه النقاط وعليها كانوا يركزون نيران مسدساتهم الرشاشة ، يرمون من المخازن والأقبية ، وراء كل بروز في الحائط كان هناك جندي أحمر يراقب المهاجمين ، ويرمي بقنبله اليدوية إصابات محكمة فالدفاع كان محضراً بشكل جيد .

وينابع ويلز قائلاً :

« انطلقت خارج حفرة القنبلة التي كنت أقبع فيها ، خمس خطوات ، اضطررت بعدها للاختباء . العريف كان بجانبني . التفت نحوه ، ناديت ، دون جواب ، ضربت على خونته ، رأسه مائل إلى طرفه ، وقد شوه الموت وجهه وهو ينظر إليّ . انطلقت إلى الأمام ، اصطدمت بجثة أخرى ، واختبأت بحفرة قنبلة أمامي . كان الرماة المهرة من الروس يفتحون علينا النار من انحناءات المداخل وغيرها ، اضطررنا لاسنعمال قاذفات اللهب ضدهم . زمجرة تصم الأذان كنا ننمائل تحت القنابل . والمدافعون يقاومون بكل الوسائل . نعم إنهم شبان أشداء » .

« سأعطي .. أمر : البقاء مختبئين حتى سقوط الظلام ، ثم الانسحاب إلى مواضع الدفاع ، هكذا هي النهاية كل ذلك كان دون نتيجة ، لم أكن أفهم من أين يستعيد الروس قواهم ، وبكل بساطة لا يمكن تصور ذلك . لقد خرقنا جبهات مستقرة . وخطوطاً دفاعية محصنة ، اجتزنا حواجز مائية وأنهار .. أقتية معززة بأعمال هندسية ، قضينا على البلوكوسات المحصنة وعلى بؤرات المقاومة المجهزة جيداً ، أخذنا مدناً وبلداتنا وقرى . ولكن هنا على نفس الفولغا مثل هذا المصنع ، لم تكن قادرين على أخذه ؟ لقد وجدت النقطة ، التي نحن ضعفاء فيها » .

« قمت بحساب مريع في نفسي . بدأ الفوج هجومه بتسعين رجلاً ، حوالي

النصف منهم قد جرح و ١٥ - ٢٠ قتلى ! لم يعد هناك فوج ولن يرسلوا لنا التعزيزات »

أوردت هذه المقطعات من كتاب النقيب ويلز لكي أظهر كيف كانت معارك تشرين الثاني تبدو من وجهة نظر العدو . كما رأينا فيها أيضاً شجاعة العدو وحيويته في تنظيم الهجوم في المناطق السكنية وصلابته وتصميمه للوصول إلى هدفه ، ولكن المحاربين السوفييت تجاوزوا العدو بشجاعتهم وفي فن إدارة القتال ، وكانوا يحاربون على أرضهم ، ومسقط رأسهم ، وفي نضالهم ضد الغزاة المكروهين ، كانوا يتمتعون بدعم كل السوفييت .

كنت أنذكر ، كيف كان العمال والمساعدون والرؤساء والمهندسون يساعدون قواتنا في التوجه في المناهات المعقدة للمعامل . في الممرات فوق الأرض وتحتها . وكانوا يزحفون مع الجنود الحمر داخل الأنايب والأقنية للوصول إلى مواضع ملائمة لضرب العدو .



بعد صدنا للهجمات العدو في يومي ١١ ، ١٢ تشرين الثاني ، ومع أن الجيش قطع للمرة الثالثة لقسمين عند الفولغا . إلا أن كل المدافعين عن المدينة من المجلس العسكري ، حتى أبسط جندي ، كانوا يعلمون ، أن هذا هو آخر هجوم للعدو ، وكنا مقتنعين . كما هو الآن . بأنه لم يعد بإمكان العدو مثل ما كان في تشرين الأول ، تنظيم قواته وتلقي عتاد جديد وبخاصة الدبابات والذخيرة والمحروقات ، وبدون هذا (أي دون العتاد) ، لا يخيف العدو مطلقاً .

أصبحنا جد مقتنعين بأن الضربة القادمة والتي لا يمكن أن تقاوم ، مستوجه منذ الآن فصاعداً من قبل قواتنا ، في ظروف ملائمة خلقتها المعركة الدفاعية التي خضناها ، والتي أنت أكلها منذ النصف الثاني من شهر أيلول .

لم يوقف فون باولوس عملياتها الهجومية النشطة بعد الثاني عشر من تشرين الثاني . لذلك لم يكن هناك هدوء على الجبهة . ولا يمكن أن نرى هناك مثل هذا الهدوء ، فالقيادة العليا الهتلرية ، كانت ترفض الواقع ، ولم تكن تريد أن تفهم بأن هجومها قد تعثر وفشل . والمعركة التي بدأت قبل بضعة أشهر ، قد امتدت وشملت كل قطاعات الجبهة .



فصاتنا قطع الجليد الضخمة عن الضفة اليسرى .  
كانت المهمة التي تَوَقَّنا في تلك الفترة ، هي كيفية إيصال النجديات لفرقة  
ليودنكوف المعزولة عن قوة الجيش الرئيسية ، التي أصبح موقفها حرجاً جداً ،  
فالعدو يطلق عليها نيرانه من ثلاث جهات الشمال والغرب والجنوب كما كانت  
مفصولة عن الشرق بنهر الفولغا المحمل بكتل الجليد الضخمة .

كان إيصال الذخيرة والغذاء وإخلاء الجرحى يتم على دفعات ، بين الواحدة  
والأخرى يومين أو ثلاثة أيام .

لذلك كنا مضطرين - على كل حال - للجوء إلى بعض الوسائل المتوفرة لدى  
قطعاتنا الموجودة على الطرف الأيمن . كان أول قرار اتخذه المجلس العسكري  
للجيش ، هو جمع كافة أقسام فرقة سميخوتفوروب في لواء واحد هو اللواء  
٦٨٥ ، وبعد تركيزه على الجناح الأيسر لفرقة غوريشني ، القيام بهجوم معاكس  
على العدو من الجنوب والشمال ، على طول نهر الفولغا بهدف تحقيق الاتصال  
مع فرقة ليودنكوف .

تجمع لدينا من كل أقسام فرقة سميخوتفوروب ٢٥٠ شخص ، وباللواء الذي  
شكل من هذه البقايا ، والجناح الأيمن لوحدات فرقة غوريشني ، التي أخذت  
تمتليء شيئاً فشيئاً ، بعد التعزيزات التي كانت تصلها من الضفة اليسرى  
بدفعات صغيرة أخذنا نقوم بالهجمات المعاكسة حتى ٢٠ تشرين الثاني ، دون  
توقف باتجاه الشمال للاتصال بفرقة ليودنكوف .

صحيح أن هذه الهجمات ، لم تؤد إلى قلب الموقف ، ولكن بالمقابل ، لم  
تمكن العدو من تدمير فرقة ليودنكوف .

من الواجب أن أتكلم عن بمسالة قيادة الفرقة المحاصرة وعلى رأسها العقيد إيفان  
إيليتش ليودنكوف ، فبالرغم من الموقف الصعب للغاية ، احتفظ ببرودة الدم  
والثقة بالنفس ، تكلمت معه مراراً بالراديو ، كنا نعرف بعضنا بالصوت ، ولم  
نكن نعلن عن أسمائنا أو عائلتنا ، ولم أكن أتردد بأن أشجعه بوصول النجديات  
والإتصال معه . وكنت آمل أن يفهم لماذا كنا نتكلم هكذا بالراديو ، دون حذر  
فلأننا لم نكن نستطيع أن نقدم له أية مساعدة ، وكان يحدثني عن أمله بالاتصال  
القريب ، وكنا نسعى أيضاً للتشويش على العدو .

استطاعت طائراتنا في ليل ١٦ تشرين الثاني أن تسقط ليلاً ، وبالمظلات إلى  
ليودنكوف أربعة طرود من الغذاء ، وأربعة طرود من الذخائر . وفي ليل ٢٠

تشرين الثاني ، استطاعت أربع زوارق حربية مدرعة فتح طريق لها في القناة بين الفولغا ، وبينينجايا فولوجكا ، ومنها حتى الضفة التي تدافع عنها الفرقة ، وقد حملت لها الذخيرة والألوية ، وأخلت ١٥٠ جريحاً .

من الضروري هنا ، أن أشير إلى الأعمال ، التي قامت بها طواقم المراكب البخارية . بوكاتشيف . بانفيلوف وسبارتاك ، والمراكب الحربية المصفحة . التي كانت تقوم في تلك الأيام بأعمال بطولية حقاً .

راقبت بنفسي هذه المراكب ، وكيف تعمل ، وكيف تفتح طريقها بالوثبات متراً بعد متر في الجليد ، وكانت تذهب من محطة التفريغ في توماك ، ثم الرأس الشمالي على الفولغا ، حتى الضفة ، حيث يدافع الجيش ٦٢ .

ويحدث في بعض الأحيان أن لا نتمكن من العودة في الظلام ، ولكن إبحارها نهاراً على طول الضفة التي يحتلها العدو ، كمن يسعى لحتفه ، لذلك كانت تبقى في الضفة التي كنا ندافع عنها مختبئة تحت المظلات ، والأغطية البيضاء ، والأكياس الملونة بلون الثلج .

كان مصير فرقة ليونذكوف يقلقنا . لذلك كان علينا أن نعمل لإخراجها ، وبعد أن استجمعت وحداتنا كل قواها ، أخذت تقوم بالهجوم المعاكس يوماً بعد يوم ، وطوال ٢٤ ساعة ضد العدو ، الذي أحدث خرقاً حتى الفولغا بين وحدات ليونذكوف وقوة الجيش الرئيسية .

كانت مجموعات الانقضاض الصغيرة في نفس الوقت ، تطرد الغزاة خطوة خطوة من الأبنية والمخابيء ، المغطاة في القطاعات الأخرى من الجبهة ثم قامت مجموعة الشمال بهجوم من الشمال باتجاه مصنع تراكثورني وفرق سوكولوف ، وغورييف على مصنع كراسني أوكتيابر ، وفرقة العقيد باتيوك على كورغان مامايف ، فرقة روديمتسيف ، أخذت تنقض على الأبنية في المدينة ، وكان هجومنا يتتابع دون انقطاع . وهنا بدأت مجموعات الانقضاض بأخذ الأسرى والغنائم . وأورد هنا بعض المقتطفات من بلاغ عمليات الجيش ٦٢ خلال تلك الأيام .

١٢ تشرين الثاني

« صد الجيش خلال اليوم عمليات العدو القائلة لإعادة الوضع وتثبيتته على الجناح الأيمن » .

« مجموعة الشمال اقتصر نشاطها على الرمي وإطلاق النار على المواقع

التي كان العدو قد احتلها سابقاً .

« صدت الفرقة ١٧٨ الهجمات ، التي قام بها لواء مشاة معاد على الجناح الأيسر ، وكذلك هجمات المجموعات الصغيرة في الوسط ، كما وسعت نطاق الدائرة التي كانت فيها نصف محاصرة » .

تواصلت المعارك . وصدت وحداتنا هجمات العدو على مواقعه التابعة التي أخذناها منه ، بالرغم من نقص خطير في الذخيرة والغذاء والأدوية .

« خاضت الفرقة ٩٥ واللواء ٣٩٢ والفرقة ١٩٣ معارك ضارية لقلب الموقف في قطاع اللواء ٢٤١ لإعادة إتصال الجبهة ، وإقامة إتصال ضيق مع وحدات الفرقة ١٣٨ . كما تتابعت المعركة في قطاع مسنودعات البترول » .

« قوات الجناح الأيمن من الفرقة تقاثل عن مواقعها السابقة » .

« الوحدات الأخرى كانت تدافع عن مواقعها السابقة ، وتصد هجمات مجموعات المشاة وتخوض القتال بالنيران » .

« لم تصل الوسائط العائمة كلها . وبذلك اختلت خطة النقل لثلاثة أيام والتعزيزات المتوقعة وصولها لم تنقل وظلت القوات تعاني من نقص خطير في الذخيرة والتموين ، قافلة المراكب التي قامت من توماك مع عناصر اللواء ٩٠ لم تستطع فتح طريقها بسبب قطع الجليد العائمة ، فاضطرت للعودة بينما قطعت قطع الجليد كلياً. الإتصالات مع الضفة اليسرى في قطاع معبر ٦٢ » .

١٨ تشرين الثاني ١٩٤٢

« صد الجيش خلال النهار الهجمات العدو على جناحه الأيمن ، وعلى بقية الجبهة وقام بإطلاق النار على مواضعه السابقة » .

« مجموعة الشمال : بعد صدها هجمات المشاة والمدركات العدو التي قامت بها قوات بنعداد أكثر من لواء على رينوك ، والحدود الغربية لسبارتانوفكا ، إنتقلت هي للهجوم المعاكس ، بهدف تثبيت الموقف في قطاع رينوك » .

« وقذف بالعدو بعد معركة ضارية من الحدود الغربية لرينوك ، وثبت الموقف كلياً » .

« أبدينا خلال ١٧ و ١٨/١٢/٤٢ ( ٨٠٠ ) جندي وضابط معاد ، وأكثر من ( ١١ ) آلية ، احترقت منها نسع دبابات » .

« عدد الحراب ( المقاتلين ) الباقية في مجموعة اللواء ١٢٤ هي ٧٤٥ » .

« عدد الحراب ( المقاتلين ) الباقية في مجموعة اللواء ١٤٩ هي ٤٧٥ » .

~~~~~ ٢٦٨ ~~~~~

« نحتاج هذه الأولوية إلى نموين بالذخيرة والغذاء بسرعة » .
« صدت الفرقة ١٣٩ الهجمات العدو ، والنبي قام بها بحوالي فوجين من الدبابات ، وبعد إدخال قوات جديدة اسنطاع العدو أن يدفع إلى الوراء الجناح الأيسر للفرقة ويحتل ثلاثة أبنية » .
« صدت فرقة المشاة ٩٥ الهجمات العدو ، النبي قام بها أكثر من فوج في قطاع بنزوباكي » .
« نمسكت فرقة المشاة ٩٠ بقطاع بنزوباكي ، وتحصنت هناك كما استقرت الفرقة ٢٤١ واللواء ٦٨٥ على خط منخفض يقع على بعد ١٥٠ متراً من شمال شرق ميزنسكايا » .
« قاتلت الفرقة ٤٥ وفرقة الحرس ٣٩ على مواضعها السابقة ضد المجموعات العدو الصغيرة من المشاة لتحسين مواقعها » .
« صدت وحدات الجيش على بقية القطاعات الأخرى هجمات مجموعات العدو الصغيرة من المشاة ، واحتفظت في مواضعها » .
« كنا نشعر كلنا بضعف العدو ، ونرى أنه أخذ يلهث من التعب والإنهاك ولم يعد بإمكانه جمع قوات أكثر مما لديه لإخماد مقاومتنا ودخلنا نحن وإياه في آخر رمق من الإنهاك ، ولكن طال هذا الموقف حتى ١٩ تشرين الثاني » .



« كنا في مساء ١٨ تشرين الثاني مجتمعين في المخبأ ، غوروف ، كريلوف ، بوجارسكي ، فانوروب ، فاسيليف ، نناقش إمكانياتنا للقيام بعمليات نشطة لاحقة بعد أن أنهكت قواتنا . وفي تلك اللحظة تلقينا هاتفاً من أركان الجبهة ، يخبروننا بأننا سنتلقى أمراً بعد قليل .
- إني أعتقد - قال غوروف - بأنه أمر الهجوم المعاكس الكبير .
لذلك انطلقنا إلى مركز الاتصال وأخذنا ننتظر بفارغ الصبر اللحظة التي يدخل فيها جهاز الاتصال BODO بتماس مع خط اتصال أركان الجبهة ويوضع قيد العمل .
وأخيراً في منتصف الليل تلقينا الأمر الموعود
أخذت قلوبنا ترتجف .

نقل إلينا الجهاز المذكور أن قوات جبهتي جنوب - غرب والدون ستقوم بالهجوم المعاكس صباح ١٩ تشرين الثاني ، اعتباراً من قطاع كليتشكايا - ايلوفنسكايا وكاتجاه عام الوصول إلى كلاتش ، كما أن جبهة ستالينغراد ستقوم بهجومها بتأخير يوم واحد ٢٠ تشرين الثاني اعتباراً من قطاع : رايفورود - بحيرات : ساريا - تساتا - بارمنتسكا ، وكاتجاه عام بلدة سوفيتسكي ، ثم الوصول إلى كلاكش وهدف الهجوم المعاكس خرق جبهة العدو وتطويقه ثم إبانته .

كان محور الأمر الذي تلقيناه القيام بهجوم معاكس ، وتطويق كل قوات العدو المنمركزة أمام ستالينغراد وتدميرها ، إذن هي ليست عملية محدودة بل كانت عملية ذات أهمية كبرى ، فثلاث جبهات ستقوم بالهجوم . وهذا يعني أن القيادة العليا السوفينية نجحت في تجميع وتركيز قوات هائلة للقيام بهذه الضربة القابضة . والآن وجد نضالنا من أجل ستالينغراد ومقارمتنا الضارية للعدو معناه ونناجه . ففي الوقت الذي كان فيه العدو يورط نفسه دائماً وبإصرار في معارك الشوارع ، ووصول قوات ألمانية جديدة متتابعة على ستالينغراد . كانت قوات سوفينية عملاقة تتجمع بأعداد كبيرة على أجنحة القوات الألمانية في اللحظة التي أخذنا فيها نشعر بانهيأ قوانا ، وسحق العدو لنا ، إذن لم تذهب بماء المحاربين المهرقة مدى ، وبذل كل الذين في ستالينغراد أقصى جهودهم وامكاناتهم .

لقد وجدت شعارات « لا خطوة إلى الوراء » « ولا أرض لنا وراء الفولغا » معاني جديدة لها . فشعار لا خطوة إلى الوراء معناها أن الخطوة يجب أن تكون إلى الأمام ، ولا أرض لنا وراء الفولغا يعني السير بانجاه الغرب فقط .

ولكي ننقل أوامر قيادة الجبهة بأسرع ما يمكن لكل شخص في ستالينغراد ، استنفرتنا فوراً مجموعة من الأركان والفصيل السياسي في الجيش ، وأبلغنا أيضاً أركان الفرق لتهيئة أشخاص وإرسالهم قبل الفجر للوحدات .

وهنا نستطيع أن ننخيل حالة الفرح التي ستعم أفراد الجيش عند سماعهم بهذا الأمر ، فلا يوجد أدنى شك بأن النجاح سيكون حليفنا .

سنذهب بعد قليل للعيش في أرضنا الكبيرة حسب أقوال الجنود ولا حد لشعورنا بالفرح .

وهكذا بدأت نهاية الساعات المظلمة لآخر ليل تعضي مع آخر مرحلة كاملة من تاريخ الحرب ، وفي الفجر سيبدأ كل شيء .

مقومات النصر



عندما نلقي بنظرة فاحصة على المعارك الدفاعية في ستالينغراد لا بد أن نفتش على المقومات التي استمد منها نصرنا ، ولا يمكن إلا أن نتفحص بإمعان الأسس التي نسجت منها قوة المقاومة التي أعطتنا الظفر ، والتي أظهرها كل من كان في ستالينغراد ، والذين صمدوا لكل المحاولات الألمانية لتحطيم صلابتهم . في المقام الأول يأتي الدور الكبير الذي لعبه الحزب الشيوعي في إرساء قواعد النصر في ملحمة ستالينغراد ، وبخاصة اعتباره في خريف وربيع ١٩٤٢ . أن قطاع ستالينغراد هو أهم قطاعات الجبهة ، لقد عبأ الحزب الشيوعي الشعب السوفيتي بأكمله لتحقيق النصر في هذا القطاع ، لذلك فنحن مدينون للحزب الشيوعي ولجنته المركزية لأنهم هم الذين نظموا وخططوا لهزيمة القوات الألمانية أمام قلعة الفولغا .

وسجلت هذه الهزيمة بداية منعطف جذري حاد في تاريخ الحرب العالمية الثانية .

خطط الحزب الشيوعي لهذا المنعطف المعقد ، بشكل لا يصدق ، وحتى قبل بداية معركة ستالينغراد .

فكما نعرف سقطت بيد العدو في السنة الأولى من الحرب عدة مناطق صناعية من بلادنا وكان من الضروري نقل المؤسسات الصناعية الضخمة إلى الشرق . وأن تعود لعملها بأسرع ما يمكن . فأى نكاء وإرادة حديدية ومستوى عالٍ كان متطلباً من الطبقات العاملة والعلماء والأجهزة القيادية لتنظيم انتاج وتركيب هذه المؤسسات وإعادةتها للعمل .

نقلت هذه المؤسسات إلى أرض خلاء تقريباً كوجه الطاولة . وكان عليهم تأمين اليد العاملة ، الطاقة ، المواد الأولية ، وتوزيع الانتاج بعد أن أخذت

المعامل نعمل في أقصى طاقتها .

بالرغم من أن الحزب لم يهمل تذليل المصاعب الاقتصادية إلا أنه قام منذ البداية بعمل ضخم لإزالة آثار الهجوم المفاجيء الذي قام به العدو . أرسل الشيوعيون للقطاعات ذات ، الخطورة الكبرى والصعبة كقوى موجهة لنضال الشعب جميعه . وأمنت وأوثقت تلاحم المحاربين والعمال في المؤخرة . كما ألحق بقوات الجبهة آلاف الشيوعيين الذين كانوا يملكون الخبرات الكبرى عن عمل الحزب وفي الجيش ٦٢ . من بين تسعة آلاف شيوعي اسندعوا للخدمة نحت العلم في مختلف المقاطعات والمناطق في البلاد ، يمكن أن نعد فيه أكثر من خمسمائة سكرتير ، رئيس فصيل ، موجه في لجان النواحي والمناطق والمدينة . وأمناء منظمات الحزب في الكولخوزات والمصانع وآخرون من عمال الحزب ، ومن أجل دعم جهاز الفصيل السياسي للجيش وصل معاونون من اللجنة المركزية للحزب ا . كويلوف . ا . كروغوف والقوميسار المساعد للسوفخوز في R . S . F . S . R ا . ستوبوف ورفاق آخرون . لقد شكلت في الجيش نواة قوية من الحزب . لم يكن هناك حتى سرية واحدة لا يوجد فيها نسبة قوية من رجال الحزب ، كان جميع تعداد فرق الحرس ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٩ وعدد من الأفواج من الشيوعيين والكومسمول .

وزعت قوى الحزب في الجيش على مختلف القطاعات ، ذات الأهمية الكبرى . في المسير وضمن الخنادق وفي المعركة ، أظهر الشيوعيون بإعطائهم المثل كيف يكون النضال للإجابة على متطلبات الحزب والوطن « ولا خطوة إلى الوراء » . كان مئات و آلاف الشيوعيين يشرحون للرجال « أنه لا يوجد مكان ننراجع إليه مطلقاً ، وأنه من الواجب فقط إيقاف العدو ، وكذلك قذفه إلى الوراء أيضاً ، لم يكن هناك واجب سوى التصميم الحازم وحسن النصر » . كانوا قوة لا حدود لها . بتقديمهم المثل وتأثيرهم على معنويات كل جندي . وشعور بالنضحية شيء لن يفهمه مطلقاً المؤلفون الحاليون للكتب الضخمة التي تظهر في الغرب عن الحرب الأخيرة ، ولا حتى الذين لا يريدون أن يعترفوا بأن الضربة الحاسمة في الحرب العالمية الثانية ، نظمت بفضل الحزب الشيوعي وحققها الجيش السوفيتي .

لهذا لا يمكن أن أعفي نفسي من أن أورد هنا ، بعض الأمثلة عن خبرات عمل حزب الشيوعيين في الجيش ٦٢ أثناء الحرب .

فكما قلت آنفاً إن قوى الحزب كانت موزعة في كل القطاعات ذات الأهمية الكبرى في الجيش يعني أن العمل السياسي لا يمكن أن يكون مستقلاً عن مهمات الجيش ، ولكنه كان موجوداً في الميدان وفي الوحدات لضمان تنفيذ أوامر القتال .

« كان المدافعون عن ستالينغراد يقاومون حتى الموت » ، ولكن لم يكن سهلاً تحضير العناصر معنوياً لمثل هذه الصلابة .

تصوروا جندياً سائراً بالرتل على طريق من الغبار نحو الفولغا . كان تعباً حواجبه ملتصقة بسبب الغبار والعرق . بندقيته المضادة للدبابات أو رشاشه على كتفه ، جعبته مملوءة بالطلقات ، والقنابل اليدوية تتدلى على نطاقه ، كيس تموين على ظهره فيه بعض الأشياء الصغيرة التي حضرتها له زوجته أو أمه كمؤونة لطريقه الطويل . يضاف إلى ذلك ، في مكان ما هناك بعيداً في قريته ومسقط رأسه ، ترك والدته العجوز وزوجته وأطفاله . كان يفكر بهم ويأمل سريعاً بالعودة إليهم . ولكن عند إقترابه من الفولغا أخذ يرى السماء ملونة بأضواء الحرائق . كان يسمع الانفجارات التي تدوي كالرعد . يعود ويفكر من جديد ببيته وأولاده . بزوجته . هنا يفكر بهم بشكل آخر « كيف سيعيشون بدوني ؟ » في تلك اللحظة إذا لم تذكره بالخطر القاتل المعلق فوق وطنه ، واجبه المقدس نحو وطنه . فسيكون مستعداً ليصبح حبيب أفكاره ويتوقف أو يبطيء من مشيته . ولكنه يمضي دون توقف على جوانب الطريق حيث الملصقات وكلمات الأوامر تدعوه للمسير إلى الأمام مع هذه الكلمات الحماسية :

« أيها الرفيق فيما إذا لم نوقف العدو في ستالينغراد ، إعلم أنه سيصل إلى بيتك ويدمر قرينك ! »

« يجب أن يقهر العدو ويباد في ستالينغراد » .

« أيها المحارب ! الوطن الأم لا يمكن أن ينسى عمك الجليل » .

« الوطن الأم لن يترك أهلك يأسون »

يهبط الليل ، ها هو المعبر ، على أرصفة العبور ، مراكب مدمرة مركب حربي جوانبه مثقبة كالغربال على طول الشاطئ بين الأدغال ، وتحت أشجار الحور المقطعة . وفي الحفر والمسارب أشخاص جالسون مئات من الأشخاص كانوا ينظرون بصمت إلى كل شيء ، يمسكون بأنفاسهم هناك في الضفة الأخرى من الفولغا . المدينة تفرق في اللهب الأحجار نفسها تحترق هناك على ما

يبدو . أضواء الحرائق ترتفع في بعض الأماكن حتى السحاب . هل من الممكن أن يعيش هناك أشخاص ويناضلون بهذا الأتون ؟ كيف ينفسون هناك ؟ عن أي شيء يدافعون ؟ الركاب ، الرماد ، أكوام الحجارة ؟ ولكن هناك أمر بالعبور إلى الضفة الأخرى ، والمسير باتجاه المعركة فوراً .

نعم إنه أمر ، ولكن إذا استكنا فقط على هذا الأمر دون أن نهىء العناصر معنوياً لتنفيذه ، فالمركب سيعبر ببطء وأول قبلة تطلق على الزورق المنساب على الماء سيفادته الرجال ، وينقذون أنفسهم سباحة ولكن ليس إلى الضفة الأتون الملتهب وليس باتجاه المعركة . ولكن للجهة الأخرى التي أتوا منها .

في هذه الحالة لا المصقات ولا كلمات أمر القتال تفيد شيئاً ، أحدهم يجب أن يكون قوة في كل فصيلة وسرية ، يجب أن يكون هناك أشخاص ينزلون إلى الماء ويقودون الرجال وراءهم نحو الضفة التي تقع عليها المدينة الملتهبة وهؤلاء القوة كانوا من الشيوعيين والكومسمول .

وبتنفيذهم أمر رئيسهم ، كانوا يقدمون المثل الشخصي للعمل الواجب تنفيذه ، وأسلوب التنفيذ حسب هذا الظرف أو ذاك . هذا هو العمل السياسي لتنفيذ أمر القتال .

لننظر كيف يقص جندي ، رامي رشاش من فرقة غوريشني عن العمل السياسي عند عبوره نهر الفولغا . وهو الشيوعي بيتربيلوف ، وهو حالياً نجار في معمل النسيج في أوريخوفور - زوبيف .

- قبل صعودنا على المركب . رأينا أحد الرجال يقترب منا ، قامته قصيرة ووجهه مدور وحليق الرأس ، إنه الجنرال جوليكونوف ، معاون قائد الجبهة عائداً لتوه من الضفة الأخرى وابتدنا قائلاً :

- يبدو عن بعد أن كل شيء يحترق هناك ولا يوجد مكان لموطيء قدم . ولكن هناك ألوية وفرق تعيش وتقاتل جيداً ، وهم بحاجة إليكم وهم ينتظرونكم .

بعد ذلك وزعت علينا الصحف ، ومع كل صحيفة كراسة مطبوعة « ماذا يجب أن يعرفه الجندي عن قتال الشوارع وكيف عليه أن يعمل » .

رما المركب ونحن ننظر أمر الصعود والقلب يخفق في نفس الوقت . كل منا يريد أن يعيش . رأينا أول من يصعد دون أمر ، نقيب نحيل ذو لحية مع نجمة على كتفه . وكما يظهر أنه موجه سياسي رئيسي .

وكما علمت فيما بعد أنه سيروميانتكوف ، سكرتير لجنة الحزب في الفرقة ،

وهو عضو قديم في الحزب الشيوعي منذ عام ١٩١٨ على ما يبدو ، ووراءه مجموعة من الجنود ومن الطرافة أن نتحدث عن هؤلاء . لدينا مثلاً ستيوباتشيكاروف وكان مريضاً من الخوف ، مرة عندما كنا نترجل من عربات السكة الحديدية ، فتح الدفاع المضاد للطائرات نيرانه ولا نعرف لماذا ؟ فركض الشاب المسكين يريد إنقاذ نفسه نحو الحقول ، واستطعنا الإمساك به بعد جهد وأعدنا له ملكاته وحالته الطبيعية قدر الإمكان ، لم يكن يعرف كيف يخفي هلعه . قام سيرومياتنكوف بجمع مثل هذه النماذج من الجنود وجعلهم يصعدون في الأول إلى ظهر المركب ، دون انتظار الأمر ولسان حاله يقول أنظروا حتى تشيكاركوف نفسه غير خائف .

تم الصعود على ظهر المركب بسرعة وتركنا الضفة وعدنا مائة شخص وضعونا نحن الشيوعيين بشكل حازم لا على التعيين للحيلولة دون حدوث هلع ما أو فوضى .

إننا نبحر الآن المياه حمراء بسبب أضواء الحريق ، وها هو القمر يظهر من وراء الغيوم وكأنه عمل متعمد ، ثم سطعت نار مضيفة فوق رؤوسنا ويمكن قراءة الجريدة على ضوءها ، أخذت الانفجارات تحيط بنا من اليمين واليسار . لغم انفجر أمام مقدمة المركب واعتقدت بأننا كلنا سنغرق ، كانت المياه عميقة في وسط القولغا . ولكن سيرومياتنكوف ذو اللحية هو نفسه كان جاثماً على أحد صنابير النخيرة وظل جالساً فوقها أمام الجميع ، مشغولاً بتصنيف البريد مع موزع البريد . الذي كان يده بیده عن هذه وعن تلك من الرسائل . أحد من بيننا أخذ يناؤه ، ولكنه هدأ عندما نظر سيرومياتنكوف باتجاهه ، كما لو كان يقول له : صبراً أيها الرفيق ، فمن المحتمل أن تكون لك رساله هنا .

عندما وصلنا الى النقطة الميئة والتي لا تمسها نيران العدو ، حل الظلام فجأة ، وكان أحداً أطفأه بطلقة بندقية ، وبقدرة قادر سمعنا كلنا صوت الموجه . أيها الرفاق في الحالة التي يحدث فيها شيء ما نحن هناك الموزع وأنا بالقرب من مستودعات البترول ، التي تلتهب هناك سيكون مقر أركان الفوج .

يمكن أن نقول بأن هذا الرفيق لجأ إلى الحيلة ، ولا شك بذلك فالتحرير بالنسبة للجندي هو بمثابة موعد للقاء مع أسرته . الجميع يتهافون عليه ، ولكن هنا وفي هذه الظروف يجب أن يتحلى الانسان بالشجاعة ، وحسن التصرف فجلوسه هائناً في أكثر الأمكنة خطورة ، وانشغاله بتوزيع الرسائل على صنابير النخيرة

- وباختصار - الشيوعي هو الشخص الذي يحسن التصرف في مثل هذه الأمور .

نستطيع أن نورد هنا كثيراً من الأمثلة على حسن التصرف والسيطرة على النفس . والحزم والجرأة لدى الضباط والموجهين السياسيين وأهليتهم في تركيز انتباه الجنود إليهم في اللحظة الحرجة جداً ، تلك هي نماذج شخصية للشيوعيين في القتال .

المثل الشخصي : كان الفصيل السياسي كما يبدو لي يعمل بقوة . وذلك بإلحاحه على أن يناقش في اجتماعات منظمة الحزب في كل وحدة موضوع تصرف الشيوعيين في المعركة . حددت مطالبه في الرسالة الموقعة من قبل عضو المجلس العسكري غوروف ومن رئيس الفصيل السياسي ، فاسيلييف . وكانت موجهة لموضوع القتال في شوارع المدينة « وجاء في الرسالة أن كل عضو في الحزب يجب أن يكون القدوة للذين حوله . إن الصلابة والحزم يجب أن تكونا الأسس التي تحدد سلوك الشيوعيين في المعركة وأي شيوعي يظهر أي جبن أو بلبله ، فعلى منظمات الحزب أن تدينه بكل القساوة التي يقرها إنضباط الحزب بما فيها طرده » .

نوقشت هذه الرسالة ليس فقط في منظمات الحزب . ضمن السرايا والافواج . ولكن حتى في أركان القطعات بما فيها أركان الجيش ، وشعر كل أمر بما يمكن أن تذكر عنه المراقبة الدائمة حول تصرفه من قبل أبسط أعضاء الحزب . فبموجب دستور الحزب كان يحق له أن يطلب تطبيق قرارات منظمات الحزب ، هذا هو قانون حزبنا ، إن ما يقرر في الاجتماع الحزبي هو إجباري للجميع . وكل مخالفة للانضباط الداخلي للحزب يعاقب عليها بنفس الشدة إزاء كل عضو نون النظر إلى شخصه مهما كانت رتبته هذه . وبصفتي قائداً للجيش كنت أدمع بشدة واجبات الشيوعيين .

لهذا يمكن أن نعرف ، لماذا تمكن المجلس العسكري في أشد الأيام صعوبة . وفي بداية معارك الشوارع في وسط المدينة . أن يقطع بحزم وفعالية دابر كل الاشاعات التي تنم عن التخاذل . وتضعف المعنويات والتي كان ييئها ، الذين كانوا يشكون بجدوى الدفاع عن المدينة . لقد اتخذ المجلس العسكري بدعم من منظمات الحزب تدابير صارمة ضد الضعفاء ، والجبناء .

وما عرفت جندياً ينتمي إلى الجيش ٦٢ وكان يدين بالجبن ، ضابطاً أو جندياً

هارباً من ساحة المعركة . فالمقاتل الحقيقي لا يمكن أن ينحمل الذين يختفون وراء ظهره ويخونونه بخورهم ، وجبنهم . تلك كانت الحالة النفسية المسيطرة على المدافعين عن ستالينغراد ، وبالرغم من خطورة الموقف وتفوق العدو في العدة والعدد لم نفع أية حادثة تتم عن ذعر جماعي . ويعود الفضل في ذلك إلى منظمات الحزب في الجيش ٦٢ .

من الضروري أن نأخذ بعين الاعتبار . أنه في ظروف حرب الشوارع . وضمن أصوات انفجارات القنابل التي لا تنقطع . والتي كانت تسود ساحة القتال ليلاً ونهاراً . ودامت أياماً وأسابيع وشهوراً كاملة ، والتي لم يكن بالمستطاع على الموجهين السياسيين تنظيم لقاءات واجتماعات كبرى للجنود ليشرحوا لهم القرارات الهامة التي تصدرها أوامر القيادة ، فلم يكن لديهم لا المكان ولا الزمان لإلقاء الخطب الحماسية ، فغالباً ما كان المشجعون والدعاة يشرحون المهمات بالمحادثات القصيرة مع المحاربين في مختلف النواحي ، في الأقبية ، ونحت أقفاص السلاالم ، وغالباً ما كانوا يوضحون بشكل مباشر في المعركة وخلال العمل ، كيفية استخدام ، وتنفيذ أمر القائد ، وأقول هنا بصراحة ، إن هذه المظاهر البسيطة كانت تحدث تأثيراً فعالاً على الأشخاص ، أكثر من المحاضرات الطويلة . ولهذا السبب وقعت على عاتق الموجهين السياسيين في الجيش ٦٢ مهمة التعرف بعمق على تكتيك حرب الشوارع ، وللمهارة في استخدام السلاح ، وبخاصة استخدام المسممات الرشاشة . والقنابل اليدوية . وقد وفق أغلبهم في أداء مهمته بشكل جيد .

وتكمن الجدارة الحقيقية لمنظمات الحزب في الجيش ٦٢ ، كما يبدو لي أن الموجهين السياسيين استوعبوا خواص قتال الشوارع . ونقلوا مركز ثقلهم وعملهم حتى إلى السرايا والفصائل ومجموعات الانقضاض وأصبحت المحادثة الفردية الشكل الرئيسي . لعمل كل الموجهين السياسيين ، وأمناء منظمات الحزب ، والكومسمول ومعاونيهم والموجهين في الفصيل السياسي . والتساؤل هنا هل من الممكن النفوذ إلى ضمير الجندي لإقناعه ، بأنه يستطيع وعليه قتال العدو حتى آخر إمكاناته حتى ولو بقي لوحده في مؤخرة العدو . لقد منحت القيادة هذه الثقة يعني أعطته الحق بالعمل لوحده مستقلاً ولكنه كان يشعر بأنه مجبر على أن يستخدم هنا هذا الحق بتعقل مع النظر بالمهمات المكلفة بها الألوية والفرق ومجموع الجيش . الثقة . الثقة . أيضاً الثقة .

وهذا هو الذي يستطيع رفع مستوى النشاط القتالي الخلاق لمجموع الجنود ،
كان عملاً دقيقاً ومعقداً ومحملاً بالمسؤولية أعطى كما نعرف نتائج باهرة ،
ويمكن القول دون مبالغة

« إنه بفضل نشاط منظمات الحزب أصبح كل مدافع عن المدينة ، حاجزاً
لا يمكن عبوره في طريق العدو » .

كانت منظمات الحزب تعمل بسرعة وفعالية على تأمين تنفيذ جيد لأوامر
القتال . وأني أنذكر عدداً من الموجهين السياسيين عندما كانوا يتلقون أوامر
القتال ، كانوا يذهبون إلى القطاعات التي ستنفذ فيها أشد المهمات صعوبة
ونعقيداً . وكان لديهم تعليمات محددة جيداً نقل أمر المعركة لعلم كل محارب ،
نعبئة منظمات الحزب والكومسمول لتنفيذ هذا الأمر في أي ظرف من
الظروف . هذه الظروف كما نعلم كانت معقدة ومختلفة ، حسب كل قطاع وكل
بيت . والشيء الجيد والقوي هو أن الموجهين السياسيين كانوا يختارون مع
المحاربين أنفسهم شكل وطريقة العمل حسب الموقف ، دون انتظار أي لحظة
ملائمة ، ويذهبون مباشرة إلى مجموعات الانقضاض بالقرب من رشاشاتهم
وإلى المشاة ورجال الهندسة (النقيبون) ، وإلى أي مكان فيه جنود لذلك لم
يكن هناك أي إنقطاع يتخلل تنفيذ العمل السياسي الجماهيري مع المحاربين تلك
كانت المتطلبات الدائمة للفصائل السياسية نحو مساعديهم .

كان الموجهون السياسيون والضباط من كل الدرجات من أمناء تنظيمات
الحزب حتى قائد الفصيلة السياسية وأعضاء المجلس العسكري للجيش يزورون
الخط الأول ، وكثيراً ما كان يحدث أن أكون شخصياً بزيارة لخنادق الجنود
وأعشاش الرشاشات . أشرح للمحاربين القرارات ذات الأهمية الكبرى للحزب
ومهمة قتال الفصيلة التي ذهبت لزيارتها . ومن تحصيل الحاصل أنه بعد مثل
هذه المحادثة في الخندق ، بقلب مفتوح مع الجندي ، كان يشعر بعمق أكثر
بمسؤوليته نحو المهمة الملقاة ويفهم بشكل أفضل النقطة ذات الأهمية ، التي
عليه أن يوجه إليها اهتمامه لتنفيذ مهمته .

نعم على هذه الصورة ، يقوم عمل الحزب لدينا .

لقد علمت أن إيفان باتشنيكو ، مفتش الفصيل السياسي للجيش قوميسار الفوج
(بعد ذلك أصبح مقتماً) ، كان يحارب مع فوج مطوق في قطاع اورلوفكا ،
وقد انسحب مع مجموعة من ١٢٠ شخصاً ، بعد أن خرق ليلاً النطاق العسكري

الألماني المحاصر ، وحقق الإتصال مع الوحدات التي تعمل في القطاع . وظل المفتش السياسي الرئيسي ايفان سيومين لمدة أسبوعين مع مجموعة الانقضااض التي كانت تقاتل في معمل العيارات في مصنع كراسني أوكتيابر ولم يترك موقعه ويخليه ، إلا بعد أن جرح جرحاً بليغاً وبتر أحد فخذه . كان عمل منظمة الحزب في الفرقة ٢٨٤ مشاة باتيوك بخاصة منسقاً ومنظماً بشكل جيد فقد نظم قائد الفصيل السياسي تكاتشنكو مع الموجهين السياسيين المساعدين وأمناء منظمات الحزب في الأولوية عملهم بشكل لا يمكن معه أن يكون في المعركة حالة واحدة من الجبن والذعر ، لذلك سببت صلابة السييريين وحزمهم الألم والأسى للألمان ، فقد أبادوا على مرتفع كورغان ماماييف بضعة آلاف من جنود العدو بفعل نيران الرشاشات والمسدسات الرشاشة لمجموعات الانقضااض من فرقة باتيوك .

كان الجهاز السياسي لهذه الفرقة يولي اهتماماً خاصاً لتطوير ، ونشر الطرق الجديدة للنضال ضد العدو ، فعندما طور قانص الدبابات ديمتري شوماكوف بندقيته المضادة للدبابات ، وأصبح بإمكانه استعمالها مع جهاز الحامل ضد الطائرات ، قام الموجه السياسي فيخوروشيف في نفس اليوم برسم مخطط صغير « كروكي » للجهاز الذي أضيف على البندقية ، ووزعه على كل الفصائل ليعملوا نفس العمل ، وخلال يومين استطاع قانصو الدبابات التابعون للواء أن يضيفوا على لائحهم ست طائرات منقضة أسقطت من قبلهم . وعندما بدأت حركة مهرة الرماة . كان فاسيلي زايتسيف أول من دفع هذه الحركة في هذه الفرقة . وظهرت نشرة لائحة الرماة المهرة في كل القطاعات والمخابيء ، كان ينشر فيها عدد الهتلريين الذين قتلوا خلال اليوم ، وكانت نشرة الفرقة تنشر يومياً المعلومات عن أفضل الرماة ، لقد تطور العمل في فرقة باتيوك بشكل واسع بما فيها إرسال الرسائل لأباء ونوي الرفاق القتلى . وكان الجنود في هذه الرسائل يقسمون على الثأر لدم رفيقهم في السلاح : مفارز كاملة ، فصائل وسرايا . وحتى مستوى لواء كانوا يضعون توافيعهم في نهاية الرسائل . ومن الطبيعي أن الذي يوقع القسم كان يسعى لتنفيذه .

وكان نشاط الشيوعيين يمتد إلى كل مظاهر الحياة في الجيش . كانوا يوجهون أهمية كبرى لإيصال الغذاء الحار إلى الخطوط الأمامية ، ومواضع الرمي ويظهرون عناية كبرى لتنظيم الخدمة الصحية للجرحى ، وتهيئة أماكن للعمل

السياسي في المخابىء المغطاة ، حيث يستطيع الجنود والرتباء قراءة الصحف وسماع الموسيقى والاستراحة .

يعتبر الجند المتميزون في القتال أول العناصر المقبولة للانضمام للحزب ، كما كانت لجان الحزب في الفرق والجيش تعقد اجتماعاتها في الوحدات نفسها . سنحت لي الفرصة بأن أكون شاهداً على تسليم الجنود المميزين بطاقتهم الحزبية في الفرقة ٢٨٤ ، وكان من بينهم فاسيلي زايئسيف . أقسم هؤلاء المحاربون وهم يرفعون بطاقتهم لشفاهم على الصمود والقتال حتى الموت وقاتل العدو كبلاشة .

لا نستطيع أن نوفي هذه اللوحة حقها وأن تكون كافية لإبراز كل نشاط شيوعيينا في الجيش فهم الذين كانوا يهيئون الرجال معنوياً . ويصونون عملياً قدراتهم القتالية الحالية . لقد لعب شيوعيو الجيش ٦٢ دوراً قيادياً في القوات ، وشدوا التلاحم في صفوف الجنود وكانوا الأوائل في أشد المعارك ضراوة والتي دارت وجهاً لوجه ، وكانوا أشد المقاتلين حماسة في الهجمات وأشدهم أهلية وحسن تصرف ، في مجموعات الانقضاض ، وأكثرهم صلابة في الدفاع .

كانت قيادة الكومسمول جزءاً متمماً لعمل منظمات الحزب في الجيش . الكومسمول .. إنني ألفظ هذه الكلمة بانفعال وفخر بسبب ما حققه انكومسمولين من مآثر بطولية رائعة في جيشنا خلال سني الحرب الوطنية الكبرى وبخاصة بسالتهم ، وحزمهم في قتال الغزاة الفاشيين .

وخلال المعارك الضارية التي كانت تتوالى في شوارع مدينة ستالينغراد المطوقة طلبت من القياديين في لجنة الحزب واللجنة التنفيذية للمدينة إطلاق اسم شارع الكومسمول على أجمل شوارع العاصمة عند إعادة بنائها ، وكان رجاء المجلس العسكري للجيش ٦٢ أيضاً ، لأن هذا الجيش الذي قاتل في شوارع المدينة كان مشكلاً بشكل رئيسي من الجنود الشباب ، وكثيراً من السرايا والأفواج والألوية كانت بكاملها مشكلة من الشبيبة (الكومسمول) .

يمكن أن تحصى في فرقة الحرس ٣٩ أكثر من ثمانية آلاف كومسمولي وبخاصة في وحدات المظليين ، الذين كانوا في تشرين الأول يدافعون عن مصنع (تراكتورني) . وفي يوم ٥ تشرين الأول لوحده كانت تحلق في الجو حوالي سبعمائة طائرة عدوة ، فإذا كانت كل طائرة ترمي بين ٨ - ١٥ قنبلة ، يعني أكثر من ستة آلاف قنبلة سقطت في مواقع هذه الفرقة ، ورغم كل هذا الزخم لم

يستطع العدو التقدم ولا خطوة واحدة إلى الامام .

كان الكومسمول بقيادة منظمات الحزب في الطليعة وفي كل مكان .
أياً كان في مدينة ستالينغراد ، وحتى في تلك الأيام القاسية المرعبة التي
مرت بها المدينة ، كان يقدر الدور الذي لعبه في المعركة المحاربون الشباب
من الكومسمول ، الذين كانوا يتحلون بأعلى الفضائل المعنوية والعسكرية .
ونحن الجنود القدامى الذين تنشقنا رائحة البارود عدة مرات . كنا سعداء
بأن نرى ونعرف بأن هؤلاء الجنود والضباط لا يستسلمون أبداً . وكانوا في هذه
المعارك القاسية يتحلون بالشجاعة والدم البارد وبسالة الجنود القدامى ، نحن
فخورون جداً بأن شبيبتنا المحاربة لم تظهر فقط الجدارة الموروثة للتقاليد
البطولية التي يتمتع بها الجيل القديم بل استطاعوا تطويرها .

إن الكتابة في موضوع المحاربين الشباب في معركة ستالينغراد ، هي
الكتابة في موضوع الشبيبة جميعهم ، الذين غطوا بصدورهم في زمن الخطر
القاتل الفولغا ووطنهم الأم ، هي الكتابة في موضوع القلب الوفي والبذل للشبيبة
السوفيتية بحبهم ، الحب دون حدود لوطنهم وحزبهم الشيوعي هي الكتابة في
موضوع الطابع ، الذي إنصف به جيل بأكمله وبملؤه الفخر وإرادة لا تلين . في
بسالة هذا الجيل وروحه الكبيرة ، وأخوة السلاح التي لا تهتز .

لقد صمد الكومسمول بشرف لتجربة النار والدم ، وهناك عمدوا وتعلموا علم
القتال وفن النصر على العدو .

هوجمت إحدى سرايا المشاة العائدة لفرقة روبيمتسيف من قبل مدرعات
العدو . وكانت تحتل قطاع المحطة ، وفي غمرة المعركة الضارية ، التي نشبت
حدثت بعض البلبلة عند ظهور دبابات العدو في صفوف الصرية . ولكن أمين
منظمة الكومسمول فيدول ياكوفليف ، لم يضعف مطلقاً وانطلق حاملاً قنبلتين
يدويتين مضادتين للدبابات بقامته الطويلة وهو يصرخ « لا تراجع أيها الرفاق »
وقذف بإحدى القنبلتين تحت دبابة الرأس ، والتهبت الدبابة ثم إن ياكوفليف استعد
لقذف القنبلة الثانية ، ولكن طلقة معادية أرنته قتيلاً وقد استفز عمله هذا حمية
المحاربين وصدوا بقتالهم اليدوية هجوم الفاشيين ، وبعد القتال وجد الجنود في
مدالية ، كانت على جسم ياكوفليف ورقة صغيرة مكتوبة باليد ، وقد أعطى
الكومسموليين عنواناً لهذه الأشعار ، التي لم تكن فنية بقدر ما كانت صادقة هو
قسمي .



نحن أبناء الوطن ،
الوطن هو أماننا
أبونا لينين هو العزيز
علينا ،

في المعركة لا نتراجع
ولا خطوة

اعرفوا ذلك جميعكم
أصدقاء وأعداء



هاجمت ثمانى دبابات عدوة في قطاع بلدة الطيارين دبابة سوفيتية يقودها
غسان يامبيكوف . وقبل هذا التحدي ، ودمر أربع آليات ، ولكن دبابته أحرقت
بقذيفة تحوي زرنوخ ، وأحاط به جنود العدو من حملة المسدسات الرشاشة ،
وانتظروا خروج السدنة من الدبابة ولكن المحاربين السوفيت صمموا أن لا
يستسلموا ، وظلوا يقاتلون حتى آخر قذيفة و آخر طلقة ، وعندما بدأ اللهب
والدخان يدخل إلى غرفة القتال في الدبابة . اسنطاع جهاز الراديو في إحدى
الفرق المدرعة أن يلتقط الموجة ، التي كانت تعمل عليها الدبابة ، وسمع صوت
قائد الدبابة يامبيكوف الذي كان معروفاً من قبلهم وهو يقول : « الوداع أيها
الرفاق لا تنسونا » كما التقطوا نغم الأغنية « انهضي يا بلادنا الواسعة ، انهضي
للقتال حتى الموت أو النصر » هكذا كان رجال دباباتنا يغنون ، وهكذا يموت
الأبطال البواسل وملوهم الفخر . من المحاربين السوفيت غسان يامبيكوف
السائق الميكانيكي أندريه تربانوف ، عامل الراديو فاسيلي موشيلوف الرامي
سيرغي فيدنيكو .

أتى أبناء الكومسموز. اللينيون إلى جدران قلعة الفولغا من كل أرجاء الاتحاد
السوفيتي . وأظهروا الجدارة التي يستحقها أطفال الوطن السوفيتي .

ولن ننسى الرقيب الشاب جاكوف بافلوف ، سيد بيت (بافلوف) المشهور ،
ولا الملازم الشاب نيموفه سيماشكو بطل معارك موكرايا ميتشنيكا . لقد أصبح
الكومسموليون في المعركة روح مجموعات الانقضاض المشهورة والتي أرعبت
العدو ، ولعبت دوراً كبيراً في حرب الشوارع .

ونحتفظ الآن كبقايا مقدسة ، ببطاقات الكومسمول ، المطرزة بدعاء المدافعين عن المدينة والتي وجدت في ساحة القتال .

وها هي البطاقة رقم ١٣١٤٥٧١ التي مزقتها شظية لغم ، فمع هذه البطاقة التي كانت في جيبه ، سار للهجوم أحد الكومسموليين من ساراتوف ، الجندي نو التسعة عشر ربيعاً نيقولاي بورودوشين ، وقد مات مينة الأبطال .

وهذه بطاقة كومسمول أخرى ، وهي محروقة من جوانبها وتعود لسدين دبابات أوكراني هو بيوتر فلاسنكو وانضم هذا الجندي الشاب لصفوف الكومسمول قبل بضعة أيام من مماته ، كانت بطاقته مرمية في ساحة القتال في الاشتباك العنيف مع العدو حيث أحرقت دبابته . لقد قاتل فلاسنكو حتى النهاية حول دبابته وأسقط عشرة قتلى فاشيست .

الكومسمولي من كازاخستان قاسم عمانجلوف ، احتفظ ببطاقته كتعريضة مقدسة ، وقد قتل بطلقة من العدو ، وكان يضغط بيده القوية على بطاقته التي كانت علمه ، وقاتل وقتل وهي معه .

وأيضاً البطاقات التي ثقتها الطلقات وتعود لفاسيلي بوتوف ، والكسندر أولينتشيف وقتل هذان الكومسموليان في ساحة دزيرجنسكي ، وكانا في صفوف المحاربين الأوائل الذين قاموا بالانقضاض على مصنع تراكورني ، وفي المعامل التي كان رماة المسدسات الرشاشة الفاشيون يكمنون فيها .

لم يكن هناك في مرحلة المعارك على ضفاف الفولغا . عشرات ومئات بل الآلاف من العسكريين الشباب الذين رفعوا إلى درجة قواد ألوية ، أفواج سرايا ، أفواج مدفعية وسرايا ، هذا الكادر من القادة الشباب أعطى القوة للقوات المدافعة . وكان هؤلاء الشباب الشيوعيون زهرة الكومسمول .

ولكن من أين أتت هذه البسالة الخارقة ، هذه الصلابة التي لا مثيل لها التي أدهشت العالم كله ؟

إن الشجاعة والصلابة والفضائل المعنوية العالية للشعبية السوفيتية هي وريثة تقاليد الحزب البلشفي ، وقد صهرت خلال سنوات الخمسينيات في المعاناة المفعمة بالتضحية في ورشات دنيبروغيه - كومسموليسك على ضفاف نهر «الأمور» . مصانع الفولغا والأورال وأوكرانيا وسيبيريا في الشمال والجنوب . لم يكن لدى الشيوعيين والكومسموليين في الجيش ٦٢ من الميزات بين المحاربين سوى ميرة واحدة ، هي أنهم كانوا الأوائل الذين قاتلوا كأفضل الجميع .

كانت الوحدة التي جمعت رفقاء السلاح ثمرة جهود الحزب ، الذي كان يعمل
دون كلل أو ملل وبصمت عميق .

أحب المحاربون قانتهم ووثقوا بهم . كانوا يدافعون عنهم ويحمونهم . وكان
القادة دائماً مع المحاربين فهم أنفسهم كانوا مقاتلين . ومثل هذه الأخوة في السلاح
كانت تقوي الانضباط والنظام .

كيف يمكن أن يكون خلاف ذلك ؟ لقد إنحدر الجنود والضباط السوفييت من
نفس المنبت والوسط . وهذا لم يكن يفهمه مع الأسف المؤرخون البرجوازيون
المعنيون بالدرسات عن أسباب هزيمة ألمانيا في الجبهة الشرقية .

كنا معزولين عن الأرض الكبيرة بالنار والماء . ولكننا كنا مرتبطين بالقلب
بالروح بكل الشعب السوفيتي . وتهزنا عناينه السرمدية بنا ، ولا يوجد يوم (لا
وكنا نرى أثراً لاتنباهاه لنا ، كنا نتلقى الرسائل ، الطرود وأجهزة الراديو
وغيرها . دون النكلم عن الذخيرة والسلاح . ولدت هذه العناية لدى محاربي
الجيش ٦٢ الشعور بالقيام بالمآثر البطولية ، فالجنود كانوا يعلمون أن أعمالهم
الرائعة ستبقى إلى الأبد في ذاكرة الشعب .

وستبقى هناك .

فعلى قمة كورغان مامايف شيد النصب التذكاري لتكريم المدافعين عن
ستالينغراد ، الذي أصبح محج ملايين الأشخاص القادمين من كل أنحاء العالم .



لقد تكلمنا عن الجوهر في القوى المحركة للنضال ضد الغزاة . عن الوطنية ،
وحب الوطن الاشتراكي . والتفاني للأفكار الشيوعية . رسوخ العقيدة الحزبية
لدى الجندي . وهذه كلها لم تكن لتلعب دورها فيما لو لم تكن قد إكتسبنا خلال
النضال ، السيطرة على فن القتال ، الذي جعلنا - بقوة أقل من التي كانت لدى
الخصم - نصمد أمام ضرباته وإيفافه ثم طرده نحو الغرب .

وبالرغم من ظروف المناورة التي كانت بالغة الصعوبة كانت قوات الجيش
٦٢ تتحرك رغم ذلك خلال الليل . وكانت تعزز النقاط الضعيفة . لذلك عندما
كان الألمان يعودون للهجوم على هذه النقاط التي لم تكن شيئاً البارحة . كانوا
يواجهون دفاعاً صلباً وحنى هجمات معاكسة .

وهكذا إنهار تماماً تكتيك الجنرالات والضباط الألمان في معركة المدينة . وكذلك تكتيكهم في قتال الشوارع . وكانت نقاط هجومهم تنحطم وتنتلش . لم يقدم لهم تفوقهم العددي في العتاد والطيران بخاصة . النجاح الحاسم على العدو في حرب الشوارع . فالحساب الذي بموجبه ، كان الطيران يدمر كل شيء ويفتح الطريق أمام القوات الأرضية لم يكن صائباً . كانت مجموعات الانقضاض تقترب من العدو حتى مسافة رمية القنبلة اليدوية مما يجعل الطيران الهتلري يدخل في المتاهات . فكيف يمكنه القاء قنبله على الروس ، دون إصابة جنوده ، وغالباً ما كان يحدث عندما كانوا يغارون على مجموعات الانقضاض أن تتساقط قنابلهم على رؤوس الألمان .

هذا مثال عما حدث في قطاع الجبهة الذي تحتله فرقة سمبخوتفوروف حيث خنادق الطرفين متقاربة جداً ، وبقرى بيت مهتم كان القتال يدور بالقنابل اليدوية . واستدعى الطيران الألماني وأخذ يقذف مواضعنا ومواضعهم . وعندما وجد الطرفان صعوبة في معرفة خطوطهم وخطوط الآخرين ، لكي يلتجئوا إليها للحماية من الغارات الجوية . التجأ المقاتلون السوفييت والهنلريون على حد سواء إلى أقبية نفس البيت . وظلوا لمدة عشرين دقيقة يجلسون مرة ، ويتمددون مرة أخرى لكي يحموا أنفسهم من القنابل والشظايا والطلاقات . وعندما إنتهت الغارات أخذوا يتناقشون من هو أسير الآخر ، وبنتيجة النقاش استطعنا إقتياد سبعة عشر أسيراً منهم .

لقد فرضنا على الألمان تكتيكنا في حرب الشوارع الذي لم يكن منهجياً ، ولكنه وضع من خلال المعركة ، فتطور دائماً وتحسن .

والذي تعلمته وله الأهمية الكبرى على ضفاف الفولغا هو عدم التسامح مع المقلدين ، فنحن كنا دائماً نفتش عن طرق جديدة لتنظيم وقيادة المعركة منطلقين من الموقف الواقعي الذي أمامنا .

لم تكن مدينة الفولغا - ككل المدن التي تعيش بسلام في بلادنا - مهيأة للدفاع العادي ، فبالأحرى لم تكن مهيأة للنضال الطويل في حالة الحصار ، فلم يشيد فيها مطلقاً أية تحصينات دفاعية في شوارع المدينة ، لذلك وجب علينا إقامة هذه التحصينات منذ بداية المعارك . وبهذه تكمن إحدى خواص الظروف التي كان يعمل فيها الجيش ٦٢ .

كانت مراكز المقاومة التي تمثلت بنقاط الاستناد . المباني السكنية وأكثر

الأبنية صلابة وبخاصة المبنية من الحجارة والأجر . والمجهزة للدفاع والمرتبطة مع غيرها من المباني ، بالخنادق والممرات المحفورة وكانت الفرج بين نقاط الاستناد محمية بنيراننا ، وبالحواجز الهندسية .

وعلى العموم هتت بعض العمارات أو مجموعات الأبنية الواقعة في الاتجاهات الرئيسية لتكون نقاط استناد . وكانت الأفضلية تعطى للأبنية الحجرية وبخاصة التي كانت قد أحرقت . فهنا لا يستطيع العدو إشعال الحرائق فيها مرة ثانية قبل بدء انقضاضه ، وإثارة الدخان على المدافعين . كان يدافع عن كل نقطة استناد حسب مساحتها وأهميتها زمرة أو فصيلة أو سرية وأحيانا بفوج ، كما هتت نقاط الاستناد للدفاع الدائري وإمكانية الصمود فيها مستقلة في المعركة خلال عدة أيام .

ولم نكن نستغل في بادئ الأمر منشآت المصانع المبنية تحت الأرض كالأقبية والمجاري وممرات المياه لأننا لم نكن نعرف بوجودها . ولكن خلال المعركة تم الإتصال مع إدارات المصانع ومع منظمات الحزب فيها وفي الضواحي ، واستطعنا استخدام كل هذه المنشآت للنضال ضد العدو .

ولكي نجعل مناورات العدو صعبة في المدينة سدت الشوارع والساحات بالحواجز من كل الأنواع . ووضعت جميعها تحت رمايات متشابكة من أسلحتنا المتمركزة في الأبنية المجاورة جبهياً وجانبياً ومن نقاط الرمي الخاصة الموضوعة على شكل رقعة الشطرنج .

تحتوي المجموعات التي تتشكل فيها حاميات نقاط الاستناد ومراكز المقاومة ممثلين عن كل الأسلحة معززة بقاذفات اللهب ، والرشاشات الثقيلة وذات العيارات الكبيرة . بنائق ضد الدبابات ، مدافع هاون ، ودبابات ، وتدعمها نيران قطع المدفعية المستترة ، نون الحديث عن القنابل اليدوية الحارقة والمضادة للدبابات ، والتي كنا نعمل بتجهيز كل محارب بها . ولكل هذه الحاميات رمايتها الماهرة . ونقابوها (رجال الهندسة) ، وكيميائيوها . ووجود ممثل عن الخدمات الصحية إحصاري وكان عليه توفير الدواء بكثرة .

وأن قادة وحدات المشاة ، هم قادة نقاط الاستناد ومراكز المقاومة ، وتكون مراكز مراقبة (رصد) المدفعية التي ترمي من مرابضها المستترة قريبة منهم .

وتتغير وسائط النيران في بناء بحالة الدفاع حسب قوتها ، وموقعها في

المدينة . وفي الأبنية ذات الطوابق المتعددة ، كان الدفاع ينظم على مسنويات مختلفة . ومراكز قيادة النيران الموجهة على طول الشوارع كانت تتمركز في الطوابق الأولى التي ترتفع قليلاً عن الأرض والطوابق الداخلية أما مصادر النيران التي كانت مهياة لضرب الدبابات والشوارع والمساحات والأبنية المجاورة والأهداف البعيدة فتتمركز في الطوابق العليا أو مخازن الغلال العالية للأبنية أما قطع المدفعية المخصصة للرمي المباشر ، وقسم من الرشاشات الثقيلة بما فيها ذات المسافات القصيرة فتتمركز في الطوابق الداخلية وأحياناً كانت الرشاشات الثقيلة للرمي على المسافات البعيدة ، وكذلك الرشاشات ذات العيارات الكبيرة فتتمركز في الطوابق العليا ، وكان الرماة ينتشرون في مختلف أنحاء البناء . وأما قطع المدفعية المخصصة للرمي المباشر ضد الدبابات . والرشاشات المكلفة بالدفاع عن حوافي البناء وجوانبه والفرج بين الأبنية ، فكانت تتركب في الخارج بأنساق دائرية أو على الجوانب .

لقد جعلت خواص القتال في المدينة ، ضرورة تجهيز وحدات المشاة بالأسلحة الأونوماتيكية والقنابل اليدوية والزجاجات الحارقة . كما نحضر شبكة من الرمايات في المواضع الاحتياطية والمؤمنة لكل أنواع الأسلحة ، بشكل يكون لديها المجال للمناورة بالنار في كل الاتجاهات .

ومن الضروري عند تشكيل جهاز الرمي أن تهيأ لوسائط إمكانية استخدامها بشكل واسع للرمي المباشر ، وعلى مسافة قصيرة ليس لأسلحة المشاة فقط بل يتعداه إلى قطع المدفعية وغالباً للهاونات ، التي يمكنها أن ترمي زيادة على ذلك من الخنادق العمودية .

والدفاع المضاد للدبابات في المدينة خواصه أيضاً . فالنضال ضد الدبابات يجري على مسافة قصيرة ، وقد أعطي دور رئيسي لقناصة الدبابات المسلحين بالزجاجات الحارقة . والبنادق والقنابل اليدوية المضادة للدبابات . والتكتيك الأكثر استخداماً هو الرمي من الكمين ، وتستخدم لهذه الغاية الثغرات في الأسوار والجدران والدهاليز ، الأبواب ، والشبابيك في البيوت ... الخ .

يؤمن الدفاع الدائري المضاد للدبابات لنقاط الاستناد ، ومراكز المقاومة بتهيئة موضع لقطع الرمي المباشر على الدبابات بشكل تستطيع معه صد الهجمات التي تقوم بها الدبابات العدو من كل الاتجاهات ، وحتى من الخلف . وعند عدم وجود المدفعية يؤمن الدفاع الدائري عن طريق تسهيل عدد من

الممرات الكافية من أجل مناورة المجموعة المتحركة في الخنادق والتي سيدافع عنها بسدود الألغام والبنادق المضادة للدبابات ، وسيجهيز مواضع الرمي لقطع المدفعية المنفردة مثل تجهيزات نقط الاسناد للدفاع المضاد وستشكل من هذه النقاط والتي تغطي نفس المحور الخطر الصالح لمرور الدبابات قطاعاً مضاداً للدبابات .

نجهز مقرات الأركان بما فيها أركان الجيش . ومراكز القيادات . مرابض رمي المدفعية وكأنها نقطة اسناد . وبكلمة واحدة . كان الدفاع منسقاً في كل نقطة من الخطوط الأمامية حتى شواطئ الفولغا . وكل تشكيلات المؤخرة والخدمات المساعدة تعتبر جزءاً من الوحدات المحاربة ، ولديها منطقة دفاعها الخاص بها .

يجري الاسنتلاع ، من قبل الضباط أنفسهم ومن مختلف الرتب . وللاسنتلاع أهميته الكبرى من أجل تنظيم الدفاع . فقائد لواء المشاة يستطيع بفضل الاسنتلاع ، الذي يقوم به بنفسه وأن يحدد أهمية الأعمال الضرورية لزيادة صلابة الدفاع في الاتجاهات الهامة . وعليه يقع عبء التنسيق بين النيران وإقامة المتاريس أمام الخطوط الأولى ، التي يحددها هو بنفسه ، وكذلك داخل منطقة الدفاع ، وتغطية الفرج بين الأفواج ، ومراكز المقاومة ونقاط الاسناد . وهو الذي يحدد اتجاه الهجمات المعاكسة ، والاحتياط والتدابير التي تحقق المناورة .

يقوم قادة الأفواج وسرايا المشاة بأنفسهم بالاسنتلاعات حول دفاع نقاط الاسناد . ومراكز المقاومة والفرج بينهما ، كما كانوا يوجهون عمل الحاميات على أطراف نقاط الاسناد ، وينتخبون مواضع الرمي على مسافات قصيرة ، للرشاشات وقطع المدفعية ، وهم الذين يختارون اتجاهات الهجوم المعاكس ويهيئون الطرق والسبل من أجل المناورة ، ويحددون لمهرة الرماة قطاعانهم ومهماتهم .

أخذت التنظيمات الدفاعية تتحسن خلال المعارك وننطور وكل هدوء في المعركة كان يستخدم لتدعيم السدود وتحسين أنظمة الرمي . كنا نعطي أهمية خاصة للدفاع ، كما كنا نعمل على إزالة نقاط العدو التي كانت مفروزة بين مواضعنا بمهاجمتها بالنيران والهجمات المعاكسة ، والتي كانت نصل بشكل عام مباغنة على أجنحة ومؤخرات المهاجمين .

كانت هجمائنا المعاكسة نكبد العدو عادة خسائر كبيرة ، وغالبا ما كان العدو يضطر لإيقاف هجومه على المحور الذي انخبه ، ويخسر الوقت في التفتيش عن النقاط الضعيفة في دفاعنا . وبهذا الشكل تنبأنا ونيرة هجومه .
وتعتبر الضربات التي كنا نوجهها من الجانب أو مجابهة على مجموعة العدو كشكل من أشكال نشاطنا ، حيث تكون كلها مهيأة للهجوم . والهدف الذي كنا ننشده من هذه العمليات هو نكبيد العدو خسائر فاحشة ، كما كنا نستهدف بهجومنا المباغت الذي نقوم به وحدات من المشاة والدبابات ندعمها المدفعية والطيران ، هو فتح ثغرة في مواضع إنطلاق العدو ونشنت تنظيماته القتالية ، وإحباط هجومه وكسب الوقت .

عندما كان العدو ينجح بتحقيق الاختراق ، كان يصطدم بترتيب قتالي متكامل ، يسمح لنا بتوجيه الضربات إليه في العمق - طيلة الوقت الذي تجري فيه المعركة وذلك على نقاطه الضعيفة وأجنحته المكشوفة أثناء تقدمه .
لم تكن قواتنا تخشى مطلقاً ترك دبابات العدو تندفع في عمق دفاعنا . وذلك لأن النسق الثاني كان محضراً بشكل جيد ويحوي على مواقع دفاعية قوية وحواجز ضد الدبابات . ولكن على القوات التي تترك الدبابات المعادية التي نسمح باختراق دفاعها ، أن نقوم بنفس الوقت بفصل مشاة العدو عن اللحاق بالدبابات وتثبيتها في الأرض أمام الخطوط الأولى ، أما الدبابات التي كانت ننجح في الخرق العميق فكان الرماة ، وقانصو الدبابات يتولون أمرها وأحياناً كانت تسقط هذه في جيوب المقاومة ، وتصطدم بالنوى الدفاعية المضادة للدبابات ومرابض المدفعية المطمورة والمحضرة لهذه المهمة .
يكن تفوقنا بأننا كنا نتمركز في تحصينات قوية ومغطاة في حين كان العدو يسير في العراء في الشوارع حيث يصبح هدفاً جيداً لقواتنا .
وعندما كان العدو يتمكن من احتلال المباني والانشاءات الأخرى ، كانت الأنساق الثانية والاحتياط تتولى إخراجهم منها بالهجمات المعاكسة ، التي كانت تعيد تثبيت الموقف .

توزع الأنساق الثانية في نقاط الاستناد في عمق منطقة الدفاع بشكل تستطيع معه أن تعترض العدو على محاور هجومه المحتملة ، وتكون مستعدة دائماً للهجوم المعاكس بقسم من قواتها أو كلها .
عندما يكون هناك نقص في القوات . والوسائل للقيام بالهجمات المعاكسة من

الواجب تنظيم تشكيل القتال بشكل يجعل الاحتياط يحل وينمركز في الأبنية القوية والهامة .

أما في الظروف غير الملائمة فتوضع الأنساق الثانية (الاحتياط) في نقاط الاستناد التي تكون مهياة للدفاع في الاتجاهات الخطرة .

يحضر الأنساق الثانية (الاحتياط) في نفس الوقت ، أرض المعركة أي الأرض ، التي تكون على محور الهجوم المعاكس إما في حدود قطاعها أو لتقديم المساعدة لغيرها ، ويطلب هذا التحضير تنظيم العمليات المشتركة ، ونسهيل الطرقات للمناورة - يعني - تنظيف الأنقاض والركام التي تسد الطرقات ، وتعرض المرور وغيرها ، وكذلك فتح الثغرات في الجدران المتبقية في الأبنية . ونجهز أماكن للمراقبة وقيادة رمي المدفعية وكذلك مناطق مرابض المدفعية .

ونختلف الهجمات المعاكسة التي تقوم بها الأنساق الثانية والاحتياط في المدينة عن الهجمات المعاكسة التي تجري خارج المدن وفي الأماكن المكشوفة . ولقد ظهر واضحاً منذ بداية المعارك ، في مركز المدينة أن طرق قيادة المعركة خارج المدن لا يمكن تطبيقها داخل المدن . فتحصينات العدو المتعددة في البيوت المبنية من الحجارة ، وكثافة النار تجعلان من الصعب القيام بهجوم معاكس دون خسارة كبيرة .

وخلال الهجمات والهجمات المعاكسة تكشف أجنحة الخصمين وتتبعثر تشكيلاتها القتالية بسبب الأبنية المحصنة .

في مثل هذه الظروف يعني الدفاع النشط هو القيام بالهجمات المعاكسة التي غالباً ما كانت قواتنا تلجأ إليها منذ الأيام الأولى للمعركة . وكان يقتضي إما أخذ الأبنية التي كان يتحصن فيها الهنريون في داخل ترتيبنا القتالي ، وإما مهاجمة الأحياء ، التي حولها العدو لنقاط استناد أمام خطوطنا الأولى .

ولقد ظهر بوضوح منذ بداية المعركة أن الذي كان يحرز النجاح ، هي الأقسام الصغيرة التي تنفذ في الفرج بين نقاط الاستناد ، ومراكز المقاومة العدو ، فهي التي كانت تثبته ، وتتسرب في داخل الأحياء . وتنقض على الأبنية التي كانت تتهياً للدفاع بسرعة .

لم يكن باستطاعة الأقسام الصغيرة في المدينة ، من قوات المشاة أن تتغلب على كافة الحواجز ، بوسائطها الخاصة . أو أن تبطل نيران العدو . ومن جهة

أخرى كانت رمايات المدفعية التي تنفذ من المرائب المطمورة قليلة الفعالية ، ولهذا السبب فلكي تدمر الأبنية والجدران ، التي ركز فيها العدو وسائط نيرانه كان يلحق رجال الهندسة (النقيبون) والكيميائيون بوحدات المشاة والمدفعية والدبابات ، ومن أجل فتح الثغرات في الجدران والسدود . والقضاء على العدو في نقاط الاسناد . وبهذه الصورة كانت تتشكل هذه الوحدات أي مجموعات الانقضاض المعدة للقتال في الشوارع . وتتشكل مجموعة الانقضاض عادة من فصيلة أو سرية مشاة (٢٠ - ٣٠ بندقية) معززة بقطعتين أو ثلاث قطع للرمي المباشر . وبزمرة أو زمريتين من رجال الهندسة (النقيبون) (والكيميائيون) ، ويسلح الجميع بالمسدسات الرشاشة (الرشيشة) والقنابل اليدوية .

تشكل عمليات مجموعات الانقضاض النشطة أساس قونها الدفاعية ، وهي التي نجعل العدو دائما مشدود الأعصاب وبضطر تحت ضرباتها . لنترك الأبنية ونقاط الاسناد التي يحتلها .

وغالبا ما تنفذ هذه العمليات دون تمهيد المدفعية . ويتم اختيار لحظة الهجوم حسب نصرف العدو .

ويكون ذلك أيضا حسب أوقات الراحة وأوقات تناول العدو لطعامه ، وأثناء النبيل وبفضل هذه النكتيكات كنا غالبا ما نأسر حاميات كاملة في الأقبية . أظهرت التجارب أن مجموعات الانقضاض ونقاط الاسناد . لعبت أهم دور في دفاعنا . لقد خرجت قوات الجيش التي كانت تصد هجمات العدو ونقوم هي نفسها بالهجوم ، رجالا جسورين ، اسنحونوا على المداهمة وأصبحت ملك أيديهم ، ومن هنا نكمن قوة محاربينا في أن جميع المدافعين كانوا مهاجمين أيضا .

لعبت مجموعات الانقضاض أيضا دورا كبيرا في مرحلة القتال الهجومى بضربات الجريئة والمباغثة . وكانت تنتزع من العدو الأبنية والأقسام التي احتلها من المدينة .

وللانقضاض على هذا الهدف أو ذاك.. كانت وحدات الجيش ٦٢ تعين مجموعة صدمة (هجوم) ومجموعات دعم واحتياطات حيث تنفذ هذه التشكيلات القتالية الثلاثة مهمة واحدة فقط . ومن مجموع الثلاثة كانت تتشكل مجموعة الانقضاض للقتال في المناطق السكنية .

إن تشكيل وتنظيم قوى كل مجموعة يكونان حسب الهدف من العملية ،

وقاندها هو الذي يحدد ذلك أثناء التحضير للعمل ، على ضوء المعطيات التي تقدمها عناصر المخابرات عن طابع الهدف وقوة الحامية .

وتعد مجموعة الصدمة عادة من عشرة إلى اثني عشر رجلاً . وهي تشكل النواة لكل مجموعات الانقضاض . ومجموعة الصدمة هذه هي التي كانت تقوم بالغارات على البيوت والنحسينات ، وتدير معركة مستقلة في الداخل . ولكل مجموعة مهمة جزئية ، حيث تكون مجهزة بأسلحة خفيفة مسدس رشاش (رشيشة) قنابل يدوية ، سكاكين ، رفوش ، ويدير هذه المجموعات قائد واحد لديه لهذه الغاية صواريخ إشارة ملونة ومضيئة ، وأحياناً تلفون .

نقسم مجموعات الدعم هذه عادة إلى عدة أقسام نقوم بالغارة ، جميعها بأن واحد . في البيوت ومن مختلف الانجاهات ، وتقوم بعملها بعد مجموعات الصدمة وبعد إعطاء الإشارة ، وفي المرة التي نستولي فيها على وسائل نارية ، نحضر في الموقع مباشرة دفاعها الخاص ، وتوجه رمايتها على العدو ، وتعمل على إحباط كل المحاولات التي يقوم بها العدو لنجدة الحامية ، كما يمكن أن تجهز مجموعات الدعم بالأسلحة الثقيلة : رشاشات ثقيلة ، بنادق مضادة للدبابات ، هاون ، مدافع م/د أنرعة حديدية ، متفجرات . وتتألف كل مجموعة عادة من رماة مهرة . ومن جنود لديهم اختصاصات مختلفة قادرين على استخدام اختصاصاتهم بدقة ضد العدو .

كان الاحتياط يستخدم لتعزيز مجموعات الصدمة ، والتصدي للهجمات المعاكسة التي يمكن أن يقوم بها العدو من الجوانب . كما كان الاحتياط يشكل عند الحاجة مجموعة حصار ، وكذلك تشكيل مجموعات صدمة إضافية عند الضرورة .

لقد اقنعنا التجارب بضرورة تشكيل مجموعات الانقضاض من رجال يعودون إلى نفس الوحدة وليس إلى وحدات مختلفة . كانت مجموعات القتال تشكل على حدة في السرايا أو الأفواج ، فكل فصيلة . أو حاضرة ، وكل محارب يجب أن ينقن هذا النوع من القتال .

إن اختيار الوقت . والمباغثة هما عاملان رئيسيان في نجاح مناورات مجموعات الانقضاض وعلى كل رئيس ، يكلف بمهمة القضاء على نقطة الاستناد ، أو مركز مقاومة ، عليه قبل كل شيء ، أن يعرف استخدام عامل الوقت ، وعامل المباغثة ، ففي القتال القريب وفي قتال الشوارع ، ولأسباب قوية

تعتبر هذه العناصر دائماً ذات أهمية حاسمة .

والقنبلة اليدوية هي السلاح الذي لا يمكن الاستغناء عنه للمحاربين الذين يقومون بالانقضاض ، فهي غالباً ما تحدد مسافة الانطلاق ، فكلما كان موقع الانطلاق للهجوم قريباً من العدو كان ذلك أفضل . ومن وجهة النظر هذه فنجاحات مجموعات الانقضاض في الجيش ٦٢ يعود إلى الاقتراب والزحف المستمر نحو العدو .

ولقد أظهرت التجارب التي اكتسبها المحاربون السوفييت أن الزمن والمباغنة سنكونان بجانبهم ، بتقريبهم زحفاً واستخدامهم للتخبرات التي فحنها القذائف ، ثم الانقضاض . وبحفرهم الخنادق ليلاً وتخفيهم نهاراً . وبمكثهم سرا دون ضجة قبل وثبة القتال . الرشيش في العنق وعشرة إلى ١٢ قنبلة يدوية . وبهذه الصورة سيكون الوقت والمباغنة بجانبهم .

لقد بنى بكتيك مجموعة الانقضاض على السرعة في العمل ، الاندفاع ، الشعور القوي بالمداهمة والجرأة ، لكل محارب ، وأني أورد هنا معاملة هذا التكتيك على الشكل التالي :

يجب أن تنقض على البيت ، وكأنك مع القنبلة اثنان ، وثيابكما خفيفة : أنت دون حقيبة ظهر ، وهي (القنبلة) دون مسمار الأمان ، قم بالغارة على البيت ، القنبلة أمامك وأنت خلفها . نجول في كل البيت ، وبنفس الشكل القنبلة أمامك ، وأنت خلفها تخرج منه .

المعركة في بيت محتل من قبل العدو مليئة بالحوادث غير المتوقعة ، هنا تدخل في اللعبة هذه القاعدة التي لا تتبدل : اعرف كيف نعود . الخطر يرصد الجندي في كل خطوة يخطوها . لا تفقد التفكير ، ارم قنبلة في كل زاوية من الغرفة وتقدم إلى الأمام . رشة من مسدس الرشاش على ما تبقى من السقف . وإذا لم يكف ذلك ، فقنبلة يدوية أخرى إلى الأمام . وفي الغرفة التالية . قنبلة . وفي العودة قنبلة أخرى . كنس بالمسدس الرشاش ، لا نتأخر كثيراً . وحتى في المرة التي تكون فيها في الداخل يمكن أن يقوم العدو بهجوم معاكس . لا نخف ، فالمبادرة ما زالت بين يديك . اعمل بشدة أكثر بالقنبلة اليدوية ، وبالرشيشة ، والسكين ، والرفش ، فالمعركة داخل البيت هي معركة حامية كن مستعداً للشيء غير المنتظر ولا تقف وقفة البلهاء .

وهذا ما أصبح كقاعدة في وحدات الجيش ، فحتى ولو كان العدو فدر كز كل

وسائط نيرانه داخل البناء ، وحوله إلى نقطة استناد ، فالانقضاض يجب أن يتم مباغتة دون تمهيد مدفعي .

كانت مجموعات الانقضاض تتلقى بنفس الوقت الدعم من بضعة مدافع دبابات ترمي رمياً مباشراً ، عبر الفتحات لتدمير البناء بالنيران . وبذلك تقرب لحظة الانقضاض ونجعلنا أكثر قوة ومضاءً أيضاً .

أما الهجوم عبر الحفر والممرات تحت الأرض فكان فعالاً جداً ، وكان يستعمل عندما كان التقرب من البناء بالوسائل الأخرى يؤدي إلى خسائر فادحة .

ساعدنا استخدام مجموعات الانقضاض والأشكال الأخرى ، وسائط قيادة المعركة على الصمود والنصر ، سار الجيش ٦٢ وهو يقاتل من الفولغا حتى برلين ، وهاجم عدداً من المدن والمواقع والمناطق المحصنة ثم برلين ، ولزماً عليّ أن أقول بأن كل معاركه لم تكن متشابهة إلا بالاسم وهي مختلفة عن بعضها بمفهومها وتحضيرها وتنفيذها ، فالقتال في ستالينغراد لا يشبه القتال الذي حدث في زاباروجيه ، وأوديسا وبرلين ومدن أخرى ، ولا يشبه أيضاً ما جرى في قلعة بوزنان والقطاع المحصن ميزيريت .

ولم يستحق الجيش ٦٢ لقب جيش الحرس الثامن من أجل احتلاله لهذه المدينة أو تلك أو تلك القطاع المحصن ، بل علينا أن لا ننسى ستالينغراد، حيث نشأت مجموعات الانقضاض .



لي الرغبة بالحديث قليلاً عن دور المرأة في ستالينغراد . كانت هناك وحدات كاملة في الجيش الأحمر يغلب عليها العنصر النسائي ، وكن يشكلن الأغلبية في مجموعات المدفعية المضادة للطائرات وألوية القاذفات الليلية 2 . OU ويعملن في طواقم وسدنة المدافع المضادة للطائرات وعلى أجهزة الأنوار الكاشفة ، ومن الواجب القول بأن هذه الوحدات أتمت مهماتها القتالية بإيقان لا يقل عما لو كانت الأغلبية من الرجال .

وعلى هذا الأساس فأغلبية جهاز الدفاع الجوي عن مدينة ستالينغراد ومنطقتها كان من النساء ، ويعملن كما تكرنا كسدنة مدافع وطواقم الأنوار

الكاشفة وكن لا يترك على الإطلاق مواقعهم ويتابعن الرمي ، وحتى ولو كانت تحلق في الجو عشرات القاذفات وتمطر على رؤوسهن عشرات القنابل ويصبح التسديد المحكم مستحيلاً وحتى إمكانية البقاء بجانب أسلحتهن .

سنت لي الفرصة في تشرين الأول باللقاء مع خمس فتيات كن يعملن كسدنة للمدافع المضادة للطائرات كلهن لا زلن شابات ولكن عركتهن نيران المعركة ، ولن أنسى شعور الأمل والأسف على وجه إحدى الشابات التي تلفت النظر بشعرها الأشقر ، وذلك لأنها لم تستطع أن تسقط سوى طائرة واحدة من مجموعة قاذفات العدو المنقضة ، وحسب رأي رفيقاتها أنه كان بإمكانها إسقاط طائرتين أو ثلاث طائرات .

وفصيل الإشارة في الجيش ٦٢ هو الآخر، كان يتشكل بغالبية من هؤلاء الشابات ، وعندما كنا نشاهد إحداهن في مقسم وسيط للاتصال الهاتفي كنا نستطيع القول بأن الاتصال مؤمناً ونحن متأكدون من ذلك . ومهما كان وضع مركزهن : إن كان يقع تحت نيران المدفعية والهاون وقاذفات الألغام أو تتساقط عليه قنابل الطائرات كالمطر المنهمر ، وحتى ولو حوَصر من قبل العدو ، كن لا يتركه دون أمر وحتى ولو كان الموت ينتظرهن .

وأعرف حالة وقعت في قطاع خط السكة الحديدية الفرعي في باسارغينو حيث لم يبق في المقسم سوى فتاة شابة ، هي عاملة المقسم واسمها ناديا كليمانكو بعد أن قتل كل رفاقها حولها ، أو جرحوا جراحاً خطيرة ومع ذلك لم تترك ناديا مركزها وأخبرت قيادتها بكل التفاصيل ، وحتى آخر لحظة عما يحدث في ساحة المعركة . وهذه آخر كلماتها إلى مركز اتصال الجيش: « لم يبق أحد منا بقرب المركز وبقيت لوحدي والقنابل تنفجر حولي ، وأرى على يميني دبابات تحمل الصليب الحديدي على تصفيحها والمشاة تتبعها تتقدم باتجاهي ، لا أعرف مكاناً أذهب إليه : إنني وحدي على كل حال إنهم ينزلون بقرب المركز سأخبركم ، أصغوا إليّ ببابة تقرب من مركزي . رجلان يقفزان منها اتجها نحوي ، أخذا ينظران حولهما ويبدو أنهما ضابطان ... »، وهنا انقطع الاتصال معها .

صادقت في سنوات الخمسينات امرأة كانت تعمل سابقاً في سلاح الإشارة ، محاربة في الجيش ٦٢ ، وهي حالياً سكرتيرة اللجنة الحزبية في ناحية سميلانسك . الرفيقة رازوميفا ، وكنت تعرفت عليها لأول مرة في ١٣ أيلول ١٩٤٢ في كورغان مامايف ، بعد أن دمر المقسم الذي كانت تعمل فيه بالقنابل

والقذائف ، ولكنها بقيت في مكانها بالقرب من الهاتف تنادي قادة الوحدات .
انخرطت رازوميفا في الجيش عن قناعة تامة ، وكرست كل قواها
وإمكانياتها للدفاع عن الوطن ، وفي عام ١٩٤٣ دخل رازوميفا في الحزب
الشيوعي ، وبعد إنتهاء خدمتها العسكرية إلتحقت في سلك التعليم ومنذ عام
١٩٤٨ وحتى الآن تعمل في منظمات الحزب .

كان أمامي امرأة متواضعة جدية ، تنكلم عن رفيقاتها في القتال ولم تنكلم عن
نفسها إلا عندما أُلقيت عليها أسئلة مباشرة نخصها ، وطلبت منها أن تنكلم عن
نفسها بالتفصيل وبخاصة عملها خلال الحرب .

- أتكلم عن نفسي هل تنكلم عني ؟ وهزت كتفها مندهشة . لا بل سأحدث عن
بطولات غيري : « كان معي في كورغان مامايف ، شابه صغيرة من كاميشين
ومعها حفرنا في ١٢ أيلول ١٩٤٢ وتحت غارات متواصلة ملجأ لمقسم الإتصال
الهاتفي والأخرى شورشينا وكنت أتبادل معها المناوبة على المقسم . عندما
كنا في المدينة ، وفي مكان آخر كانت معي تايافوفينا . ليوباستوكالوفا .
وكلافاريا شتوندا ولينا بيريتولشينا وأخريات كن أيضا . وأنى أتذكر يوم ١٣ آب
١٩٤٢ وفي منخفض لابلونيفايا الفتاة السمراء ذات الشعر الكستنائي المتماوج
فونيا رازنيك التي جلست مع رفيقاتها في الخيمة بالقرب من جهاز الراديو، وفي
أرض مكشوفة وقرب الخيمة ، كانت هناك حفرة صغيرة .

سمعت الفتيات صوت قاذفات العدو تقترب ولكنهن لم يتركن أماكنهن ،
فلهيّن معلومات مستعجلة عن الهجوم الألماني حيث استطاعت ببايات عدوة
اخترق مؤخرات إحدى وحدتنا ، كانت فونيا هي التي تجري الإتصال ورفيقاتها
يجلسن بقربها فالقاعدة لدى الفتيات العاملات في الإشارة عدم ترك رفاقهن مهما
كان نوع الخطر الذي يتهدهن .

كن يراقبن تحليق الطائرات ويصفين إلى زمجرة القنابل وكن يحددن تقريبا
المكان الذي ستنفجر فيه القنابل الساقطة وبعد أن مرت الطائرات عادت ثانية
تمر من جديد ، ولكنهن كن دائما بعمل متواصل ويجريّن الإتصالات وللمرة
الثالثة عادت الطائرات للمرور مخلّفة وراءها حفرة كأنها فوهة بركان في المكان
الذي كانت فيه خيمة العاملات .

لم يكن لدينا الوقت لدفن رفيقاتنا ، فالأحداث كانت تدور في تلك الأيام بسرعة
لذلك بقيت الشابات هكذا وللأبد في منخفض لابلونيفانا ، وسقطن شهيدات

الواجب محاربات مجهولات في صفوف الجيش الأحمر .
حدثتني رازومينا أيضا ، في نفس الليلة عن صديقها الجديدة
شورانيشينا :

- كانت تعمل قبل الحرب في بيت للأطفال وعندما علمت بأن مكتب التجنيد ،
جند بضعة شابات من الكومسمول اللواتي أبدن الرغبة بالدخول في صفوف
الجيش الأحمر ، اسمها الكسندرا تشيشينا ، وكنا نسميها شورا للسهولة ، ذهبت
شورا فوراً إلى مدير بيت الأطفال وأعلمته برغبتها في الذهاب إلى جبهة القتال .
وصلت شورا مع خمس أخريات من شابات الكومسمول في ذلك اليوم الواقع
في نهاية نيسان ١٩٤٢ إلى مكتب التجنيد وقمن بزيارته ، وكانت تشورا
مندرجة في الحزب .

تم تنظيم كل شيء في يوم واحد ، وفي ٢ ميس رافقن الفتيات الذاهبات
للجيش وبعد شهر من التدريب على دروس العمل الهاتفي في مدينة استراخان
وصلت شورا إلى السرية الخاصة في المنطقة المحصنة ١١٥ وأخذت تعمل
على مقسم الهاتف هناك في الدون بتاريخ نموز ١٩٤٢ ، ومنذ ذلك الوقت وحتى
في أصعب الظروف لم تترك شورا مركزها .

استطعنا في ١٣ أيلول وفي كورغان مامايف تأمين الإتصال بين قيادة
المنطقة المحصنة والجنرال بوجارسكي ، رغم أنه في ذلك اليوم لم تكن هناك ولا
دقيقة واحدة هادئة فنيران المدفعية والهاونات كانت صاحبة دون إنقطاع ومع هذه
الصعوبات تم إجراء الإنصال وحققناه .

لم يبق في الساعة الثالثة بعد الظهر رجل واحد من عمال الإشارة في مركز
المقسم فجميعهم ذهبوا لإصلاح الأعطال في ساحة الخطوط الهاتفية ، وعندما لم
يبق أحد يمكن إرساله لإعادة إصلاح الخط المقطوع ، تطوعت شورا للقيام بذلك
وطلبت الآن من قائد السرية :

- هل تسمح لي بالذهاب لإصلاح الخط المقطوع ، فالمقسم يمكن أن يقصف إن
كنت موجودة أو لا .

- وقد أجابها بأن النيران شديدة وكثيفة لا تمكنها من الوصول إلى مكان العطب .
- يمكنني ذلك أيها الرفيق الملازم ولا عليك إلا أن تعطيني الآن بالذهاب وقالت
ذلك بإصرار واضطر الملازم عند إصرارها بإعطائها الآن بالذهاب ، تركت
شورا المقسم باتجاه الخط المقطوع بعد أن داعبت (كعلامة وداع) زميلتها

التي كانت تعمل على جهاز المقسم .
أجرت شورا على الخط نفسه عدة إتصالات ، ويتذكر العدد القليل من
الأشخاص الموجودين على كورغان مامايف ، في ذلك الوقت كيف عاد
الإتصال وقطع من جديد مرة ثانية ، ولكنهم لم يعودوا يسمعون صوت شورا .
كثيراً ما أتذكر الظروف التي كانت تعيش فيها فتياتنا عاملات الإشارة . فلم
يقم من أجلهن إن كان في المدينة أو خارجها أي مخبأ أو مكان مغطى ، لذلك كن
يحفرن بأنفسهن الخنادق الأرضية كل منهن لنفسها أو جماعياً بتغطية خفيفة لا
تتحمل ضغط اليد ، وكن يقمن فيه شهوراً كاملة وغالباً ما ينمن في نفس المكان
الذي كن يعملن فيه .

وعندما استطاع العدو في تشرين الأول تدمير كل مخابىء الأركان أصبحت
الظروف قاسية بالنسبة لحياة النساء على الضفة اليمنى ، فكن يعملن في الأقبية
الضيقة دون هواء ويسترحن تحت النجوم دون ستر ، ونسبن طيلة شهر هو
الماء الساخن .

كانت تمارا شمالكوف تعمل في فرقة باتيوك ، وكنت أعرفها شخصياً ،
وأصبحت تمارا شهيرة لأنها كانت تنقل الرجال المصابين بجروح خطيرة من
الخطوط الأمامية ، في الوقت الذي كان يبدو فيه أنه من غير الممكن رفع اليد
فوق الأرض خوفاً من إصابها بالنيران . في هذا الموقف كانت تمارا تقترب
زاحفة من الجريح وتتمدد بجانبه وتضمده ، وحسب درجة الخطورة كانت تمارا
تقرر ماذا سنعمل ، وإذا لم يكن بحالة تساعد على البقاء في المعركة كانت
تمارا تتمدد تحته ونجمع كل قوتها وتحمله على ظهرها ، ويزن الواحد منهم في
بعض الأحيان مرة ونصف من وزنها ، وعند عدم تمكنها من رفعه كانت تمده
على معطفها الواقى من المطر وتجره زاحفة نحو مكان أمين .

أنقذت تمارا شماكوف عدداً من الأنفس وكثيراً من الجرحى ظلوا أحياء
بفضلها وعليهم شكرها ما داموا أحياء ، وكثيراً ما يحدث أن ينقذ جندي ما دون أن
يعرف حتى اسم هذه الشابة التي أنقذته . ومارا حالياً طبيبة في كورغان
مامايف .

لم تكن البطولات التي تماثل بطولة تمارا نادرة في الجيش ٦٢ فأكثر من ألف
امرأة ظهرت أسماؤهن في لوائح الأوسمة في وحدات هذا الجيش من بين هذه
الاسماء نجد اسم ماريا اوليانوفا ، التي ظلت منذ بداية الدفاع في بيت الرقيب

بافلوف حتى نهايته ، ثم تاليا باخوموفا التي سحبت من ساحة المعركة أكثر من مائة جريح . ناديا جاركيس التي أنعم عليها بوسام العلم الأحمر . الطبية ناديا فاليمدوفا التي ضمنت تحت نيران العدو جراح عدة مئات من الجنود والضباط و آخرين غيرهم ، وقتلت وهي غارقة بدمها والضماد بيدها بجانب أحد الجرحى مع الحامية التي كانت تحت قيادة الملازم دراغان ، حيث ضمنت هناك عشرات الجرحى .

أصبح الموقف صعباً في النصف الثاني من تشرين الأول ويزداد تعقيداً يوماً بعد يوم في المدينة فالمسافة بين خط القتال الأول والفولغا ضاقت تماماً مما أجبر المجلس العسكري لنقل بعض وحدات الخدمة إلى الضفة اليسرى للنهر لتجنب الخسائر ، وتقرر إرسال النساء في المقدمة . لهذا عمم على جميع الضباط ورؤساء الوحدات بإعطاء الأوامر للنساء بالانتقال إلى الضفة اليسرى لأخذ قسط من الراحة والعودة إلى المدينة بعد بضعة أيام لاحقة .

وما أن وصل قرار المجلس العسكري لمختلف الوحدات في السابع عشر من تشرين الأول حتى وصل وفد عن العنصر النسائي في سلاح إشارة الجيش إلى مقر القيادة في اليوم التالي ، أي الثامن والعشرين من الشهر نفسه برئاسة فاليا توكاريف . وبعد استقبالي لهن طرحت فاليا علي بصراحة السؤال التالي :

- أيها الرفيق القائد لماذا تريد إبعادنا عن المدينة ؟ نحن نريد أن نموت مع الجميع أو قهر العدو البغيض ، لماذا تحدث تفرقة بين الرجال والنساء ، هل كنا سيئات في عملنا ؟ أنت كما تريد ، ولكن نحن لن ننتقل إلى الضفة الأخرى من الفولغا . وبما أن هذه المناقشة جرت في يوم ١٨ تشرين الأول وهو اليوم الذي نقلنا فيه مجدداً مركز القيادة لذلك أجبتهن بأن الموقف يجبرنا أن لا نستخدم لقيادة المعركة سوى وسائل الاتصال الخفيفة ولا يمكننا حالياً تنظيم كل وسائل الاتصال ونستخدم فقط أجهزة الراديو الخفيفة الحمل ، وهذا هو سبب إرسالكم للضفة اليسرى ، وما دما لا نستطيع تسهيل أماكن عمل لوسائل الاتصال الثقيلة .

قبلت رئيسة الوفد فاليا توكاريف الامتثال لقرار المجلس العسكري ولكنها ألحت على أن أعطيها كلمة شرف بإعادتهن إلى الضفة اليمنى عندما تتحقق الشروط الضرورية للعمل . وبهذا الأمل اجتزن الفولغا في ١٨ تشرين الأول ولكن في ٢٠ من الشهر نفسه أي بعد يومين وعندما كنا كريلوف وغوروف وأنا

نتصل هاتفياً مع الضفة اليسرى لم يتركنا بسلام وكن يقلن لنا « لقد استرحنا أيها القائد » أو « أيها الرفيق القائد متى ستعيدوننا للمدينة ؟ » أو « أيها الرفيق القائد متى تفي بوعدك الذي قطعته على نفسك ، فنحن وفينا بوعدنا » وفي نهاية تشرين الأول عدن مع وسائل الاتصال للمخابيء التي أقمناها .

إنني أتذكر دور الفتيات الكشافات اللواتي كن مميزات في ستالينغراد كماريا فيدنييفا وليزا جوريلوف وماريا موكورينا وأخريات غيرهن اللواتي كن يتسرين أكثر من مرة عبر حطام البيوت أو بواسطة المنخفضات وأنابيب المجاري ويجتازن خطوط العدو وينفذن إلى ما وراءه .

كتبت إحداهن في موضوع عملياتها داخل خطوط العدو « عبرنا عن رغبتنا في أحد أيام أيلول أنا وليزا جوريلوف بالقيام بالاستطلاع طوعياً وراء خطوط الألمان ، لذلك استدعينا إلى مقر الأركان على ضفة الفولغا وتلقينا هناك تعليمات مفصلة عن طبيعة عملنا وبأي شيء سنهتم في مهمتنا هذه .

علينا الاهتمام بمعرفة أين تتمركز أركان القوات الألمانية الموجودة أمامنا ؟ ومواضع الرمي ؟ وإلى أين يفكر العدو إخلاء سكان المنطقة التي يحتلها من المدينة ؟ ثم معرفة ما يجري في منطقة صوامع الحبوب وقطاع منخفض فيشنوفا ... إلخ .

إنني أتذكر خروجنا من بيت بافلوف في ليلة مظلمة من أيام أيلول . وبصحبتنا فولوديا بيغينوف ليلتنا التي دللتنا كيف نجتاز ساحة ٩ كانون الثاني التي اجتازناها بحذر شديد .

وصلنا إلى بيت بطابق مهدم ليس بعيداً عن فرع السكة الحديدية ، وهناك أمضينا ليلتنا في الخرائب القريبة .

ولتنفيذ المهمة ذهبنا في اليوم الثاني عن طريق المدينة وعند وصولنا إلى مقر القيادة الألمانية « كومنذاتور » حيث تجمع حشد كبير في المكان علمنا أنهم يستعدون لإرسالهم إلى مدينة كلاتش على الدون ، رأينا في شارع بوشكين عدداً من السيارات أمام أحد البيوت حيث كان يدخل ويخرج عدد من الضباط الألمان ، وقد علمت أن ذلك البيت هو مقر أركان إحدى الفرق ، وفي نواحي حمامات سورسكايا علمنا أن الضباط الألمان يأتون إلى هنا يوم السبت ويمسحون فيها وكنا نشاهدهم بشكل عفوي .

وعلى طريق المحطة صادفنا بعض السكان وأخبرونا بأن الألمان يتهيأون

للقيام بهجوم اعتباراً من مساء اليوم الذي كنا فيه .

قررنا الذهاب للمحطة لنرى ما يحدث هناك ولكن الألمان لم يتركونا ندخل وعلد وصولنا إلى روافع الحبوب علمنا من بعضهم أن الألمان يرسلون يومياً الحبوب بالقطار والسيارات إلى الغرب . ثم لاحظنا مواقع الرمي على طريق منخفض فينشنيوفينا بالقرب من مدينة كراسني أوكتيابر ثم رأينا هناك عنادا ، وكان جديداً علينا فعلى السكة الحديدية وليس بعيداً عنا وجدنا قطع المدفعية ذات الفوهات الست .

وفي كراسني أوكتيابر يوجد كثير من الألمان ولكنهم منعونا من دخول تلك البلدة .

وبعد أن جمعنا خلال يومين المعلومات المطلوبة عدنا ليلاً إلى ساحة ٩ كانون الثاني وبعد اجنيازها ، وصلنا إلى الطاحونة القريبة من بيت بافلوف وخرج الجميع فرحين بعودتنا ودعونا مباشرة للنزول إلى مخبأ الأركان تحت الأرض ، حيث استقبلنا من قبل القائد الذي أصغى إلينا بانتباه ووضع الإشارات على الخريطة » .

يقول بعضهم بأن مثل هذه المعلومات التي تأتي من مصدر واحد (من هاتين الكشافين) ليس لها سوى قيمة تكتيكية ضعيفة ولا ترقى لمستوى العمليات ولا تعتمد على سبب استراتيجي قوي ، ولكن لدى الجيش ٦٢ عدة مصادر وأشكال أخرى من طرق الاستعلامات وكنا نسعى لمعرفة ما يجري في مؤخرات العدو لكي نعرف ماذا ينتظرنا غداً والأيام التالية فبالنسبة إلينا نحن المدافعون عن مدينة ممدة عشرة كيلومترات على طول الفولغا ، وعمق ثلاثة إلى أربعة كيلومترات ، من الأهمية بمكان معرفة ماذا يجري في المؤخرات المباشرة ووراء خطوط دفاع العدو .

عندما كنا نحصل على نفس المعلومات من مصادر أخرى عندها تستطيع قيادة الجيش تحضير (طبخة) ضربة تشترك فيها المدفعية والهاونات والكاتيوشا لسحق العدو وإيادته وتدمير مواقع أركان الألوية والفرق المعادية ، وتوجيه الرمي إلى مواضع رمي العدو وأنواعه المختلفة من هاونات ومدفعية وقواف ، وتدمير مخازن العتاد والسلاح وأخيراً توجيه طيراننا الليلي لضرب تجمعات العدو والوحدات التي تستعد للانطلاق بالهجوم .



يعتبر الإتصال الجهاز الأول المثير للأعصاب ، فبغيره وفي حالة الحرب الحاضرة من المستحيل قيادة القوات . وخلال معارك الفولغا ، كنا نعطي أهمية خاصة للإتصال ليكون عملها دقيقاً غير متقطع وعليه كان يتوقف مصير الدفاع عن المدينة .

يمكن في القتال خارج المدن إيصال التقارير والمعلومات خلال ساعة واحدة من الخطوط الأولى إلى أركانات الفرقة أو الجيش أما في القتال في ظروف المعركة داخل المناطق السكنية فهذا غير ممكن .

يمكن للعدو خلال ساعة واحدة من القتال خارج المدن وخلال الليل التقدم من ٢ - ٣ كيلومتر ، ومع ذلك لا يمكن اعتباره خرق جبهة الدفاع الاقليمي . ولكن في المدينة حيث عمق خطوط القتال يقاس في بعض القطاعات ببضع مئات من الأمتار فتقدم على هذا المستوى يعني ذلك الكارثة التي لا قيام بعدها ، لذلك كان من الضروري التحري مقدماً ومعرفة نوايا وتفكير العدو لكي لا نسمح له القيام بضربة مباغتة على خطوطنا يكون لها نتائج وخيمة ومن أجل ذلك يجب أن يكون سلاحنا مستعداً في أيدينا والقوات مستنفرة بشكل تستطيع معه الرد في كل لحظة والاشتباك مع العدو ومقاومته ، بعمل سريع متلاحق . فهل يمكن حل مثل هذه المسائل دون إتصال جيد مع مصلحة الاستطلاع والمخافر الأمامية ومراكز مراقبة المدفعية ومواضع الرمي ومرابض المدافع الموجودة في الضفة اليسرى من الفولغا ، ومع قادة وحدات وعناصر الاحتياط والتشكيلات والمصالح التي تسند وتغذي المعركة ؟

يمكن للإتصال الجيد غير المتقطع بالراديو والهاتف والإشارات الضوئية والمنظم بدقة تحقيق سيطرة قوية عملياتية على القوات المقاتلة ، والوقاية من خطر هجوم محضر من قبل العدو وغالباً ما كنا نضرب الهجوم بالقرب من مواقعنا وحتى في أماكن تجمعه وبخاصة عندما تكون قواته ووسائله تستعد للإنطلاق وتخرج من مخابئها وتصبح في أرض مكشوفة ، فبدون إتصال لا يمكن قيادة القوات ولا قيادة الرمي أو توجيه الطائرات والوسائل الأخرى الداعمة للمعركة نحو القطاع المهدد وعلى العدو المنطلق للهجوم .

كانت مراكز قيادة الفرق والجيش موجودة على طول الضفة الفولغا اليمنى

وعلى مسافة تتراوح بين ٣٠٠ - ١٠٠٠ م من خطوط الدفاع الاولى . وقرب المنظمات القيادية بهذا الشكل يسمح لها وللقادة ، ولكل الأنساق متابعة سير المعركة ومعرفة التغيرات الطارئة على الموقف مباشرة واتخاذ القرارات في الوقت المناسب . لذلك فالإتصال المباشر يعتبر أفضل طريقة للتوجيه وأكثرها فعالية وسرعة . وهذا لا يعني رغم كل ذلك أن مراكز الراديو والهاتف فقدت أهميتها فعلى عكس ذلك كانت العناية بها متواصلة ، ولكن تنظيم عمل غير متقطع لشبكة الراديو والهاتف في تلك الظروف كان عملاً صعباً جداً .

في ظروف القصف الجوي المتواصل ، وبخاصة على مراكز القيادة والقطاعات في الخطوط الاولى يؤدي دائماً إلى احتراق الخطوط الهاتفية وانقطاعها . كما كان القصف يكبد وحدات الإشارة خسارات فاحشة . لقد قطع الجيش إلى ثلاثة أجزاء حتى الفولغا نفسه . وأخذت قيادة الجيش تتحمل بأن واحد القتال في ثلاثة قطاعات منفصلة الواحد عن الآخر . وبسبب كثافة نيران العدو على مقر قيادة الجيش كان من المستحيل وجود جهاز راديو قوي الاسنطاعة ، كما كان النهر خلف القوات يشكل هو الآخر حاجزاً قوياً أمام الإتصالات الآمنة .

كنت أرى علائم النرفزة والنوتر على وجوه كل من رئيس الأركان كريلوف ورئيس مصلحة الإشارة العقيد (ثم الجنرال فيما بعد) م . يورين ، والذي كان يمضي الوقت منكباً على خرائطه ومخططاته يجري فيها التغيرات الطارئة على الشبكات السلكية واللاسلكية ، ويضطر إلى تغييرها في كثير من الأوقات لكثرة ما يجري فيها من تغييرات . وتخيل الجديدة منها فأركان الجيش غيرت أماكنها خمس مرات ، وهذا يعني أن الإتصال أعيد تنظيمه خمس مرات تحت قصف مدفعي وغارات من الطائرات لا تتوقف .

لذلك لم يكن غريباً إرتباط فرقتين أو ثلاث بالتوازي على خط واحد ، ولكي يجري إتصال أمين ودائم أكملت كل فرقة إتصالها عن طريق إقامة مركز مساعدة بنم الإتصال فيها وتدور في دائرة مغلقة .

كانت فرق الإصلاح تعمل في المراكز الرئيسية للمراقبة ، وفي كل المراكز المساعدة وكقاعدة عامة كان بجانب شبكة الإتصال الهاتفية إتصال لاسلكي عن طريق (الراديو) . أما البحارة فكانوا يسعملون الأعلام كواسطة إتصال كما هو الحال في السفن الحربية .

جهاز المركز اللاسلكي (الراديو) التابع للجيش بجهاز إرسال ولاقط
بإستطاعة ضعيفة موجود بقرب مقر القيادة ، ولكن كنا نعتمد على المركز
المساعد الذي كان يحوي أجهزة ذات استطاعة قوية . وينمركز في الضفة
اليسرى من الفولغا على بعد عشرة كيلومترات من مقر أركان الجبهة وعن طريقه
كنا نتصل بأركان الجبهة والطيران والمؤخرات .

ويعتبر الإتصال اللاسلكي بون نرميز أفضل أنواع الإتصال فعالية وسرعة
ولكن من الضروري اتخاذ كافة وسائل الحيلة لئلا يكتشف العدو نشاطنا وننله
على أماكننا . كما أن الإتصال بالراديو هو واسطة إتصال أكيدة وفي بعض
الحالات كان هو الوحيد الذي تلجأ إليه وعلى سبيل المثال كان الإتصال مع الفرقة
١٣ يجري بالراديو فقط .

من الضروري التكلم أيضاً عن جزء من عمل الإشارة من المحتمل أن يكون
أكثرها تعقيداً في الجيش ٦٢ وهو وضع خط إتصال هاتفي في سرير نهر
الفولغا ، فلم يكن لدى الجيش أي عتاد خاص لهذه الغاية ، ورجالنا مجبرون
لتأمين الإتصال بين مقر قيادة الجيش والضفة الشرقية للفولغا استخدام خط هاتفي
عادي فعلى الضفة الأخرى الشرقية يوجد مركز أركان المؤخرات التابع للجيش
التي كانت تتولى قيادة القوات الموجودة على الأجنحة ومع المدفعية والمؤخرات
التموينية ، وعن طريق هذا المركز القيادي المساعد استطعنا ، وفي غمرة أقصى
وأقوى المعارك التي وقعت في تشرين الأول تأمين قيادة القوات التي كانت تعمل
في مركز المدينة وقطاع المصانع ومدن العمال .

يهبط الخط الهاتفي إلى قعر النهر إذا كان ثقيل نوعاً ما ، ولكن لا تمضي
سوى فترة ثلاثة أيام أو أربعة حتى يضطر العمال لإنزال آخر جديد غيره موبقيننا
على هذه الصورة حتى نهاية المعارك في المدينة .



ولنتحدث الآن عن رجال الاستطلاع فأني عمل أنجزه هؤلاء الشجعان . وكم
من الصفحات المشرقة التي كتبت في لوحات الشرف السنوية الأسطورية
للمدافعين عن ستالينغراد .

كان هؤلاء الرجال يعرفون كل شيء عن العدو ، مواضعه نواياه وقواه وإمكاناته

وهذا يعني تقديم تصور صحيح واضح لتطور المعركة ، والحصول على إمكانية اتخاذ قرار صحيح وملائم لكل حالة خاصة مما يؤدي إلى تحقيق النجاح في المعركة . وكان على مصلحة الاستخبارات هنا في ستالينغراد تجميع كافة المعلومات التي تسمح لنا بمعرفة نوايا العدو ومشاريعه ليس لليوم القادم فقط وما بعد أسبوع بل لأي لحظة كانت لئلا نؤخذ على حين غرة ، وليكون لدينا الوقت الكافي لاتخاذ التدابير الوقائية الملائمة للعمل وإحباط مقاصد العدو ونواياه ، وللحصول على هذه النتائج في ظروفنا المعقدة لم يكن سهلاً بل كان تقريباً مستحيلاً نظراً لكثافة ترتيب العدو القتالي اللامعقول ، وانتشار القوات الهتلرية في مختلف المناطق من شرطة القرى إلى الجستابو إلى المراقبة الدقيقة المسطرة على سكان القرى والمزارع الواقعة تحت احتلال الهتلريين وكذلك في أحياء المدينة التي كانت بيدهم ، كل ذلك كان يشكل عناصر رئيسية تعقد بشكل خطير مهمة وعمل كشافينا في القطاعات التي كان يمسك بها العدو .

في مثل تلك الظروف من الصعب تنفيذ استطلاع أرضي ، ويفضل عليه الاستطلاع الجوي ، ولكن تفوق العدو الجوي لا يمكن تجاوزه . ولم يكن يسمح لطائراتنا الاستطلاعية بالتحليق فوق ترتيب قتال العدو وقطعاته وتكرار هذا التحليق وأية مبادرة في هذا المجال تنتهي غالباً بخسارة الطائرة وطاقمها . يمر خط الجبهة في المدينة التي نشبت فيها المعارك لمدة خمسة أشهر تقريباً ، وفي نفس المكان عبر الأحياء السكنية وحتى عبر الطوابق والبيوت والاسلام وأقسام المعامل والمصانع ، لذلك كان من الضروري القيام باستطلاع خاص يختلف عن غيره .

كم كانت شاقة مهمة الكشافين الاستطلاعية ١ ومع ذلك كانوا يجدون الطرق والأساليب التي تضمن لهم تقديم معطيات صادقة وأمينية وفعالة للقيادة . وفي هذا المجال علي أن أخص بالذكر قائد مصلحة الاستطلاع في الجيش ٦٢ العقيد غيرمن ومساعدته السياسي فويكاتشيف وضباط مصلحة استخبارات الجيش الذين كانوا يعملون كفريق متكامل يملؤه حب التضحية والاندفاع وروح الجماعة ، وكانوا رجالاً جسورين ، والقذوة التي قانت كل كشاف في جيشنا بما ضربوه من مثل شخصية وقدرة عالية على حسن التصرف والعمل .

سررت بالعقيد غورمن منذ لقائي به لأول مرة . وارتحت له ، وأعجبت بعقله المركز الرصين وبقلة كلامه ، ولكن كل كلمة كانت تصدر عنه كانت

موزونة ، ولا يقدم أي تقرير عن المعلومات التي حصل عليها عن العدو إلا إذا تحقق بنفسه من المعطيات ، ونأكد من صحتها .

لم يكن غور من ينظر مطلقاً التعليمات التي تصدر إليه لكي يعرف أين ومتى عليه تنظيم الاستطلاع ، فغالبا ما كان يقدم التقارير عن النتائج التي توصل إليها بمبادرته الخاصة ، ويقدم المعطيات التي تهمننا . وكان يتحرى عن كل المعلومات الضرورية للقيادة ، ويتابعها ويحصل عليها مهما كان الثمن . كان غور من ضابط مخابرات كفاء ، يعرف خواص فن العمليات ويتواجد دائماً ويطلع على مجرى الأحداث .

أحرز كشافونا نجاحاً كبيراً في العمل في المدينة وكانوا يستطيعون العمل فيها وينفذون على الأقدام إلى مؤخرات العدو وخلف ترتيبه القتالي ، يراقبون العدو ويجمعون المعلومات عنه وكل ما هو ضروري للقيادة ، وبسبب كثافة نيران العدو في خطوط دفاعه الأولى ، كان من المستحيل اجتياز هذه الخطوط بمجموعات كبيرة أو بدوريات . فباستطاعة العدو اكتشاف مجموعة تعد خمسة عشر شخصاً لذلك كنا نرسل إلى مؤخراته مجموعات من الكشافين لا يتعدى أفرادها الثلاثة وحتى الخمسة ، يتقدمون بجرأة سلاحهم المسدسات الرشاشة والقنابل اليدوية ويحملون معهم منظاراً مقرباً وجهاز راديو ، ويتسللون إلى ثلاثة أو خمسة كيلومترات في خطوط العدو موهين جيداً ويراقبون كل ما كان يجري أمامهم .

كان هذا النوع من الاستطلاع يجري بشكل دائم فكان الكشافون ينفذون إلى مؤخرات العدو ليلاً عن طريق الأودية التي كانت تقود من الفولغا باتجاه الغرب وقد قدمت هذه الأودية ، التي حفرتها مياه نهر تساريستا خدمات جليلة لنا ، فعن طريقها كانت تمر مجموعات الاستطلاع ولكن المرور فيها كان صعباً للغاية وبخاصة في الليل تحت نيران متواصلة من العدو . لذلك كان على المارين امتلاك القلب الصلب الجسور والسيطرة على النفس التي لا تهتز أمام الصعاب مع صفات أخرى ضرورية لهذا النوع من المهمات ، والتي كان يتحلى بها كل كشاف في الجبهة . وليس كل جرىء يعبر عن رغبته في الذهاب للاستطلاع من الممكن إرساله إلى مؤخرات العدو . فالمنضمون لمجموعات الاستطلاع هم الأكثر جسارة وحسن تصرف ،

وأغلب هؤلاء كانوا من الكومسمول وأشخاص عقائديون عريقون أقوياء

الجسم والروح ، ينفذون بشجاعة مهماتهم بعيداً عن وحداتهم ورفاقهم وأقرب ما يكونون لقوات العدو التي تفوقهم بالعشرات .



كان نحت تصرف جيشنا خلال معارك المدينة من ثمانية إلى عشرة ألوية مدفعية فرقية وخمسة ألوية من المدفعية المضادة للدبابات واثنان إلى ثلاثة ألوية مدفعية من قاذفات الصواريخ (كاتيوشا) النابعة للحرس . والقسم الأكبر من المدفعية ذات السبطانة ، كانت موجودة خلال المعارك من أجل المدينة على الضفة اليسرى للفرات .

ولم تكن قوة المدفعية ثابتة بل متغيرة حسب الخسائر التي كانت تتكبدها ووسطياً لدينا في قطاع المدينة عشرة مدافع وهاون ٨٢ مم في الكيلومتر الواحد من الجبهة

وكنا نسعى قدر الإمكان لجعل قيادة نيران المدفعية مركزية ، وكان يقوم كل من المايجور جنرال بوجارسكي وأركان حربهم وعلى رأسهم العقيد خيجنياكوف بمجهود جبار في هذا المجال .

أظهر نيقولاي ميتروفانوفتش بوجارسكي بأنه حقيقةً مجدد في مجال استخدام المجموعات الكبرى للمدفعية للدفاع عن المدينة وبخاصة هجماتها المعاكسة بالنيران وهو يعتبر الأول في خلق مجموعات الهاون القوية ، نجح بوجارسكي في تنظيم قيادة نار المدفعية بشكل يستطيع معه نقل قيادتها بحرية وسهولة من قائد فرقة إلى قائد فرقة آخر وتركيز كامل المدفعية للقيام بضربة على أكثر القطاعات خطورة وتهديداً ، وكان مقتنعاً بسبب خبرته بأهمية تأمين دعم المدفعية بعمليات مجموعات الانقضاض ، ولم يتردد في تجهيزها بقطع ذات عيار كبير .

أصبح لدى قيادة مدفعية الجيش الأمكانيات التي تستطيع معها تركيز قيادة كل مدفعية فرق المشاة والألوية المدفعية المضادة للدبابات والألوية مدفعية الدعم ووحدات الهاون التابعة للحرس ، بيدها والسيطرة عليها ومثال ذلك ما حدث في نهاية شهر أيلول ، حيث أحبطت هجمات مدفعيتنا هجوماً معادياً كبيراً باتجاه المرتفع ١٠٢٠٠ وكذلك هجومه على وادي باني وكان هناك ٢٥٠ قطعة مدفعية

من عيار كبير على جبهة طولها اثنان إلى ثلاثة كيلومترات اشتركت في العمل .

قامت خلال المعارك التي دارت في تشرين الثاني في قطاع مصنع (باريكادي) مدفعية ثمانية فرق مشاة مع لوائي مدفعية مضادة للدبابات وثلاثة ألوية دعم مدفعية ، بالإضافة إلى لوائين من مجموعة مدفعية الجبهة بهجمات مفاجئة بالنيران الكثيفة على العدو .

جمعت قيادة المدفعية بشكل تستطيع فيه مجموعات وألوية المدفعية أن تكون عند الضرورة تحت تصرف قيادة مدفعية الجيش بكاملها . ولهذا السبب كانت كل وحدات مدفعية الدعم على إتصال مع قادة مدفعية الفرق وباتصال مباشر بأن واحد مع قيادة مدفعية الجيش يضاف إلى ذلك كانت ألوية المدفعية الطويلة التابعة للجيش تدخل في مجموعة مدفعية الجيش بعيدة المدى والتي تستطيع في كل لحظة إسناد هذه الفرقة أو تلك على أي محور كان .

ومع تنظيم الأركان لمجموعة مدفعية الجيش وخلق قوة نارية ذات استطاعة هائلة كان استخدام مجموعة المدفعية منظماً بأن واحد بشكل لا مركزي ومحضراً أيضاً لتدمير مجموعات العدو وحتى الأهداف المنفردة العدو .

ومثال ذلك استخدمت فرقة مشاة الحرس ٣٩ في المعارك من أجل مصنع كراسني أوكتيابر مدافع من عيارات مختلفة وصلت إلى عيار ٢٠٣ بالرمي المباشر وعلى مسافة ٢٠٠ - ٣٠٠ من الهدف وهذا ما حصل فيما بعد في مدينتي بوزنان وبرلين .

ونظمت ظروف معارك الشوارع تقنياً جريئاً لكل جهاز المراقبة وقيادة الرمي التابعة للمدفعية الموجودة في السرايا والفصائل ، وهذا يعني أنها كانت مع مجموعات الانقضاض .

كما استخدمت قطع المدفعية ذات العيارات الثقيلة ومدفعية الألوية المضادة للدبابات بنجاح في الرمي المباشر ضد الأبنية وعلى الشبابيك والأبواب المغلقة وعلى الأسطحه والسقوف ، وكانت القنابل المتفجرة تشكل خطراً جدياً على الأشخاص أما القنابل الثقيلة والحارقة من عيار ٤٥ فاستخدمت لتدمير تحصينات العدو القوية داخل الأبنية .

خرجت من المعركة أعداد كبيرة من قطع المدفعية بسبب الغارات الجوية على الضفة اليمنى للفلغا وفي المدينة نفسها ، كما تكبدت خسائر كبيرة من

مدفعية وهاونات العدو التي تمركزت على الضفة اليسرى من الفولغا .
ومن المعلوم أن المدفعية هي دائماً وفي كل مكان ضرورية لذلك لم نترك
احتياطاً من المدفعية في ستالينغراد نفسها سوى لواء مدفعية صاروخية ذات دفع
ذاني « قائف صواريخ على سلاسل من عيار ٨٢ مم » وكانت تحت تصرف
قيادة الجيش المباشرة وأدخلت عدة مرات في المعركة وبخاصة في اللحظات
الحرجة لإيقاف الهجمات الهتيرية .

وبقرار من قيادة الجيش أبقيت المدفعية الفرقة طويلة المدى على الضفة
اليسرى ، حيث تستطيع من هناك المناورة بالنار والحركة وبإمكانها النزود
بسهولة بالنخيرة دون عبورها الفولغا .



وجد في ستالينغراد عدد كبير من الوحدات المدرعة وأركاناتها ولكنها كانت
قليلة العدد من الدبابات وغيرها . فظروف معارك الشوارع لا تسمح باستخدام
العتاد المدرع بكثافة . ولم يكن لدينا الإمكانيات لنقل العتاد الثقيل عبر الفولغا .
ومع ذلك فالدبابات التي كانت لدى الجيش استخدمت بكل مردودها .
فالدبابات المعطوبة استخدمت كنقاط رمي ثابتة ، والتي لم تصب استخدمت كقوة
صدمة في الهجمات المعاكسة ، وعلى المحاور الصالحة لمرور الدبابات كانت
الدبابات تشكل مراكز للدفاع ضد الدبابات حيث تظمر في التراب وتموه وتوضع
في أماكن لا تبعد سوى ٢٠٠ - ٣٠٠ م من الخطوط الأولى بحماية المشاة التي
كانت هي الأخرى تظمر نفسها أو تتحصن في الابنية وتقاتل ضد المشاة التي
تقترب من المدرعات المطمورة . وتعتبر نيران الدبابات المتربصة والتي تعمل
بمجموعات في الشوارع والساحات وتطلق من مرابضها أو كمائناتها أكثر النيران
فعالية ضد العدو و ألياته ، وهكذا نجحنا في ١٤ و ١٥ أيلول في إيقاف قوى
هامة من دبابات العدو ، التي كانت تحاول القيام بغارة قوية وبضربة واحدة
لاحتلال المدينة . فقد استقبل هجوم العدو بنيران كثيفة قاتلة من الكمائن التي
نصبت لها واضطرت لتغيير اتجاهها بعد تكبيدها خسائر فادحة .

قذف العدو في تلك الأيام بأكثر من ٤٠٠ دبابة من مختلف الأنواع ضد قطاع
تدافع عنه ألوية مدرعة بقيادة العقيد كريتشمان والمقدم اودفيشنكو ولم يكن لديها

سوى ثلاثين دبابة ت ٣٤ ولوائى مدفعية مضادة للدبابات ، ومع ذلك ورغم التفوق المعادي عدديا من الدبابات لم نستطع هذه القوات أن تتغلب على دفاعنا وان ننفذ للفلوغا .

ولهذا ألغى العدو بعد الخسائر التي تكبدتها في معارك نهاية أيلول هجماته بالدبابات بمجموعات كبيرة وأخذ يقذف في المعركة بمجموعات قليلة من الدبابات برفقة المشاة ودعم المدفعية والطيران . وحتى في هذه الحالة التي يتفوق فيها العدو ناضل المدافعون عن سنالينغراد بنجاح .

ومتال ذلك ما حدث في ١٩ أيلول عندما حاول العدو الاستيلاء على المرتفع ١٠٢٠٠ (كورغان مامايف) بمهاجمته بالدبابات من ثلاث جهات من الشمال والغرب والجنوب بمجموعات تعد الواحدة منها ١٥ دبابة واشتركت في الهجوم أكثر من أربعين دبابة ، ولم يكن لدينا في ذلك القطاع سوى ٥ دبابات ت ٣٤ وثلاثة ت ٦٠ .

اشنبت دبابتنا الأولى مع العدو على المنحدرات الجنوبية الغربية من الكورغان بقيادة المساعد سميخوتفوف . وما كاد يرمي طلقة من مدفعه حتى قذفه العدو بوابل من نيران أسلحته كلها . انفجرت قذيفة معادية على بعد خمسة أمتار من دبابته ، ولكن سدة الدبابة لم يفقدوا صوابهم ، وأطلقوا طلقة ثانية على الدبابة الألمانية المهاجمة ثم طلقة أخرى على دبابة ألمانية أخرى فتصاعد منها الدخان واضطر السدة الهتلريون لفتح نوافذ دبابتهم والخروج منها وبذلك أصبحوا هدفا جيدا لرشاشاتنا ، بعد ذلك غيرت الدبابات الألمانية اتجاهها وأصبح المشاة الذين كانوا وراءها دون حماية ، فتوقفوا ولم يتقدموا إلى الأمام .

وهذا مثل آخر للمعارك التي دارت في الشوارع .

تلقت وحدة من لواء أودوفيتشنيكو مؤلفة من ثلاث دبابات وفصييلة من (١٨ شخص) المشاة ، أمرا بالقضاء على رماة العدو الذين تمربوا إلى بعض الأبنية في شوارع ريزوبوليكانسكايا وكيفسكايا . ويقود العملية قائد فصييلة الدبابات الملازم موروزوف ، وبدون أن يلفت أنظار العدو أنزل دبابته إلى السفح الشرقي من كورغان مامايف وعلى ظهرها المشاة واندفع بسرعة كبيرة وهو يطلق النيران من المسير على مسافة ٨٠٠ م من تلك الأبنية وعندما وصلت الدبابات إليها تزل المشاة أرضا ، وبقفزة واحدة أصبحوا داخل البيوت حيث وقع في أيديهم جميع من كانوا فيها من الرماة الألمان المتمركزين فيها ، وبعد إتمام

المهمة تلقى موروزوف الأمر بالنفوذ بدباباه إلى الحدود الغربية لبلدة كراسني أوكنياير للنصدي لهجوم معاد جديد .

ناورت دباباتنا في ذلك اليوم عدة مرات وتنقلت من موقع إلى آخر في ضواحي المصنع .

قُنف العدو في السابع والعشرين من أيلول ضد مصنع سيليكات بفوجي مشاة تقريبا مع ست عشرة دبابة وكان يدافع عن المصنع سدنة دبابات الحرس بقيادة العقيد كرتشمان وسبق الهجوم غارة جوية قوية ، وبعد الغارة أشعل رجال دباباتنا بارودا بالقرب من دباباتهم ليعطي دخانا ، وهنا إنطلقت الحيلة على الألمان وظنوا أن النار تشعل بدباباتنا لذلك اندفعوا بالهجوم . فتركهم رجال دباباتنا يقتربون إلى مسافة قصيرة وفتحوا نيران دباباتهم مع مدفعيتنا برمي مباشر على العدو المهاجم وأحرقوا إحدى عشرة دبابة عدوة .

كانت دباباتنا المعطوبة تصلح بسرعة ونعود إلى الخطوط الأمامية ولقد قدم عمال مصنع (نراكتورني) الذين كانوا في المعمل خدمات كبيرة لنا .

حدثني مساعدني قائد القوى المدرعة في الجيش فينروب والمكلف بإعادة اصلاح الدبابات المعطوبة :

« قطرت الدبابة ٢١٤ إلى مصنع كراسني أوكنياير وهي مثقوبة من جانبها بفذيفة خارقة ومحركها معطل . واستعد فريق ماكاروف لنصليحها وفي الوقت الذي أنهموا فيه نزع تصفيحها الخلفي ، بدأت غارة جوية ألمانية على المصنع وأخذت الطائرات تغرق المصنع بطوفان من القنابل والرصاص واضطر الجميع للاخباء تحت الدبابة ، ولكن الغارات تتابعت الواحدة تلو الأخرى ولم يعد بالإمكان العمل ، وهنا نظم فريق الاصلاح المراقبة الجوية ولم يعد العمل يتوقف ، إلا إذا كان المعمل بكامله تحت التهديد المباشر ، حيث يذهبون إلى العلاجىء .

تم إصلاح أغلبية الدبابات عدة مرات فالدبابة ٢١٤ نفسها مثلا أصلحت أربع مرات ، وعندما أرسلت إلى المصنع للمرة الخامسة ، قال ماكاروف :

- أيضا الدبابة ٢١٤ .

- أصبنا نحن بجروح فقط . أجاب قائد الدبابة معتذرا - وبمساعدتك سنعود للقتال

غدا ، ولكننا استطعنا تدمير عدد من الدبابات الألمانية وجرحنا هذه المرة .

من الواضح أنه لا يمكننا التعويض عن الخسائر بإعادة إصلاح الدبابات

المعطوبة فقط ، ففي ٥ تشرين الأول وصل إلى الضفة اليسرى كوحدة دعم اللواء المدرع بقيادة العقيد بيلوف ، نقل إلى المدينة وبالمراكب في صباح اليوم الثاني خمس عشرة دبابة عبر الفولغا .

اتخذت الدبابات مواقعها في اليوم نفسه على طول خط السكة الحديدية وشارع سكولبتورفايا وزجت في المعركة قبل أن يتسنى لها الوقت الكافي لطمر نفسها بالأرض . ومع ذلك توجت هذه المعركة بنجاح لا مثيل له ، ففي الساعة الأولى من المعركة دمرت ثماني دبابات ألمانية وقتل عدد كبير من جنود العدو .

خف القصف الجوي في وسط يوم ٦ تشرين الأول ، وكذلك نيران المدفعية على النهر لذلك أخذت دبابات لواء بيلوف الباقية على الضفة اليسرى تستعد للصعود إلى المراكب . ولكن ما كانت أول دبابة تسير بمركبها نحو الضفة اليمنى ونصل إلى وسط النهر حتى ظهرت الطائرات الألمانية المتقضة ، وأخذت تدور فوق الدبابة على ظهر المركب وترمي قنابل من عيار صغير عطبت إحداها دفعة المركب ومحركه وبدأ المركب ينحرف مع التيار ، ويقص المساعد بينوز زيبين قائد الدبابة حكاية مغامرته :

- أخذ السدنة في البداية يختبئون من الشظايا ونار الرشاشات تحت صدر الدبابة ثم تسمرنا جميعاً على أرض المركب ننظر الغارة التالية ، ومن حسن الحظ كانت الرياح شمالية غربية فاتجه المركب بحمولته الدبابة ت ٣٤ إلى الضفة اليسرى ، بعد ذلك نزلنا إلى البر مجدداً وقدنا الدبابة إلى المعبر .

بعد اجتيازها النهر أخذت مدرعات العقيد بيلوف مكانها في الدفاع في الجوانب الشمالية الغربية لمصنع وبلدة باريكادي .

صمدت في السابع عشر من تشرين الأول فرق جولوديف وغوريشني وغورييف . وطواقم دبابات بيلوف لمعارك قاسية ضد فرقتين من المشاة الألمان و ١٥٠ دبابة عدوة كانت تهاجم الجناح الغربي لمصنع باريكادي ، وصمدت جميع الهجمات بعد أن ترك العدو في حقل المعركة ١٦ دبابة محروقة و ٩٠٠ جثة ، وفقدنا مقابل ذلك ثلاث دبابات مع طواقمها .

نعتبر المعارك التي وقعت بين ١٤ - ١٧ تشرين الأول أشد المعارك ضرواً وكانت الفترة أيضاً أشد مراحل القتال خطورة وحدة . وذلك عندما رمى الهتلريون ضد مصنع باريكادي بمائتي مدرعة فتصدى لهم رجال دباباتنا وأخذوا

يقاتلونهم على طريقة الكمائن ويرمون من أماكنهم المحضرة سلفاً والمطمورة ، ومع ذلك لم يبق من مدرعات بيلوف سوى ٢٠ دبابة صمدت أمام قوى كبيرة بعد أن أعطبت ، وأحرقت عدداً من الدبابات الألمانية ولم تستطع كتلة الصدمة العدو المشكلة من خمس فرق الانتشار والهجوم نحو الجنوب على طول الفولغا وعلى جناح القوات الرئيسية للجيش .

اندفع الفاشيون في الرابع عشر من تشرين الأول نحو مصنع (تراكتورني) وكان علينا منذ الآن فصاعداً تصليح ألياننا على ضفة الفولغا وفي الأودية وبالوسائل المتوفرة الباقية لدينا وكانت الدبابات التي تنتهي من التصليح تتوجه حسبما تقتضي الضرورة تقتضي نقاط رمي قوية متحركة لدعم وحدات المشاة التي يزداد صمودها بالدبابات وتزداد ثقها وصلابتها بدفاعها . رغم تفوق العدو العددي بالدبابات إلا أنها كانت غالباً ضعيفة أمام دباباتنا وذلك يعود إلى استطلاعنا الجيد وتكتيكنا : فالدبابات التي لم نكن نستطيع الحركة تقطر بالدبابات الصالحة .

عملت دباباتنا دائماً في الهجمات المعاكسة مع المشاة ورجال الهندسة وبنارها التي تطلقها على مسافات قريبة ، كانت تخرق الجدران وتعزل الأهداف المهاجمة عن جهاز الدفاع المعادي العام ، وعند إنتهاء المهمة كانت تعود إلى مواقعها المغطاة والمموهة جيداً أو تبقى في مكانها ويعاد تمويهها .

كنا في أيام الهجوم على المدينة نستخدم الدبابات بمجموعات صغيرة وأقصى حد لها خمس دبابات فقط ، وليس ذلك لعدم توفر دبابات كثيرة لدينا في ذلك الوقت ، ولكن ظروف قتال الشوارع وبخاصة في مدينة مهدمة، تجعل عملية استخدامها بالكتل لا فائدة منه .

يوجه المهاجم في المدن اهتماماً خاصاً للتعاون بين المشاة والدبابات . والوحدات الرئيسية للتعاون في القتال خارج المدن هي على مستوى الفوج أي مجموعة المدفعية النابعة للواء وسرية الدبابات في حين تكون في القتال داخل المدن وعلى الغالب مؤلفة من فصيلة مشاة وفصيلة دبابات وفصيلة مدفعية .

كان يشكل كل شارع وكل مكان في القتال في المناطق السكنية حقلاً صغيراً للمعركة، ويتطلب من القادة انتباهاً خاصاً ودقيقاً وتنظيماً قوياً للتعاون بالقوة وحدها لا تقرر كل شيء .

عندما كان الألمان ينقدمون من المدينة في أيلول كانوا يمتلكون التفوق

العددي في الرجال والعناد بشكل ساحق . ولم يكونوا يشكون ، بأنهم في ضربة واحدة سيقذفون بنا إلى الفولغا وإني أعترف أنه في القتال خارج المدن ومع هذه النسبة المتفاوتة في القوى كان بإمكانهم تحقيق مخططاتهم واخترق دفاع الجيش ٦٢ بسرعة ما دام عمق هذا الدفاع بمجموعه لا يتجاوز ٣ - ٥ كم وفي القتال خارج المدن يكون احتواء هجوم معاد متفوق بعشرة أضعاف بالقوى وبدفاع متفاوت كالذي يستطيع أن ينظمه الجيش ٦٢ هو أمر مستحيل ، ولكننا صمدنا أمام القوى الرئيسية للعدو التي لم توقف ضرباتها طوال ثلاثة أشهر .

إن ما هو السبب ؟

استوعب محاربو الجيش ٦٢ بسرعة أكثر من العدو قتال الشوارع ونعلموا وبسرعة أفضل من العدو استخدام الأبنية وأقبعتها وأقفاص السلام ومدخن المصانع ، وفي الوقت الذي أصبحوا فيه أسياد فن قتال الشوارع ، أخذت قواعد الجيش وأركاناته والفصائل السياسية وخدمة المؤخرات تدرس وتنمي معارفها وتزيد في خبرتها في هذا النوع من القتال . ففن قتال الشوارع لدينا ، لم يكن يرواح في مكانه ، بل كنا نطوره ونحسنه . وكل جندي كان يفتش ويكتسب ويجد على العموم طرقاً جديدة للنضال تؤمن له النجاح .



لعب رجال الهندسة (النقيبون) دوراً خاصاً ومجيداً في قتال الشوارع الذي دار في سنالينغراد فهؤلاء الأبطال من رجال الحرب المجهولين كانوا يشكلون جزءاً لا يتجزأ من قواتنا فهم لم يكلفوا فقط بإقامة المعابر وتثبيتها وتشغيلها ، بل كانوا يحاربون أيضاً في الصفوف الأولى المقاتلة في الجيش .

كان بيد رجال الهندسة سلاحان رهيبان هما البلاستيك والألغام ، فعندما كان يظهر لنا أنه لم يعد بار كان الاقتراب من العدو كان رجال الهندسة يصلون إليه ويدمرونه بمنفجراتهم وعندما يصبح الوصول للعدو غير ممكن بالطرق العادية كان رجال الهندسة يتقنون الأرض وتحتها وينفذون عن طريق الممرات التي نشبه ممرات المناجم إلى داخل تحصينات العدو ثم يفجرونها .

تبدو في أيامنا الحالية أن كلمات (دهاليز أو ممرات المناجم) أو كلمة (النقب) أصبحت من الماضي ، ولكن في النضال ضد العدو لم ينرد رجال

الهندسة أن يضيفوا لفائدتهم خبرة رجال المناجم الروس المعتزين بأنفسهم والذين دافعوا عن سياستبول في منتصف القرن الأخير .

عشرات الدبابات فجرت بفعل الألغام التي زرعها رجال الهندسة والذين كانوا يشكلون جزءاً متمماً لمجموعات الانقضاض .
ونورد هنا بعض الأمثلة :

عندما قام العدو بهجومه باتجاه الجزء الشمالي من المدينة ، استطاع فريق من رجال الهندسة (النقابون) التابعين لوحدة ج . فاتياكين زرع حقلين من الألغام في قطاع وادي مكرايا ميتشكا . وفي هذا المكان تفجرت الألغام تحت ثماني دبابات عدوة .

جرب العدو في إحدى قطاعات فرقة الحرس ١٣ اختراق دفاعنا ليلاً ، وكان من الضروري التمسك بهذا القطاع ، وهنا قامت مجموعة من رجال الهندسة بقيادة الملازم أول ليقاندي بزرع ٤٠٠ لغم تحت نيران العدو ، وأدى هذا العمل إلى تكبيد العدو خسائر فادحة بسبب انفجار الألغام تحت المهاجمين ، وبفعل رماياتنا ، واضطر العدو أن يحول هجماته إلى قطاعات أخرى .

احتل العدو غرفة محول كهربائي يقع في إحدى مناطقنا الدفاعية وأخذ يستخدمه للمراقبة والرمي على مواقعنا ، وهنا تسلل خفية فريق من رجال الهندسة التابعين لفوج الحرس الثامن واقتربوا ليلاً من غرفة المحول، ونسفوا الغرفة بمن فيها من جنود العدو .

استطاع العدو ، إقامة نقطة استناد قوية ، في المنطقة التي كان يقوم فيها بناء نقابة البترول ومن هناك أخذ يضرب بنيرانه وادي (باني) على ضفة الفولغا ، وكان هناك رجم نرابي يمنع من تصحيح رماياتنا على البناء . بعد ذلك علم استطلاعنا بوجود أحد مستودعات البترول ، يقع في الساحة الداخلية لبناء النقابة وهو فارغ لا يحتله العدو ، لذلك قامت مجموعة من رجال هندسة فوج الحرس الثامن ، بحفر ممر تحت الأرض من وادي (دولفوي) حتى أسفل المستودع ، حيث فتحت ثغرة في مقره بالمتفجرات ، نفذ منها الرماة وسهلوا مكاناً لنقطتي رمي ومرصد للمدفعية ، وكانت نيران المدفعية والهاونات التي جلبت لهذه الغاية تغطي عمل هؤلاء ، وبفضل احتلال المستودع تمكنا من إزالة نقطة استناد العدو .

حفر رجال الهندسة من أجل التحضير للانقضاض على معمل السباكة في

مصنع « كراسني أوكتيابر » بالمنفجرات في قطاع فرقة الحرس ٣٩ ، ممرات ساعدتهم على الاقتراب من العدو وقذفه بالقنابل البدوية ثم قاموا بالهجوم على المعمل بنجاح ، واحتلوا نقطة اسناد العدو التي كانت محصنة نحصبنا قويا . كما كانت في قطاع الفرقة ٤٥ نقطة رمي عدوة نضرب موافعنا ، وننمركز في شمال معمل كراسني أوكتيابر، وعلى حافة المرتفع ١٠٢٠٠ وضع رجال الهندسة طنا من المنفجرات منصلا بفنيل متصل ورمود من أعلى المنحدر فوق الهدف المعادي ، فأدى الانفجار، الذي دوى إلى تدمير نقطة الرمي المعادية ، وكل الهنريين الذين كانوا فيها .

بمركز العدو في أقبية بناء ضخمة مثلث الزوايا ، بمنع قوائنا من احتلال كل البناء ، عندها قام رجال الهندسة في مجموعة الانقضاض بقيادة الملازم ب . ابفاننسكي ، ونسفوا القبو بمنفجرات وزنها ٢٦٠ كبلوغراما . وحسب قول الشهود من أسرى العدو ، أنه قتل أكثر من ١٥٠ هنلريا بسبب الانفجار .

من الطبيعي أن يعمل جنود الهندسة في صفوف كل القوات، وكانوا يشكلون معهم وحدة قتالية واحدة وفي بعض الأحيان كانت بعض الوحدات مؤلفة كلها من المهندسين ، ولدى هؤلاء ظهرت قوة الابتكار والبراعة بأجلى معانيها مع حسن التصرف ، فلم يكن هناك أي موقف، لم يستطع هؤلاء أن يتعاملوا معه ويتغلبوا عليه .

كان المهندسون يؤمنون بالممرات عبر النهر ، وينقضون على العدو المحتل للأبنية ويحصنون مواقع قوائنا ، ويبنّون الملاجئ والمخابئ الأرضية ونحصبينات الميدان .

ازدادت حطوة الموقف عندما اقترب الشتاء ، فالجندي المقاتل بحاجة للتدفئة ، والاغتسال ، لذلك ظهرت في المدينة الحمامات التي بناها المهندسون ، وكان المقاتلون يرسلون عبارات الشكر لزملائهم في السلاح وأصدقائهم المهندسين .

بعد صمت ضجيج معركة الفولغا الكبرى ، وبعد أن حوَصر جزء من العدو ودمر ، والجزء الآخر سقط أسيراً . وخرج الجيش من المدينة ليستعد لمعارك جديدة . ظلت الانفجارات تدوي زمناً طويلاً في المدينة ، عندما كان المهندسون يفجرون الألغام والقذائف وقنابل الطائرات التي لم تنفجر .

بدأ إعادة بناء المدينة المخربة وصناعتها منذ إنتهاء المعركة ، وقد أخذ المهندسون القسط الأول من هذا العمل العملاق بتنظيفهم المدينة من آلاف الألغام ، والقذائف الخطرة والنقايون (المهندسون) ، هم الذين هيأوا الظروف الأولية والضرورية للبدء مباشرة بأعمال البناء .



مر ثلاثون عاماً على النصر الكبير في الفولغا . وطيلة هذا الوقت ، ودائماً اعتبر نفسي مديناً للأبطال من رجال الأسطولين النهري والجوي الذين كانوا يصلون إلى الجيش ٦٢ في أحلك الساعات وأضناها . وبدونهم لم يكن بإمكان هذا الجيش أن يعيش أو يقاتل ، وقد قدم هؤلاء من بحارة الأسطول النهري وقادة طائرات PO - 2 المساعدة القيمة لنا نحن الذين كانوا في الجيش ٦٢ بمدافعهم ورشاشاتهم وقنابلهم واستنزفوا العدو بضرباتهم وأنهكوا قواه ، وكان البحارة يخلون الجرحى وكذلك أركانات الوحدات التي كانت تعود إلى الضفة اليسرى لإعادة تشكيلها .

تكلمت مسبقاً عن الموقف الصعب الذي وجد فيه الجيش ، عندما أخذه الفولغا . يحمل قطع الجليد الضخمة في طريفه إلى البحر . وكان الألمان يراقبون سير قطع الجليد . وعندما كانوا يلاحظون توقف بعض القطع ، والتي من الممكن أن تلتحم أو تلتصق مع غيرها بسبب الصقيع كانوا يفتحون النار فوقها بالهاونات ذات الفوهات السنة لكي تنفصل عن بعضها وتتابع سيرها دون أن تشكل قطعة واحدة يمكن السير عليها لنبقى معزولين عن قواعد تمويننا . وكان يبدو كل ذلك وكأنه لا مخرج منه ، ولكنه في الحقيقة لم يكن كذلك ، فعندما كان النهر يحمل قطع الجليد الصغيرة كانت المراكب البخارية : انجائيز - بوغاتشيف - سبارتاك - فانيفلوف والمراكب المدرعة ١٥ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ٦١ - ٦٣ نصل إلينا نحن الذين في سنالينغراد بجهد كبير ، من قطاع أخنوبا ، ومحطات التحميل في توماك منحدية الخطر ، ولكن عندما يأخذ الجليد بالتراكم ويصبح سميكاً ، تتوقف المراكب البخارية عن العمل والحركة . أما المراكب المدرعة ، فقد كانت تعمل ولكن بجهد كبير ونعب .

هل كانت هناك خسائر ؟ نعم بالتأكيد . وكانت كبيرة ، ولكن هذا لم يفت من

عزيمة بحارنا البواسل ، واني أحنظ بنكري ميخائيل ابغيموفش سوروكين القائد القديم لمجموعة المراكب المدرعة ، وقد أنعم عليه بسبب اشتراكه في معركة الفولغا بوسام العلم الأحمر . والنجمة الحمراء ومداليات (الأهلية والكفاءة) و « الدفاع عن ستالينغراد »

في خريف ١٩٤٢ ، كانت المأساة تهدد بحارتنا البواسل من كل جهة فقد ركز العدو نيرانا محكمة من مدفعينه على مراكبهم الصغيرة التي كانت دون حماية ودون دفاع . والفاشيون الوسخون ينقضون عليها بطائراتهم ، كما كانت الألغام تتناثر من حولهم وتهدهم بأخطار قاتلة .

كان م . سوروكين يقود مجموعة المراكب المدرعة في تلك الوقت . ورغم الظروف الصعبة من التجمد وسدود الجليد في النهر ، كان يفتح طريقه أربع مرات يوميا رغم نيران العدو ، وذلك في النصف الثاني من شهر تشرين ثاني ١٩٤٢ حتى الضفة اليمنى للفولغا وحتى ستالينغراد ، حاملا معه الذخيرة والإمدادات ويعود حاملا الجرحى .

ويذكر سوروكين كيف عبرت النهر إلى ستالينغراد . ليل ١٥ أيلول فرقة الحرس ١٣ روبيمستيف ، كل ليلة كانت المراكب تحمل منات الجرحى ، ومئات الأطنان من الإمدادات . وكنا نصل في بعض الأحيان للصدام مع العدو بنيران مدفعية مراكبه ، فقد ركزنا في المركب ١٣ حاملة للصواريخ والتي كان الجنود يطلقون عليها بحنان (كاتيوشا) . نربص المركب مرة في نقطة محددة من النهر خفية ومن هناك قذف الفاشيون برشقة قاتلة من قذائفه .

عندما احتل العدو في تشرين الأول مصنع نراكنورني ونفذ على الفولغا عزلت ثلاثة ألوية مشاة (١١٥ - ١٢٤ - ١٤٣) وجزء من قوى اللواء ١١٢ . عن قوة الجيش الرئيسية . وكان من الضروري تقديم المساعدة العاجلة لهم لذلك كلفت مجموعة المراكب المدرعة بمهمة تأمين إيصال الذخيرة وإخلاء الجرحى للقوات المعزولة .

وكتب سوروكين « بالرغم من وجود قطع الجليد الكبيرة في الفولغا كانت المراكب المدرعة تنفذ إلى قطاع رينوك . وسباستانوفكا .. حيث كانت القوات المعزولة عن الجيش موجودة . وكنا نحمل إليهم الذخيرة . كان العبور صعباً للغاية لأن الألمان يوجهون على مراكبنا نيراناً غزيرة من كل الأنواع ، وفي إحدى المرات فتحت دبابات ألمانية تكمن على الضفة اليمنى النار علينا . وكنا في

طريق العودة والجرحى جالسون ، أصيب مركبنا بعطب بفعل النيران الكثيفة وسقطت إحدى القذائف في قسمه العلوي ، فجرح الملازم الأول جيتوميرسك جرحاً بليغاً لوجوده في المكان ، وأصيب ساقه بفعل إحدى الشظايا ، وقتلت شظية ثانية (الجندية الأولى أ - ايملين) التي كانت متمسكة بالحاجز . ثم فقد المركب اتجاهه ، ولكن الملازم الأول جيتوميرسك نهض متغلباً على جراحه والدماء تنزف من ساقه والدماء تجري تحته وقاد المركب إلى محطة النزول .

أخذت مكاني في إحدى المرات على ظهر أحد المراكب التي كان يقودها فاسيلي كورتنكو في يوم مظلم جداً . وكان المركب يقوم برحلاته العادية اليومية نحو الضفة اليمنى في قطاع مصنع تراكورني مع غيره من المراكب ، كان الطقس ممطراً ومزيج من الثلج والمطر يتساقط علينا . ومدفعية المركب ورشاشاته كانت جاهزة للرمي . اقترب مركبنا ببطء من الشاطئ وكان في المقدمة . وعندما لامس الأرض قفز بحاران مسلحان بالرشيشات والقنابل اليدوية إلى الشاطئ للتعرف على الموقف وفيما إذا كنا في أرض صديقة أم عدوة ، وبعد بضع دقائق سمعنا النداء المعروف : « كل شيء جيد أنزلوا السلم » ، وهنا رأيت البحارة وبعض الجنود يحملون أحد الرجال ، ظننت في بادئ الأمر أنه جندي جريح ثم أسرع البحار ايفانوف ، وصعد السلم في الأول وقال لي : هل نقبل أيها الرفيق القائد هذه الهدية فنحن نحمل معنا أحد الفرينز .. » أمرت بوضعه في مركز طاقم المركب بحراسة شخصين مسلحين .

خلال ذلك أفرغ الجنود والبحارة حمولة المركب من النخيرة والغذاء، وصعد الجرحى وعاد المركب أدراجهم إلى الضفة اليسرى ، ولم يطلق العدو نيرانه علينا ، وقد نزلت إلى مركز الطاقم، وهناك علمت كيف استطاعوا القبض على هذا الرجل « ويطلقون عليه في هذه الحالة اللسان »، وكان ضابط صف وهذه قصته :

يجري عادة عندها كما هو الحال لدى الألمان ، توزيع طعام ساخن على الجنود ليلاً . وكان التموين بالغذاء لدى الألمان سيئاً . ولدعم معنويات جنودهم كانوا يوزعون عليهم كميات كبيرة من مشروبهم الوطني (الشنابس) وبعد احتساء بعض الكؤوس يتعثرون لسانهم ويدور رأسهم . ومن المحتمل أن الألمانى إنجذب بالرائحة التي كانت تفوح من مطبخنا . ولا يعرف أحد في هذه الليلة

الظلماء كيف جاء ضابط الصف هذا ومن أين مر ؟ واقترب من مطبخنا وقم قصته إلى طباخنا وهو يتمتع ببضعة كلمات ألمانية ، ولم يضطرب الطباخ الروسي عندما وجد أمامه جندياً ألمانيا وأوهمه بنلبية طلبه وملاً ملعقة كبيرة بالأكل وضرب الألماني على رأسه بها . ظهر على الفريتز الانهيار لأنه ذهب ليطلب الحساء فوجد نفسه أسيراً . وكان يرتعش كلياً عندما شاهد الشرائط المتدلية من قبعات بحارتنا وأعتقد أنه سقط بين يدي المفوض الأسود أو الموت الأسود . كما كانت دعابة أجهزة الدكتور غوبلز تنعت بها بحارتنا .

يمكن الكتابة كثيراً وطويلاً عن مآثر بحارتنا على الفولغا ، حقق هذا الأسطول الصغير المستحيل تحت قيادة أمثال نائب الأميرال د . روكاتشيوف ، ب . فوروبيوف وضباط أمثال م . سوروكين وكم من المرات أغلقت مراكب هذا الأسطول بنيرانها الثغرات في جبهتنا والتي كان من الممكن أن تسرب العدو من خلالها بين مواضع قنالنا المتقطعة . وقذفت مدفعية المراكب « اوسيكين تشاباييف ، شتورمي ، كيروف ورونييف آلاف القنابل على رؤوس الغزاة .



تبدأ الجبهة بالنسبة للطيارين حيث توجد قواعدهم . لأن العدو كان يهاجم دون توقف مطاراتنا في محاولة لاعتراض طائراتنا أثناء محاولاتها التحليق منذ أن ننطلق لمهمتها . وكانت تدور معارك جوية فوق مطاراتنا وعلى المسافة من المطارات حتى ستالينغراد وفوق ستالينغراد ، فالطيارون ليلاً ونهاراً هم في قتال ، ففي النهار يصدون الغارات الجوية على قواعدهم . وفي الليل يساعدوننا بحملهم الذخائر لنا، وفي الإغارة على مواضع العدو .

بعد الحرب تلقيت كثيراً من رسائل الطيارين الذين كانوا قد تعاونوا مع الجيش ٦٢ وأورد هنا إحدى هذه الرسائل :

« كان ذلك في تشرين أول ١٩٤٢ معارك متواصلة لا تنقطع بضراوة لا شبيه لها . كانت تهتز لها الأرض والسماء . ليس في النهار فقط ولكن في كل ليلة منذ غروب الشمس حتى ظهور النهار ، كانت طائراتنا تحلق دون إنقطاع ، وتقذف بحمولتها القاتلة رؤوس الغزاة . كان من الواجب قصف بعض الأحياء والشوارع ، بعض البيوت حيث كان الألمان ينعركزون وحيث تكون أركاناتهم

موجودة، كانت القوات الأرضية تخوض معارك القتال القريب . وأقل خطأ من طواقمنا ، يمكن للقنابل أن تضرب قواتنا .

على الأرض كان هناك الجحيم. أصوات الانفجارات لا تتوقف ليلاً ونهاراً ، كانت سماء الليل فوق ستالينغراد تضج بطائراتنا وطائرات العدو ، والقنابل المضيفة التي كانت تشتعل ببطء في الجو ، تضيء كل ما حولها ، وفي مجالها الضوئي كانت الطائرات من كل نوع تجول في مختلف الاتجاهات وعلى مختلف السرعات . كم من المرات كان على الطيارين أن يناوروا لكي يتجنبوا بطائراتهم سحب اللهب المختلفة . مجتازين آثار غاز العادم المنطلق من طائرات أخرى ، كما كانت تحدث اصطدامات بين الطائرات في الليل . وعندما احترقت مستودعات البترول الضخمة على ضفاف الفولغا بفعل قنابل العدو ، أخذت ترسل إلى عنان السماء أعمدة اللهب والدخان حتى علو ألف متر ، وكان من الصعب التنفس والطائرات التي كانت تحلق في الجو كانت ترتفع في الهواء بفعل التيارات الصاعدة .

في ظلام إحدى ليالي تشرين الثاني تم إنتقال قواعد طائراتنا من نوع ou-2 من قطاع المجرى الأوسط لاختوبا إلى مطار أعد على عجل ، وبعد هبوط طائراتنا كنا نتجه بحذر نحو ومضات المصابيح الكهربائية التي كانت ترسل لنا إشاراتها لهدايتنا إلى الطريق السوي . هناك شيء غير عادي لفت أنظارنا سيارات نقل ذات حواجز عالية ، صناديق مغطاة بالأغطية تقترب من الطائرات . ولم تكن قنابل كما كنا ننتفع ، ولكن بعض الأشياء الطويلة المتراكمة . وبعد جهد كبير بذله الفنيون تمكنوا من تثبيتها في حاملات القنابل في الطائرة .

تبين لي بعد ذلك أن هذه الأكياس التي كانت بطول حوالي مترين وقطر متر ما هي إلا رزم من الألغام والقذائف والطلقات والأغذية ... إلخ وكان علينا إسقاط هذه الأكياس المعلقة في حاملات الطائرات من نوع ou-2 إلى سيارات نقل جوية . كانا كيسين يحوي كل منهما ١٠٠ كغ . لم تكن الحمولة كبيرة ولكن شبكتها وشكلها لا يوحيان بالثقة . فإذا ما فتح الكيس في الجو أو عند الإقلاع ستسقط الطائرة كأنها حجرة ، وكل المقومات الدافعة لطيران الطائرة ستندعم . بعد توثيق الحمولة جمع الطيارون في مركز القيادة في مخبأ نوعاً ما تحت الأرض ويحتوي على أسرة في جوانبه وخرائط معلقة . ملاح اللواء المقدم

موركوفكين . كان يجري الحساب ، وعلى مخطط المدينة توجد قطع ضيقة من الأرض : ثلاثة مواقع عسكرية تقطع المدينة محددة بقلم رمادي .
حدد قائد اللواء المهمة : فعلى أصغر الأقسام يجب رمي أكياس الغذاء ويجب أن يكون مرورنا إعتباراً من جزيرة زايتسيفسكي ، وإسقاط الحمولة على ارتفاع ٦٠٠ م وسنشتعل النيران في الحفر على الضفة المنحدرة لل فولغا والتي ستكون كنقاط علام .

قمنا مرة ثانية بفحص أربطة الأكياس ، فوجدناها كلها مربوطة جيداً . وباستطاعتنا الإقلاع . وبعد التحليق كان من السهل مسك الاتجاه فأمامنا بخط مستقيم كانت سنالينغراد المظلمة والتي يمكن تمييزها بلهب الحرائق البرتقالي .
صعدنا بعد الاقتراب من الفولغا حتى ارتفاع ٦٠٠ م . ها هو سطح النهر البلوري . كان كل إنتباهنا مشدوداً نحو الشاطئ المقابل من النهر ، وعلى الشريط الأبيض الضيق بين الماء والشط ذي الذراع بجانب المنحدر ، أشعلت ثلاثة أضواء ترى فقط من النهر والضفة اليسرى ولا يستطيع العدو أن يراها .
حلقتنا فوق جزيرة زايتسيفسكي . ثم إنعطفت لكي أقود الطائرة إلى المكان الذي كان علي أن أسقط الحمولة فوقه ، كانت يداي موجودتين تتلمسان في غرفة القيادة أزرار الأمن التي يجب أن أسحبها لفتح مزالج حاملات الأكياس .
اجنازت الطائرة خط الشاطئ ونركت الفولغا وراءها والنار في بعض الأقسام كانت نحت الطائرة . ولكن لم نكن نرى النقطة حيث يجب إسقاط الحمولة عليها . والآن وعلى ارتفاع ٦٠٠ متر يمكننا فقط تقدير ، كم كان صغيراً هذا الشريط من الأرض على طول الفولغا وعلى بعد قليل حيث كنا نشاهد اللمعان وانعكاسات النار . كانت الخطوط الأولى . والأكياس ؟ أين يجب إسقاطها ؟ لقد إغناد ملاح الطائرة أن يسقط القنابل . وكم كان سهلاً في الوقت الحاضر لو كانت حمولتنا المعلقة على أجنحة الطائرة هي قنابل وسنصيب الهدف حتماً ، ولكن المعلق حالياً تحت الأجنحة كان أكياساً غير منتظمة ، ولا شيء من الوسائط الفنية ، ومسألة سقوطها سيكون متعلقاً إلى حد كبير بسرعة الرياح وقد خلق العدد الكبير من الحرائق الأسطورية عدداً مضاعفاً من التيارات الجوبة بحركتها المتقلبة . ومن الطبيعي أن لا تتوافق مع إتجاه الريح الذي على أساسه يمكن القيام بالحسابات وإسقاط الحمولة .

سامنا ، لا تسقط الحمولة إنتظر قليلاً ، قلت للملاح ، سأنعطف نحو اليسار

وساعة اليد أمامي وهناك وعلى نفس ارتفاع الطائرة وعلى بعض النقاط غير المرئية كانت نقاطم أثار شرارات ضوئية . فى هذه اللحظة اسنطعنا أنا والملاح وفي قلب الحرائق تميز الهيكل المعروف للطائرة 011-2 بشكل واضح ومرت لحظة ، وإذ نفطتين انفصلان من الطائرة ، إنهما كيسان وفوقهما إتفحت قبان بيضاوان .

- أنظر هناك مظلات،صرخت بالملاح . ثم قمت بانعطاف حاد فوق الموقع وفوق النقطتين البيضاوين اللتين كانتا نهبطان بهدوء .

ولكن القبنين اجتازتا المنحدر ، ثم حلقتا بعيدا عن الشاطئء ثم غبرنا الانجاه وسقطتا فى الفولغا ، وبهذا لم تسقط تلك الأكياس لدينا ولا لدى العدو ، إنها رحلة دون فائدة .

- اذهب إلى هناك وانعطف نحو النيران - صرخ الملاح - واستعد . سنسقط الحمولة على ارتفاع مائتي متر . وسنضعها بالتأكد فوق الهدف لدى جماعتنا . كان تحننا وعلى الضفة العالية منحدر ، لم نكن فى ذلك الوقت على ارتفاع مائتي متر ، ولكن على ارتفاع ١٥٠ م . هناك بعض النقاط المضئية بتراقص نحو الطائرة . فى الأسفل قطعة مظلمة من الأرض حفرنها القذائف . فى الوقت المناسب إننزع الملاح مقاتيح الأمن . وعندما تحررت الطائرة من الأكياس ففرت إلى الأعلى ولكنني أعديتها إلى وضعها ثانية.نحن الآن فوق خطوطنا وكلما قل ارتفاعنا أصبح من الصعب على العدو أن بصيونا وانجها نحو الفولغا لقد نسي الملاح كل ما تبقى . ولم يركز إنبياهه على قبني المظلتين اللتين كاننا واضحين داخل الحرائق سقطت المظلة الأولى والثانية وراء بعضهما على الأرض المنماوجة من الضفة العالية غير البعيدة عن المنحدر « توقفنا ووضعناهما فى الوسط » ، صرخ الملاح : « هكذا يجب أن يكون الإسقاط على مانه من ارتفاع » .

كانت الطائرة تحلق فى ذلك الوقت فوق الهضبة المنحدرة من الضفة . وكنت أريد أن أحرر مقبض المكنسة لكي أنقض من الأعلى نحو الأسفل، حتى صخرة الماء ، ولكي أنمم طريقى حسب المخطط . رأيت فجأة باقة من الطلقات الخطاطة نرمى من قمة الضفة فى ساحة الإسقاط كان الألمان يرمون بخط مستقيم نحو الفولغا ، ماذا يجري هناك ؟ لماذا يرمون ؟ وعلى صفحة النهر المنظمة كانت هناك طائرة تحلق بخط مستقيم بانجاه نقاط النيران الثلاثة ، وعلى

مستوى منخفض جدا وبسرعة البرق اجنازت الشريط الأبيض من النهر .
واخفت سريعا في الظلام ، وفي هذه اللحظة انفتحت قبتا مظللين بيضاوين
ووصلنا بسرعة للأرض ونسمرنا بين النيران .

- أي شيطان هذا الذي أسقط حمولته على هذا المستوى المنخفض . من هو ؟
سألت الملاح . كانت هذه رسالة الطيار فوروبوف وملاحه سافونوف .

يتتابع الجليد على الفولغا دائما ودائما وفي كل ليلة كانت طواقم الطائرات OII
2 - نحلق عبر الفولغا لإسقاط الحمولات من الذخيرة والأدوية والغذاء . وكانت
نسقط بمظلاتها بشكل جيد بالقرب من نيراننا .

وكثيرا ما كانت هذه الطائرات تعود وهي مملوءة بالثقوب . وفي المطارات
كان يجري إصلاحها حالا ونعود لمهامها الليلية . وقد اكنسب الطيارون بسبب
إسقاطهم الجيد المهارة التي اتصف بها مهرة الرماة .



كان الألمان في هجوم صيف عام ١٩٤٢ يتمتعون بتفوق جوي واضح
فحوالي ١٥ أب ركزوا باتجاه ستالينغراد ١٢٠٠ طائرة قتال . وقد كان لقوات
الدفاع الجوي دور هام واستثنائي في صد هجمات هذه القوة .

لقد أحصينا أنه بين تموز وحتى تشرين الثاني ١٩٤٢ نفذ طيران العدو
(١٣٣٠٠٠) طلعة طيران عبر الحدود العملياتية للدفاع الجوي وعلى طول
الجبهة الألمانية - السوفيتية ، ومن بين هذا المجموع العام سجل (٦٦) ألف
طلعة فوق قوى الدفاع الجوي في ستالينغراد ، أي نصف المرات التي تم فيها
اجتياز الحدود العملياتية للبلاد .

نكون الأرقام في بعض الأحيان معبرة ، وحسب العدد المنزأيد من طلعات
طيران العدو يمكن معرفة شدة كثافة المعارك التي دارت أمام ستالينغراد وفي
المدينة نفسها . في تموز نفذت ٢٤٢٥ طلعة باتجاه ستالينغراد في آب ١٤٠١٨
طلعة في أيلول ١٦٧٥٤ وفي تشرين الأول ٢٥٢٢٩ وفي تشرين الثاني ٧٥٧٥
طلعة .

كان عبء الدفاع الجوي عن ستالينغراد يقع على عاتق قوات قطاع فيلق
الدفاع الجوي عن المدينة . وإلى وحدات ووسائل الدفاع الجوي للجبهة

والجيش . أما قوى القطاع فتتألف من فرقة الطيران المطارد (١٠٢) وتتألف من ٦٠ طائرة مطاردة ، و ٥٦٦ قطعة مضادة للطائرات ٤٧٠ رشاش مضاد للطائرات ١٦٥ جهاز للأنوار الكاشفة ٨١ بالون لعمل المدود الجوية .

أما الدفاع الجوي في المدينة فكان منظماً على شكل دائري و مركز على الأهداف ذات الأهمية كمصانع تراكتورني ، باريكادي ، كراسني أوكنيابر . المركز الكهربائي للمدينة - مستودعات البنرول - قطاعات بيكيتوفكا ، وكراسنو أرميسيك .

قامت الطائرات الهتلرية بأول غاراتها الكثيفة على المدينة في ٢٣ آب . وكانت هذه الضربة توطئة للانقضاض على المدينة واستهدفت سحق مدفعيتنا المضادة للطائرات التابعة للقوات المدافعة ، وتدمير المدينة تدميراً كاملاً ظلت الطائرات الألمانية تحلق فوق ستالينغراد بشكل متواصل في الوقت الذي كانت فيه قوات فون باولوس تندفع من فيرتيانشي على النجوم الشمالية للمدينة أما قوات فون هوت فكانت تشق طريقها في الضواحي الجنوبية .

كان العدو يقصف بمجموعات ١٠ - ١٥ طائرة دون هودة مصنع تراكتورني . وفي النصف الثاني من اليوم كانت أكثر من أربعمئة طائرة تغطيها المطاردات تنشر آلاف القنابل على مركز وجنوب المدينة .

وبعد الغارات أخذت أعمدة الدخان والغبار واللهب ترتفع في سماء المدينة وقد احترقت المعامل - المصانع - البيوت السكنية - المدارس - المستشفيات - المناحف المسارح . الأبنية الخشبية . مئات من السكان المدنيين قضوا نحبهم تحت أنقاض المنازل وبسبب اللهب . كان العدو يريد محو المدينة من الوجود وأصبحت السماء مضاءة بكاملها في الليل .

في ذلك اليوم أسقطنا العدو ١٢٠ طائرة في قطاع ستالينغراد . وبالرغم من التفوق العددي الكبير للطيران المعادي فقد اشتبكت مطارداتنا مع العدو بأكثر من خمس وعشرين معركة جوية بالمجموعات ، ولم يكن اليوم الثاني هائلاً وظل الوضع على هذه الحال حتى ١٩ تشرين الثاني ، وهو تاريخ قيام قوات الجبهات جنوب - غرب الدون بهجومها الكبير الحاسم . ونستطيع أن نتعرف على ذلك عن طريق عدد الطلقات للطيران المعادي .

أخذ في أيلول ينزaid العبء الذي وقع على عاتق المدفعية المضادة للطائرات . فكان عليها حماية معابر الفولغا . ونقل قسم من بطارياتها إلى

الضفة الشرقية . وحسب نصاعد حدة المعارك في المدينة أصبحت مواقع سدنة الدفاع المضاد للطائرات هي نفسها مواقع دفاعهم الأرضي .

عندما نفذ الفيلق المدرع ١٤ المعادي في ٢٣ آب على الفولغا في قطاع لوباشنكا . فالمدفعية المضادة م/ط هي التي صدت هجوم الدبابات . ودمرت سرايا اللواء المصاد للطائرات ١٠٧٧ بقيادة المقدم ف . غيرمان خلال معارك ٢٣ - ٢٤ آب حوالي ٨٠ دبابة ، من الدبابات التي كانت تحاول توسيع الثغرة نحو الفولغا ودمرت (١٥) سيارة نقل مشاة وأسقطت أربع عشرة طائرة .

ولما بدأت المعارك في سنالينغراد أصبحت مهمة المدفعية المضادة للطائرات مهمة معقدة حيث ضاقت نقطة مراقبة طائرات العدو من قبل مراكز الإنذار التابعة للمدفعية م/ط عند اقتراب طائرات العدو القادمة من الغرب والحبوب ومن ثم من الشمال إلى بضعة كيلومترات ، كما ضاقت أعماق خطوط الفئال ولم بعد تغطي سوى ٥ - ١٠ كم في حين أن الحبهة امتدت إلى مسافة ٦٠ - ٧٠ كم وأن قيادة مثل هذا الدفاع واعتبارا من مركز واحد أصبح غير ممكن ، فطائرات العدو لم نعد نكتشف إلا في المشارف الغربية من القوات ولم يعد أي شخص يستطيع إنذار الدفاع م/ط قبل ظهور الطائرات بزمن كاف .

بعد أن ركز العدو إنبياهه في أبلول على معابر الفولغا ، اقتضت الضرورة تشكيل مجموعة خاصة من مدفعية م/ط لصد الغارات على محطات الإنزال والإرهاب . وكذلك عن المراكب البخارية والقاطرات النهرية وعلى ضفاف النهر . وقد بذل العدو في نفس الوقت جهدا كبيرا لسحق مدفعينا المضادة وثلاث القنابل التي كانت تتساقط على المدينة كانت موجهة لسحق المدفعية م/ط . ولم يكن من السهل الاحتفاظ برباطة الجأش عندما نرى عددا من الطائرات تنقض عليك ونرش الأرض بطلقات رشاشاتها مع وابل من القنابل ، والطريقة المثلى والوحيدة للسلامة هي الرد على النار بالنار دون الوقوف ولو ثانية ، ولقد أظهر رجال مدفعينا المضادة للطائرات أنهم بوسائل وجنود مقدامون .



يصبح الدفاع عن المدينة مستحيلا دون اتصال مع الضفة اليسرى، حيث منها نصلنا الذخيرة والغذاء والوسائل الضرورية لقيادة العمليات .

وفي مختلف الاوقات كانت الضفة اليمنى متصلة باليسرى عن طريق معابر ثلاثة :

(١) - المعبر الأوسط (المركزي) : استخدمت فيه المراكب ذات المحركات ، وكان هو الأقوى من بين المعابر . ويصل محطة الإنزال المركزية للمدينة مع كراسنايا سلوبودا وهو أفصر الطرق ولكن العدو . مع الأسف . استطاع اعتباراً من ١٤ أيلول أن يجعل هذا المعبر تحت نيران أسلحته من كل نوع لذلك كان علينا اعتباراً من النصف الثاني من أيلول إلغاؤه والاستغناء عنه .

(٢) - معبر اسكودرا ، ويخدم القطاع الشمالى من المعركة . وفي أوقات مختلفة كانت تمر من هناك الأتواف ، والمراكب المصفحة والبخارية ومن هناك كانت الحملات تأخذ طريقها نحو قطاع رينوك ، وسبارنانوفكا ، وكذلك باتجاه محطات الإنزال التابعة لمصانع تراكتورنى ، باربكادي ، كراسنى أوكنياير .

(٣) - المعبر ٦٢ وهو المعبر الرئيسى لجيشنا وينبعه في الضفة اليسرى مجموعة من محطات الإنزال في مصانع كراسنى أوكنياير ، وباريكادي . وعلى أرصفة هذه المحطات ، كنا ننقلى الحملات القادمة من سكودرا وكوماك ومن موبين وأعالى اخنوبا . وعندما اقترب العدو من منطقة المصانع لم يعد بإمكاننا استخدام هذه المحطات مطلقاً لاستقبال التبار الرئيسى للحملات ، وإخلاء الجرحى إلا لبلا لأن العدو أخذ يوجه عليها غاراته الجوية الكثيفة ورميات مدفعيه . لذلك كنا نستخدم أربع محطات واقعة جنوب منخفض بانى لاستقبال الامدادات والتعزيزات والحملات ، ومن جهة أخرى لإخلاء المجموعة الرئيسية للجرحى .

سببت نيران مدفعية العدو وهاوناته المتواصلة وغاراته الجوية الكثيفة خسارات كبيرة في أفراد الطواقم الخاصة المكلفة بحميل ونفريغ الحملات والطواقم المنظمة للعمل . كما تمرت المحطات والوسائط العائمة ، خسر الفوج ٤٤ المخصص بإقامة الجسور والذي كان يستخدم هذه المحطات بين ٧ - ٩ تشرين الأول ٣٦ عنصراً و ٩ مراكب بخارية و ٧ أطواف و ٣٥ مركباً مجهزاً بجهيزات خفيفة ، وهذه الوسائط غرق بعضها واحترق بعضها الآخر علماً أنها لم تصب خلال عبورها وإنما أصيبت خلال توقفها للتحميل أو عند رسوها في المحطات النهرية .

نقلت في ٢٨ تشرين الأول قاعدة الاسطول النهري والنقطة الرئيسية للنحميل

إلى سبريدنيايا اختوبا بعد خسارتها للوسائط الراسية قرب المحطات ، وقد خرج أغلب هذه المراكب من الخدمة بسبب تعرضها للألغام والقنابل ، ولكن أعيد إصلاحها كلها وأعيدت للعمل .

أجبرتنا السدود الجليدية في النهر في ١١ تشرين الأول على نقل النقطة الرئيسية للتحميل ، وقاعدة الأسطول إلى الذراع المائي الأيسر للفولغا (كوربانكا) قرب نوماك .

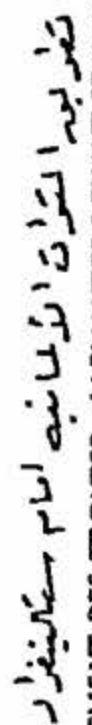
وبهذا تم تغيير قاعدة المعبر الرئيسي للجيش ثلاث مرات على الضفة اليسرى من الفولغا مما كان له انعكاس سيء واضح على فعالية وعمل وسائط العبور .

وكانت نعمل بالإضافة إلى المعبر الرئيسي للجيش محطة المراكب المرتبطة بأركان قوات الهندسة في الجيش وكانت خلعنها مؤمنة من قبل طواقم تابعة لفوج الهندسة الآلى ١١٩ التابع للجيش على الضفة اليمنى للفولغا ومن فوج الهندسة ٣٢٧ التابع للجيش على الضفة اليسرى ، كما هنت الطوافات لنقديم المساعدة على المعابر الرئيسية لنقل التعزيزات والذخيرة والغذاء وإخلاء الجرحى ، وكذلك للنقل في حالات الطوارئ عندما لا تستطيع الوسائط العائمة الآلية العمل .

قسمت طواقم الطوافات إلى خمس مفارز ، مفرزة لمهام خاصة . ربطت بقيادة الجيش مباشرة تحت إشراف عضو المجلس العسكري للجيش غوروف ، الذي سمح باستخدام هذه الوسائط في الحالات الضرورية القصوى . واستخدم من أجل هذا النوع زوراق الصيد والزوارق المطاطية كما أقيم رصيف كان يعمل بشكل دائم لإخلاء من كانت جراحه خطيرة جدا .

كما نظمت محطات للمراكب أيضا في الفرق والألوية . وكان الجرحى يجنمعون عند هبوط الليل بالقرب من المعابر ، وقبل وصول الوسائط العائمة القادمة من الضفة اليسرى . وكانوا بوجهون إلى المحطات بالأفضلية .

قدم رجال الطوافات مساعدات قيمة في نقل الجرحى ففي ٨ تشرين الأول ١٩٤٢ مثلاً تم إخلاء ١٠٦٠ جريحاً ، وكانت كل طوافة تحمل ٣٦٠ منهم . وبالإضافة إلى المعابر الموجودة ، قمنا في الأيام الأولى من شهر تشرين الأول ببناء ثلاثة جسور في قطاع المصانع : نراكتورني ، وباريكادي ، خصصت للمشاة بطول ٢٧٠ م ، وتربط هذه الجسور الضفة اليمنى للفولغا ،



من ستالينغراد عبر أنهار دينجنايا فولوجكا إلى جزيرة زابنيسيفسكي .
بني الجسر الأول في المنطقة الجنوبية من جزيرة زابنيسيفسكي من عدد من
الأطواف الخشبية المحمولة على براميل مرتبطة مع بعضها بوسائط ربط
حديدية وحبال من الصلب ولكن هذا الجسر لم يكن جيد الثبات كان يتماوج
تماوجا خفيفا . وقد استبدل بعد شهر . ولكن خلال ذلك عبر عليه عدة آلاف من
الرجال من جهة إلى أخرى والعكس . ولم يستطع العدو ، رغم الغارات التي لا
تحصى والتي قام بها وانفصاض الطائرات عليه . والقصف المدفعي والهاونات أن
يصيبه إلا إصابات خفيفة سهلة النضال .

أما الجسر الثاني الذي كان مخصصا أيضا للمشاة ، فقد بني إلى شمال
الأول . ودام ثلاثة أيام حيث أصابت شظية قنبلة الحبل الحديدي الذي يربطه
وانهار الجسر وجرفه النيار . وبني الجسر الثالث على نهر نينجايا فولوجكا من
براميل حديدية مرتبطة مع بعضها ومثبتة بمراس عائمة .

كان العمل في هذه المحطات منعيا وخطرا لوجوده طيلة الوقت تحت نيران
العدو ، فمثلا في ٢٦ تشرين الأول فقط ، قذف العدو بمائة قنبلة طائرة و ١٣٠
لغما و ١٢٠ قذيفة مدفعية على محطة الإنزال في وادي باني .

وفي حديثنا عن معابر الفولغا ، وقوات الهندسة في المدينة ، لا يمكن أن يغيب
عن ذهني دور قائد وحدات الهندسة في الجيش ٦٢ حاليا بطل الاتحاد السوفيني
الملازم جنرال فلاديمير ماتفييتش نكاشنكو .

وصل نكاشنكو إلينا في النصف الثاني من شهر تشرين الأول في أقصى
مرحلة من مراحل الدفاع . وكان ذا طبيعة متواضعة ، لا يحب أن يفرض أو
ينحدث عن أعماله . في حين أننا كنا نلقي على عاتقه مهمات لتنفيذها كانت تبدو
أنها تتجاوز حدود إمكانياته ، ولكنه كان دائما يجد حولا ، لائمة ويعبئ لها كل
ما كان تحت تصرفه من وحدات الهندسة ، وكان بشكل عام ينفذ مهامه بنجاح
وفي الوقت المحدد .

لم تكن الصعاب التي يواجهها نكاشنكو في إدارة المعابر سهلة وقليلة السوء
وشينا فشينا أصبحت مهمته صعبة وبخاصة عندما استطاع العدو بجزنة جبهة
الجيش والنموذ إلى الضفة في بعض القطاعات .

في تلك الفترة لم يبق تحت تصرف الجيش لأنمين العبور إلا القليل من
الوسائط ، النظامية حيث كان عندها أقل من عشرة وهي مراكب مدرعة أنهكها

الاستخدام وعدة عشرات من مراكب الصيد بالمجانيف . وحوالي عشرة مراكب من الأسطول النهري التجاري الذي لعب الدور الرئيسي في كمية التحميل . بذل المهندسون في هذه الظروف مع عمال الجسور وطواقم المراكب جهوداً بطولية من أجل استمرار بموين المدافعين عن ستالينغراد وإخلاء الجرحى دون توقفات كبيرة ومن المناسب أن ننوه بخاصة بالمركب المدرع الأسطورة رقم ٦١ من الأسطول الحربي النهري الذي كان يخرج لتأمين العبور في أي ظرف من الظروف .

خضع العمال المهنيون الذين كانوا أكثر من غيرهم محبة للسلام للتجربة . وبرهنوا على بسالة كبيرة وبراعة نادرة ، وإني أورد هنا قسماً من مذكرات عامل الفضاء نيكولاي لوينوف :

« كان يحمل مخفري الرقم ٤٤٣ لاحظت مرة وقت الظهر وبعد معركة جوية هبوط طائرة هبوطاً رأسياً مخلفة وراءها سحابة من الدخان من إحدى محركاتها ، ولم يكد جناح الطائرة يمس الماء حتى دارت على نفسها وسقطت بجانب الإشارة الحمراء من الجهة العليا من النهر ، توجهت نحوها بزورقي الصغير ، كان علي أن أنقذ الأشخاص الذين كانوا يسبحون بقرب الطائرة الغارقة وكانوا ثلاثة .

عندما كنت أجذف نحوهم سمعتهم ينكلمون بلغة أجنبية ما العمل ؟ لم يكن معي أي سلاح ، ولكن عندما رأيت أنهم قريبون من الغرق . قررت الاقتراب منهم بعد أن رفعت أحد المجانيف ووضعته بشكل أستطيع بواسطته الدفاع عن نفسي عند الحاجة .

عندما أصبح اثنان منهم في الزورق ، أخذنا يساعدان رفيقهما الثالث على الصعود . وكان هذا الأخير مصاباً بجروح شديدة ، وبعد أن شعر الثلاثة بالأمن ، أعطوني إشارة التوجه نحو الشاطئ وفهمت أنهم يريدون النزول إلى الضفة والاختباء في الغابة ، ولكنني أشرت إليهم بأنه لا يمكن تحريك المجانيف واستدريت ، أخذ المركب بنجته متبعاً مجرى التيار وليس إلى الضفة وهذا يعني إلى أسطول الفولغا الحربي وبعد فترة قصيرة ظهر زورق نصف مسطح سوفيتي وهنا أخذ الأمرى بنمتمون ببعض الكلمات . ولكي أربح الوقت طلبت منهم تضميد جراح رفيقهم ، ومسكت بالمجذاف وأنا في حالة الاستعداد للقتال ، عندها فهموا أنني أنتظر إقتراب الزورق أخذوا يصرخون علي وواحد منهم رفع

مسدسه ، وكان يحمل هو ورفيق آخر صليبين حديديين وفي تلك اللحظة وصل الزورق وهو على ام اسنعداد ، ووجه بحاربه مسدسانهم الرشاشة نحو ركابى . وبالإشارة أمرت الألمان الثلاثة بحفبض أسلحتهم للأسفل ورفع أيديهم فى الهواء وهكذا اسنطعنا نزع سلاح ثلاثة طباربن فاشيين ، كانوا يعملون كما علمت فيما بعد فى سرية اسنطلاع جوي خاصة » .

وجب أن أسجل قبل إنهائى هذه الفقرة عن المعابر بعض الأرقام : ففي النصف الثانى من تشرين أول وحنى نجمد النهر وظهور السدود الجليدية بم عبر النهر نقل ٢٨ ألف شخص ، وثلاثة آلاف طن من الذخيرة . وحمولات أخرى وعلى الفولغا المجمد ، اعنبارا من لحظة نماسكه حنى نهاية العمليات مر على الجليد فوق النهر ١٨ ألف سيارة و ٢٦٣ آلية ذات سلاسل (جرار - دبابة) و ٣٢٥ قطعة مدفعية و ١٧ ألف عربة



شكلت الخدمات الصحية فى الجيش ٦٢ مع شكل الجيش فى ربيع عام ١٩٤٢ . وكان يصل الى المؤسسات الطبية للجيش والأقسام والوحدات الكبرى طاقم صحى من الشباب ، دون تجربة خاصة ودون خبرة عسكرية كافية . كما وصلت الأغلبية الساحفة من الرجال الذين كانوا يعملون فى المجال الصحى ، والأعوان من الاحنياط . ولم تكن المراكز الطبية للنابعة للأقسام والوحدات الكبرى والمؤسسات الطبية للعلاج والصحة النابعة للجيش مجهزة تجهيزا كافيا بالطواقم الضرورية ولا حنى بتجهيزات المنامة ... إلخ

لذلك كانت الخدمات الصحية فى الجيش بحاجة إلى كل شيء وبنقصها كليا وسائط النقل الصحى ، ولم تكن توجد فى الجيش سرية دعم طبى ، ولم يكن لدى مؤسسات الإخلاء والتمريض فى الجيش سوى ٢٣٠٠ سرير نظامى . كانت الخدمات الطبية للجيش تحت قيادة رئيس القسم الصحى العقيد فى الخدمة الصحية ميخائيل بروكوبيفتش بويكو .

نعرفت عليه فى المدينة عند أحد معابر الفولغا بعد وصوله للجيش مباشرة ، منوسط القامة منحفظ فى كلامه ولقد أعطاني حالا إنطباعا جيدا عنه . ومن مكانه على المعبر كان يقود عمل الممرضين المكلفين بإخلاء الجرحى للضفة

الأخرى من الفولغا ، وعندما كنت أراقب نشاطه بين لي أنه رحل بسمع باراده
حديثه مسعد في كل لحظة للقيام بهجوم معاكس بالقتال والرششات ، منظم
جيد يعرف عمله وينقته إنه متوعى منضبط . كان ذلك أول انطباعاتي عن
توبكو ولم يتغير ذلك حتى نهاية الحرب .

وعلى العموم توجد في الحرب دائما أشياء ناقصة وأشباه غير كافية ، توبكو
يعرف ذلك تماما ويعرف الموقف بدقة أفضل من رؤساء الخدمات الآخرين ولم
يبدأ أبدا من الصعاب التي كانت تعترضه .

في إحدى المرات ونحن في غمرة أشد المعارك ضراوة في قطاع المعركة
حيث كانت حياة كل جندي محسوبة . أخذتحتني بالحاح وإصرار على ضرورة
إعطاء الأوامر لقادة الفرق والألوية بنهضة المخاض المغطاة والملاجيء المدفأة
للمراكز الطبية . كان ذلك في أبلول والطقس معتدل بل حار ولم يكن هناك من
يفكر بالبرد ، لذلك أخذنا نبني الملاجيء المدفأة منذ ذلك الوقت . وساعدنا هذه
الملاجيء المغطاة والمدفأة في نشرين التاني وكانون الأول على إنقاذ حياة آلاف
الجنود .

كتب رئيس الإدارة الطبية الرئيسية في وزارة الدفاع العقيد الجنرال
(الطبيب) و . سميرنوف بخصوص عمل خدماينا الطبية في الجيش في كتابه
« مسائل طبية عسكرية »

« جعل وجود حاجز ماني كبير كالفولغا بين خطوط القوات من الصعوبة
بمكان تأمين العناية الطبية وإخلاء الجرحى إلا في الليل . ونحن نيران حامية
من هاونات ومدفعية العدو . وكانت الخدمات الطبية العائدة للجيش تعمل ليس
فقط تحت نار الهاونات والمدفعية العدو . ولكن تحت رمى مباشر من أسلحة
الرماة الألمان .

من غير الممكن التكلم في هذه الظروف عن حالات البطولة والبسالة
والشجاعة الفردية . لأنها كانت في الواقع بطولة جماعية وشجاعة أظهرها كل
العمال الأطباء في الجيش ٦٢ بخاصة » .

كرسنا كل جهودنا لإقامة تنظيم أفضل لخدمة إخلاء الجرحى . فوزعنا
النجدات الطبية للحالات العاجلة في مستشفيات الميدان المتنقلة . فكل الجرحى
والمرضى عدا الذين لا يمكنهم الانتقال ، نقلوا إلى المؤخرات وهناك كانوا يتلقون
عناية طبية ممتازة .

اما الجرحى والمرضى الذين يحتاجون لعناية طبية طويلة الأمد فقد نقلوا إلى
اسراخان عن طريق الفولغا وإلى لينينسك وايلنون عن طريق سكة الحديد .
انجز العمال الأطباء في مستشفى الميدان المنقل رقم ٥٤ عملاً متعباً وتحملوا
مسؤولية جسيمة .

كنا عملاً ننقل الجرحى القادمين من مختلف الاتجاهات ، وكذلك المرضى
القادمين من الجبهة .

كل ذلك كان يجري مع غارات الطيران المعادية المتواصلة ، وقد دمر قسم
كبير من مركز الإخلاء رقم ٥٤ والمستشفى الميداني المنقل رقم ٨٠ وقتل أربعة
عشر من رجال المستشفى رقم ٨٠ وجرح آخرون وأصيبوا برضوض .
كان على الخدمات الطبية للجيش الأخذ بعين الاعتبار خواص الموقف
العسكري ، وتشكيل مجموعات ومفارز الانقضااض فالخدمة الطبية للجيش
كانت مجبرة للنفيس عن شكل جديد من النجدة الطبية ، وتكون أقرب ما يمكن
من مواضع القتال . لذلك كُرس انتباه زائد وخاص للاعناء بالكوادر الطبية في
الانساق الدنيا من الخدمة الصحية : الفصائل - السرايا - الأفواج ونجهيز هذا
النسق بالجهيزات الضرورية . وألحق أشخاص مساعدون في مجموعات ،
ومفارز الانقضااض ، لكي يتم إخلاء الجرحى من الحامبات المعزولة الصغيرة
مباشرة بعد تقديم العناية الأولى في مكان المصابين . لهذا السبب كان
المرضى والموجهون الصحيون موجودين دائماً في تشكيلات القتال وفي
الحامبات ومجموعات الانقضااض ونقاط الاستناد .

لقد بدأ مساعدو «الأطباء في الأفواج» ، مراكز للنجدة الطبية وراء خطوط
الفوج في مختلف المخابىء والتحصينات ، والملاجىء تحت الأرض ،
والأقبية ... الخ لتقديم العناية الأولى للجرحى .

مركزت في المخابىء في أسفل ضفة الفولغا العالية خدمة استقبال وتوزيع
المرضى والجرحى ومراكز العمليات والتضميد . وحزرت أماكن خاصة للذين
لا يمكن نقلهم ، ولتركيز المجموعة الجراحية لفرقة المشاة ٣٩٠ استخدمت
مراتب المناجم ، وقد حضر ممر مغطى من أحل فصيل المستشفى التابع
للمجموعة الجراحية لفرقة الجنرال رويمنسيف . وربما يكون أشد الأجزاء
صعوبة في عمل الخدمات الطبية العائدة للجيش هو إخلاء الجرحى للضفة
الأخرى من الفولغا ، لأنه لم يكن لدينا وسائل خاصة ، وكنا نستعمل على

العموم سفرات العودة للأسطول النهري ، الذي كنا نؤمن عليه وصول الأشخاص والنخيرة والحمولات الأخرى للمدينة .

شكلت الأفواج الصحية في بداية أيلول ، ولم يكن لدينا الامكانيات لتأمين إخلاء نام ، وغير منقطع للجرحى ، إلا بعد أن وجه تقريبا كل رجال الخدمات الطبية والصحية النابعة للجيش للعمل على المعابر ، ولم يبق مهمة أخرى لهذه الأفواج الصحية إلا تأمين خدمة المعابر بواسطة مراكب الفرق .

حسب اقتراح العقيد بوبكو أوكل المجلس العسكري في ١٧ أيلول ١٩٤٢ لعدد مراكز الإخلاء ٤٥ والمستشفى الميداني المتنقل رقم ٦٨٩ خدمة معابر الفولغا فقط .

كان مركز الإخلاء يحتل أقبية ومطعم محطة للتفريغ المركزية على الفولغا ، وكان يستقبل القسم الأكبر من مجموع الجرحى بعد أن أخذ عندهم ينضخ ساعة بعد ساعة ، ولكن عندما بدأ العدو هجومه على محطة الإنزال المركزية وعلى مراكز الإخلاء أصبح مركز هؤلاء حرجاً جداً ، فقد ركز الألمان بالقرب من نمثال خولوزونوف ، على طريق المحطة المركزية رشاشاتهم ، ونحصد الرماة من حملة المسدسات الرشاشة في غرفة المحول الكهربائي وفي منازل المهندسين ، وهكذا أصبح مركز الإخلاء محاصراً . ولم يعد بإمكان الجرحى والعناصر الطبية خلال عدة أيام الخروج من القبو لكي يصلوا إلى الرصيف .

أرسلت في الخامس والعشرين من أيلول المراكب المدرعة لنجدة مركز الإخلاء وفتحت طريقها وهي تقاوم نحو الرصيف . وأبعدت العدو عن الضفة وأخلت الجرحى الذين كانوا لاجئين إلى القبو .

كما أرسل الجنود من مختلف مراكز القتال لنجدة العناصر الطبية ونقلوا الجرحى الخطرين إلى المراكب .

نم في هذه الظروف إخلاء (٧١١) شخصاً من المطعم في ٢٥ أيلول و ٥٥٠ في ٢٦ أيلول وفي ليل ٢٧ وصل العدو قريباً وأصبح يتماس مع بناء المطعم ، ونحت نغطية من نار المراكب المدرعة ، أخلت آخر الجرحى والعتاد من المطعم ، كما نقل مركز الإخلاء في نفس السفرة إلى الضفة اليسرى ، وبعد ساعتين احتل رماة المسدسات الرشاشة الألمان المطعم .

كان رجال مستشفى الميدان المتنقل رقم ٦٣٩ قلة ، ويعملون في ظروف

صعبة جدا يستقبلون وبخلون يوميا بين ٦٠٠ - ٨٠٠ جريح إلى الضفة اليسرى من الفولغا ، وعندما دمر العدو بغارانه قسم العمليات ، أقام الجراحان كيرفونوس ونانتشكنو مركزاً مؤقتاً ، نحت سقف مقلوب لبراكة كبيرة ، حيث وضعنا نحت الطاولات وكانا يجريان عليها العمليات الجراحية المستعجلة .

إنني أتذكر مسنودع المياه القريب من شاطئ الفولغا جنوب منفذ وادي باني . ففي أحد الأيام كنت ماراً على الضفة ووراء حائط أحد الأبنية المهدمة ، شاهدت مجموعة من الجنود والضباط يحشرون أنفسهم وراء الحائط . أدركت وأنا اقتراب منهم أنهم من الجرحى ذوي الجراح الخطرة ، كان كثير منهم يجرون أنفسهم وبعضهم كانوا محمولين من قبل الممرضين على المحفات . ولكن لماذا هم هنا وراء الحائط ؟ ألا يوجد مكان في القبو ؟

فنحت الباب ونزلت القبو بسلم حديدي ضيق . وفي جو خائق مفعم برائحة الاتير وبأنين الجرحى ، وفي أسفل السلم وفي مكان سعته عشرة أمتار مربعة تقريباً . وعلى الأرض الأسمنتية كان الجرحى يتحركون - عشرة أشخاص يقفون على صفين .

اقتربت من الباب أو بالأحرى من ستارتين نغطيان الباب ، وراء ذلك يوجد مصباح يشع نوراً قوياً . كانت هذه غرفة العمليات . كان هناك جريح ممدد على الطاولة وثلاثة أشخاص بأردينهم البيضاء ينحنون عليه ، وعلى طرف الغرفة وعلى عارضة من الحديد المدبب ، كان هناك موقد لتسخين المياه الموجودة في القصعة .

كانت أودية الأطباء فيما مضى طبعا بيضاء ولكنها الآن أصبحت مغطاة ببقع بنية والياقات فقط التي كانت لا تزال محتفظة ببياضها .

وعلى طاولة صغيرة بقرب الحائط يوجد دفتر كبير . كان هو السجل الإحصائي للعمليات ، وآخر رقم مسجل كان بأرقام ثلاثة . من قام بعمل كل هذا ومنى ؟ طلبت منهم مظهرا العدد بأرقامه الثلاثة . وهذا يعني عدد العمليات التي أجريت .

ودون أن يجيب ، وجه الطبيب نظرة نحو الممرضة التي كانت بقرب الطاولة ، كان ذلك واضحاً تماماً . لأنني عندما ركزت انتباهي على الخط وجدت أن كل الأرقام مسجلة بخط يد واحدة .

كان ذلك الطبيب ، هو رئيس جراحي مستشفى الجيش الميداني الجراح

ايزنبورغ مع مساعديه الاثنين ، وهو الذي نظم الخدمة ، وقام بعمل أكثر من مائتي عملية جراحية .

وقد قرر المجلس العسكري للجيش منح الأوسمة لكل مجموعة ايزنبورغ .
في بداية تشرين الأول تم إخلاء الجرحى على جسر مبنى من المواد المنفجرة في جزيرة زاتيسيفسكا حيث كانت منمركزة المجموعة الطبية للفوج الصحي رقم ١١٢ ، والمجموعة الثانية من مركز الاخلاء رقم ٥٤ ، أما الجرحى الخطرون فكانوا ممدّين على المحفّات فوق رصيف المراكب الواقع على بعد ٢ كم وقد تم إرسالهم إلى المؤخرة .

وفي زمن تجمد النهر نقلت أمكنة الأرصفة المخصصة لإخلاء الجرحى في مختلف القطاعات حسب حالة وقوة الجليد ، وقد نظمت أيضا ممرات « طائفة » لإركاب الجرحى ، كان يتم في الأماكن التي نستطيع فيها الزوارق المدرعة ان نرسو بقربها على الشاطئ .

نظم أيضا في النصف الثاني من شهر تشرين الثاني ، مركز استقبال ونجدة وتدفئة للجرحى في محطة الإنزال توماك ، على الضفة الشرقية لنهر الفولغا . وهناك قسم من المستشفى ٦٨٩ مع غرفة عمليات وتضميد للاعتناء بالجرحى والمرضى الذين لا يمكن نقلهم .

فتم مركب محطّم للجليد ، خدمات كبرى لنقل الجرحى إلى الجهة الأخرى من الفولغا ، ولكن بعد عطبه أصبح غير صالح ، حلت محله مراكب مفطورة . من الصعب جدا في ذلك الوقت إخلاء الجرحى من عناصر فرقة ليونيكوف . التي عزلت عن مركز الجيش وكانت تدافع عن مساحة صغيرة من الأرض في قطاع مصنع باريكادي .

وغالبا ما يضطر المراكب المدرعة أن تقاوم حتى يسنى لها الاقتراب من مواقع الفرقة ، وكثيرا من الأوقات لم يكن نستطيع الوصول إلى الهدف . وكان على سطح كل مركب مكلف بفتح طريق نحو الفرقة طبيب مساعد . أو ممرضة أو ممرضتان لحمل المحفّات ، وكانوا يقومون بإركاب الجرحى والمرضى في المعبر ويقدمون لهم العناية الضرورية أثناء الطريق . ولكي يبقى الجرحى سعيون بالدفء بوحد دائما على السطح أغطية ومدافئ حرارية .

عين الطبيب العسكري من الدرجة الثانية سرديوك لتأمين إخلاء الجرحى بالفولغا في زمن تجمد النهر والإنصال مع الخدمات الطبية للعناصر والوحدات .

رأيت الرفيق سيرديوك لأول مرة عندما احترقت مخابىء القيادة المغطاة وعندما كان البنرول الملتهب يهدد المراكب المخصصة للإخلاء بالتهامها استطاع سيدبوك فصل المراكب عن الأرصفة الملتهبة وقادها خارج مجال النار .

كما تم فصل المعديات الخمسة بجرأة ، وكان سيرديوك بصونه الفاعم الصلب يعطى التعليمات والأوامر . ولأول وهلة ظننته القائد الجديد لمحطة الإنزال ، وقد سررت لذلك ، ولكن القائد ذهب لإعادة النظام في أرصفة الركاب والبفرغ وعندما اقتربت منه شاهدت على ياقفه إشارة الطبيب .
شاهدني سيرديوك وقم نفسه :

- الطبيب العسكري من الدرجة الثانية سيرديوك ، أعطى أوامري على المعبر .
وقد صافحته وهنأته من كل قلبى قائلاً له :
- أبها الشجاع ، كن دائماً هكذا كطبيب ، وكرحل !
في تلك اللحظة ارتفع حاجز من تراب ورمل بسبب انفجار الألغام الألمانية قرب الأرصفة .

ظل سيرديوك فى مكانه دون حراك ، كان رجلاً ذا إرادة حديدية - كما أظن - مشى سيرديوك من الفولغا إلى نهر سبريه ، وأنهى الحرب فى برلين .
عندما غطى الجليد الفولغا أصبح بالإمكان نكليف الأفواج الصحية بالاعتناء الأول والإخلاء للفرق التى كانت تتحمل بنفسها طريقة الإخلاء للجرحى على قاعدة مستشفيات الجيش .

أما الجرحى الذين كانوا ينتظرون اعتناءً خاصاً وطوبلاً فقد كانوا يرسلون إلى مستشفيات الجيش الميدانية أو إلى مستشفيات النسق الأول على بعد ٤٠ - ٦٠ كم .

وفد مساعد إخلاص الأطباء العسكريين الذين كانوا فى الخطوط الأولى للجيش ٦٢ على تحقيق مهمته القتالية .



معركة « كان » القرن العشرين



عندما كانت المعارك الضارية تدور في ستالينغراد . كانت القيادة السوفيتية تنجز عملاً ضخماً ، وهو التحضير للهجوم المعاكس الذي سقوم به قواتنا . ويعود الفضل في نتائج هذا التحضير للقيادة العليا ، وكما كتب مارشال الاتحاد السوفيتي فاسيليفسكي: « قدم في ١٣ تشرين الثاني مخطط دقيق من قبلنا » ا . فاسيليفسكي ، و ج . جوكوف لاجتماع المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب وإلى الستافكا وخلاصته باختصار « زج العدو بالقوات الرئيسية لكل من الجيش السادس والجيش المدرع الألمانيين - كما هو الحال في السابق - في معركة طويلة في قطاع المدينة ».

وعلى أجنحة هذه القوات « يعني على محور جبهتنا الرئيسي » بقيت القوات الرومانية تعمل . ولم يلاحظ في المدة الأخيرة ، وصول أي احتياط معاد « قل أو كثر » ، قائم من المؤخرات البعيدة باتجاه المدينة ، كما لم يلاحظ هناك أي تجمع جديد لقوات العدو ، حتى ولو كانت أهميتها قليلة للعمل في ذلك الاتجاه وبشكل عام ، وحسب المعلومات الموجودة نحت تصرفنا ، فقوى الطرفين كانت متساوية في بداية الهجوم باتجاه ستالينغراد ، وعلى محور الجهد القادم اجبهانا ، وبفضل وصول احتياطات الستافكا . وإضعاف المحاور الثانوية من الممكن تشكيل مجموعة صلدة قوية تتمتع بتفوق كاف في القوى تستطيع معه النوصل إلى إحراز نصر أكيد محقق .. وقد استوعبت قواتنا مهماتها القتالية بدقة ، وبنفيذها عملياً وضع قيد العمل كل في موقعه .

بنوقع في نهاية اليوم الثالث أو الرابع من العملية ، إتصال القوى المدرعة والآلية لجبهتي جنوب - غرب وستالينغراد في قطاع كلاتش . ويجب أن نحكم هذه العملية نطاق التطويق على مجموعة القوى الرئيسية للعدو في قطاع ستالينغراد .

يمكن أن تبدأ جبهات جنوب - غرب والدون هجومها بين ١٩ - ٢٠ من الشهر ، أما جبهة ستالينغراد فيمكن أن تبدأ في ٢٠ تشرين الثاني «

« بعد مناقشة المتافكا لعدد من المسائل ، تمت الموافقة النهائية على خطة العمليات والمهلة المحددة .

وقد تلقى ج . جوكوف بعد ذلك مهمة تحضير عملية إشغال على جبهة كالينين ، وبريانسك . وقد كلفتني السنافكا بتأمين تنسيق الأعمال باتجاه سنالينغراد ، أثناء تنفيذ الهجوم المعاكس . وقبل عملية من أكبر العمليات العسكرية في تاريخ البسرية التي لم يبق على بدايتها إلا بضعة أيام . كانت نسبة القوى والوسائط بين الطرفين في بداية الهجوم المعاكس باتجاه سنالينغراد حسب الجدول التالي :

| القوات المشاركة | عدد الأشخاص
بالآلاف | المدافع والهاونات | الدبابات ودبابات
الانقضاض |
|------------------------------|------------------------|-------------------|------------------------------|
| (١) في منطقة جبهة جنوب-غرب | | | |
| - قوات سوفيتية | ٢٩٩,٠ | ٥٨٨٨ | ٧٢٨ |
| - قوات معادية | ٤٣٢,٠ | ٤٣٦٠ | ٢٥٥ |
| النسبة | ١:١,١ | ١,٤:١ | ٢,٨:١ |
| (٢) في منطقة جبهة الدون | | | |
| - قوات سوفيتية | ٢٩٦,٧ | ٤٦٨٢ | ٢٨٠ |
| - قوات معادية | ٢٠٠,٠ | ١٩٨٠ | ٢٨ |
| النسبة | ١,٥:١ | ٢,٤:١ | ١:١ |
| (٣) في منطقة جبهة سنالينغراد | | | |
| - قوات سوفيتية | ٤١٠,٤ | ٤٩٣١ | ٤٥٥ |
| - قوات معادية | ٣٧٩,٥ | ٣٩٥٠ | ١٤٠ |
| النسبة | ١,١:١ | ٢,٤:١ | ٣,٢:١ |
| (٤) النسبة العامة | | | |
| - قوات سوفيتية | ١١٠٦,١ | ١٥٥٠١ | ١٤٦٣ |
| - قوات معادية | ١٠١١,٥ | ١٠٢٩٠ | ٦٩٥ |
| النسبة | ١,١:١ | ١,٥:١ | ٢,١:١ |

كما يظهر في هذا الجدول كان التفوق بين القوات السوفيتية وبخاصة في المدفعية والدبابات وكان لهذا أهميته الكبرى الحاسمة في الهجوم المعاكس . استطاعت القيادة العليا السوفيتية أن تحشد بنجاح الاحتياط الضروري الذي كان مفاجأة للعدو .

كان عدد الطائرات لدى المعسكرين منقاربة تقريبا . ولكن خلال أشهر أبلول وبخاصة تشرين الأول السابق نفذت تماما موارد العدو من السلاح الآلي وبخاصة المحروقات ، وكان وضع الطائرات السوفيتية في هذا المجال أفضل عما هو عليه لدى الألمان .

أما بالنسبة للجيش ٦٢ ففي ٩ تشرين الثاني كان عمق ترتيبه القتالي لا يتجاوز كيلومتر، فمن الخلف الفولغا ومن الأمام العدو وبينهما منطقة ضيقة من خرائب المدينة ، وفيها خندق وحداثا .

وعلى الجناح الأيمن لكبد الجيش كانت تعمل فرقة ليونتكوف المطوقة والمحشورة على الفولغا وتحمل قطاعا دفاعيا أقل من كيلومتر مربع .

وعلى الجناح الأيسر كانت فرقة مشاة الحرس ١٣ تحمل شريطا ضيقا على طول الضفة بعمق مائتين إلى ثلاثمائة متر ، أما أركان الجيش فكانت موجودة في نقطة. إتصال فرقة الحرس ١٣ وفرقة المشاة ٢٨٤ على بعد ٨٠٠ - ١٠٠٠ متر من الخطوط الأولى ، أما مرصدنا فكان هو الآخر قريبا جدا وبقع على الخط الحديدي الذي يلف كورغان مامايف من الغرب تماما ، أمام أنف العدو . لقد كانت جبهة قتال الجيش البالغ طولها نحو خمسة عشر كيلومترا تقع كلها تحت نيران العدو ومدفعيته وأي مكان في عمق مواضعنا القتالية يمكن أن (يكنس) بطلقات الرشاشات . لذلك فالحياة في هذا الموقع الضيق كانت أيضا معقدة بسبب أن قمة كورغان مامايف الذي كان يسيطر على المدينة وأكثر تحديدا مستودعات البترول والمرتفع ١٠٧,٥ جميعها كانت بيد الأعداء .

فمن هناك بالاستطاعة رؤية كل مداخل الفولغا من الجهة الشرقية يعني أنه لم يعد بالإمكان إيصال الذخيرة والتجهيزات والغذاء إلى المدينة إلا في الظلام .

من الطبيعي عدم إمكانية تدبير مثل هذا الموقف حتى الأخير . وقد فرض على الجيش أن يقوم في المقام الأول بمهمتين : تحقيق الإتصال مع فرقة ليونتكوف وذلك بتدمير العدو الذي نفذ على الفولغا ، واحتلال كورغان مامايف والمرتفع ١٠٧,٥ بشكل يستطيع معه بعد نعريض منطقة الدفاع التي كانت

مساكنها أربعة كيلومترات ونصف ، طرد العدو من مراكز مرافقه وأماكن اقترابه من الفولغا .

وللقام بهذا العمل كان من الضروري تأمين القطاعات بالرجال والخيرة الضرورية ونجهيز الجيش بالدبابات .

خلال المعارك الضارية فى المدينة رفضت السنافكا وقادة الجبهة أن تعطينا شيئاً قبل الهجوم المعاكس ، وبفهم من هذا أنهم لن يمدونا بقوات جديدة أو دبابات ، كما أصبحنا نتلقى الفذائف والألغام والطلقات بكميات محدودة .

من الضروري إذن تعبئة كل الموارد الموفرة ، والقيام بخاصة بعملية تعبئة الصفوف عن طريق الجزى المعافين الذين يريدون الانحاق بوحداتهم والعودة إلى مدينتهم ، فالاحترام الذي يتمتع به الجيش ٦٢ جعله محبوباً من كل الرفاق القدامى .

وعلىنا أيضاً عدم الإلحاح بإيصال الخيرة وإرسال التعزيزات بالدبابات فعقبات كثيرة كانت تعترضنا كالمنايق بالنسبة لنقل الحمولات عبر الفولغا وسيظل النهر مغلقاً بقطع الجليد بين ١٢ تشرين الثانى حتى ١٩ كانون الأول . وفى بضعة الأيام التى تلت لم يعد بإمكان زورق مدرع أو بخارى فتح طريقه عبر الجليد .

كان الضباب يغطي المنطقة صباح ١٩ تشرين الأول ، ومن المحتمل أن يكون ذلك اليوم أكثر الأيام صعوبة لعمليات العبور فلا يمكن لأي شخص أن يصل من الضفة الأخرى .

لم نكن نستطيع أن نقوم بأي عمل أو حتى أن نغون فكرة حسب نشاط الطيران - كالعادة - عما يفكر به العدو .

لقد خرجت من المخبأ من الساعة المحددة بالأمر للهجوم ، ولم يكن لدي أي أمل أن يصل دوي المدفعية إلينا ، كان الجو مظلماً أيضاً وكل شيء كان غارقاً فى مسنقع من الضباب البنى الكثيف .

الساعة السابعة وعشرون دقيقة:

انتظار مضني وخانق ، على الأقل بعض الاشارات ... وبعض الايضاحات عما يجري وسيجري ؟

تأخر ارتفاع الفجر : الضباب الكثيف لم ينقشع - فال شيء - وبخاصة كان الضباب باتجاه الهجوم لا يزال الضباب يلقي بكل كلة ، ومن الصعب القيام بتمهيد

المدفعية على أهداف منخبة ولا يمكن للطيران العمل .

بدأ الضباب ينحسر في الظهر وينوسع حقل الرؤيا شيئاً فشيئاً والجليد في نهر الفولغا يدور وينلاطم محدثاً ضجة كبيرة وهو ينحت الشاطئ المتجمد .
ظهرت اشارات تدل على أن الأمور لا تسير نحو الأفضل لدى العدو ولا توجد في السماء أية قاذفة ألمانية إلا طائرة إحكام نسديد المدفعية ، حلقت لبعض الوقت فوق مواقعنا وعادت ، والظاهر أنها استدعيت هي الأخرى .
ولكن ماذا أيضاً ؟ من الضروري أن نفي بالتزامنا ، بدأنا بتحضير الاحنياط للقيام بنجدة فرقة ليونكو ، ونكثيف أعمال مجموعات الانقضااض .
رن في المساء الهاتف . كان من قيادة الجبهة . لقد أبلغني « ايرمنكو » أن الهجوم بدأ ، ولكن ظل التاريخ المحدد لهجوم جبهة ستالينغراد على حاله دون تغيير وهو ٢٠ تشرين الثاني . .

أخذت اللحظة التي ستبدأ فيها قواتنا هجومها الكبير المنتظر نقرب بسرعة .
وكما كان مقرراً ففي الساعة ٧,٢٠ من ١٩ تشرين الثاني ، وضعت المدفعية والهاونات التي حشدت على مختلف القطاعات التي تقرر فيها الاختراق وعلى جبهة طولها الكامل ٢٨ كم بحالة الاستعداد وفي الساعة ٧,٣٠ أعطيت إشارة فتح النار وبذلك بدأت ٣٥٠٠ فوهة مدفع وهاون تفرغ على العدو آلاف الأطنان من الحديد والمتفجرات خلال ساعة كاملة لرمي الندمير وعشرين دقيقة لرمي الإبطال .

ولأول مرة خلال الحرب الوطنية الكبرى قامت قواتنا بضربة بمثل هذه القوى وبهذا العنف .

لقد كبنت نيران المدفعية العدو خسائر رهيبية أطاررت صوابه .
وفي الساعة ٨,٥٠ إندفعت بالهجوم فرق المشاة التابعة للجيش المدرع الخامس والجيش ٢١ تدعمها دبابات المرافقة التابعة للمشاة .
حققت المجموعة المتحركة من الجيش المدرع الخامس المؤلفة من الفياق المدرعة ١ و ٢٦ في منتصف اليوم الأول من الهجوم خرق الدفاع التكتيكي للعدو (المخطط رقم ٣) ، واندفعت في الثغرة المفتوحة قوات الخيالة التابعة لفيلق الخيالة الثامن ، وأخذت المعارك تدور في عمق دفاع العدو ، وبعد أن تمكنت القوات السوفيتية التغلب على مقاومة العدو بدأت بتطوير هجومها بنجاح نام .

كيف استقبل أركان فون باولوس ذلك اليوم ؟

لقد شن فون باولوس أيضاً هجوماً بتاريخ ١٨ و ١٩ تشرين الثاني على سنالينغراد ، وفي كتابه « معركة سنالينغراد » كان هانز دوبر شاهد عيان على ما تم في ذلك اليوم في الجيوش الألمانية ويقول دوبر :

« لم يكن الجيش السادس الألماني في ذلك اليوم (١٩ تشرين الثاني) مقتنعا حتى ذلك الوقت بالخطر الداهم الذي أخذ يحيط به ، لذلك لم نر قيادته فائدة من إتخاذ أية تدابير حاسمة ، وعلى العكس فقد أعلنت قيادته أن لها رغبة في متابعة نشاط عناصر الاسنطلاع في سنالينغراد اعتباراً من ٢٠ تشرين الثاني ، وقد ظل الوضع على حاله حتى الساعة ٢٢ من نفس اليوم عندما وصل أمر قائد مجموعة الجيوش (B) البارون فون ويشز .

جند فون ويشز أمره على الشكل التالي :

« نحن مجبرون ، نظراً لتطور الموقف على جبهة الجيش الروماني الثالث على القيام بتدابير جذرية لتحرير القوى الضرورية لتغطية جناح الجيش السادس بالسرعة الممكنة ، وتأمين نموينه عن طريق سكة الحديد في قطاع ليخايا » إلى الجنوب من كامنسك - شافننسكي ونشير .
لذلك أمر بما يلي :

١ - إيقاف كل العمليات الهجومية فوراً في قطاع سنالينغراد عدا أعمال عناصر الاستطلاع العادية الضرورية لتنظيم الدفاع .

٢ - يفرز الجيش السادس فوراً من قوائمه ، وحدتان آليات ، وفرقة مشاة - وإذا أمكن - وحدة آلية مساعدة تلحق بأركان الفيلق المدرع ١٤ ، ندعمها أكبر كمية ممكنة من وسائل الدفاع المضاد للدبابات . ويتمركز هذه المجموعة على أنساق وراء جناحه الأيسر بهدف القيام بضربة باتجاه الشمال الغربي والغرب » .

حسب شهادة - شاهد العيان هذا - أن الجيش السادس حتى صدور أمر فون ويشز ، لم ينذر ، ولم يدرك الجنرالات الألمان ، حتى ذلك الوقت أن نهايتهم بدأت تدق ساعتها .

كان الليل يمر والساعة التي سنقوم بها جبهة سنالينغراد بهجومها أخذت تقرب .

ولكن على الفولغا والسهوب الممتدة على شاطئيه كان الضباب ينتشر من جديد بشكل كثيف بعد ليل تفاوتت فيه درجة البرودة من حالة النجم إلى درجة

أقل منها ، كما أخذ الثلج بنسافظ مع ظهور الفجر ، ومرة أخرى لم يكن باستطاعة طيراننا دعم الهجوم .

كان على جبهة ستالينغراد زج قوات جارتنا الجيش ٦٤ والجيش ٥٧ في المعركة ، وكان على الجيش ٥١ الهجوم على الجناح الأيسر مع الفيلق المدرع الثالث عشر بقيادة العقيد تاناسناشيشين ، أما الفيلق المدرع الآلى الرابع بقيادة جنرال المدرعات فولسكي فكان عليه تطوبر الهجوم مع عمق العدو ، هو وفيلق الخيالة الرابع بقيادة الجنرال شابكين ، الذي كان بنألف جمبعه من فرسان جمهوريات اسيا الوسطى قازاق ، قيرغيز ، أوزبك ، ناجيك ونركمان .

لم يبدأ الضباب بالانحسار حتى الساعة العاشرة صباحا ، مما اضطر قائد الجبهة ايرمنكو لتأجيل بداية تمهيد المدفعية عدة مرات .

وفي الساعة التاسعة والنصف فتحت المدافع والهاونات أفواها وانطلقت التبران .

كانت الضربة الموجهة للعدو بعيدة حوالى ٦٠ - ٧٠ كم عن مركز قيادة الجيش ٦٢ فى قطاع بحيرة ساريا ، وقد دارت فى المدينة أيضا معركة حامية قامت بها مجموعاننا المنقضة .

ظلت قيادة الجبهة بين ١٩ - ٢٠ مهنمة جدا بنصرف العدو ، وكانت نسأل فيما إذا كان سحب قواه من المدينة ؟

وهنا على أن أقول بأنه ولو حاول فون باولوس إنخاذ مثل هذا القرار فمن الصعب عليه تنفيذه ، فعليه فك الاشتباك مع الخصم والنخلص بانسحاب منظم مسبقا والمعركة فى شوارع المدينة شيء مختلف عن غيره بالإضافة إلى ذلك ، فالمواقع فى المدينة كانت منشبكة ، ونقاط استنادنا الدفاعية ، ونقاط استناد العدو كانت منقاطعة فيما بينها كرقعة الداما .

لم يكن هناك ما يسمح بنحبد نصرف العدو حتى منتصف نهار ٢٠ تشرين الثانى .

أظهرت الوثائق التى وفعت بين أيدينا بعد الحرب أنه لم يكن لدى أركان الجيش السادس حتى بعد مساء اليوم الذى صدر فيه أمر فون ويشز ، وحتى منتصف يوم ٢٠ تشرين الثانى الفعاعة بانساع وعظم الكارثة المرنقبة ، ولم يكن لدى فون باولوس الوقت لإلغاء الهجوم الذى كان مزمعا للقيام به فى ٢٠ تشرين الثانى وفعلا قام بالهجوم .

زج الفيلق الآلى الرابع فى الساعة ١٣ فى الثغرة المفتوحة ، ثم إندفع فى الساعة ١٦ الفيلق المدرع الثالث عشر فى عمق دفاع العدو المعادي أمام قطاعه الخاص ، ثم إنطلق فى الساعة ١٢ فيلق الخيالة الرابع عشر أثر الفيلق الآلى الرابع لتطوير الهجوم باتجاه الغرب .

جمع فون باولوس فى النصف الثانى من يوم ٢٠ تشرين الثانى أركانه نحدث عن الخطر الجدى الجديد الذى يحيق به ، ونوقع تدهور الوضع وظهور موقف حرج أمام قواته ورغم ذلك ظل حتى ذلك الوقت منتهظاً ولم يتوصل الجنرالات الألمان إلى معرفة ونفدير ما يحدث ، ضمن هذه البلبلة بعد إنقطاع خطوط الإتصال والمواصلات ، وفى هذه الظروف التى لم يعتد عليها هؤلاء . بدأت فى مساء ٢٠ تشرين الثانى نصل إلى فون باولوس الأخبار عن تراجع كامل للوحدات الرومانية مع قوات الاحتياط الألمانى أيضاً .

ورغم أن فون باولوس غير مكان قيادته ، إلا أنه اضطر فى ليل ٢١ - ٢٢ تشرين الثانى للتنفيس بسرعة على مكان أكثر هدوءاً وأماناً .

لم يكن لدى أركان الجيش ٦٢ حتى مساء ٢٠ تشرين الثانى معلومات دقيقة عن الموقف فى مناطق هجوم قواتنا واكتفت القيادة بإرسال نشرة نقول فيها بأن الجميع أى (جميع القوات السوفينية المهاجمة هى بحالة الحركة) ، وقد شددت القيادة على ضرورة الأخذ بعين الاعتبار خطر نسرب المعلومات إلى الخصم . لم يبق لدينا شيء للعمل سوى تثبيت العدو فى المدينة بقواتنا الضعيفة ، وكنا ننظر وصول القوات المهاجمة من الشمال .

مر يوم ٢١ تشرين الثانى دون أى تغيير فى المدينة .

ننابعث حالة النجم فى الفولغا . ولم نعد المعابر تعمل مطلقاً : وضباب كثيف ينتشر فى كل مكان مع تساقط الثلوج من حين إلى آخر ولم يعد طيران العدو يظهر فوق مواقعنا حتى فى الأوقات التى تزداد فيها درجة الرؤيا بين فترات تساقط الثلج كما ننابعث الفعارك بنفس الحدة ، ولم يلاحظ كشافونا أى تجمعات للعدو لتعزيز نشاطه .

لم نكن نستطيع عن طريق هذه الإشارة إلا أن نحكم على أن هجومنا كان بنطور - بنجاح .

فى نفس الوقت كان فون باولوس قائد الجيش السادس ينتقل بسرعة من مركز قيادة إلى آخر من غلوبنسكوى إلى نيجه - شيرسكايا وثم فى قطاع غومارك .

هـ في أركانه اخذ البوير ببيع الهلع .

بحسب علم الآن أي في - الوقت الحاضر - أنه في وقت متأخر من مساء ٢١ تشرين الثاني ، عندما كانت أركان الجيش السادس تنقل مركزها بسرعة إلى نيجنه شيرسكايا حيث توجد مراكز الراديو التابعة للأركان الألمانية . وصلت برقية تلغرافية من هتلر ، جاء فيها « أمر إلى قائد الجيش بالذهاب إلى ستالينغراد مع أركانه وأمر إلى الجيش السادس بأن تنقل إلى الدفاع الدائري وانتظار تعليمات لاحقة » .

وإذا كان فون باولوس قد أدرك الآن حجم الكارثة التي أخذت تطبق عليه بسبب قوة ضربات قوائنا ، إلا أن هتلر من مقر القيادة العليا الألمانية البعيد لا زال يعالج نفسه مع قناعته بعدم إمكانية قهر الفرماخت .

كان فون باولوس في ضيق شديد .

حتى ذلك الوقت لم تكن القوات السوفيتية قد أغلقت طوق الحصار عندما أرسل فون باولوس في ٢٢ تشرين الثاني الساعة ١٨ البرقية التلغرافية إلى أركان مجموعة الجيوش (ب) : « الجيش محاصر الإحتياط بالمحروقات لن يلبث أن ينفذ والدبابات والمدافع الثقيلة ستصبحان في هذه الحالة عديمة الحركة . الموقف بالنسبة للذخيرة حرج أيضا. بقي من الغذاء ما يكفي لسنة أبام » .

طلب فون باولوس وبالنظر للموقف الذي كان موجودا فيه الجيش السادس أن يعود إليه الأمر بنقير موضوع ترك ستالينغراد .

كان رد فعل هتلر الفوري على هذه المبادرة من فون باولوس إرسال الأمر التالي « على الجيش السادس أن ينخذ موقف الدفاع الدائري ، وانتظار الهجوم من الخارج الذي سيخلصه » .

في نهاية يوم ٢٢ تشرين الثاني تلقينا عددا من المعلومات تؤكد بأن الهجوم ينطور بنجاح .

ونم الإتصال في ٢٣ تشرين الثاني الساعة ١٦ بين وحدات الفيلق المدرع الرابع من جبهة جنوب - غرب بقيادة الرائد جنرال كرافتشنكو والفيلق الآلي الرابع لجبهة ستالينغراد تحت قيادة الجنرال فولسكي في قطاع قرية سوفيسنكي . كان في الجيب بعد أن أغلق نطاق التطويق : الجيش السادس الألماني وقسم من قوات الجيش المدرع الألماني الرابع ، أي ٢٢ فرقة وبمجموع عام ٣٣٠ ألف شخص .



جرى بعد الحرب العالمية الثانية جدل نظري حول الأحداث التي إنتهت بطوبق جيش فون باولوس ، وكذلك حول نفيهم ما حدث في الأيام الأخيرة لشهر تشرين الثاني ١٩٤٢ ، وهناك اختلاف في وجهات النظر حول هذا الموضوع ويقدم بعض المؤرخين حتى الوقت الحاضر وعلى رأسهم القادة الهتلريون السابقون مختلف العروض والنوقعات عما كان سيجري لو أن هتلر ترك حرية العمل لفون باولوس ، واستطاع فون باولوس الخروج بجيشه من التطويق وليس لمثل هذا الجدل النظري أية قيمة ولا يسحق الإجابة ، إلا إذا كان وراء ما نخدمه هؤلاء من عروض نظرية هو رد الاعتبار لمدرسة الحرب البروسية ، ورد الاعتبار لأنفسهم ، وذلك بإلقاء كل مسؤولية الهزيمة على هتلر ونزمتة ونسبته برأيه .

قالوا أن هتلر لو حده كان يتمتع بالسلطة المطلقة التي لا حد لها . وهي التي أدت إلى نورط الجيوش الألمانية في القتال في سهوب الدون ، والوصول بأي ثمن إلى ضفاف الفولغا ، وعندما حلت الكارثة لم يجد هتلر الحل الأمثل لها ، ورفض كافة المقترحات المعقولة التي عرضت .

لا أظن أبدا أن الجنرالات الهتلريين حتى الآن قدموا حججا معقولة ، والواقع أن أفضل العروض التي كان عليهم أن يقدموها لهتلر هي عدم دخول الحرب ضد الاتحاد السوفيتي ، لذلك بنى كل شيء على مخطط لا معقول وإجرامي ليس فقط أمام العالم أجمع ، ولكن أمام شعبهم نفسه أيضا .

فهل من المعقول إبنعادهم عن قواعد نموينهم الرئيسية في ألمانيا ، آلاف الكيلومترات وإطالة خطوط مواصلاتهم بهذا الشكل ، ثم الشروع بأن واحد بهجوم على القوقاز والإنفصاض على المدينة مقررنا الدفاع عنها بكل قوانا ؟ وهل من المعقول نورط جيشهم في معارك الشوارع التي لا نهاية لها ؟ والقيام بالهجمات المنوالية التي نكبدها فيها أفدح الخسائر ، في الوقت الذي أهملت فيه حماية الأجنحة ؟ وحتى زمن متأخر لم يرسل فون باولوس البرقيات التي تنم عن القلق ، ولم يخبر قيادته عما حصل في تشرين الثاني ، ولا الذين حضروا للدفاع عن سنالبنغراد في شهري آب وأيلول ، ولا عن المعارك الدموية العنيفة التي وقعت في الشوارع في شهر تشرين الأول . وإلا كان بإمكانهم منذ السابق

نصور الإنعطاف الذي كانت ستأخذه الأحداث فيما بعد .
لقد حضر الهجوم المعاكس الذي قامت به قواتنا على الفولغا من قبل كل
الجيش الموجودة بانجاه ستالينغراد ، ومن قبل كل البلاد بقيادة الحزب
الشيوعي .

ولنعد إلى تسلسل الأحداث في أيام نشرين الثاني الحرجة .
بدأ هجوم الجبهات جنوب - غرب الدون في ١٩ نشرين الثاني ، ومع ذلك لم
يبق فون باولوس جرس الإنذار ، وكان يسند أيضاً للهجوم في ستالينغراد .
لم يتوقع القادة الألمان حتى ١٩ نشرين الثاني ، ولم يفكروا بالهزيمة التي
ستحل بهم .

بالرغم من أن خطة القيادة السوفيتية ظهرت بوضوح ، عندما إنتقلت جبهة
ستالينغراد في ٢٠ نشرين الثاني إلى الهجوم مستهدفة تطويق كل مجموعة
القوات المعادية في ستالينغراد على شكل كماشة . ومع ذلك لم يفكروا أيضاً لا
بالتطويق ولا بالكارثة ، وكانوا لا يعتقدون بأننا تعلمنا طريقة حرهم حتى في
مسارح العمليات الكبرى .

ظل فون باولوس وقيادة المجموعة (ب) على إعتقادهم أنه باستطاعتهم
الخروج من هذا المأزق بإمكاناتهم الخاصة ، ولم يكن حتى ذلك الوقت ، قد
وصل أمر هتلر بالانتقال إلى الدفاع الدائري . لذلك زج فون باولوس بسرعة
باحتياطيه بالمعركة ، في الوقت الذي كانت فيه الدبابات السوفيتية تحكم الحصار
عليه بقوة .

وأخيراً أرسل فون باولوس في ٢٢ نشرين الثاني برقية اللاسلكية معلنا عن
الكارثة ، بعد فوات الأوان فقد أحكم الحصار عليه في ٢٣ نشرين الثاني وانتهى
الأمر .

ما العمل إذن ؟ والجواب الطبيعي هو إخلاء ستالينغراد من قوائهم وفك
الحصار .

ولنستأذن ونلقي هذا السؤال: كيف يمكنهم مواجهة تراجع قوائهم في ظروف
الوضع في ستالينغراد وظروف قتال السوارع ؟

كان على قوات فون باولوس للقيام بهذا الانسحاب أن تترك كل عتادها
المنحرك ، وكل أسلحتها الثقيلة وكل مدفعيتها ، وكنا سنتركهم يمرون ولكن
خلال شبكة نارية لها من الكثافة ، ما لا تسمح إلا لعدد قليل منهم بالخروج من

المدينة الخربة .

لم يكن كل جيش فون باولوس محشورا في المدينة ، فقد كان لديه كثير من القوات حولها ، وكان بإمكانه تركيزها على قطاع ضيق من الجبهة ، والقيام بضربة في ٢٣ أو ٢٤ تشرين الثاني للاختراق ، وإذا سلمنا بإمكانية تحقيق الاختراق ، تاركاً كل عناده ومدفعينه ، وخارجاً من المعركة وهو يقاتل ، لأن محروقاته كما اعترف هو بنفسه وصلت إلى نهايتها .

ماذا سيحدث للجيش السادس وهو ينراجع في مثل هذه الظروف الجوية : الثلوج ، العواصف والصقيع الذي يغطي الأرض . لقد فقد نابليون جيشه قبل أن يصل إلى نهر البريزنيا ، أما فون باولوس فسيفقد جيشه حتماً في السهوب . وعوضاً عن هذا القرار ، طلب هتلر من جنرالانه ومن فون باولوس الانتقال إلى الدفاع الدائري والنمساك بمواقعه حتى النهاية ، وبذلك ثبت هتلر قواته التي كانت تعد ثلث مليون شخص في دائرة حصار خمس جيوش من قواتنا من مختلف الصنوف ، وكانت هذه الجيوش الخمسة تستطيع في هذه المساحات العملياتية الواسعة أن تدعم هجومنا بقوة ، وتقدم لنا الإمكانيات للقيام بضربة على روسنوف والدون ويقطع كل مجموعة الحيوش (١ .) في القوقاز وحصرها في جيب عميق أيضاً كالجيب المحاصر فيه فون باولوس . لقد صمد جيش فون باولوس من ٢٣ تشرين الثاني حتى ٢ شباط . وفي السهوب شنت وحطم وأسر في بضعة أيام . لذلك لم يكن هتلر لوحده المسؤول ولكن أيضاً جنرالانه . فجميعهم كانوا مسؤولين عن المآسي والنعب الذي أصاب الجنود الألمان في ساليبنغراد .

لن أعطي لنفسي مهمة إعطاء جدول كامل عن الهجوم المعاكس السوفيتي في قضا . ساليبنغراد وكيف تطور . فقد تكلم عنه النين اشتركوا في الهجوم ولكن ساكنكم بشكل عام عن الأحداث التي جرت هكذا .

بعد أن أغلقت دائرة الحصار الداخلية على مجموعة العدو في ساليبنغراد . قررت القيادة السوفينية فوراً تشكيل جبهة تطويق خارجية لتطوير الهجوم الذي بدأ .

مركزت في نهاية يوم ١٣ تشرين الثاني وحدات المشاة من جيش الحرس الأول والجيش المدرع الخامس لجبهة جنوب - غرب ، بعد أن نفذت على مجاري الأنهار ، كريوشا وتشير ، على خط دفاعي قوي .

كما تقدمت وحدات الجيش ٥١ و فيلق الخيالة الرابع ، التابع لجبهة ستالينغراد إلى الأمام ، على خط غروموسلافا ، لأكساي ، أومانتسيف إلى الشرق من سادوفوي . وبفضل هذه الأعمال تمت عملية تطويق العدو بقوة من الطرف الغربي مثل ما هي في الجنوب .

توقعت سنافكا القيادة العليا أن يقوم العدو بمبادرة لتخليص القوات المطوقة لذلك أخذت تدابيرها قبل وقت ، وعززت الانجاء الخطر المنوفع أن تأتي منه الضربة التي ستقوم بها مجموعة الجيوش الجديدة (الدون) التي شكلها العدو بسرعة .

لقد أحبطت مبادرة بخليص فون باولوس ، ولقيت مجموعة الجيوش الجديدة (الدون) الهزيمة وظل التطويق محكماً بصلابة . وهكذا كانت معركة (كان) القرن العشرين تتويجا لفن الحرب .



ولنعد إلى الأحداث التي وقعت على جبهة الجيش ٦٢ . قلت فيما سبق أننا ابتعدنا عن الضفة اليسرى ، وهذا ما أنهكتنا ومنعنا من أن نسنعيد نشاطاتنا . وإني أورد هنا بعض المقطعات من بلاغات الجيش ٦٢ الموجهة إلى أركان الجبهة .

٢٤ تشرين الثاني لم تصل حتى الآن الوسائط القاذمة إلى تمامها وقد نعزل مخطط النقل لمدة ثلاثة أيام والامدادات المنووعة لم نعبّر النهر ، نعاني الوحدات من نقص خطير بالنخيرة والغذاء ، وقافلة المراكب التي إنطلقت من بوماك (رصيف تحميل على الضفة اليسرى من الفولغا) مع عناصر من لواء المشاة ٩٠ لم نستطع فتح طريقها عبر النهر وعادت من منتصف الطريق . لقد قطع الجليد كليا المواصلات مع الضفة اليسرى .

أغلقت في ٢٧ تشرين الثاني قناة الفولغا إلى الشرق من جزر غولودني ، وسبارينيسكي بطبقة سميكة من الجليد بشكل يعطل معه معبر نوماك ، ولم بعد يعمل ولم نصل أية مراكب بخارية أو مصفحة ، لذلك أوقفت أعمال إرسال النخيرة وإخلاء الجرحى .

أصبح الفولغا في ١٠ كانون الأول كله مجمدا ، كما أصبح العبور بالمراكب عبر الجليد ينفذ بصعوبة بالغة . ففي ٢٤ ساعة ، تم نقل ٢٠ طنا من الذخيرة و ٢٧ طنا من الغذاء فقط للضفة اليمنى .

أخذت قيادة الجبهة تقوم بتنظيم إيصال الذخيرة وبخاصة للغذاء عبر الفولغا عن طريق طائرات P.O2 ، ولكن لم يكن باستطاعة هذه الطائرات ، القيام بعمل كبير بسبب صعوبة رمي الحمولة على شريط أرضي لا يتجاوز عرضه مائة متر ، وأقل خطأ في الحساب يجعل الحمولة تهبط إما في الفولغا أو لدى العدو .

لذلك بدأت حمولات الذخيرة والغذاء نخف شيئا فشيئا ، ومن يوم إلى آخر ، وقطع الجليد كانت تنزل بشكل متواصل مع مياه الفولغا ولم نعد نرى نهاية لذلك . كما يبدو ..

وأخيرا جاء الفرج ففي الساعة الرابعة صباحا ، من السادس عشر من كانون الأول ، سمعت صجة مدوية فوق العادة وأصوات بكسر الجليد الحادة واصطدامه بالشاطئ ، جنبا لانباء الجميع . وكنا نحن أعضاء المجلس العسكري للجيش نتناول في ذلك الوقت طعامنا في ملجأ كنا نستخدمه كناد ميداني (بوبوت) . وعندما سمعنا هذه الضجة الداوية ، ركضنا نحو الضفة ، ورأينا كتلة من الجليد عظيمة الانساع ، تنفخ وراء جزيرة زابيسفسكى ونحطم كل شيء أمامها ، وكانت قطع الجليد نلأطم منها ما كان ببقنت ، ومنها ما كان يكبر ، بالانصاق مع غيره ، وكان المشهد أخاذا ، فهذه الكتلة السمكة من الجليد كانت تمتد على عرض النهر كله ، وسير ببطء حاذرة وراءها قطع الجليد . وكنا نتطلع بانتهاء لرؤية فيما إذا كانت نسير في طريقها أو تقف ، وفيما إذا كنا سنرى جسرا طبيعيا يصلنا بالضفة اليسرى ، أو فيما إذا كنا من حديد سنعود للمراكب والصراخ على الفولغا ، ونداءات النجدة التي كان يطلقها الغرقى أو المعطورون بالجليد . وأخيرا توقفت القطعة الكبيرة من الجليد أمام ملحننا ، واستقبلت بفرح عام من الجميع .

استدعيت مباشرة ضباط الهندسة ، وأمرتهم بنحضير فريقين أو ثلاث فرق من الجنود ونجهيزهم بالرفوش والحبال ، وجعلهم يمرون إلى الضفة الأخرى من الفولغا .

كانت المهمة بسيطة وهي الذهاب والإياب على الجليد للضفة الأخرى وعندما

ذهب الفريق كانت الظلمة سميكة . لذلك أخذ حمبنا ينتظر عودتهم بفارغ الصبر ، واضطر كل منا للذهاب إلى الضفة عدة مرات للإصغاء إلى أي صوت ينم عن تحرك جديد والعودة للحركة في مجرى النهر .

ولم يلبث أن عاد فريق المهندسين الأول في الساعة التاسعة مساء حيث أتم رحلة الذهاب والإياب دون عائق ، وشعرنا بأن كل شيء قد سكن وأصبحنا أخيراً بإتصال مباشر مع أرضنا الكبيرة .

وظهرت إضافة في نشرنا لليوم الثاني ، وهي كما يلي « اعتباراً من الساعة ١٧.١٢ صباحاً يؤمن تنقل المشاة عبر الفولغا عبر طريقتين من الصفائح الخشبية الممدودة على الجليد .

أوقف الوضع العصيب والمعقد الذي نحن فيه تنفيذ المهمة الملقاة على عاتق الجيش ، ومع ذلك كنا نغتنم كل فرصة ملائمة أو ظهور عثرة لدى العدو لتوجيه ضرباتنا إليه واستعادة أرضنا ومسقط رأسنا منرا بعد منر .

معلوم أنه لم يكن باستطاعة الجيش تدمير العدو الذي نفذ على الفولغا في قطاع مصانع باريكادي بهجمات من الوية المشاة التي لم يكن لديها دبابات أو قوات احتياطية أو طائرات .

ولكن ما العمل ؟ وكيف سنقوم بنجدة فرقة ليودنكوف ؟

وهنا أيضاً كانت مدفعيتنا المتمركزة على الضفة اليسرى من الفولغا ذات فائدة كبيرة لنا : لذلك قررنا إنهاك العدو بنيرانها ، ولكن لتحقيق ذلك هناك صعوبات من الواجب تذليلها قبل الرمي ، ومن الضروري تنفيذ الرمي بدقة متناهية على كل نقطة للعدو لذلك يجب أن يكون المدفعيون ورماة الهاون والمسندون مهرة في الرماية وبوجد لدينا من هؤلاء عدد كبير ، ولكن تسديد الرمي من الضفة اليمنى كان صعباً ، لان الإنصال الهاتفي عبر الفولغا كان معرضاً للانقطاع الدائم بسبب الجليد ، والإنصال بالراديو كان سيئاً أيضاً لذلك أخذنا نفتش عن وسيلة عملية .

لاحظنا على الأرض المحنلة من قبل العدو . من الشمال والجنوب اعتباراً من الفولغا وحتى الخطوط الأمامية نقاط علام مرنية جيداً من الضفة اليسرى للنهر . وعلى هذا الأساس واعتماداً عليها حددنا ممراً عرضياً من ٦٠٠ إلى ٨٠٠ متر ينمركز فيه الفاشيون وكان رجال مدفعيتنا يرون جيداً المعر من الضفة اليسرى ، وبإمكانهم نصحيح رمياتهم من هناك دون خطأ على نقاط

رمي العدو .

لقد غدا تسديد الرمي محكماً وذلك بتواجد ضباط كانوا يراقبون ويصححون إنحراف أي هدف ليقع في مساره الصحيح . وينقلون كل عناصر الرمي إلى مرصد المدفعية الذي كان ينقلها بدوره إلى مرايض المدفعية .

كانت وحدات المشاة التابعة لفرق ليونكوف وغوريشني تتابع تأثير رمي المدفعية التدميري على العدو وتقترب شيئاً فشيئاً منه حتى مسافة رمي القنبلة اليدوية وعن طريق الإشارات الضوئية ، كانت المدفعية توقف الرمي وعندها كانت مجموعات الانقضاض وبوئبات قصيرة وسريعة تنقض على العدو المنمرکز في تحصيناته الفرية وأقبية المنازل . وبعملياتنا هذه بدأت قواتنا تقدمها إلى الأمام ، ولكن الصراع كان طويلاً ومريراً ، ولكي نعطي فكرة عن طبيعة هذه المعارك سأورد هنا بضع فقرات من نشرة الجيش .

٢١ كانون أول واصلت فرقة ليونكوف منذ الساعة الخامسة صباحاً الهجوم باتجاه الجنوب الغربي وبالرغم من المقاومة العنيفة التي أظهرها العدو احتلت قواتنا أربعة بيوت على الجناح الأيمن للعدو وتقدمت ١٠٠ - ١٢٠ متراً وصدت ثلاث هجمات معاكسة واستولينا على خمسة رشاشات وأخذنا أسيرين من لواء المشاة ٥٧٨ وفرقة المشاة ٣٠٥ .

« أخذت فرقة غوريشني نهاجم منذ الساعة الخامسة صباحاً باتجاه الشمال الغربي وتغلّبت على المقاومة العنيفة للعدو ، وطوقت وأبادت بضع حاميات ، وبعد اشتباك جسم إلى جسم (مع استعمال واسع للقنابل اليدوية) احتلت هذه القوات غرفة المحول التي جهزها العدو لتكون نقطة دفاع ثابتة لها وأصبحت سيدة البناء الذي كان يحوي على ستة ملاجئ مغطاة ببلوكوسين وتواصل القتال ، ثم حاول العدو تثبيت الموقف وقام بهجمات معاكسة صدت جميعها بنجاح » .

« الغنائم : ثلاثة رشاشات ستة مسدسات رشاشة (رشيشة) ٣٥ بندقية ٣٠٠ قنبلة يدوية ، تدمير أربعة تحصينات (بلوكوس) ميدانية وترك العدو في ملاجئه أربعين جثة » .

« ٢٣ كانون أول واصلت فرقة ليونكوف الهجوم باتجاه جنوب - غرب وأبدى العدو مقاومة ضارية ، قام بهجومين معاكسين بقوى متفوقة من سريتين ولكن هذه الهجمات صدت بحسرة فاحشة تكبدها الخصم » .

« استعدنا عمارتين وترك العدو في إحداهما ثلاثين جثة وقد واصلت حضائر

الانقضااض القتال للسيطرة على عمارة كبيرة مربعة على ضفة الفولغا .
« تابعت فرقة غوريشنى الهجوم باتجاه الشمال الغربي وبالرغم من المقاومة
الشديدة واصلت القوات تقدمها قليلاً قليلاً ، وتم الإتصال المباشر مع فرقة
ليودنكوف » .

وبموجب أمر ستافكا القيادة العليا الذي وصل في صباح الرابع والعشرين تم
فيه نقل الفرق وبخاصة المنهكة منها في المعارك المستمرة « الفرقة ١١٢
ايرمونكين ١٩٣ سميخونفوف فرقة الحرس ٣٧ جولوديف ، ولواي مشاة من
الجيش وألحقت جميعها بالاحتياطي العام ليعاد تشكيلها .

وفي مثل هذه الحالة وكقاعدة عامة يحضر قواد الفرق الألوية ، وحتى
الكتائب إلى مقر قيادة الجيش لأخذ الإذن قبل إنسحابهم للضفة اليسرى من
الفولغا .

كان الفراق شاقاً بين الأصدقاء ، وبخاصة رفاق السلاح ، وعندما كنا نتبادل
الوداع كنا نستعيد تجاربنا المشتركة ، ونتذكر كل معركة وكل هجوم معاكس .
أثار في نفسي مغادرة هؤلاء الرؤساء ، الذين عشنا معهم عيشة مشتركة وأياماً
صعبة وذكريات مريرة ، وعندما كنت أودعهم اسنرجع بذاكرتي ، كيف كانت
قوانهم نأتى للدفاع عن المدينة باسعداد كامل ، وتفتخر بالمهمة التي كلفت بها
بسرعة وحرم ، وتدخل في القتال حال وصولها إلى معابر الفولغا .

كان المجلس العسكري يتلقى كل صباح لائحة عن الجرحى الذين نقلوا إلى
الضفة الأخرى من الفولغا والوحدات التي كانوا ينتمون إليها ، لكى نحصى
مفقوداتنا من جنود المشاة ورماة الرشاشات وسدنة الهاونات والنبابات
والمدفعية ، ورجال الإشارة النابعين للجيش . وبهذا كان الجيش ينقص عددياً كل
يوم بسبب هذه الخسائر ، ولكن هذا النقص لا يعنى ضعفاً في قدرته القتالية ،
بل كان على العكس يزداد قوة أكثر من أي وقت مضى ، فهو بعد صده أي هجوم
تفوى ثقته بنفسه ، وبسلاحه ، ويكتسب الخبرة القتالية .

إنى أتذكر الفرقة (١١٢) أ . سولوغوب التي بدأت القتال في وقت مبكر على
ضفة الدون الأخرى ضد الغزاة الألمان ثم على نهر نشير وكانت في ذلك الوقت
قسماً من الجيش ٦٤ ، وقد صدت هذه الفرقة هجوم الفيلق ٥١ من جيش فون
باولوس ، عندما قام بهجومه على مؤخرات الجيش ٦٢ ، ولم نتراجع خطوة
واحدة للوراء ثم قاتلت ببسالة على شاطئ الدون ، حيث سقط قائدها العقيد

إيفان بينزوفتش سولوغوب كبطل .

كنت أشاهد دائما ذلك القائد بقامنه الطويلة وطلعته البهية ، كان الابن المخلص للشعب السوفيني ، الذي لم يحن رأسه أبدا أمام قذائف الفاشيين . ونعود بي الذاكرة إلى يوم صيفي حار في نهاية تموز ١٩٤٢ عندما كنت وسولوغوب على المرتفع ١١٦,٦ في شمال بلدة ريتشكوفسكي على الضفة اليمنى للدون وكنت أعطيه مهمة فرقته ، وبغثة اكتشف العدو ، دون شك وجونا ، وفنح النار بمدفعينه عيار ١٥٥ على المرتفع ، ثم أخذت الشبكة النارية تضيق علينا وكنا نرى اقتراب الفنايل المتجهة نحونا والتي ستنفجر بالقرب منا أو على قمة المرتفع ، وعندها اقترحت على العقيد أن يذهب للأركان ، نظر إلي قائلا :

- وأنت هل ستبقى ؟ كيف علي أن انسحب قبلك من هذا المرتفع ؟ هدأته قائلا ليس هذا نراجعا ، ولكن عودة القائد من الاستطلاع نحو قواته لكي يوجهها إلى الأمام .

كان السير في هذه السهوب المكشوفة والمسطحة كالطاولة تحت نيران مدفعية العدو الثقيلة ليس بالعمل المسنحب . ولكن سولوغوب سار أمامي دون أن يحدث خطأ . ثم أصيب أحد أركان فرقته الذي كان برفقته ، وجرح بفعل قنبلة انفجرت بقربه . واقترب سولوغوب منه بهدوء ، وحمله تحت ذراعه ، وبدأ الاثنان بالنزول معا من المرتفع . ولحقت بهم في الوادي حيث وجدت قائد الفرقة سولوغوب يضمم جراح معاونه .

وجدت مع الفرقة مرة ثانية في ١٢ أيلول على شاطئ الفولغا بعد أن أصبح قائدها العقيد سولوغوب .

أ - إيرمولكين . كانت الفرقة تناور في المدينة من كورغان مامايف إلى وادي فيشينوقايا إلى مصنع تراكتورني . ونقاط أخرى . حيث كان العدو يفكر بالهجوم علينا . وقد اشتركت بأكثر من مائة اثنيباك ، وأكثرها كانت على المحور الرئيسي للهتلريين .



كانت وحدات وأقسام فرقة الحرس ٣٩ غورييف تعمل في منطقة مصنع كراسني أوكنيابر ، وفي الرابع والعشرين من كانون أول بدأت بهجومها على

المصانع التي كان يحتلها الفاشيون .

واستطاعت في نهاية النهار حضائر الانقضااض من الفرقة المذكورة تنظيف معامل العيارات والسحب ومعامل الصناعات الميكانيكية من الفاشيست ونفنت على المحيط الغربي للمصنع وبذلك استطاعت إنهاء التطويق المعادي لها ، وقد أظهر العدو مقاومة ضارية جدا ورافضا الانسحاب من المصنع نحو الغرب ، حيث البيوت الخربة والسماء المفتوحة .

وبعد استراحة قصيرة عاد جنود الحرس في ليل ٢٥ كانون أول للهجوم . وتتابع القتال وكان يدور على الغالب وجها لوجه وبالقتال القريب بالقنابل اليدوية حتى الصباح . وعادة لا يستطيع الهنريون في القتال القريب الصمود أمام مهارة وخفة حركة وصلابة حضائر الانقضااض ، لذلك لم يكدرتفع الضوء حتى كان المصنع ، قد تحرر تماما من الغزاة .

لم يستطع الهنريون أن ينجحوا بالنمساك إلا في بناء الإدارة الرئيسي الذي تحول إلى نقطة دفاعية منيعة ، ولكن خلال بضعة أيام طوق البناء ، وأزيل المدافعون عنه من قبل حضائر الانقضااض النابعة للفرقة ٤٥ سوكولوف . كانت الفرقة ٤٥ بقيادة المقدم سوكولوف ومساعدة المفوض السياسي اللواء غلامازاد ، الذي كان يقود عمل الحزب بكفاءة لتنفيذ المهمات القتالية .

زجت ألوية وأفواج هذه الفرقة في القتال حال عبورها الفولغا دون تأخير . لأن الموقف لم يكن يسمح بغير ذلك ولم يكن هناك وقت للاستطلاع أو التجمع ... إلخ ، ولكن الأعمال التي جرت فيما بعد أظهرت اسنعداد هذه الفرقة الجيد من جنودها إلى ضباطها . وقائد الفرقة فاسيلي بافيلوفتش سوكولوف الذي وصل إلى ستالينغراد في نهاية تشرين الأول برتبة مقدم ، ترك ستالينغراد برتبة رائد جنرال كما حصل ضباط آخرون على مثل هذه الترقيات .

وبعد أن حقق سوكولوف إتصاله مع فرقة ليودنكوف . احتل مصنع كراسني أوكنبابر ، وأصبح الفولغا الهاديء المغطى بالجليد وراء ظهره . وأدى ذلك إلى تمكن الجيش من المناورة بحرية أكثر ، وتحضير ضربات أعنف للعدو .

وللنبال مع العناصر والوحدات الموضوعة في احنياط الستافكا ، شكلت منطقة ميدانية محصنة تحوي على إدارة للعمليات وبعض التشكيلات المجهزة بوسائط نار قوية والحققت بنا ، ولم تكن مهياة للعمليات الهجومية ، بل كان بإمكانها أن تنفذ مهمتها في الدفاع .

كانت هذه الفرقة تمتلك فن المناورة والفضل يعود بالطبع إلى قائدها وأركانها ، لذلك كانت نصل دائماً في الوقت المناسب وفي أشد الحالات ضراوة لصد ضربات العدو متفوق بالعدد .

تعرفت أيضاً على الفرقة ١٩٢ بقيادة سميخوتفوروف في الجيش الأول الاحتياط في آذار ١٩٤٢ عندما كانت لا تزال قيد التشكيل . ومنذ ذلك الوقت تعرفت على الجنرال فيدورنيكاندروفش سميخوتفوروف . وفي النمارين التكتيكية التي كنا نقوم بها في قطاع تولا . وقد قدم سميخوتفوروف البرهان على معرفته بالقتال المعاصر وسرعة البديهة .

كلفنا هذه الفرقة بعد وصولها إلى سنالينغراد بمهمة الدفاع عن مصنع كراسني أوكنيابر ولم تمنح لها فرصة المناورة ، ولكنها صدت عشرات الهجمات العدو المتفوقة كثيراً عليها . إن جنود هذه الفرقة وضباطها ، وعلى رأسهم الموجهون السياسيون ، الذين كانوا لا ينظرون إلى ورائهم مطلقاً . وإذا كان الهتلريون قد نجحوا في اختلال شارعين أو ثلاثة في أسبوع ، إلا أنهم تكبدوا خسائر فادحة ، وحتى في أكثر الأيام رهابة لم يظهر قائد هذه الفرقة أية إشارة تدل على الضياع . كان صوته منزناً وهائناً ولا يزال يرن في أذني حتى الآن . في تلك الأيام حيث كانت الطائرات المنقضة تحلق فوق الغرفة . وكان الهواء يهتز من كثرة انفجارات القنابل والقذائف ، وعندما كنا نسمع بسماعة التلفون زمجرة أصوات الطائرات المنقضة الفاشيستية كان سميخوتفوروف يبدو في ذلك الوقت أكثر هدوءاً ، وكان يقول قنال ألويته وأفواجه من مقره الواقع على بعد بضعة مئات من الأمتار من الخطوط الأولى .

تمسكت فرقة سميخوتفوروف مع قائدها بمواقعها حتى الموت وشتت الألوية والفرق الهتلرية ، ولم ننراجع مطلقاً ولم نترك المدينة ، حتى عندما طوقها العدو ولم يعد بإمكانها الهجوم ، وأصبحت بوضع المدافع .

في ذلك اليوم ودعت أيضاً الجنرال فيكتور غريغورييفتش جولوديف كان الهتلريون قد احتلوا مصنع نراكتورني واسنطاعوا تحقيق الخرق عبر فرقة جولوديف ، ولكن هذه الفرقة التي فتحت، كلفت العدو غالياً بالأشخاص والعتاد مما جعله لا يستطيع متابعة الهجوم ، ولم تسنطع فرقة أو فرقان هتلريتان الخرق عبر ألوية الفرقة ٣٧ بل خمس فرق منها فرقان مدرعتان.

تمركزت القوات المذكورة في بادىء الأمر على جزر القولغا سبورني ،

زايتسيفسكي و غولودني . ثم حلت بعد ذلك محل وحدات ليونكوف وروديميسيف .

كانت مهمة محاربي هذه المنطقة المحصنة عدم ترك العدو الاقتراب من الفولغا فيما إذا جرب الخروج من التطويق نحو الشرق عبر النهر . قرر المجلس العسكري للجيش فوراً احتلال كورغان مامايف والنمسك به بقوة ثم استخدام المدن العمالية . لكي يتم القضاء عليها بعد بعد تجزئتها إلى مجموعات صغيرة .

كان بإمكان الجيش استخدام فرقة باتيوك لاحتلال كورغان مامايف وفرقة سوكولوف وغورييف ولواء مشاة البحرية شترنفول ، لطرد العدو من مرتفع ١٠٧,٥ .

كما كان على فرقة غوريشني بسيرها باتجاه مدينة باريكادي نغطية العمليات من الجهة الشمالية .

وقع على عاتق فرقة روديمنسيف تأمين الجناح الأيسر للجيش بعمليات نشطة في القسم الأوسط من المدينة .

أما فرقة ليونكوف فقد وضعت بالنسق الثاني لأنها كانت بحاجة لإعادة تنظيمها .

كنا نعرف أن مجموعة الجيوش الهتلرية المطوقة نعد أكثر من عشرين فرقة ، والحقيقة أنها كانت نعد ٢٢ فرقة أي أكثر من ٣٠٠ ألف جندي وضابط وجنرال ، وقد وجدت هذه المجموعة القوية نفسها مطوقة ومحاصرة بين فكي الكماشة الحديدية لسبعة جيوش بما فيها جيشنا الـ ٦٢ .

من بين هذه الفرق المطوقة ست فرق مشاة هي (٧٩ - ٩٤ - ١٠٠ - ٢٩٥ - ٣٠٥ - ٣٨٩) . بقيت في مواجهة الجيش ٦٢ وعززت بخمسة أفواج هندسة مستقلة ، أرسلت من قبل هتلر للانقضاء على سنالينغراد في تشرين الأول . ولكن لماذا ثبت فون باولوس نفسه أمام الجيش ٦٢ وكتل أمامه قوى كبيرة . لذلك اصطدمت قوتنا عندما قمنا بالهجوم على كورغان مامايف ومن كراسني أوكتيابر ضد المرتفع ١٠٧,٥ ليس فقط بمقاومة ضارية من جانب الهتلريين ولكن بهجمات معاكسة وشرسة .

يضاف إلى ذلك استخدام العدو بفعالية ، أقوى العمارات وأقوية المنازل السكنية وحولها إلى نقاط اسناد ، نتيجة للتجربة المرة والقناعة بأن القتال على

جبهة متصلة بالمدن كان مسنحياً إن كان في الدفاع أو الهجوم ، وذلك حسب القواعد النكتيكية للقنال خارج المدن ، وقد سببت نقاط الاستناد هذه تعباً كبيراً لنا .

ولكى يتم تدمير نقطة الاسناد العدو التي كانت في مبنى الإدارة في مصنع كراسني أوكنيابر ، بذل رجال أحد حضائر الانقضاض من فرقة سوكولوف جهداً كبيراً لإحداث خرق في أحد الجدران القوية بواسطة مدفع قذاف من عيار ١٢٢ ، جىء به مفككاً إلى الجزء المحتل من قبلهم ، ثم أعيد تركيبه في المكان . وأدخلوه في العمل . وبعد عدة ضربات قوية فنحت ثغرة في الحائط وهكذا إنتهى وجود الحامية الفاشية .

كانت الشوارع والساحات في المدينة . كما هو الحال في السابق . خالية . فلا نحن ولا العدو باستطاعتنا التحرك بشكل مكشوف . وكل من يظهر رأسه دون حذر ، أو بجواز الشوارع راكضاً ، سبنلقى حالاً طلقة من أحد الرماة المهرة أو يصاب برشة مسدس رشاش .

وفي الوقت الذي كان فيه الجيش ٦٢ محشوراً على ضفة الفولغا ، ويعمل لتحسين مواقعه بعد إتصاله بالفرقة المعزولة ليودنكوف ، كانت المعارك الضارية تدور خارج ستالينغراد ضد القوات المعادية التي حاولت فتح طريق من الجنوب . والجنوب الغربي باتجاه القوات المطوقة غرب ستالينغراد . وقد شكلت القوات السوفيتية جبهة تطويق خارجية في الاتجاهات المحتملة لتخليص القوات المطوقة التي كانت مؤلفة من وحدات الجيش السادس وقسم من الجيش المدرع الرابع ، ونعود القوات السوفيتية المذكورة إلى جبهتي جنوب غرب وستالينغراد الأولى على بعد ١٦٥ كم ، والثانية على بعد ١٠٠ كم والمسافة بين جبهتي التطويق الخارجية والداخلية كانت منغيرة . وهي بحدود (١٠٠) كم على جبهة جنوب - غرب و ٢٠ - ٨٠ كم على جبهة ستالينغراد .

كان من الضروري إزالة المجموعة المطوقة بأسرع ما يمكن مع التمسك بجبهة التطويق الخارجية . ولتحقيق ذلك كانت هناك حاجة لفترة من الوقت لإيجاد قوة إضافية ، وفي التقرير الذي رفعه رئيس الأركان العامة .

١ - فاسيليفسكى إلى القيادة العليا ، قدم نقيماً صحيحاً للموقف : « سيخمر الهلربون دون شك قطعانهم المحاصرة في ستالينغراد رغم جميع التدابير التي اتخذوها ، وما يمكن أن يقدموه ، وأقصى ما يمكن أن يحصلوا عليه من

مساعداً ... « ... » وسنابع قوات الحبهات الثلاث المنمركزة على حنبه البطويق الداخليه اعسارا من ٢٤ شربين الاول عملابها النشطة لاناء العرب المحاصر رغم عدم وجود أى بجميع للقوات او أى بحضرات مكمله لتلك العمليات .. « .

باعت قوات الحبهات الثلاث - فى الواقع - تنفيذ مهمابها بين ٢٤ - ٣٠ - ٣١ - الاول ولكن دون أن تنجح بنفكك أو نحرنة القوات المحاصره إلى افساد « كان هناك خلاف فى الراى فى الأوساط العليا للفيرماخت ، هل تحت سحب قوات فون باولوس المحاصره نحو الجنوب الغربى أو تركها فى مكابا . ونكر هنلر وضع حدا نهانيا لهذه الإفتراحات : « ببفى الحبش السادس فى مكانه الموجود فيه حاليا ، وبشكل حامية قلعة ، وواحد المدافعين عن هذه القلعه الصمود للحصار أطول مدة ممكنة » .

شكلت القيادة الألمانية مجموعة جديدة سميت مجموعة « الدون » بمهمه فت الحصار عن قوات فون باولوس ، بين مجموعة الجيوش (A) ومجموعة الجيوش (B) وتتألف من المجموعة المختلطة الجرمانية - الرومانية (هوليت) وما تبقى من الجيش الرومانى الثالث ووحدات ألمانية . ومجموعة من القوات المشننة أعيد تشكيلها على شكل مفارز مبر ، ومجموعة جيوش (هوت) المؤلفة بشكل رئيسى من أقسام الجيش المدرع الرابع التى نجب من التطويق ثم من قلول الجيش الرومانى الرابع ، وكان جيش فون باولوس السادس من ضمن مجموعة جيوش الدون ، وبدعم هذه المجموعة الجيش الجوى الرابع ويحوي على أكثر من ٥٠٠ طائرة . وكان على رأس مجموعة (الدون) الجنرال فيلد ماريشال (مانشتاين) . وقد كلف بقيادة العمليات التى تستهدف تخليص قوات فون باولوس من الحصار .

كانت مجموعة جيوش الدون تعد فى اليوم الاول من كانون أول (عدا قوات فون باولوس المطوقة) أكثر من ثلاثين فرقة ، منها ست فرق مدرعة وواحدة آلية ، وكانت تعمل ضد جبهة ستالينغراد مجموعة جيوش هوت ، التى كانت أقوى المجموعات الألمانية فى الجنوب بين الفولغا والدون حيث تكتلت قواتها الرئيسية فى قطاع كوتلنكوف .

أكد غورينغ لهنلر أن الطيران الألمانى يعون جيش فون باولوس بكل ما هو ضروري وبحاجة إليه .

قررت مجموعة جيوش الدون ، لـخـلـبـص المجموعة المحاصرة نحـمـيل الجهد الرئيسي للمجموعة الصدامية (هوت) ، التي كانت تضم وحدات الجيش المدرع الرابع ، وعددا من الفرق استدعيت من القوقاز في الشمال . ومن أمام فورونيج وأورال ، كما وصلت تعزيزات من ألمانيا من بينها حـبـابـات تـيـجـر (النمر) التي كانت مصفحة بسماكة ١٠٠ مم ومسلحة بمدفع من عيار ٨٨ . وفي بداية الهجوم المعاكس ، كانت مجموعة فون هوت مؤلفة من أربع فرق مدرعة ، وفرقة مشاة ، وثلاث فرق جوية ميدانية ، ومفارز وأقسام مختلفة من احتياط القيادة العليا ، ومهمتها الهجوم إلى الشرق من الدون على طول الخط الحديدي كوتلنكوفو - ستالينغراد وفتح الطريق حتى الجيش السادس ، وقد حددت بداية عملياتها في ١٢ كانون الأول .

كلفـت القيادة العليا السوفييتية الجبهات مهمة توسيع الدائرة الخارجية للطوق من ١٣٠ كم - ٢٠٠ كم باتجاه الغرب ، لكي تستغل النجاح الذي حققته في هذه الفترة . كما أعطي الأمر أيضا لقوات جبهة جنوب - غرب . والجناح الأيسر لجبهة فورونيج بنحضير وتنفيذ هجمات باتجاه روسنوف وليخابا . وتقرر خلال هذه العملية ، التي أعطى لها رمز (سانورن) تدمير الجيش الإيطالي الثامن والوحدات الألمانية ، التي كانت تتراجع باتجاه نهري تشير والدون . وكان من المتوقع البدء بهذه العملية في منتصف شهر كانون الأول . كما تلقت جبهات الدون وستالينغراد بدورها توجيهها بالعمل على تفكيك مجموعة العدو المطوقة في قطاع سنالينغراد . ومن ثم إيايتها ، ولكن لم يكن بالإمكان القيام بهذا العمل قورا . لأن قواتنا كانت خائفة القوى بسبب المعارك السابقة التي خاضتها ، ولم تكن حتى ذلك الوقت متأكدين من قوة وعدد القوات المحاصرة في حيب سنالينغراد ، أما فون باولوس فقد دفن نفسه وقواته في الخنادق ، وأخذ في تقوية مواقعه الدفاعية وعلى هذا فقد بدأت ستافكا القيادة العليا بنقل جيش الحرس الثاني بقيادة الراند ميرال مالمينوفسكي من احتياطها ، على جناح السرعة لمساعدة جبهة سنالينغراد . وكان من الضروري تأجيل عملية تفكيك مجموعة فون باولوس إلى وقت آخر ، بعد أن أخذت الأحداث تتجه انحائها آخر .

هبت مجموعة جيوش العدو « الدون » ضربتين باتجاه سنالينغراد ، الضربة الأولى انطلاقا من كوتلنكوفو والضربة الثانية انطلاقا من تورموسين . ومن الإنصاف أن ننظر بعين التقدير والإعجاب بالنشاط العملياتي الذي قام

به خصمنا حيث وجه ضربة قوية إنطلاقاً من قطاع كوبلنكوفو ، منذ الناني عشر من شهر كانون الأول ، واستغلت مجموعة العدو بفوقها على قوات الحرس ٥١ التعبئة ، وأخذت تتقدم بانجاه سنالينغراد ، وكما هي العادة فقد استخدم العدو الثنائي الطائرة - الدبابة إلا أنهم لم ينجحوا بخرق الجبهة ، ورغم أن فرق الجسر ٥١ تخلت عن الأرض ، إلا أنها قاومت العدو وكبدته خسائر فادحة .

شعرنا نحن الذين كنا في سنالينغراد بأن القوات المحاصرة أخذت تسعد شجاعنها ، وعلمنا من الأسرى أن قيادة الجيش السادس كانت تنتظر بين لحظة وأخرى بداية الهجوم واللقاء مع القوات التي جاءت لنجديها وفك الحصار عنها . استطاع الهنريون رغم الخسائر الفادحة التي كبدوها وأعداد الجنت التي تركوها ممدّة على الأرض ، والعتاد المدرع الذي دمر ، التقدم بهجومهم ، واجتياز نصف المسافة إلى سنالينغراد خلال أربعة أيام وعبروا ، مجرى لاكساي . ونفذوا على نهر ميشكوف .

كنا ننتظر هجوماً جديداً إنطلاقاً من توروموسين بين ساعة وأخرى ، واتخذت قيادتنا العليا في الوقت المناسب التدابير الضرورية لذلك ، فقد أعانت توجيه قوات جبهة جنوب - غرب ، والجناح الأيسر لجبهة فورونيج بشكل لا يجعل الهجوم يسير بوضوح نحو الجنوب بانجاه روسنوف ولكن نحو الجنوب - الشرقي مغلّفاً مجموعة الجيوش العدو في موروزوفسكايا ونورموسين وبذلك تقدم هجومنا عن الهجوم الألماني من نورموسين ، ثم زجت القيادة قوات الجبهتين . جنوب - غرب وفورونيج في ١٦ كانون الأول ، ودخلت في باربخ الفن العسكري كعملية باسم (سايورن الصغرى) .

استطاعت قوات الجبهتين بعد تحطيم مقاومة العدو على نشير والدون . وباندفاع ساحق ضرب الجيش الإيطالي التامن والمجموعة العملياتية (هوليدت) ، التي كانت تغطي الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش (الدون) ، ووصلت في اليوم الثاني إلى تاتسينسكي وموروزوفكا ، مغلقة الجناح من الغرب ومشرفة على مؤخرات مجموعة الجيوش (الدون) . ولكي ينقذ مانشتاين الموقف ويتفادى هزيمة كاملة ، زج من جناحه الأيسر مجموعة الجيوش تورموسين ، وسحب من خط نهر ميشكوف الفرقة المدرعة السابعة والتي كانت تعمل مع مجموعة كوبلنكوفو ، وبذلك خف الضغط على جبهة الجيش ٥١ . نجح مانشتاين في الرابع والعشرين من كانون الأول في تثبيت الوضع لوقت

قصير في قطاع موروزوفكا ولكنه في قطاع ميشكوفاجعل قواته معرضة لهجوم قواتنا .

أجلت القيادة العليا السوفيتية بعض الوقت تدمير القوات المطوقة في قطاع ستالينغراد ، وقامت بنقل الجيش الثاني للحرس على جناح السرعة إلى خط ميشكوفاجلصد مبادرات مجموعة جيوش « هوت » لفك الحصار . ودخل جيش الحرس الثاني مباشرة في العمل مع فرق الجيش ٥١ وأوقف هجوم الألمان على ميشكوفاجو أعطى للقيادة السوفيتية الإمكانية لجلب قوى جديدة لهذا القطاع من الجبهة . وفي نفس الوقت الذي أوقف فيه مانشتاين الهجوم السوفيتي على موروزوفكا في ٢٤ كانون الأول ، قامت قواتنا بهجوم على /كوتلنكوفو/ بقوات جيش الصدمة الخامس وفيلق الحرس الآلي الثاني والفيلق المدرع السابع ، والفيلق الآلي السادس . وفي ٢٩ كانون الأول لم يعد لمجموعة كوتلنكوفو المعادية وجود ، وأصبح الطريق مفتوحا إلى روسنوف ، وبدأ مانشتاين ، يقاتل وهو ينراجع لكي يتجنب تطويقا جديدا . وذهبت محاولات القيادة الألمانية لتحرير قواتها من الحصار في ستالينغراد سدى . وقد ارتد النطاق الخارجي ، للجبهة إلى مسافة ٢٠٠ - ٢٥٠ كم من ستالينغراد اثر العمليات في كانون الأول . أما مجموعة الجيوش (A) التي كانت تعمل في القوقاز فقد أصبحت مهددة هي الأخرى بكارثة ، بسبب تقدم قواتنا باتجاه روسنوف الذي يمكن أن يمنع تراجعها من القوقاز لذلك أخذت بالتراجع على جناح السرعة بأمر هتلر ، وهكذا ننت لحظة إبادة مجموعة جيوش فون باولوس المطوقة .



أظهر الجنود الهتلزيون مقاومة ضارية في أيام الحصار الأولى . فقد كان الضباط والجنرالات الألمان دون شك يخفون بعناية وصول الأخبار إلى الجنود عن الكماشة السوفيتية التي أغلقت عليهم في كلاتش وعلى كل حال عندما علم الجنود الألمان بالموقف أخذ هؤلاء يؤكدون لهم أن قوات مجموعتي مانشتاين وهوت القويين نجهان لنجدتهم وعاشوا بالأمل حتى نهاية كانون الأول وهم يقاتلون بياس .

أخذت معنويات القوات المحاصرة تهبط بشكل محسوس بعد هزيمة مجموعة

مانشناين ، وبعد أن طرقت قوائنا الغزاة بأجاء خاركوف ولوكانسك وروستوف على الدون . وقد توقف الأمل بالخرق والتمرير ولم يقتصر ذلك على الضباط والجنود بل تعداهم إلى الجنرالات أيضا .

وفي إزاءها الموجهة للجنود الألمان أخذت المنظمات السياسية بحدثهم عما ينتظرهم بعد فترة قليلة جداً ، وقد علم الجنود أن نموبن مجموعة الجيوش المطوقة التي تعد ٣٠٠ ألف شخص بالغذاء لا يتم إلا عن طريق الجو . ولكن من أجل حماية الطائرات الناقلة للغذاء والخبرة والمحروقات كنا نقول في إحدى إزاءنا أن ذلك يحتاج إلى عدد كبير من الطائرات المطاردة ، التي هي في الوقت الحاضر ضرورية لهتلر في القطاعات الأخرى للجبهة « لهذا السبب . أبها الجنود والضباط الألمان ، سنبط عاجلاً مخصصاتكم اليومية إلى ١٠٠ غ من الخبز وعشرة غرامات من اللحم » .

لقد ساعدنا الشيوعيون الألمان ولجنة ألمانيا الحرة ، كما نحدث فولتر أولبرخت شخصياً في ستالينغراد إلى الجنود والضباط المطوقين عن حقيقة ما يجري في الجبهة وفي ألمانيا .

وصل إلى مركز قيادة الجيش في الأيام الأولى لشهر شباط قائد جبهة الدون كوسباسين روكوسوفسكي ، وعضو المجلس العسكري للجبهة رائد جنرال بيليين وفاند مدفعية رائد جنرال كازاكوف بعد أن اجنازوا بالسيارة الفولغا على الحليد الذي يغطيه .

أخذ روكوفسكي منذ نزوله من السيارة بقرب مخبأ أركان الجيش بسنوضح طويلاً ، كيف ؟ وأين كنا أثناء فترة المعارك والحرائق .. عندما كانت القوات الألمانية خلال محومها نطير المدينة بآلاف و آلاف القنابل ؟

وعندما أصبح قائد الجبهة في المخبأ جلس على مقعد من تراب وأمامه طاولة من تراب ، وأخذ يشرح لنا باختصار خطة إبادة مجموعة العدو المطوقة . ويعرض المهمة التي كلف بها الجيش . فمن أجل تفكيك هذه المجموعة سيوجه الجهد الرئيسي نحو الغرب من قبل جيوش الجنرال بانوف وشبسيياكوف ، وبأن واحد من الشمال : نقوم بالهجوم جيوش الجنرال جادوف وغالانين ومن الجنوب نقوم بالهجوم جيوش شوميلوف وتالبوخين . وقد تلقى الجيش ٦٢ مهمة جذب قوات العدو إليه بعمليات نشطة من الجهة الشرقية . وعدم تركه يصل إلى الفولغا فيما إذا جرب التخلص من التطويق عبر الفولغا المنجمد .

كانت المهمة واضحة . وقد طمأنت قائد الجبهة بأن المهمة مستنفذ وأن فون باولوس لن يسحب من المدينة ولا فرقة واحدة حتى بداية الهجوم الكبير الذي ستقوم به القوات الرئيسية للجبهة .

ثم كرر بعدها بعض ضباط أركان الجبهة نفس السؤال عدة مرات :
- هل نستطيع قوات الجيش ٦٢ أن نتحمل صدمة العدو وهجمات قواته الضاربة من الغرب فيما إذا حولت هذه كل جهدها بانجاه الشرق .
أجاب نيقولاى كريلوف :

- إذا كان فون باولوس لم يستطع في الخريف والصيف أن يرمينا في الفولغا . بالرغم من أنه زج بكل قواته ضدنا . فالهتلريون الجياع الآن والنصف منجمدين من البرد ، لن يتمكنوا من التقدم عشر خطوات نحو الشرق .
ثم طرح الجنرال مالينين رئيس أركان الجبهة نفس السؤال . فأجبتة بأن الهلريين فى عام ١٩٤٣ ليسوا هم الذين كانوا عام ١٩٤٢ ، فقد أصبح جيش فون باولوس حالبا غير موجود ، ولم يعد جيشا بل أمامنا معسكر من الأسرى المسلحين .

كانت وحدات الجيش ٦٢ تهاجم العدو منفذة المهمة التي كلف بها من قبل قيادة الجبهة عن طريق مجموعات الانقضاض ، وكان يحسن مواضعه يوماً بعد يوم ، حتى بداية هجوم جميع قوات الجبهة أي حتى العاشر من شهر كانون الثانى . وفي كل يوم كانت تسقط في أيدينا عشرات من نقط الاستناد وتحصينات القنال . ونتيجة لذلك تثبتت أمام مواقع جيشنا ست فرق عدوة من أصل ٢٢ فرقة وخمسة أفواج من المهندسين .

نحملت مجموعات الانقضاض التابعة لفرقة بايبوك العبء الأكبر وقامت بأوسع نشاط في تلك الأيام . حيث تثبتت تلك الفرقة في المعارك للإستيلاء على كورغان مامايف عددا من الألوية المعادية واحتلت مراكز مراقبة العدو المنقدمة ، وحرمت الجنرالات الألمان من مراقبة مجموعة قواتنا في المدينة . دارت معارك طاحنة اعتباراً من النصف الثانى لشهر أيلول حتى ١٢ كانون الثانى حول خزانات المياه ، ولا يعرف أحد كم من المرات تبادلت الأيدي قمة مرتفع مامايف . كما قاتلت عناصر فرقة روبيمتسيف في الدفاع عن المرتفع المذكور وكذلك جميع فرقة غوريشني ، والفرقة ١١٢ إيرمولكين ، وقاتلت فرقة بانبوك أكثر من الجميع وقلدت الأوسمة أربع مرات .. ووصلت هذه الفرقة في

٢١ أيلول للضفة اليمنى للفولغا ودخلت القتال في ٢٢ على خط منخفض دولقي ثم ثبتت أقدامها (جذورها) في مرتفع ماماييف ، وفي الأراضي المنعرجة حول المرتفع ظلت تقاوم حتى النهاية ، عندما تم إتصالها في ٢٦ كانون مع فرق تشيستياكوف .

هناك بعض الكلمات التي نوردتها هنا تتعلق بقائد هذه الفرقة نبعولاي بانيوك . وصل بانيوك إلى المدينة برتبة عقيد . ونرك المدينة بعد هزيمة فون باولوس برتبة جنرال . وكانت نجمع فيه ثلاث خصال لا نقدر . صلابة القائد والشجاعة والاستقامة . كان يعرف كيف يكون قاسيا وعادلا . كانوا يخافونه ويحبونه ، وكان غالبا موجودا أمام أعين الجنود وبحصل في أغلب الأوقات أن لا يتمكن من السير بسبب ساقيه المريضتين . ولكنه كان لا يبقى منزوبا في مخبئه ، يزور الخطوط الأولى والمراصد في الليل مستندا على عصاه وعلى كتف أحد مرافقيه لنلا يراه شخص ما ، كان بانيوك يخفي مرضه قدر استطاعته . ولم أعلم بذلك حتى كانون الثاني . عندما لم يعد بإمكانه التنقل دون مساعدة ولم يكن يتحرج أن يقول لأي رئيس أو مرؤوس الحقيقة أمام عينيه مهما كانت مرة . وكانت تقاريره لا تتطلب أي دقة إضافية أو تحقق ، بل كانت دائما صادقة .

حازت فرقة بانيوك على سمعة جيدة في كاستورنايا قبل وصولها إلينا . وذلك بصدها الرائع لهجوم معاد كثيف . وقد هبأت مقاتلين معروفين ، ليس من قبل سكان ستالينغراد ، ولكن من قبل كل البلاد .

سارت كتيبة الضباط والموجهين السياسيين التابعة لهذه الفرقة طريقها من كاستورنايا إلى ستالينغراد - زاباروجيه - أوديسا ، ومن ليوبلين حتى بوزنان وأنهت معاركها المنتصرة في برلين .

لم يصل الجنرال بانيوك معنا حتى برلين ، فقد توقفت حياته في أوكرانيا بالقرب من رولافيانسك ، ودفناه بالقرب من نصب أرنييم على ضفاف الدونetz الشمالي . وقد نقلنا بقاياه إلى ستالينغراد على كورغان ماماييف ، لأنه كان روح المعركة التي دارت من أجل الكورغان ومن أجل المدينة ، ومن أجل الفولغا . في العاشر كانون الثاني ١٩٤٣ قامت كل جيوش جبهة الدون بهجومها بأن واحد من أجل تفكيك مجموعة جيوش الصدمة العدو المطوقة ، وقام الجيش الثاني والمستين بدوره بالحركة من الشرق باتجاه الغرب للقاء مع الجيوش المهاجمة ،

ودارت معارك عنيفة وبخاصة في قطاع كورغان مامايف ، وهذا يظهر كم كان تقدير العدو صائبا في تقديره لأهمية هذا المرفع التكتيكية . وكان هجوم فرقة بانويك اعتبارا من الكورغان يصدم دائما وطوال الوقت حتى ٢٤ كانون الثاني بالهجمات المعاكسة التي كان العدو يقوم بها حيث كان يسجمع كل قواه ليتمسك بمواقعه هناك .

لم يراجع العدو في قطاعات الفرق الاخرى ولكنه لم يكن يقوم بالهجمات المعاكسة كما هو الحال في كورغان مامايف . ففي حمى تحصيناته كان يدافع غالبا حتى آخر طلقة .

أخبرني في ٢٣ شباط قائد الفرقة سوكولوف عن حادث واقعي ، فعندما وصلت قواته إلى الحدود الغربية من بلدة كراسني أوكتيابر . طوقت هذه القوات نقطة اسناد قوية للأعداء ولنفاذي إهراق الدماء دون فائدة ، عرضوا على الحامية الاستسلام ، وبعد لفظ طويل طلبوا خبزا من جنودنا ، فأعطوهم بعض القطع بدافع الشفقة لأنهم جوع . وبعد أن أخذ الهلريون الخبز وحسنت حالهم أخذوا بالشروع بالرمية .

وبعد نوع من المحادثات الدبلوماسية إنصل جنودنا برجال المدفعية الذين جلبوا معهم بعض القطع ، وأخذوا يرمون نقطة الاسناد بالمدافع رميا مباشرا . وعندما سقطت النقطة وجدنا بعد التحقيق أن الحامية كانت مشكلة من لصوص من كل نوع ، وجميعهم يحملون على صدورهم عدة أوسمة هتلرية .

أشرف الجيش ٦٢ في الخامس والعشرين من كانون الثاني على نخوم مدن المعامل ، وأخذنا نسعر باقتراب قواتنا من الغرب .

وصدت فرق غوريشنى وسوكولوف ، ولبودنكوف ، وغوربف ، وروبيمنسيف اتجاهاتها والنلاقي في الشمال لكي يقوم بدمر مجموعة الشمال من القوات الفاشية ، في قطاعات المعامل والضواحي العمالية ، أما فرقة بانويك فقد انحيت نحو الجنوب ضد مجموعة العدو الجنوبية .

وأخيرا وصل يوم ٢٦ كانون الثاني . وهو اليوم الذي انتظرناه طويلا والذي سينم به اللقاء بين الجيش ٦٢ ، وجيوش باتوف ونشيتياكوف المهاجمة من الغرب .

ولنر كيف تم هذا اللقاء .

تلقينا في الفجر من المرصد . أن الهتلريين يتشتتون والهلع يسودهم . وقد

سمعنا ضجيج المحركات . ورجالا يظهرون أمامنا بلباس الجيش الأحمر . وشاهدنا دبابات ثقيلة مكتوب على نصفبها كولخوزيون من تشيلابنسك « معنديون من الأورال » ، وتقدم منهم جنود الحرس التابعون لفرق روديمتسيف وغورييف . وباتيوك و آخرون إلى الأمام بسرعة وهم يحملون العلم الأحمر ، وقد حدث هذا اللقاء السعيد والمثير في الساعة ٩.٢ صباحا في قطاع مدينة كراسني أوكتيابر وقد أهدى النقيب غوشنشين لمملى قوات جيش باتوف ، علما كتب على قماشه الأحمر « نكرى لقاء ٢٦ كانون الثاني ١٩٤٣ » .

لمعت دموع الفرح على وجوه الجنود الخشنة الذين مروا بكثير من التجارب ، وقد زار النقيب من الحرس أوسنكو الجنرال روديمتسيف ، وأبلغه بأنه تلقى العلم من أيدي جنود الحرس الأمجاد .

- انقل إلى رئيسك - أجابه الجنرال روديمتسيف - أن هذا اليوم هو يوم سعادة لنا بعد خمسة أشهر من نضال ضار وقاس ونحن منتهجون بهذا اللقاء .

كانت الدبابات الثقيلة نمر أمامنا كقلاع من حديد ، وكان سدنها يخرجون رؤوسهم خارج البرج ويرسلون لنا نحيات الصداقة . عندما كانت الآليات الضخمة تتابع طريقها نحو المصانع .

ثم النفي ممثلون من تشكيلات أخرى من الجيش ٦٢ بوحدات جبوش بانوف وتشيسنياكوف وشوميلوف .

لم يستطع هؤلاء الشجعان الذين ظلوا أحياء رغم المعارك العديدة القاسية التي خاضوها ومروا ببونقة التجارب الكبيرة أن يمسكوا دموعهم وأخذوا يبكون . لقد ظل العدو يقاوم . ولكن يوما بعد يوم أخذ الجنود والضباط الألمان يسندسلمون بأعداد كبيرة . وهناك بعض الحالات التي أسر فيها بضع جنود سوفيت منات الأسرى الهتلريين .

وفي الواحد والثلاثين من كانون الثاني أسر جنود الجيش ٦٢ الجنرال فيلد مارشال فون باولوس قائد الجيش السادس وكل أركانه . وفي نفس الوقت أوقفت مجموعة الجنوب من القوات الألمانية كل مقاومة . كما إنتهت المعارك في القسم الأوسط من المدينة . وفي مساء اليوم نفسه أسر محاربو الجيش ٦٢ أركان فرقة المشاة الألمانية ٢٩٥ مع قائدها الرائد جنرال كورفبه ، وكذلك قائد الفيلق الرابع الملازم الجنرال المدفعي بفيغر ، وقائد الفيلق ٥١ الملازم جنرال سيدلينر كورزباخ ، ورئيس أركان الفرقة ٢٩٥ . وبعض الضباط القادة من الأركان

الذين كانوا معه .

أسر هؤلاء القادة من قبل ثلاثة من محاربي الجيش ٦٢ وعلى رأسهم سكرتير منظمة الكومسمول من لواء الإشارة فيمانيل بورتز ، وله من العمر ١٨ عاما . وقاتل قبل وصوله إلى شواطئ الفولغا في اوديسا وسباستبول وكيرنش .

قررنا مساء الواحد والثلاثين من كانون الثاني : غوروف وكريلوف وأنا اسنجاوب الضباط القادة الألمان في مخبئي . وكانوا متونري الأعصاب وجائعين وقلقين على مصيرهم . وقد أمرت بتقديم الشاي لهم ودعوتهم للفطور . وكانوا كلهم بلناسهم الرسمي مع الأوسمة . وبعد أن أمسك الجنرال أونو كورفيه كأس الشاي والشطير في يده ، قال :

- ما هذا ؟ هل هذا يدخل في نطاق الدعاية ؟

أجابه :

- إذا كان الجنرال يعتقد أن هذا الشاي وهذا الفطور هو من الدعاية فنحن لا نصر بخاصة على إجباره على أخذ هذا الغذاء الدعائي . وقد شجع هذا الجواب قليلا الأسرى ، وطالت محادثتنا حوالي ساعة ، وقد تكلم الجنرال كورفيه أكثر من الآخرين . أما الجنرال بففر والجنرال سيدلينز فقد التزما الصمت ، ونكرا بأن ليس لهما معرفة بالسؤال السياسية .

لقد عبر الجنرال كورفيه أثناء المحادثات عن الفكرة بأن هناك شيئا مشتركا بين ألمانيا الحالية وألمانيا في زمن فريدريك الكبير وبسمارك ، وكان يقدر بأن بسمارك لا ينفوق على هتلر لا بتفكيره ولا بمنجزاته ومن الواضح أنه كان يريد أن يقول بأن النكسات التي أصيب بها كل من بسمارك وفريدريك لم تؤثر على عظمتهم . وهزيمة هتلر على الفولغا لا يعنى إفلاس الهنزية . وألمانيا بقيادة هتلر ستنجوز هذه الخسائر وستفوز بالنصر في النهاية . وقد ظل كل من الجنرال بففر وسيدلينز ساكنين . وكانا بلفظان من وقت إلى آخر بكلمة نعم (يافول) أو (ناين) لا ، وهما يبيكان .

وأخيرا قال الملازم جنرال فون سيدلينز - كوزباخ

- ماذا سيكون مصيرنا في البالي .

لقد أخبرتهم شروط إعفال الأسرى ، وأضفت لهم بأنه باستطاعتهم أن يحملوا إذا رغبوا بشارات رتبهم وأوسمتهم ، ولكن عدا الأسلحة .

- ها هي الاسلحة ؟ استوضح الجنرال بفيفر وكأنه لم يفهم ، ونظر إلى سيدلينز .

وقد كررت لهم بأن الجنرالات الأسرى ، يجب أن لا يحتفظوا بأي سلاح معهم . وهنا أخرج سيدلينز من جيبه مطواة صغيرة ووضعها أمامي . فأوضحت له بأنه من الطبيعي أن لا نعبر هذا النوع من السلاح هو سلاح ممنوع . وقد سألتني الجنرال بفيفر .

- أين كنتم موجودين أنت وأركانك (الجيش ٦٢) خلال معارك المدينة حتى ١٩ تشرين الأول ؟

وقد أجبته بأن مقر قيادتنا وأركان الجيش كانا طيلة الوقت في المدينة على الضفة اليمنى من الفولغا ، وآخر مكان لمقر القيادة والأركان هو الذي أنتم موجودون فيه .

عندها قال الجنرال بفيفر :

- خسارة كنا لا نصدق مصلحة مخابراتنا ، وكان باستطاعتنا محوك من الوجود أنت وأركانك .

وبعد استجواب الجنرالات الأسرى أرسلناهم إلى أركان الجبهة ، وقد نمئنا عليهم أن يدرسوا ويتعرفوا عاجلاً عن الحقيقة السوفينية ، لكي يخلصوا من أخطائهم ، ومن ضبابية الهوس الهلري .

من السابق لأوانه في ذلك الوقت أن أقول بأنني التقيت فيما بعد بالجنرال أوتوكورفيه عام ١٩٤٨ في برلين . وكان في ذلك الوقت عضواً نشيطاً في جمعية الصداقة الألمانية السوفينية . وقد التقينا كمعارف قدماء . وكنت في ذلك الوقت رئيس لجنة المراقبة السوفينية . وقد ساعدنا كثيراً أصدقاءنا الألمان للنهوض باقتصادهم الذي خربته الحرب . لقد عمل الرائد جنرال أوتو كورفيه الأنف الذكر كثيراً لتنمية الصداقة بين الشعوب الألمانية والسوفيتية . ولم يكن أوتوكورفيه لوحده ، فقد أخذ عدد من القادة والضباط والجنود الألمان يناضلون بعد تعرفهم على الحقيقة من أجل السلام والصداقة .



بعد إزالة مجموعة الجنوب الفاشية الألمانية ، نابعت مجموعة الشمال مقاومتها أيضاً . وكان واضحاً أن إزالتها الكاملة يتطلب عمل بضع ساعات .

ذهبت في صباح ٢ شباط ١٩٤٣ مع غوروف إلى المرصد الواقع في خرائب مكنب إدارة مصنع كراسنى أوكيبابر ولم يكن بعيدا عن مرصد القادة ليودنكوف ، سولوكوف ، غوريشنى ، و آخر ضربة من الجيش ٦٢ وجهت نحو مصانع نراكتورنى وباريكادي ، والضواحي العمالية وقد اشترك في الهجوم على مجموعة الشمال المعادية فرق غوريشنى . سوكلوف ، وليودنكوف ، وغورييف ، وروديمتسيف ولواء سريفل ، وقامت أيضا في نفس الوقت بالهجوم الجيوش المجاورة من الغرب والشمال الغربي ، وقد بدأ الهجوم في الساعة الثانية عشرة .

قامت المدفعية بتنفيذ قصير لنيران النمهد ووجهت النيران بالرعى المباشر على أهداف مرئية فقط ، وكما نرى بوضوح الفاشيست يعملون بفوضى بين الانقاض ، وبعد ذلك بدأ هجوم وحدات مشاننا والدبابات حالا . لم يصمد الهنريون الأحياء طويلا أمام الهجوم الأخير ، وأخذوا يرفعون أيديهم في الهواء ، كما أخذوا يرفعون الخرق البيضاء على حراهم . وهنا تشكلت أمامنا قوافل من مئات الآلاف من الأسرى ، وانجهوا بطريقهم نحو الفولغا وإلى ما وراء الفولغا ، وتابعوا سيرهم لمدة ستة أشهر تقريبا ، ومن بين الأسرى كان هناك إيطاليون وهنغاريون ، ورومان ، وكل الجنود والضباط كانوا منهكين وعلى حافة السقوط ويعيش في ثيابهم القمل والبراغيث وكان لباسهم سينا بشكل مخيف ففي درجة حرارة ٣٠ تحت الصفر كان هناك جنود يسرون حفاة ، ومظهر الضباط كان أفضل بكثير فكان منهم من يحمل في جيوبه اللحم المقد وأنواعا من الأطعمة ، ومن المحتمل أن يكون ذلك من آخر توزيع للتموين لديهم .

اجتمع في آخر مرصد لنا في خرائب بناية الإدارة في كراسنى أوكيبابر كل المجلس العسكري وقادة الفرق ، وبعضا من قادة الألوية وأخذوا يهننون بعضهم بعضا بالنصر مع إحيائنا لتكرى الذين لم يعيشوا إلى ذلك النهار . وأخيرا اضطر هتلر الذي وعد أيضا في كانون الأول ١٩٤٢ بنحربر القوات المطوقة إلى الإعلان عن الكارثة رسميا ، وأمر بإعلان الحداد مدة ثلاثة أيام . كان الجيشان السادس والرابع المدرعان اللذان طوقا وأبیدا على ضفاف الفولغا يعتبران جيشي صدمة ويضمان في صفوفهما ٢٢ فرقة ووسائط دعم قوية مما يساوي أو يشكل جبهة بكاملها .

كما زها هتلر بقوة وفعالية وصدمة الجيش السادس . وبقوانه جنودا وضباطا . وأغلب فرق هذا الجيش مؤلفة تقريبا من الأريين ذوي الدم الصافي ، فالفرقة ٧٩ مشاة مثلا شكلت في آب ١٩٤٢ تقريبا كلها من الشباب بين ٢٠ - ٢٧ عاما . وقد نكر الأسرى أنفسهم أن واحداً من بين كل خمسة أشخاص من هذه الفرقة كان عضواً في الحزب النازي .

ويمثل كل من قائد الجيش السادس فريدريش فون باولوس . والعقيد جنرال فون هوت الطبقة التقليدية للقادة الألمان ، كان عمر فون باولوس في مرحلة الهجوم الألماني على الفولغا ٥٢ عاما . أمضى ثلاثة وثلاثين عاماً في صفوف الجيش الألماني ، وكان في الحرب العالمية الأولى ضابط ميدان ، وأصبح في نهاية الحرب ضابطاً في أركان الحرب العليا . وبعد هزيمة الجيش الألماني عام ١٩١٨ لم يحل على التقاعد ، وبقي طويلاً في وزارة الدفاع ، وبصفته رئيس أركان إدارة القوات المدرعة اشترك بقسم فعال في التحضير للحرب العالمية الثانية .

تميز وصول هتلر إلى السلطة بترفيه فون باولوس إلى رئيس أركان الجيش الذي كان يقوده جنرال فيلد مارشال فون رايشنو . ومع هذا الجيش جال فون باولوس في خريف عام ١٩٣٩ بولونيا . واشترك في عام ١٩٤٠ بمعارك فرنسا . وفي أيلول ١٩٤٠ سمي فون باولوس نائباً لرئيس الأركان العامة للفيرماخت (الجيش الألماني) ، في كانون الثاني ١٩٤١ أصبح جنرالاً للقوات المدرعة ، وفي فترة الاعتداء على الاتحاد السوفيتي لعب دوراً فعالاً من بين القادة الألمان .

وفي أواخر أيام الجيش السادس المطوق على الفولغا . أنعم هتلر على فون باولوس بوسام الصليب الحديدي ، المكلل بأوراق الغار ورفعته إلى رتبة جنرال فيلد مارشال .

هذا هو الجيش السادس الذي كان يكلف بأكبر المهمات التي تتطلب الثقة ، فهو أول من غزا الحدود البلجيكية في ١٠ مايس ١٩٤٠ بأمر من هتلر ، وتغلب على كافة المقاومات البلجيكية على قناة ألبرت ، واندفع هذا الجيش في طول البلاد حاملاً العبودية لشعب حر . لقد تركت فرق الجيش السادس أثارها الدموية في عدد من البلدان الأوروبية ، لقد دخل بروكسل ثم باريس ، واشترك في معارك يوغسلافيا وفي احتلال اليونان .

دفع هتلر بالجيش السادس في عام ١٩٤١ نحو الشرق ضد الاتحاد السوفيتي واشترك في المعارك التي دارت في قطاع خاركوف وكذلك من أجل عدد من المدن الأوكرانية ، وفي عام ١٩٤٢ انجه قاصداً نهر الفولغا - ليلعب الدور الرئيسي في معارك ذلك العام ، ويحتل قلعة الفولغا في الجنوب .

حاول هتلر إخفاء الهزيمة التي لحقت بمخططاته الاستراتيجية . وذلك بخلق هالة حول نصر مصطفى كمال في مصر ، وضمن هذا الاتجاه نشر المقر العام لهتلر بلاغاً خاصاً ، قال فيه : اقترح الروس على جنود الجيش السادس الاستسلام ولكن جميع هؤلاء دون استثناء نابعوا القتال في مكانهم ، ولكن في اليوم الثاني أصدر المقر نفسه البلاغ التالي : « استسلم عدد من الجنود الألمان والحلفاء أحياء للقوات السوفيتية » . ولكن ضمن هذا العدد القليل من الأحياء كان يوجد (٩١) ألف جندي ، ولم يذكر هتلر شيئاً عن مصير ٢٥٠٠ ضابط و ٢٤ جنرال ، والجنرال فيلد مارشال فون باولوس الذين أصبحوا أسرى .

أباد الجيش السوفيتي في شبه الجزيرة بين الدون والفولغا إحدى أقوى المجموعات العسكرية الفاشية مجموعة الجيوش B ثم مجموعة الدون ، وبعد تدمير هذه المجموعة لم يبق في مدينة ستالينغراد وضواحيها أحد عدا ١٥٠ ألف جثة كان علينا دفنها ، وكلف الهجوم على ستالينغراد القيادة الألمانية بحدود مليون رجل بين قليل وجريح وأسير .



جرى في صباح مشمس من يوم ٤ شباط اجتماع في ساحة الأبطال القتلى . جنود ومدنيون من السكان أخذوا يسرون في شوارع المدينة البطلة التي فلحتها القنابل والغدائف وجمدها الطقس البارد ، وإنى أتذكر وكأنني أراها اليوم ، عربات القطار المحروقة وهي على خطوطها الحديدية ، حافلات الترام التي أصبحت كالغربال لكثرة ما أصابها من الطلقات وشظايا القنابل والألغام . أنقاض العمارات الضخمة والشوارع المزدهمة ببقايا الآليات الحربية العدو ، الطائرات القاذفة المحطمة في وسط المدينة ، جدران المخازن العامة والمركزية المنفحمة . ركام أبنية البريد وبقايا بيت الكتاب .

قبل ثلاثة أيام من ذلك التاريخ دارت المعارك العنيفة ضد بقايا الجيوش الفاشية ، وتركت الساحة ملأى بالحفر التي سببتها القنابل والألغام . وتجمع في

هذه الساحة في ذلك اليوم القادة السوفييت، من الحزب في المدينة والاطراف ، جنود ، ضباط موجهون سياسيون ، السكان الذين اشتركوا في المعارك البطولية ، وفي رئاسة الاجتماع كان يظهر عضو المجلس العسكري للجبهة ن . خروتشوف وجنرالات الجيوش ٦٢ و ٦٤ ك . غوروف ، ا . رويمنسيف ، م . شوميلوف وأنا وعن قادة الحزب في المدينة والمنطقة ا . تشوبانوف ، ا . بيكسين ، د . بياكليف ، فودولجين و آخرون غيرهم .

كما اجتمع في الساحة جنود وضباط وسكان المدينة وكان جميعهم فرحين بالانصار وكانوا بنادلون النهائي المشتركة .

اصبح الاجتماع رئيس سوفييت المدينة د . بيفالاف الذي شكر بحرارة باسم عمال المدينة ، الابطال الذين اشتركوا في معركة ستالينغراد اذ قال :
لقد مضت اقصى ايام المعارك واقسى الجارب ، النصر الايدى لابطال سنالينغراد ، فبمائهم حصلنا على النصر والفخر لجنودنا وضباطنا الدواسر والفخر لحزبنا الشيوعي .

نم اعطي الكلام لي ، واني اعترف بانى وضعت في موقف بصعب الكلام فيه . وقد تشتت فكري من الانفعال ، عندما كنت انظر الى صفوف المقابل المراساة ، والذين عشت معهم مائة وعشرين يوما وليلة من النار ، لذلك لم اجد ما ابدأ به كلامي سوى هذه العبارات :

- لقد اقسما على القتال حتى الموت ولا ندع المدينة تسقط بيد العدو ، وها نحن صمدنا ونمسكنا بقولنا الذي اعطيناه للحزب .

وما نبع ذلك من قولى فلا أتذكره مطلقاً ، اذ انني تناولت بعض جوانب المعركة وقلت للحاضرين في الاجتماع أن ستالينغراد لم تكن سوى ازهار وورود لما لافاه الالمان حتى الآن ، ولكننا سنتابع نصفية الحساب معهم .

وقد حيا الماجور جنرال رويمنسيف الاجتماع بهذه الاقوال الحماسية .

- صمد جنود الحرس لصنمة عدو متفوق عليهم بالعدد ولم نحطم عزائهم ، وتفت بعضدهم وصلابتهم القنابل والقذائف والهجمات المعادية الشرسة ، سبفي أسماء جنود الحرس بدفاعهم المجيد الذي لم يتزعزع عن قلعة الفولغا مسجلة في حويات معركة سنالينغراد الكبرى ومنحت فرقة الحرس ١٣ اليوم وسام لينين مخلدة نكري مرور ١٤٠ يوماً على وجودها على ضفة الفولغا اليمنى ، من المرعب النظر إلى هذه المدينة الشهيدة ، حيث أن كل بوصة من أرضها وكل

حائط يحمل اثار فظائع الحرب .

صعد الجنرال شوميلوف إلى المنصة وقال إن قوات الجيش ٦٤ قاتلت ضد الألمان على المشارف الجنوبية للمدينة ، وفي جزئها الجنوبي ولم نترك العدو يصل إلى الفولغا .

قال شوميلوف سمعنا في ٢ شباط آخر طلقة نار على سنالينغراد ومع استسلام مجموعة الشمال المعادية إنتهت عملية عسكرية لم يشاهد التاريخ مثلها ونفذت حسب مخطط القيادة العليا . لم يترك جنودنا العدو يصل الفولغا وأوقفوه وقد أصبحت سنالينغراد فبرا للغزاة الألمان .

بعد سكرتير اللجنة الإقليمية للحزب أ . تشوبانوف ، نكلم عضو المجلس العسكري للجبهة ن . خروشوف ، وبعد انتهاء الاجتماع عاد كل جندي إلى مركزه لينحضر للمعارك الجديدة القادمة .

بقينا حوالي شهر في القرى الواقعة على أخنوبا ، وخلال تلك إتصرف الفرق للراحة التامة وإكمال الصفوف ، ونلقى أسلحة جديدة ، والاستعداد للركوب باتجاه الغرب لنلحق بالجبهة التي تقدمت بعيدا إلى الأمام .

لقد كافأ الوطن بكرم كل الوحدات والفرق التي دافعت عن سنالينغراد ، فرقت بعضا كل الفرق والألوية إلى درجة وحدات الحرس ، ونغير اسم الجيش ٦٢ ليصبح اسمه جيش الحرس الثامن ، وبدلت شارات الحرس على صدور الجنود والضباط .

بدأت بعد ذلك قطعات الجيش بركوب القطارات والانطلاق باتجاه الغرب نحو الجبهة ، ونقلت إلى قطاع كورسانك الواقعة على نهر الدونetz شمالا . ثم ركب أركان الحرس الفطار في محطة فوروبونوف ، وبعد زيارة نهائية إلى كل المحطات التي كانت الوحدات التي أصبحت جزءا من الجيش الثامن نستعد منها للركوب ، عند قبل حلول الليل إلى محطة فوروبونوف .

وأخيرا نوت صفارة القطار ، تتبعها الحركة المعهودة والضربات الإيقاعية لعجلات القطار ، وكل منا يسر في خلده .

وداعا يا نهر الفولغا ، وداعا أيها المدينة البطلة سنالينغراد ، وكنت علي حافة الهلاك ، متى وبأي هيئة سريتنا ؟ وداعا يا زملاء السلاح الذين بللوا الأرض بدمائهم ودماء الشعب ، نحن ذاهبون إلى الغرب ، فمن الواجب متابعة قتال العدو البغيض ، ونحرير الأرض السوفيتية المقدسة من الغزاة الغرباء .

٣٧٦ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★

الفهرست

| | | | | |
|----|-------|-----|----|-----------------------------------|
| ١ | | ٧ | ١ | مقدمة ... بقلم د. ماجد علاء الدين |
| ٢ | | ١١ | ٢ | نبذة عن حياتي ... للمؤلف |
| ٣ | | ١٥ | ٣ | عودة إلى الماضي القريب |
| ٤ | | ٥٦ | ٤ | مجموعة الجنوب |
| ٥ | | ٧٢ | ٥ | المعركة فيما بين الدون والقوقلا |
| ٦ | | ١٠٨ | ٦ | كورغان مامايف |
| ٧ | | ١٢٣ | ٧ | لا مكان لنا وراء القوقلا |
| ٨ | | ١٨٦ | ٨ | بسالة قوات الحرس |
| ٩ | | ٢١٥ | ٩ | أشد الأيام هولاً |
| ١٠ | | ٢٤٢ | ١٠ | آخر محاولة لفون باولوس |
| ١١ | | ٢٧١ | ١١ | مقومات النصر |
| ١٢ | | ٣٣٩ | ١٢ | معركة « كان » القرن العشرين |

صدر للمترجم

- - مجموعة دراسات في وزارة الخارجية ١٩٧٢ - ١٩٧٨ .
- - كتاب «صراع القوى في المحيط الهندي والخليج»
من تأليفه . دمشق ١٩٨٤ .
- - مجموعة مقالات عن القارة الأفريقية .
- - مراجعة وتدقيق كتاب : «الامن الأوروبي»
ترجمه عن الفرنسية : موسى الزعبي - ١٩٨٢ .
- - كتاب «ستالينغراد .. ملحمة العصر»
ترجمة . دمشق ١٩٨٦ .

صدر للمدقق الدكتور ماجد علاء الدين

- ١ - «عائد إلى حيفا» تأليف: غسان كنفاني .
ترجمة إلى الرومية ١٩٧٤
- ٢ - «الضفدعة السانحة» قصة للأطفال - غارنيس .
ترجمة إلى العربية ١٩٧٥
- ٣ - «أكتوبر وحركة التحرر الوطني» - مجموعة مؤلفين .
ترجمة إلى العربية ١٩٧٥
- ٤ - «الأقصوصة الصوفييتية المعاصرة» تأليف وترجمة
طبعة أولى ١٩٨٣ دمشق
طبعة ثانية ١٩٨٤ دمشق
طبعة ثالثة ١٩٨٥ دمشق
- ٥ - «الواقعية في الأدبين الصوفييتي والعربي» تأليف .
١٩٨٤ دمشق
- ٦ - «كمب ديفيد : سياسة مصيرها الفضل» تأليف: فومين وزاخاروف .
ترجمة إلى العربية
طبعة أولى ١٩٨٤ دمشق
طبعة ثانية ١٩٨٥ دمشق
- ٧ - «مغامرات بوراتينو أو المفتاح الذهبي» تأليف: الكمي تولستوي قصة للناشئة .
ترجمة إلى العربية - دمشق ١٩٨٥
- ٨ - «المرأة والقرد» شعر قصصي للأطفال - تأليف: إ. كريلوف .
ترجمة إلى العربية - دمشق ١٩٨٥
- ٩ - «الوقواق والديك» شعر قصصي للأطفال - الصياغة الشعرية: مريم خير بك
- تأليف: إ. كريلوف .
ترجمة إلى العربية - دمشق ١٩٨٥
- ١٠ - «الذئب والنعلم» شعر قصصي للأطفال - الصياغة الشعرية: مريم خير بك
- تأليف: إ. كريلوف .
ترجمة إلى العربية - دمشق ١٩٨٥

- ١١ - «مختارات من الشعر الرومي» - ترجمة وإهداء - دمشق ١٩٨٤ .
الصباغة الشعرية : مريم خير بك
صدرت عن دار طلاس للنشر
١٢ - «البلدان النامية والعلاقات الاقتصادية الخارجية» - تأليف : إ. بورتنيانكوف .
ترجمة إلى العربية - دمشق ١٩٨٥
١٣ - «تيمور وفريقه» - قصة للناثئة .
تأليف أركادي غادار .
ترجمة إلى العربية - دمشق ١٩٨٦

قيد الطباعة :

- ١ - «ملحمة العصر» - مجموعة شعرية - سافرونوف .
مصدر ضمن منشورات اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين
٢ - «الأخوة كينيدي» - تأليف : أ. غروميكو
ترجمة إلى العربية بالاشتراك مع شحادة العبد المجيد
٣ - «الرموز المقدسة» - مجموعة شعربه - تأليف : ن. ربريخ
ترجمة إلى العربية
٤ - «ابن سينا والطوم الطبية» - تأليف : اسحاقى
ترجمة إلى العربية بالاشتراك مع شحادة العبد المجيد
٥ - «المدارس والاتجاهات الأدبية» - تأليف .
٦ - «غاغارين في القلب» - منكرات والدة غاغارين .
ترجمة إلى العربية بالاشتراك مع شحادة العبد المجيد
٧ - «الصهيونية العالمية في خدمة الامبريالية» - تأليف : ماجوربان
ترجمة إلى العربية بالاشتراك مع شحادة العبد المجيد

مراجعة وتدقيق :

- ١ - «ستالينغراد .. ملحمة العصر» - منكرات العارشان تشويكوف .
ترجمة : محمد عدنان مراد - دمشق ١٩٨٦
٢ - «قصص من حياة دوستويفسكى» - ترجمة : محمد بدرخان
٣ - «الروح المتمردة» - تأليف : م. ليرمنتوف
ترجمة : محمد بدرخان

هذا الكتاب

- ★ سطر ميمارك ستالينغراد صفحة خالدة في تاريخ النضال ضد قوى الفاشية الهتلرية.
- ★ يروي مؤلف هذا الكتاب الحقائق الكثيرة عن مجرى المعارك ويدعمها بالوثائق والأرقام.
- ★ أثبتت نتيجة المعارك التي خاضها المدافعون عن ستالينغراد أن صاحب الحق لا يقهر وسيقتصر حتماً، مهما بلغت قوة الجيوش النازية.
- ★ من خلال الوثائق والحقائق التي يرويها المؤلف يطلع القارئ على أروع صور التضحية والفداء في الدفاع عن أرض الوطن.
- ★ المعلومات الواردة مسجلة بأسلوب صادق، بعيداً عن أية مبالغة.
- ★ يفيد الكتاب مختلف أوساط القراء، ويفني مكتبة الشعوب المناضلة من أجل الحرية والاستقلال، والعيش بحرية وسلام.